

فكر مركز

تأملات في الشريعة والواقع
(الدفعة الأولى)

٢٩

فكر مركز

تأملات في الشريعة والواقع
(الدفعة الأولى)

الدكتور

محمد جلال القصاص

فهرس الموضوعات

9 مقدمة:
13 الباب الأول: تأملات في الوحي
14 سؤال ... كم أرقني!
19 مقدمة منهجية لدراسة السيرة النبوية
19 أولاً: السيرة النبوية من المتعة النفسية إلى الجدل مع الكافرين والسامعين لهم:
24 ثانياً: الإطار النظري لفهم تفسيرات الكافرين والسامعين لهم.
29 ثالثاً: سياق التأليف في السيرة النبوية:
42 فجائية الدعوة أكثر ما يؤرق المخالفين
47 تراهم ركعاً سجداً
55 أثر العقيدة الإسلامية في صياغة الشخصية
55 نموذج توضيحي: خالد بن الوليد رضي الله عنه
63 كيف تعمر الأرض بمن لا يستهدف العمارة؟
67 تعامل الإسلام مع المخالفين: رؤية في الأخذ والترك من المخالف
73 التدبر حالة
78 من فوائد التكرار في القرآن الكريم
84 أثر الشيطان في عقيدة الإنسان:
95 من وحي الشيطان
98 علاقة النبي ﷺ بالجن
122 يظهره الرحمن ويخفيه الشيطان!!
125 الباب الثاني: بيت مبارك (مقالات في الأسرة)
126 وهذه النوعية من النساء تكفي!!
129 تأملات في نقصان عقل المرأة
134 الزوجة، والأبناء، وما لم يكن في الحسبان: تجربة شخصية
138 حلقات التحفيظ وما لم يكن في الحسبان
147 أنياب العلمانية!!
156 البداية من غرس القيم

- 161..... الأهم في تربية الأطفال
- 167..... حيث يحسن وحيث يجب
- 170..... كي تستمر المشاريع التربوية العامة
- 173..... من أجل نقلة نوعية في تحفيظ القرآن الكريم
- 175..... الذاتية سبب الطلاق وفشل تعدد الزوجات
- 179..... أقتل أبي ويقتلني ولدي!!؟
- 183..... عبادة الأنثى
- 186..... خواطر حول المرأة السلفية والأسرة السلفية!!
- 192..... نقاب العلمانيات
- 197..... زواج الصغيرة
- 200..... يوم تحديث العيون (خاطرة من بيتي)
- 203** **الباب الثالث: نقد فكري**
- 204..... ماذا يقول ديورانت عن الرسول ﷺ
- 211..... نظرية أرنولد توينبي لا تصلح
- 214..... منهجية الهرمنيوطيقا
- 225..... عدو القرآن نصر حامد أبو زيد
- 236..... خطيئة ابن خلدون
- 240..... مقولات ابن خلدون ذات قدرات تفسيرية محدودة ومضللة
- 253..... مناقشة هادئة لأطروحات عبد الوهاب المسيري:
- 253..... عبد الوهاب المسيري وحتمية البيئة والبعد عن النص الشرعي
- 254..... أولاً: تفسير ظهور اليهود في السياسة الدولية:
- 265..... ثانياً: نهضة الأمة!
- 267..... ثالثاً: العلمانية الجزئية:
- 272..... رابعاً: البعد عن الوحي كتاباً وسنة!
- 277..... الفائدة في التفاصيل:
- 279..... من يخاطب المسيري ورفاقه؟
- 280..... سادساً: أدوات الانتشار.

- 283 الباب الرابع: محاولة لفهم الواقع (مقالات في التحليل السياسي)
- 284 هل نفهم ما يحدث؟
- 295 ثالثًا: سيد قطب والنمو العضوي!!
- 300 سيد قطب والسؤال الأصوب!!
- 306 السلفيون والوعي بعد يناير 2011
- 310 شيء مهم في التفسير والتحليل:
- 312 جني ثمار الحرب الباردة: الرؤية والأدوات
- 318 اختلاف الإسلاميين
- 321 التقلبات الفكرية في الصحوة الإسلامية:
- 321 سيد قطب وعبد الله عزام نموذجًا
- 328 في فهم الظواهر الاجتماعية
- 333 خالد بن الوليد من زاوية أخرى
- 338 من النسق المغلق إلى النخبة المتخصصة
- 343 الحل يبدأ من صناعة نخبة متخصصة
- 347 الخطوة الأولى لنهضتنا
- 351 الإسلاميون والجماهير: توافق أم تعارض؟
- 357 ثورة ... ثاني!!؟
- 361 مذبحه رابعة أنقذت الإسلاميين!!
- 365 هدم وبناء في واقعنا المعاصر
- 369 لماذا لا يعلن الإخوان ومن وافقهم المراجعة والتراجع!!؟
- 375 معركة الرموز: ماذا يحدث؟!
- 381 وقفة مع المطالبين بثورة المسلحة
- 386 السلفيون بين النظرية والتطبيق: الموقف من عاصفة الحزم نموذجًا
- 391 صناعة الفوضى بين الجهاديين والأمريكان
- 395 هل انتصر الطالبان على الأمريكان؟!
- 398 الذين حول الطيب رجب أردوغان
- 403 في تطبيق الشريعة

- 408..... أيام ولا نرى يهودًا في فلسطين:
- 408..... مناقشة لتحليلات المسيري وقدري حفي
- 413..... فح الاعتراض
- 418..... العبوس المتغترسة!!
- 423..... صنايعي بحث أم مفكر؟! :عباس العقاد وعزمي بشارة نموذجًا
- 427..... المتوسطون الجدد.....
- 431..... ما لم يفهمه الليبرالي! (1).....
- 436..... قنطرة الإلحاد: عباس العقاد وعلي الوردي نموذجًا.....
- 441..... أغرب ما وجدت في إسلاميات عباس العقاد.....
- 445..... خطيئة ابن خلدون.....
- 449..... لماذا يحتفي الغرب بابن خلدون؟ ولماذا يحتفي به الصحويون؟.....
- 456..... حديث النساء.....
- 459..... لا تغشوا الفقراء والمحتاجين!!.....
- 463..... أعوذ بالله من الغرب ومناهجه.....
- 467..... معركة الرموز: ماذا يحدث؟!.....
- 472..... حق الناس في اختيار من يحكمهم بين الإسلام والديمقراطية!!.....
- 475..... البعد الغائب في الطرح المتطرف

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، ومن أحبه واتبع هديه، وبعد،:-

في تراجم العلماء يثنون على المكثرين من التأليف، وعلى الذين يؤلفون في فنون شتى. فعندهم أن العالم (المفكر/ الكاتب) بكم الكتب التي يؤلفها والفنون التي يكتب فيها!! وفي بداية الطلب كنتُ أتابعُ عالماً عالماً. أجمع ما كتب وأقرأه حسب تاريخ النشر، وذلك للوقوف على المسارات التي يتحرك فيها العالم، وللوقوف على تطور الأفكار والمواقف، وأسباب هذا التطور.

وبالتأمل في حال من تركوا أثراً صالحاً مصلحاً وجدتُ أن كل ذي أثر إنما بقي أثره بعملٍ (كتابٍ أو موقف) أو عملين، فمثلاً: اشتهر البخاري بالصحيح واشتهر ابن جني بالخصائص واشتهر الشاطبي بالموافقات، واشتهر ابن خلدون بالمقدمة. وبمزيد من التأمل وجدتني أجاني العيش مع عالمٍ واحدٍ مدة من الزمن، وذلك لأن العلماء اليوم لم يعودوا كما قد كانوا في العصور الأولى.

ربما كان الإكثار مُبرراً في القديم لكون العالم يومها كالقناة التلفزيونية اليوم يخاطب الجميع؛ وربما كان المكوث عند شخص واحدٍ مفيداً لو أن الطلب مباشر.. من شخص العالم نفسه لا من كتبه ودروسه. وملازمة عالمٍ أنفع الطرق وأكثرها فائدة وضبطاً وخاصة فيما يتعلق بتحصيل المنهجية. وإن ضبط المنهجية أهم من ضبط قول العالم في المسائل.

وقبل عشرين عاماً وفقني الله الكريم المنان إلى طريقة جديدة في الطلب سميتها "الطريقة البحثية". وفيها أُحدد موضوعاً وأجمع ما قيل فيه (مكتوباً أو مسموعاً.. ولم يكن المرئي قد ظهر بعد)، ثم أرتبه حسب تناوله للموضوع مقدماً الأشمل والأعمق وأبد باسم الله من الأشمل والأعمق وغالباً ما أجد البقية تنقل عنه أو أجده قد جمع ما تفرق عند غيره.

وقد أثمرت هذه الطريقة ثمارًا، من أهمها: إظهار القضايا (المواضيع) الشائعة في الفكر المعاصر، وإظهار أطراف الصراع في كل قضية، وأدواتهم التي يستخدمونها. وكانت نتيجة التعلم بهذه الطريقة أن تشكلت أسئلة مختلفة عن الأسئلة الشائعة، وتكونت إجابات مختلفة عن الإجابات الشائعة ومن ثم أعيد ترتيب الأولويات. ثم قضيتُ عشر سنوات في دراسة العلوم السياسية، أنصتُ فيها لثلة من كبار علماء السياسة والاجتماع السياسي في معهد البحوث والدراسات العربية (ماجستير) وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة (الدكتوراة). وكانت المحصلة رؤية شديدة الوضوح للنماذج المعرفية التي تفسر العالم وتصنعه. وذلك أن دراسة العلوم السياسية لم تكن، فقط، كسبًا لمعرفةٍ كنت أجهلها، بل فجرت تفاعلات ضخمة بداخلي بين ما يقال في ساحة العلمانية (الوضعية بمنظوراتها ومفاهيمها ومقولاتها ونظرياتها المختلفة) التي تسيطر على العالم وتصنعه وما يتردد في مجالس السلفيين وكتبهم.. وما يتردد في المساحة البينية بين هؤلاء وهؤلاء (ساحة العصرانيين). وأثمر كشفًا لوضع وحال الحركات الإسلامية في الصراع مع الوضعية العلمانية اجتماعيًا، وسياسيًا، ومعرفيًا، وعسكريًا.

أثمر هذا الضجيج الفكري مزيدًا من الكشف لمناطق النزاع مع دعاة النصرانية، والمستشرقين والسَّماعين لهم (وكنت مشغولًا بهم قبل دراسة السياسة)؛ وأثمر إجابة مختلفة على سؤال التخلف والتبعية (كيف تحلّت الأمة عن عبادة الله وتعبيد الناس لله ودخلت في التبعية للغرب ومن ثم التخلف في شتى مجالات الحياة؟) وعرضتُ هذه الرؤية تحت عنوان: "نخبة متخصصة"، أو: "من النسق المغلق للنخبة المتخصصة"، وشرحت الفكرة وكيف تكونت أملًا في أن يخدم النقاش حولها ويتم ترشيدها، وفي هذا السياق أقدمت على نقدٍ للأنساق المغلقة (الجماعات) كأداة من أدوات الدعوة إلى الله والبحث عن العودة للتمكين.

وكنت كلما أينعت فكرة أمسكتها وطرحتها في مقال، حتى تجمع عندي مئات المقالات على ظهر عقدين ونصف من سنين الكتابة والنشر. وهأنذا أعرض بعض المقالات (تسعون مقالاً تقريباً)، وغالبها كتب في السنوات الخمس الأخيرة. وقسمتها في أبواب تبعاً لموضوعها. واستثنيت ما نشر في كتب (ما يتعلق بعبّاس العقاد وذكريا بطرس والدعاة الجدد).

وفي عرض المقال كما هو فائدة، هي: عرض الفكرة مجردة، أو مختصرة.. مُركّزة لمن شاء أن يعمل عليها. وأعمل الآن على معالجة الأفكار الرئيسية في هذه المقالات.. أحاول الخروج بها من حيز مقالٍ إلى كتابين أو ثلاثة. والله أسأل رشداً وعزيمة على الرشد، إنه كريم منان.

د. محمد جلال القصاص

ليلة الاثنين: 23/ ربيع آخر/ 1445

الرافق: 06 /11 /2023

الباب الأول:

تأملات في الوحي

في هذا الباب إجابة على سؤال أرقني عقوداً من الزمن.. سؤال يبحث عن أسباب هذا التأثير الضخم للوحي حين نزل أول مرة في أم القرى ومن حولها، وعدم التأثير هذه الأيام مع أن الوحي بأيدينا ونقرأه مشروحاً بنموذج عملي (الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه)، وتجارب مختلفة (الخلافة/الدول في شتى بقاع الأرض) في بيئات مختلفة رشدها الثقافات من أهل العلم؟

وفي هذا الباب بيان لأن التغيير الهائل الذي حدث في أم القرى ومن حولها وامتد لبيئات مختلفة وأقوام مختلفين (العرب والفرس والرومان والأمازيغ والسودان والأحباش والهنود،،) حدث، فقط، بالوحي.. بما أرسل الله به محمداً، صلى الله عليه وسلم. فالله الكبير المتعال هو الفاعل.. الله العظيم هو الذي "يُدَبِّرُ الْأُمْرَ". ولم يحدث بتفاعلات اجتماعية في أم القرى ومن حولها. ولن يحدث إصلاح لدنيا الناس وأخراهم إلا بالوحي. فالإنسان عاجز عن تطوير مناهج أرضية يُصلح بها دنياه فضلاً عن آخرته.

وفي هذا الباب كشف للمنطقة التي يتجمع فيها الراضون للوحي من المستشرقين والسماعين لهم (المتأثرين بخطابهم). وهي ادعاء "حتمية البيئة". أو ادعاء أن البعثة المحمدية إفراز للبيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ أو أن ما جاء به النبي ﷺ كان امتداداً لما كان سائداً في بيئته (قريش/ مكة المكرمة) خصوصاً والبيئة العربية عموماً. وفي هذا الباب عدد من الأفكار التي تُبين منهجية القرآن الكريم في إحداث هذا التغيير الجذري في الإنسان.. في إخراج خير أمة أخرجت للناس. ونموذج عملي لأثر العقيدة في حياة الإنسان (خالد بن الوليد رضي الله عنه).

وأعمل على إخراج هذه المفاهيم في كتابين، أحدهما يناقش المستشرقين والسماعين، والثاني يجيب على هذا السؤال الذي أرقني.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
سؤال ... كم أرقني!

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

في جنبات الساحة الثقافية.. وفي جنبات كل نفس يؤرقها ضعف المسلمين سؤال
ثائر لا يكاد يهدأ، وهو: كيف أحدث الوحي (كتابًا وسنة) هذا التأثير الضخم
السريع في أم القرى ومن حولها، ولا يحدث ذات التأثير في واقعنا المشاهد؟! رغم أنه
هو ذات الوحي، نؤمن به وتتلوه آناء الله وأطراف النهار؟!

ومن زاوية أخرى: إذا كانت القضية الرئيسية التي أرسل الله بها محمدًا بن عبد الله ﷺ هي تحقيق العبودية لله عز وجل يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" (النحل: 36)، ويقول الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" (الأنبياء: 25)، ويقول
الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56)، وكان حال النبي
ﷺ وصحابته رضي الله عنهم على ما وصف الله "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَنْثَرِ السُّجُودِ" (محمد: من الآية 29). وكان السجود والركوع حال ملازم
لهم لا ينظر إليهم أحد إلا ويأمرهم متلبسين به؛ وهذا ما قرره رباعي بن عامر حين
سئل عن الرسالة التي يحملها أتباع محمد ﷺ، قال: "اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ
مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ"⁽²⁾. فكيف استطاع من شغلهم العبادة
إصلاح دنيا الناس؟ كيف استطاعوا إقامة هذه الحضارة؟!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة.

(2) ينظر: "تاريخ الرسل والملوك" للإمام محمد بن جرير الطبري، (القاهرة، دار المعارف، 1387هـ/
1967م)، ج 3، ص 520.

ومن زاوية ثالثة: كيف استطاع هؤلاء الكرام الأفاضل سياسة الناس ولم يتلقوا تعليمًا في مؤسسات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية؟!

كيف تحولوا من رعي الغنم لرعي الأمم ولم يتلقوا غير الوحي (كتابًا وسنة)؟
كيف تحقق العمران من خلال الامتثال لنصوص الكتاب والسنة؟ ماذا في الكتاب والسنة حقق هذا التأثير الكبير أول مرة ولا يستطيع أن يحققه الآن رغم أنه يتلى آناء الليل وأطراف النهار؟!

وفي القرآن الكريم ربط بين تحقيق الإيمان والتقوى من ناحية وعمارة الأرض من ناحية أخرى، مثل قول الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة الأعراف: الآية 96)، وقول الله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَبُذِّبَتْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ جَنَّتٌ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَهْرًا) (سورة نوح: الآيات 10-13)، وقوله تعالى: (وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا) (سورة الجن: الآية 16). وآيات فيها ربط صريح بين المعصية والفساد (تخريب العمران)، مثل قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (سورة الروم: آية 41)، وقوله تعالى: (وَمَا أَصْبَكُمْ مِّن مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ) (الشورى: 30). ولعلَّ هذا يثير سؤالاً على هذا النحو: كيف تعمُرُ الأرضُ بمن غايتها عبادة الله وتعبيد الناس لله؟! وفي المقابل كيف تفسد الأرضُ بمن يجد ويجتهد ويطور أساليب العمارة، بل حقق عمرانًا في الأبنية والطرق ووسائل العيش؟!

الإجابة في مستويين:

المستوى الأول: يتعلق بالحقوق التي شرَّعها الله لعباده في كتابه وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الشريعة التي أرسل الله بها محمدًا ﷺ (التشريعات التي جاء بها الوحي) مكّنت الناس من كافة القدرات الكامنة في الأرض وما عليها؛ فجعلت

المؤمنين بها شركاء في الماء والنار والكلأ، "المسلمون شركاء في ثلاثٍ : في الكلأ، والماء، والنار"⁽¹⁾ وأطلقت أيديهم في التملك والتصرف، فكانت "الملكية" و"حق الاستخدام" و"السيطرة" على الأشياء بيد الناس؛ وفي هذا السياق تم تشريع "إحياء الموات" بالضوابط الفقهية المعروفة، وتم توزيع المال (الفيء، والزكاة، والصدقات) في ذات المكان (المجتمع/ البلد/ القرية) الذي يُجمع فيه.. على المستحقين للمال المذكورين في آية التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة:60)، وما زاد عن حاجة أهل القرية (البلد/ المدينة) يُدفع للسلطة المركزية لتوزعه لا تحتفظ به. بمعنى أنه الشريعة نزعَت المال (تملكه أو التحكم فيه [إدارته]) من السلطة. وهذا يعني بالمآل إقصاء السلطة (الدولة) عن التحكم في حركة الناس (المجتمع) إذ المال أول وأهم أدوات السيطرة.

وحين نتأمل في دورة رأس المال في الإسلام (مصدره، وطريقة إنفاقه، أو المصادر التي يوزع فيها) نجد أن القيمة (المبدأ) التي تكمن خلف كسب المال وإنفاقه هي التمكين للدين، أو إعانة الناس على تحقيق العبادة، وليست تحقيق الرفاهية للأفراد (سياسة الاستهلاك). فمثلاً: ابن السبيل يعان من المال سواءً أكان محتاجاً أم لا، ولا يطالب بتمن إعانته حين يعود لأهله، بل ولا يسأل أميسور تباع له الإعانة أم معسر يعان دون مقابل؟ والهدف هو تأمين الطريق حتى يتدفق الناس على الطرق بأشخاصهم وتجارتهم آمنين مطمئنين، وهذا الأمان التام ينعكس على المجتمع ككل؛ ومثلاً: يعان أصحاب المروءات حين يغرمون لتبقى المروءة وما يترتب عليها من إصلاح ذات البين؛ وكذلك الحال في العاملين عليها وغيرهم ممن ذكر الله في مصارف المال⁽²⁾.

(1) أخرجه أبو داود، وغيره، واللفظ له.

(2) ينظر: "إعلام المسلمين والمسلمات بأن إنفاق الزكاة سياسات" إعداد مركز الإمام الغزالي للبحوث والدراسات.

وبهذا تمكن الناس من إدارة شئوهم وفقاً لما يحقق مصالحهم كأفراد وتجمعات. فكان المجتمع في الإسلام مدني كلية، بمعنى أنه يدار من الأفراد العاديين لا من السلطة (نخبة المال والنفوذ[الأوليغارشية]). بل لا تتدخل السلطة إلا في أضيق الحدود. أصبح الإنسان.. كل الإنسان بعد الإسلام مفعّل بأقصى طاقة. فلا مانع يمنعه من الفعل إن أراد أن يفعل ما يقدر عليه قدرة شرعية وذاتية. وهذا المستوى في الإجابة على التساؤلات فصلّ فيه الأستاذ الدكتور جميل أكبر في مشروعه الفكري الموسوم بـ "قص الحق" و"عمارة الأرض في الإسلام"⁽¹⁾.

ويتمثل المستوى الثاني في التغيرات التي أحدثها الوحي (كتاباً وسنة) في شخص من آمن بالله واتبع الرسول ﷺ، وذلك أن الوحي أعاد صياغة الإنسان من جديد.. أحياء بعد موت، كما قال العليم الخبير سبحانه وتعالى وعز وجل: "أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا" (الأنعام: 122)، "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الشورى: 52)، فكان الوحي بمثابة الحياة للناس، وتمثل هذا الإحياء في غرس منظومة من القيم (المبادئ/العقائد) والمهارات⁽²⁾ فيمن آمن بالله واتبع الرسول ﷺ، غيرت من آمن تغييراً جذرياً، وبالتالي غيرت المجتمع، فعمر قبل الإسلام ليس

(1) ينظر: "قص الحق: العقل وحتمية الفساد" للأستاذ الدكتور جميل أكبر.

(2) تتشكل القيم والمبادئ في هيئة منظومة.. بمعنى أن الأخلاق لا تتواجد منفردة أو متضاربة. فتكون صفات الشخص (أو الجماعة) إيجابية ويشذ خلق أو موقف، وتكون سلبية ويشذ خلق أو موقف. فمع الإيمان الصادق والصبر، والعفاف (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الأحزاب: 35) والحديث عن فصل القيم والتعامل مع الناس حسب الموقف هو حديث من هناك.. من عند غير العقلاء.

هو عمر بعد الإسلام، ومكة ويثرب قبل الإسلام ليست هي مكة والمدينة بعد بعثة محمد ﷺ؛ ومن أهم هذه القيم:

أولاً: الاقتصار على القرآن الكريم والسنة النبوية والأخذ من الآخر بما يتناسب مع الوحي.. بمعنى ضبط الوحي فهماً، أو فهماً وحفظاً، والانطلاق منه لغيره.
ثانياً: التأمل (التفكير/ التدبر) أو: تكوين عقلية نقدية.

ثالثاً: جعل التفاضل بين الناس بالتقوى، لا بالمال ولا بالحسب والنسب ولا بغير ذلك مما عرف في الجاهلية وبين الأمم الأخرى.

رابعاً: جعل الإتقان قيمة في حد ذاته. سواء في العمل الحسي أو المعنوي.
ولبناء هذه القيم كانت المنهجية المتبعة هي: التكرار، والتصريف، والتدرج (النمو التدريجي).

وهذا ما سأحاول، بحول الله وقوته، بيانه، مع الأخذ في الاعتبار أن المستوى الثاني والأول مرتبطان فلا يمكن صياغة إنسان بالطريقة الشرعية دون أن يتمكن من حقوقه (المستوى الأول)، وغياب منظومة الحقوق هو السبب الرئيسي في تراجع عمليات التربية والبناء الإنساني في هذه الأيام.. يحاولون بناء إنسان على المنهج الرباني (الوحي) دون إعطائه ذات الحقوق التي أخذها الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولذا تتعثر التجارب، وفي أحسن الأحوال تكون ذات نتيجة محدودة جداً.. تكون النتيجة- إن وجدت- في المجال الخاص (البيت والأسرة والتعاملات الفردية).

محمد جلال القصاص

ربيع أول 1445هـ

أكتوبر 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

مقدمة منهجية لدراسة السيرة النبوية

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن أحبه واتبع هديه، وبعد:-

في هذه المقدمة أحاول عرض ثلاثة أفكار أمهد بهنّ لهذه الدراسة عن سيرة الرسول ﷺ، الأولى: كيفية تطور قراءة السيرة النبوية عندي من المتعة النفسية إلى الجدل مع الكافرين والسّماعين لهم. أسرد سياقاً أعرف أن غير مشى فيه مثلما مشيت، لعلّي بهذا أفتح مجالاً لذي قوة يشدد في نصرة حق أو دفع باطل؛ والثانية: الإطار النظري لفهم تفسيرات الكافرين والسّماعين لهم؛ والثالثة: سياق التأليف المعاصر في السيرة النبوية.

أولاً: السيرة النبوية من المتعة النفسية إلى الجدل مع الكافرين والسّماعين لهم:

منذ وعيت وأنا في ظلال السيرة النبوية، فقد أتيت على البداية والنهاية وأنا لم أتجاوز السادسة عشر، وإلى اليوم لم أكد أرحل عن ظلال السيرة النبوية. كنت أقرأ حباً وشوقاً للحبيب ﷺ وأصحابه ﷺ. كانت السيرة النبوية بمثابة الرياض العطرة التي أستريح فيها، ثم تآقت نفسي لتصور شخص الحبيب ﷺ، وحياة الحبيب ﷺ وهو بين أصحابه ﷺ، وكم قضيت من الساعات، وأنا شاب صغير، أتخيل الحبيب ﷺ وهو في مسجده قائم يصلي وخلفه الصحابة ﷺ كأنهم بنيان مرصوص، وهو ﷺ

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة.

جالس بعد الصلاة وجهه الشريف يصفح وجوههم الكريمة.. يسبح ويسبحون، والروح الأمين والملائكة حولهم، والشيطان بعيد يلطم خديه ويضع التراب على رأسه، والدنيا ترقبهم وتنصت لهم؛ وهو ﷺ في غزواته وهو يسير بين أصحابه كأحدهم لا يتميز عنهم بشيء وقد أوتي الكمال والجمال، وهو بين الصفوف وعيناه ترمقان العدو، وحسان ينادي منتشياً: "جبريل تحت لوائنا ومحمد"؛ وهو في طرقات المدينة تقبل الأرض قدميه، ويفرح بمروره الشجر والحجر، يعطر المكان والزمان، فيظل حديثهم: مرّ من هنا الحبيب ﷺ؛ وهو ﷺ في بيته بين زوجاته وأبنائهن والبيت مزدحم بالنساء وأطفالهن ومن تأتين عليهن زائرات، وهو قائماً يصلي في جوف الليل، وهو راعع يعظم ربه.. وهو ساجد يتضرع ويناجي. وأبو بكر الصديق وهو ثائر يوم الردة يقف وحده صلباً في وجه الجميع ينادي "أينقص الدين وأنا حي". وعمر.. ومم وددت أني أصافح عمر.. أني أعانق عمر، أني أتلو القرآن على عثمان بن عفان في مسجد النبي ﷺ. وإني أحب عثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبي بن كعب وأخدم القرآن بما استطعت وأرجو أن أحشر في زمرة القرآن وأهله. ومم وددت أني أجالس علياً وأرافقه.. كم وددت أني مع خالد وهو يسير ليلاً ويشجع الكرام "عند الصباح يحمد القوم السرى"، "المعونة على قدر النية والأجر على قدر الاحتساب، فاروا الله من أنفسكم خيراً"، وهو يجثم جثوم الثعالب، وهو يثب وثبة الأسود. كانت هذه أحلام الصبا.. إي والله.

وبعد سنوات عثرت على أسطوانة مدججة (CD) من شركة "حرف" في السيرة النبوية وكان بها بداية تجسيد حياة الصحابة وعرض للجغرافيا السيرة (مكة: الكعبة ومسكن القبائل ومعالم السيرة في مكة، والهجرة، والمدينة بتفاصيلها، وغزوات الرسول ﷺ فكانت إطلاله جديدة على حياة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

ثم تطور الأمر بعد ذلك لمحاولة كتابة متواضعة، نشرت بعنوان: "مفاهيم أساسية لدراسة السيرة النبوية" وكانت كشأن كل عمل الشباب لا يحمل أكثر من العاطفة والله نسأل صدقًا وتوفيقًا وأجرًا، إنه كريم منان.

ثم، بلا قصدٍ، نزلت بساحة النصارى في عام 1426هـ / 2005م، وهم يتناولون على الدين ومقام سيد المرسلين ﷺ، وبدأت مرحلة جديدة من النظر للسيرة النبوية، كان النصارى يطلقون أسئلة ويقدمون رؤية شاملة للبعثة المحمدية. وبدأت أسئلة النصارى تتوارد على خاطري: التشكيك في البعثة المحمدية (نزول الوحي من السماء)، وفي شخص الرسول ﷺ: نبي هو ﷺ. أم عبقرى اجتهد؟ أم مصلح تألم لحال قومه وقد غشيهما الجهل والظلم فحلوا في ذيل الأمم؟ أم كانت بيئة قريش الطامحة للتحول، بفعل الانتعاش التجاري (الإيلاف وحركة البضائع)، من القبيلة للدولة، فجاء الرسول ﷺ يكمل ما بدأه قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم؟ أم كانت بيئة العرب المتأزمة تبحث عن مخرج ووجدته في شخص الرسول ﷺ؟ وأسئلة حول القرآن الكريم: ثبوتية الوحي، صحة النص وسلامته من الأخطاء، والناسخ والمنسوخ؟

واشتبكت مع النصارى بضع سنين (من 2005م إلى 2010) وكتبت كتابًا طبع ثلاث مرات، حاولت من خلاله المشاركة في الرد على الشبهات التي يثيرونها، بعنوان "الكذاب اللثيم زكريا بطرس: دراسة بحثية تحليلية مختصرة"، وعشرات من المقالات نشرت على "صيد الفوائد" و"طريق الإسلام" والمنتديات الإسلامية، كنت أرمي عن الحبيب ﷺ وعن حمى الدين.

وبعد أن كثر المدافعون عن الإسلام ضد الحملة التنصيرية البذيئة الشرسة، انصرفت لدراسة العلوم السياسية في الأكاديميات المختصة حتى حصلت على الدكتوراة في العلاقات الدولية، وفي السياسة وجدت ذات الأسئلة من العلمانية الوضعية

Positivism. تُشكك في الوحي والغيب عمومًا. وتشكك في قابلية أي نموذج روحاني لأن يسود، وتدعي أنها هي "نهاية التاريخ" .. أو أن البشرية كانت تسير في سياق تصاعدي وأن ما وصل إليه الغربيون من تدبير لشئون الحياة هو نهاية التقدم وليس بعد ذلك شيء!!

وبين النصارى والعلمانيين رأيت أعدادًا غفيرة من المنتسبين للإسلام يقرؤون البعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة) من منظور علماني بحت. جموع من المنتسبين للإسلام آمنوا بالمذاهب العلمانية (الوضعية) وجاءوا للشريعة يحاول كل واحدٍ منهم أن يصب الشريعة في قالبه المذهبي، فمنهم من قال عبقرى.. والتاريخ يصنعه العباقرة، وإن التاريخ صراع بين الحق والباطل، صراع بين من آمن بالله وما أنزل على رسله، عليهم الصلاة والسلام، وبين من أغوتهم الشياطين؛ ومنهم من يقول: إعداد أرضي من خديجة⁽¹⁾، أو من ورقة بن نوفل⁽²⁾، أو من تلقاء نفسه حيث جد واجتهد ورحل

(1) في كتابه "فترة التكوين في حياة الصادق الأمين" لم يكذب يخرج خليل عبد الكريم عن فكرة واحدة وهي: ادعاء أن خديجة بنت خويلد هي التي خططت للبعثة المحمدية، فهي - حسب زعمه الكاذب - التي درست النصرانية، وناقشت القساوسة، ثم علّمت النبي الأمي ﷺ، وأنها هي التي خططت كلية للبعثة، وأدارت المشهد إلى وفاتها، ووضعت الأسس للدعوة بعد وفاتها!! مع أنه يعترف بعدم وجود أي دليل على هذا في السيرة، يقول: حذفه المسلمون وهم يكتبون السيرة!!، ومع أنه - في كتابٍ آخر - يعترف بأن مجتمع مكة والمدينة كان مجتمعًا ذكوريًا، لا يعرف المرأة إلا "بضعًا". ولا أدري كيف حذفه المسلمون وعلمه هو؟! سبحانك هذا بهتان عظيم. إنظر إن شئت - خليل عبد الكريم، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، (القاهرة، دار مصر المحروسة، 2004).

(2) كان هذا محور كتاب "قس ونبي" لأبي موسى الحريري، (لبنان، دار لأجل المعرفة، 2005). و جوزيف قَزِي (1937م-2022م)، قس لبناني ماروني معاصر، قدّم رؤية خاصة عن الإسلام في عديد من الكتب باسمين مستعارين اشتهر بهما، وهما "أبو موسى الحريري" و "أنور ياسين"، وغلب عليه الأسماء المستعارة لانتشار كتبه بهما. صدرت كتاباته في سلسلة من عشرين إصدارًا باسم "الحقيقة الصعبة".

إلى الشام واليمن وتعلم من أقرانه⁽¹⁾ كل واحد جاء من خلال المذهب العلماني الوضعي الذي اعتنقه. وقدمت مناقشة لعباس العقاد، وما في نيتي سوى أن تكون مناقشة عباس العقاد حالة دراسة لغيره ممن تعدوا على البعثة المحمدية بتفسيرات علمانية أرضية تأثروا فيها بغير المسلمين⁽²⁾.

تغير المشهد، من قراءة لأجل المتعة النفسية، إلى رد شبهات جزئية يتحدث بها النصراني، ثم إلى الاشتباك مع المتأثرين بخطاب الكافرين، كخليل عبد الكريم، وسيد القمني، وعباس العقاد، وعمرو خالد،⁽³⁾ ثم تطور المشهد، بعد عقود قضيتها في ظلال السيرة النبوية، إلى البحث عن الفكرة الرئيسية التي ينطلق منها الكافرون والسماعون لهم.. المتأثرون بخطابهم حتى استقر عندي، بعد طول نظر فيما كتب هؤلاء، أنهم ينطلقون من "حتمية تأثير البيئة والعوامل الوراثية"، وهي الفكرة التي نبتت بدايةً من رأس ابن خلدون ودونها في مقدمته للتاريخ، وتلقفها منه الغرب (الوضعية الغربية) وأسس عليها علم الاجتماع الغربي، ثم المتأثرين بالمناهج الغربية أو بابن خلدون مباشرة.

(1) كان هذا هو المحور الرئيس لعمرو خالد في حلقاته "على خطى الحبيب"، وقد ناقشت هذا مفصلاً في فصل "عمرو خالد وإنكار الوحي" في كتابي "عمرو خالد: دراسة بحثية تحليلية نقدية مختصرة" انظر: <http://www.saaid.net/book/open.php?cat=88&book=9265>

(2) من أشهر الأمثلة على ذلك، هذا السؤال الذي طرحه القس "جوزيف قزّي": "هل كان محمد نبياً مرسلًا من لدن الله ليؤسس دينًا؟ أم أنه جاء ليصلح مجتمعا فاسداً، فنجح، وأكسبه نجاحه نبوة؟! ينظر: جوزيف قزّي (أبو موسى الحريري)، نبي الرحمة: بحث في مجتمع مكة، (لبنان، دار من أجل المعرفة، 1990م)، ص 7.

(3) ولا أسوي بين هؤلاء، فسيد القمني يعلن كفره، وخليل عبد الكريم يصرح بأن الوحي مصدره خديجة، رضي الله عنها، ويتناول على الصحابة، والعقاد مسلم دافع عن الإسلام أحياناً، وعمرو خالد من أهل السنة ويظهر كداعية.

وكتبت عددًا من المقالات والأبحاث، وألقيت بعض المحاضرات أناقش هذه الفكرة الرئيسية وبعض تطبيقاتها، وهأنذا أحاول، بحول الله وقوته، عرض شبهات المخالفين من خلال المدخل الذي اجتمعوا فيه (تأثير البيئة والعوامل الوراثية)، وأرد عليهم من خلال مقولة يسرها الله لي بعد طول تأمل في السيرة النبوية، وهي "فجائية الدعوة" ونشرت الفكرة في مقالٍ بعنوان: "فجائية الدعوة أكثر ما يؤرق المخالفين".

هي عزمة أردُّ بها ما أراه باطلاً عن حياض الدين ومقام سيد المرسلين ﷺ، وصحابته ﷺ. أحاول المساهمة في إرشاد السائرين إلى رب العالمين، طلباً للقرب من الله، والله أسأل رشداً، وعزيمة على الرشد، وعوناً، وبركةً. إنه كريم منان.

ثانياً: الإطار النظري لفهم تفسيرات الكافرين والسماعين لهم.

ذكر الله العليم الخبير في كتابه أن بعضاً من المسلمين يتأثرون بخطاب الكافرين، أو يعاونون الكافرين على كفرهم وسعيهم في صدّ الناس عن دين الله، يقول الله تعالى: (وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ)⁽¹⁾ أي: "ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم"⁽²⁾، فثمة تأثير بخطاب المخالفين من المستشرقين و"المبشرين"، وثمة تعاون من بعض المنتسبين للإسلام، بقصدٍ أو بدون قصد، مع الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله.

ومن قبل قدّم المستشرقون والمبشرون شبهاتهم على أنها قرأءاتهم-هم- للشريعة الإسلامية، وذلك حين كانوا يخاطبون من خلفهم من قومهم، أو-بالأحرى- حين كان من خلفهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام إلا من خلاهم. والآن بعد أن أصبح التواصل ممكناً لكل مع الكل مباشرةً من خلال وسائل التكنولوجيا الحديثة، تتلمذ

(1) سورة التوبة: من الآية 47.

(2) ينظر: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1418هـ)، ج3، ص83.

نفر من المسلمين على أيدي المستشرقين، وتعلم نفر من كتاباتهم، فتأثروا بخطابهم وقالوا ببعض قوهم، وكانت السمة العامة أن أقبل هؤلاء المتأثرين بخطاب الكافرين على إعادة قراءة الشريعة الإسلامية من جديد من خلال مذاهبهم العلمانية التي آمنوا بها، فكانت النتيجة ظهور تفسيرات للبعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة) من خلال مفاهيم علمانية.

وحيث أن لكل معرفة سلطة تدعمها.. تحملها إلى عقول الناس وتمكنها من تشكيل سلوكهم، فإنه لا ينبغي علينا، ونحن نرصد هذه الظاهرة ونحاول فهمها والتنبؤ بسلوكها، أن نرصد الأفكار وحركتها (من وإلى) دون أن نرصد القوى الداعمة لها وبيان أن الفكر لا يتمكن إلا بقوى داعمه.. بالمعنى الواسع للقوى. ولذا فإن الإطار النظري الأمثل لفهم هذه الظواهر يتكون من مقولتين: الأولى: حتمية تأثير البيئة، والثانية: الدعم من قبل الأدوات العلمانية المحلية والخارجية. تعدُّ مقولة "حتمية البيئة"، بمعنى أن البعثة المحمدية إفرازٌ للبيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ أو أن ما جاء به النبي ﷺ كان امتدادًا لما كان سائدًا في بيئته الصغيرة (قريش/ مكة المكرمة) خصوصًا والبيئة العربية عمومًا، الفكرة الرئيسية التي يحاول من خلالها الكافرون و"السمّاعون لهم" نفي رسالة النبي، صلى الله عليه وسلم. ويتفرع عن هذه الفكرة فكرةً أخرى وهي "التطور". فالمتحدثون بحتمية البيئة يقولون بضرورة التطور المعرفي تبعًا لتغير البيئة (الزمان والمكان)⁽¹⁾.

(1) تعد فكرة التطور فكرة شيطانية بالأساس. وأمانة ذلك أنها ظهرت في رأس عدد من الناس في أزمنة وأمكنة مختلفة. وقد تحدث بها ابن خلدون في مقدمته، والقزويني في "عجائب المخلوقات"، وابن طفيل في "حي بن يقظان"، وابن مسكويه في "تهذيب الأخلاق"، وإخوان الصفا في رسائلهم، وأرسطو في نظريته عن ترتيب المخلوقات في العالم، ثم انتشرت منسوبة لأحد المثقفين الغربيين (دارون) بسبب غلبة

وربما كان السبب في انتشار هاتين المقولتين (حتمية البيئة، والتطور) سيطرة مفاهيم علم الاجتماع الحديث على عامة الحقول المعرفية المتعلقة بالدراسات الإنسانية. وذلك أن علم الاجتماع الحديث ينطلق من أن للواقع (البيئة) قوانين حتمية يفرضها على عموم الناس⁽¹⁾. ولمزيد من البيان أضرب مثلاً بما ورد في كتابات خليل عبد الكريم، يقول عن شخص النبي ﷺ: "ولذا فإنه لا بد وبطريق الحتم واللزوم أن يتأثر بالنسق الاجتماعي والنظام الحضاري السائدين في محيطه"⁽²⁾، ويقول عن الأنبياء وعظماء الناس الذين يُحدثون أثراً في الواقع المعاش: "فإنهم لا بد يتأثرون بالمجموع أو الجماعة؛ فالعلاقة بين الفرد مهما سما قدره والمجتمع والجماعة علاقة تبادلية وينتج بين الطرفين تكامل عضوي ديناميكي، هذه حقيقة علمية قال بها علماء الاجتماع"⁽³⁾. وكرر ذات الكلام في مقدمة كتابه "مجتمع يثرب" حيث يقول: "وعلم الاجتماع يؤكد لنا أن تغيير أحوال أي مجتمع لا يتم بتأثير النصوص مهما كان شأوها من البلاغة والإعجاز"⁽⁴⁾ وهو هنا يدعي أن الأثر الذي ظهر على يد الرسول ﷺ

الثقافة الغربية. وبأبي في هذه الدراسة عن السيرة النبوية حديث عن أثر الشيطان المباشر في المستوى النظري والمستوى العملي، ينظر: "من وحي الشيطان" لمحمد جلال القصاص، موقع صيد الفوائد: <http://www.saaaid.net/Doat/alkassas/261.htm>

(1) مصدر الفكرة من عند ابن خلدون، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، ينظر: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، لعبد الرحمن بن خلدون، (بيروت، دار الفكر العربي، 1408هـ/1988م)، ج 1، ص 13.

(2) ينظر: "الجدور التاريخية للشريعة الإسلامية"، لخليل عبد الكريم، (القاهرة، سينا للنشر، 1990)، ص 107.

(3) ينظر: "الجدور التاريخية للشريعة الإسلامية"، لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص 107.

(4) ينظر: "مجتمع يثرب: العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين الحمدي والخليفي" لخليل عبد الكريم، (القاهرة: سينا للنشر، 1997م)، ص 7. وعلم الاجتماع لم يجمع على شيء، وإنما هو - وأمثاله - ينتقون ما يحلو لهم، وغالبًا ما يعنون علم الاجتماع الغربي المادي الوضعي، كما سيأتي حال مناقشة هذه الأفكار؛ وإن كل تغيير يبدأ بتغيير الأفكار. "إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوهُمَا بِأَنفُسِهِمْ" (الرعد: 11)

وصحابته، رضوان الله عليهم، لم يكن بتأثير القرآن الكريم والسنة النبوية وإنما جاء بمؤثرات البيئة! وفي مكانٍ آخر يدّعي أن مجتمع الصحابة لم يتغير كثيراً عن مجتمع الجاهلية، وأن "العلاقة بين الرجل والمرأة ظلّت كما كانت في الجاهلية (علاقة ذكر وأنثى)، وأنها كانت المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع وأن محمداً⁽¹⁾ ﷺ بذل جهوداً تفوق طاقة البشر ليتسامى ذلك المجتمع بها ولكن لرسوخ ذلك النسق الاجتماعي وتجزئه وضربه حتى الأعماق فيه هذا من جانب ولقصر المدة التي قضاها محمد بين جناباته من جانب ظل ذلك المجتمع على حاله ولم يتغير إلا بنسبة ضئيلة"⁽²⁾ يقول: "لم يتغير مجتمع يثرب، وظلت العلاقة القائمة هي العلاقة بين ذكر وأنثى كما قد كانت في الجاهلية (فحولة وأنوثة)"⁽³⁾. ويقول: "إن سنن الاجتماع ترفض أن تتغير الأنساق الاجتماعية في مجتمع معين وخاصة تلك التي استمرت مئات السنين، في بضعة أعوام؛ قد تنجح دعوة في تهذيب عشرات من المحيطين بالداعية ولكن القاعدة الشعبية العريضة تظل محتفظة بأنسابها وعاداتها، ولا تتغير عندها إلا إذا تغيرت ظروفها المادية، مثل: طرق الإنتاج وأدواته ووسائله، بل إن بعض الملتفين حول صاحب الدعوة تغلب عليهم أعرافهم وطبائعهم المركوزة في أعماق نفوسهم والتي شبوا وشابوا عليها قبل اتصالمهم به أو اتصاله بهم"⁽⁴⁾.

(1) مررت على ما كتب. لم أكد اترك منه شيئاً. ولم أره يصلي على الرسول ﷺ إلا نادراً، ويصف النبي ﷺ بأوصاف فيها كثير من السخرية.

(2) ينظر: "مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي" لخليل عبد الكريم، (القاهرة، سينا للنشر، 1997)، ص 27.

(3) ينظر: "مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي" لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص 27.

(4) "مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي" لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص 21.

وبمثل ما قال خليل عبد الكريم تحدّث أمين الخولي ورفاقه⁽¹⁾، فقد انطلق هؤلاء من ذات الفكرتين الرئيسيتين (حتمية البيئة والتطور)⁽²⁾. ويأتي، إن شاء الله، حديث مفصل عن هذه المدرسة في هذه الدراسة عن السيرة النبوية.

والحاصل أن هؤلاء يبدوون حديثهم من تقرير "تأثير البيئة" كثابت ينطلقون منه، ثم يتحركون في مسارات مختلفة، أهمها: التفسير السياسي والاقتصادي للبعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة)؛ والتفسير من خلال العبقرية والتخطيط الاستراتيجي (أو الصفات الشخصية)؛ أو القول بارتباط النص بالزمان والمكان بمعنى أن الوحي

(1) أمين أنور الخولي (1895م-1966م)، قروي من قرية شوشاي مركز أشمون بالمنوفية. حاد الطبع، ثوري المزاج، تخرج من "مدرسة القضاء الشرعي" التي وضع خطتها الشيخ محمد عبده واللورد كرومر وأسسها فعليًا سعد زغلول حين كان وزيرًا للمعارف. شارك في ثورة 1919م ضمن فاعليات القضاة؛ وابتعث إمامًا للصلاة في السفارة المصرية في إيطاليا ثم ألمانيا، وأتقن الإيطالية والألمانية وكان يتحدث بهما في بيته، وفتن بالتطور الإداري في الفاتيكان والتطور المعرفي في الغرب عمومًا، ونشط للعمل العام طيلة حياته، فشارك في جمعية إخوان الصفا إبان ثورة 1919م، وفي الثلاثينات من القرن المنصرم شارك القبطي سيء الذكر سلامة موسى (1887م-1958) في تأسيس جمعية المصري للمصري، ثم استقر في العمل المعرفي وأسس ما عرف بـ "جمعية الأمناء"، وهي هذه التي طبقت فلسفة الهرمنيوطيقا، وأصدر عن هذه الجمعية مجلة على نفقته الخاصة طيلة حياته وتوقفت بعد رحيله. وأعني برفاقه أولئك الذين توافقوا معه على تطبيق فلسفة التأويل الغربية "الهرمنيوطيقا Hermeneutics" على القرآن الكريم، وأشهرهم: محمد أحمد خلف الله (1916-1991م)، وشكري عمر فيصل (سوري الجنسية 1918-1985م)، وعبد الفتاح شكري عياد (1921-1999م)، ومصطفى عبده ناصف (1921م-2008م)، وحسين محمد نصار (1925-2017م). ثم نصر حامد أبو زيد (1943م-2010م) وهو تلميذ غير مباشر للخولي.

(2) والنصوص التي تتحدث عن "حتمية البيئة" عند هؤلاء كثيرة ولكن المقام مقام بيان أفكار رئيسية وليس مقام استقصاء، ينظر: "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" لنصر حامد أبو زيد، (الرباط، المركز الثقافي العربي، 2014م).

ثمرة حراك مجتمعي وبالتالي فإن على كل قوم أن يطوروا النص بما يتناسب مع زمانهم ومكانهم، وادعاء أن النبي ﷺ تعلّم على يد أقرانه.

وإنَّ تَعَدُّدَ التفسيرات مع تضاربها أمانة على أنها حالة من تعمد تضليل الناس وصددهم عن سبيل الله، وليست حالة من كشف حقيقة ما؛ ويؤيد ذلك أنه قد تم الرد على ما يثار من شبهات حول الوحي مراراً ومع ذلك تتكرر ذات الشبهات بعد الرد عليها، وفي هذا أمانة على أن المتكلم بالشبهة لا يريد جواباً، وإنما يريد صرف الناس عن دين الله.

وقد خصصت لكل مسار فصلاً، ثم أردفت هذه الفصول بفصلٍ آخر فيه إطلالة عامة على حال الشبهات والمتكلمين بها والداعمين لهم أو المستفيدين من هذه الظاهرة.. الناشرين لها بين الناس إذ أن عامة هؤلاء كتاب لا يبحرون مكاتبهم أو أنديتهم.

وتعمدت أن أقرب من قبل المتحدثين بالشبهات، وذلك لارتباط الفكر بالأشخاص في نظر عوام المثقفين، كما ديورانت، وجوزيف قزي، وزكريا بطرس، وخلييل عبد الكريم، وعباس العقاد، وعمرو خالد، ووضاح خنفر، وحيناً اقتربت من قبل المفاهيم كما في "الهرمنيوطيقا"، و"إعادة تشكيل العقل العربي"، والله أسأل توفيقاً وقبولاً، وبركة، إنه كريم منان.

ثالثاً: سياق التأليف في السيرة النبوية؛

تظهر الموضة في الفكر تماماً كما تظهر في الأشياء.. كالسيارات والثياب وقصّات الشعر. والسائد عالمياً هو الذي يصنع موضة الفكر تماماً كما يصنع الموضة في الثياب وغير الثياب. ولذا نجد أن الكتابات الحديثة في السيرة النبوية عكست الأفكار السائدة عالمياً، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه في مقدمة الكتاب، من أن كل ذي مذهب علماني حاول قراءة السيرة النبوية من خلال مقولات مذهبه الذي آمن به. وجملة:

يمكننا تمييز هذه القراءات إلى مراحل حسب السائد في البيئة العالمية والإسلامية، مع الأخذ في الاعتبار عدم وجود فواصل زمنية حادة، بمعنى تداخل المراحل. والمقصود هو بيان التأثير بالسائد وأن هذه القراءات ما كانت إلا تسكين للشريعة في المذاهب العلمانية، أو نشر المذاهب العلمانية عن طريق ادعاء أنها موافقة للشريعة، وليس المقصود حصر ما كتب.

الكتابات القومية:

كانت بداية الفكر القومي العربي من نصارى الشام⁽¹⁾ ثم انضم إليهم أبناء الطوائف (الأقليات) ثم المتأثرون بالغرب من المسلمين. حاول هذا السياق، حال تصاعده يومها، استخدام السيرة النبوية كأحد أدوات الدعم له في مرحلة من المراحل، وذلك من خلال محاولة دمج التراث الإسلامي كعنصر مكوّن لهوية قومية عربية، وكذلك إضفاء ملامح قومية عربية على صورة الرسول ﷺ، واستخدام السيرة لتجاوز الطائفية والمذهبية⁽²⁾. فحاول هؤلاء التبشير بالقومية العربية وما تفرع عنها من اشتراكية من خلال سرد هؤلاء للسيرة النبوية أو تعليقهم عليها، ومن أمثلة ذلك، ما كتبه النصراني

(1) نشأ الفكر القومي العربي من النصارى واستمر داخلهم وحدهم قرابة نصف قرن حتى جاءهم أهل الطوائف، وكانوا يصارعون مثلهم لإسقاط الخلافة، ثم لحق بهم السامعون لهم من أهل السنة. ويمكن تتبع ذلك من خلال الفاعليات والأسماء التي ظهرت في سياق القومية العربية، وهم: بطرس البستاني، وسليم البستاني، وناصيف البيازجي، ومنيف خوري، ونجيب عازوري، ثم قسطنطين زريق، وميشيل عفلق،.. وأول من التحق بهم هم أبناء الأقليات مثل: زكي الأرسوزي، بعد نصف قرن، تقريباً، من حديثهم عن القومية العربية. والنصارى القوميون هم الذين أدخلوا التحديث كشرط للنهوض (كتابات قسطنطين زريق تحديداً). ويلاحظ أن خطاب القومية العربية التنظيري كان نجوياً ولم يتحرك للجماهير إلى في مرحلة متأخرة، ويفعل الحركيين منهم. والحركيون ظهروا بأسباب خارجية (غربية)، فالتغيير كله، أو جلّه، خارجي: نصراني واحتلال غربي، والثاني فعّل الأول في مجالات الحياة جميعها وليس فقط السياق القومي العربي.

(2) اتجهوا للسيرة ولم يتجهوا للفقّه ربما لسهولة التعااطي مع السيرة بخلاف الفقّه الذي يحتاج لدراسة وتأصيل واشتباك مع كم هائل من موروث المذاهب الفقهيّة والعادات الاجتماعيّة، كما أن الفقّه يكشف طبيعة المجتمع المسلم المستقل عن السلطة ونخبة المال (بالأوقاف وأصحاب المروءات وأهل الحل والعقد)، وهذا الأمر من شأنه أن يثير تساؤلات نقدية حول نموذج الدولة القومية المتمكن الآن.

"ليب الرياشي" تحت عنوان: "نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله" (1) وفي كتابه هذا اعتبر الرسول ﷺ منقداً للعروبة من الفارسية والبيزنطية وباني الأمة العربية (2)، وما كتبه "محمد عزة دزوزة" (3) تحت عنوان "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية" (4)، ومن أمثلة كتابات الاشتراكيين العرب والتي جاءت لاحقاً في سياق الاشتراكية الناصرية: "محمد رسول الحرية" (5)، "اشتراكية محمد" (6)، و"محمد الثائر الأعظم" (7).

وعملياً لم تتحول أفكار القوميين العرب إلى واقع مستقر، فقط عملت في سياق الحشد ضد نموذج الخلافة، وعملت في سياق فصل العالم العربي عن العالم الإسلامي،

- (1) النسخة التي معي طبعة دار ريجاني للطباعة والنشر - بيروت، ط4. د.ت.
- (2) وهو نفس ما ذهب إليه ديورانت في سرده للسيرة النبوية، وقد ناقشته بالتفصيل في مكان آخر.
- (3) محمد عزة بن عبد الهادي دزوزة (1888-1984م)، مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي ولد في نابلس وتوفي في دمشق. إضافة إلى نضاله السياسي، كان أديباً ومؤرخاً وصحفيّاً ومترجماً ومفسراً للقرآن. هو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي إلى جانب ساطع الحصري وركي الأرسوزي.
- (4) ينظر: "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية" محمد عزة دروزه، (القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1367هـ/1948). وفي هذا الكتاب جعل الشروط الأساسية لإقامة كيان عروبي تتمثل في: نظام سياسي اقتصادي موحد، بجانب اللغة العربية، والتراث الإسلامي وسيرة الرسول ﷺ
- (5) ينظر: "محمد رسول الحرية"، لعبد الرحمن الشرقاوي، (القاهرة، دار الشروق، 1410هـ/1990). وفيه أهمل الرسالة وتحدث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، كشخص.. إنسان. ومثله ما كتبه توفيق الحكيم تحت عنوان "محمد الرسول البشر" وهي عمل مسرحي (في هيئة حوار) من خمسة فصول. يقول: إبراز البعد الإنساني في شخص الرسول ﷺ. ولا أدري كيف والله يقول: "وما محمد إلا رسول".
- (6) ينظر: "اشتراكية محمد" لمحمود شلبي، (بيروت، دار الجيل، 1974م). كتب في، 1962 بإيجاء من جمال عبد الناصر، ونشرت في 1968، ثم أعيد نشرها بعد ذلك.
- (7) ينظر: "محمد، صلى الله عليه وسلم، الثائر الأعظم" لفتحي رضوان، (القاهرة، دار الهلال، 1994م). وفتحي رضوان كان وزيراً للإرشاد القومي (الإعلام)، في بدايات عهد ما بعد ثورة 1952، وعضواً مؤسساً في حزب مصر الفتاة. وأنشأ مجلس حقوق الإنسان المصري، وله حضور في الوسط الثقافي المصري.

فلم تشيد قومية عربية بديلاً للخلافة العثمانية⁽¹⁾. فقد تحول العرب، والعالم الإسلامي كله، من نموذج الخلافة إلى نموذج الدولة القومية، هذا في مستوى السلطة، وفي المستوى الثقافي تحول العالم الإسلامي من السياق الإسلامي المحافظ للسياق الليبرالي فكان عصر ما بعد "الثورة العربية" هو العصر الليبرالي لا القومي العربي الذي يعظم النبي، صلى الله عليه وسلم، والعربية، كما ادعوا في كتاباتهم. وهذه منطقة تفكير ينبغي أن تأخذ حقها من المهتمين. ينبغي أن نطرح سؤالاً عن السياقات الحقيقية، وعن الفاعلين الحقيقيين، وعن هامشية دور الأفكار الثورية تلك التي تطفوا على السطح ثم تختفي مخلفة وراءها غير ما كانت تطلبه⁽²⁾. أو بالأحرى دراسة كيفية استغلال المتحمس من قبل من يملك رؤية أوسع وأدوات أقوى وأكثر، وهو هنا المحتل الغربي الذي استغل الطوائف، والثورات وما تولد عنها من مدعوي في إنهاء الخلافة العثمانية ثم تحويل العالم الإسلامي لمذهبه هو (الليبرالي) ثم إلى نموذجه في الحكم (الدولة القومية).

السياق الليبرالي:

وهنا لا نؤرخ لمرحلة زمنية، وإنما نشير إلى موضة فكرية (مناهج وضعية) حاولت تسكين السيرة النبوية في مذاهبها العلمانية، فكما القوميون العرب خرج من السياق الليبرالي من حاول قراءة السيرة النبوية على أنها محاولة فردية من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم. فكانت موضة فكرية ليبرالية حاولت قراءة السيرة من خلال مقولة العظمة الفردية، فكتب هيكل عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكبار

(1) حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم الإسلامي لم تستطع أن تتواجد عملياً، كانت بدايتها من "دولة قومية" كالمغرب العربي حيث أن المغرب العربي كان يتهدد لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلساً ثورياً موحداً في مصر، ثم استقلوا "دولاً" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، حيث انشق البنجال عن باكستان.

(2) ينظر للكاتب "هل نفهم ما يحدث" موجود مقال ومحاضرة على اليوتيوب، وينظر: "ثورة تاني!!!"

الصحابة، وكتب العقاد عبقرياته⁽¹⁾ على ذات المنوال. وما كتبه هيكل والعقاد هو أشهر ما نشر في هذا السياق وظهرت كتابات أخرى في جنبات الساحة الثقافية، مثل: "محمد- المثل الكامل"⁽²⁾، صلى الله وسلم على نبينا محمد. ويهم هنا رصد فكرتين رئيسيتين:

الأولى: أن السيرة النبوية قرئت بمقولات (مفاهيم) المستشرقين، مثل "العبقرية"، أو "العظمة الفردية" كما قرئت من قبل بمقولة "القومية العربية"

والثانية: أن أطروحات المستشرقين ظهرت على لسان منتسبين للإسلام، والمثال المشهور هنا هو "على هامش السيرة النبوية لطف حسين، ولكن المثال الأهم، هو ما كتبه الشاعر العراقي "معروف الرصافي" (1875م-1945م)، وأريد أن أقف مع ما كتبه الرصافي قليلاً لشيء أبينه بعد عرض ما انطوى عليه كتاب الرصافي:

معروف الرصافي شاعر وسياسي، شغل طيلة حياته بالفعل السياسي والكتابة الشعرية، ومع ذلك قدّم كتاباً كبيراً بعنوان "الشخصية المحمدية"⁽³⁾، جمع فيه الآراء

(1) تنطوي العبقريات على فكرة رئيسية، وهي أن السيرة، أو التاريخ عموماً، من صنع أفراد معدودين "العباقرة". وهؤلاء "العباقرة" صنيعة العوامل الوراثية والبيئية التي نشؤا فيها، فكل منهم ورث أباه وتأثر ببيئته!!

ومسمى عبقرى أطلق على غلاف ستة كتب فقط من كتب العقاد (120 كتاب تقريباً)، "عبقرية محمد"، و"عبقرية عمر"، و"عبقرية الصديق"، و"عبقرية علي"، وبعض الكتب حمل مسمى العبقريات بداية ثم تغير العنوان في الطبعات اللاحقة، مثل كتابه عن المسيح عليه السلام، فقد صدرت الطبعة الأولى بعنوان "عبقرية المسيح" والثانية بعنوان "حياة المسيح". وحدث العكس مع كتابه عن الشاعر الألماني "جوته" فقد صدر بداية تحت مسمى "تذكار جوته" وتم تعديله بعد ذلك إلى "عبقرية جوته"، وقد كان العقاد يسمح لبعض الناشرين بإعمال أيديهم في عناوين الكتب والمقالات، فكان لهم ظهور حول النص.. في التسويق والعنونة، وفي التأطير الفكري، وهذا شديد الوضوح في تقديمهم لعددٍ من كتبه.

(2) محمد جاد عبد المولى

(3) كتب في سنة 1933م، وطبع في سنة 2002 على حساب عراقي مقيم بأوروبا.

المتطرفة للمستشرقين ودعاة النصرانية عن البعثة المحمدية، وإليك بعض ما توافق فيه الرصافي مع المستشرقين:

ادعى أن "الغاية التي ينزع إليها محمد ﷺ ليست دينية محضة بل هو يريد أن يحدث نهضة كبرى أو موجة عربية كبرى تكون دينية اجتماعية سياسية يقوم بها العرب في بدء الأمر على أن تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس"⁽¹⁾، وزعم أن هذا الإنجاز جاء من صفات في شخص رسول الله ﷺ منها: العقل⁽²⁾ والحزم والعزم⁽³⁾، والعلم الواسع بما في زمانه (أنكر أميته ﷺ⁽⁴⁾). وزعم أنه ﷺ تعلم من ورقة بن نوفل. وقد أشبعت هذا الكلام ردًا في مناقشتي لديورانت وعباس العقاد وخليل عبد الكريم وسيد القمني غيرهم، فقط أشير إلى أن أفكار المستشرقين تحركت في مساحات واسعة داخل الساحة المسلمة وحولها.

وادعى أن النبي ﷺ تمتع بخيال واسع، وزعم أن المعجزات جاءت من هذا الخيال الواسع⁽⁵⁾. وادعى أن الرسول ﷺ اتخذ من البعد الروحاني (الجنة والنار) والبعد المادي (الغنائم، والتبشير بالفتوحات) وسيلة لتشجيع أصحابه؛ وزعم أن النبي ﷺ كان زعيمًا سياسيًا محنكًا، واستدل بكلمة قالها للملأ من قريش (كلمة تدين لكم بها العرب والعجم) وكأن النبي ﷺ أغراهم بالسيادة على العرب إن هم قالوا هذه الكلمة

(1) النص من ص 27، والسياق من ص 20-34:

(2) ص 76 وما بعدها: محمد، صلى الله عليه وسلم، ذو عقلية ممتازة... = متميز تألم لحال المتخلفين من حوله!! وكلامه هذا يتطابق بشكل كبير مع كلام "جوزيف قزي" في كتاب "نبي الرحمة"، ومع ديورانت في تاريخه.

(3) ص 85.

(4) ص 166.

(5) ص 95. أنكر المعجزات وكذلك فعل الذين ظنوا أن الرسول ﷺ جاء من تلقاء نفسه.

وكان الرسول ﷺ كان يملك الزعامة على العرب وسيعطيهم إياها إن هم أطاعوه. وعمي الرصافي عن أشهر ما واجهوا به النبي ﷺ وهو الخوف من أن تأكلهم العرب إن هم اتبعوه، "وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطْفَ مِنْ أَرْضِنَا" (القصص: من الآية 57)، وعمي عن حاله وحال أصحابه ﷺ وهم قلة مستضعفه يخافون أن يتخطفهم الناس "وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ" (الأنفال: 26)، فلم يكن حاله ﷺ حال ممكن يبذل الملك لمن اتبعه، بل حال رجل في عددٍ قليل من أصحابه وقد اجتمع عليه من بأقطارها؛ وعمي (الرصافي) عن أن قريش.. في ذات المجلس، عرضت علي النبي ﷺ السيادة والمال وما شاء على أن يترك الدعوة لتوحيد الله ولم يقبل. وقال ﷺ كلمته التي ملأت الزمان والمكان: "وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ" (1)، فظاهر الكلام وسياقه أن الدين ممكن بأمر الله وأن من يؤمن بالله وما أنزل على رسوله ستدين له العجم والعرب إن آجلاً أو عاجلاً، وهو ما حدث بالفعل وبعد سنوات قليلة وشهده نفر من الحضور، وصدق الله "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (النور: 55). فقد كان رسول الله ﷺ يتحدث عن نصر الله للمؤمنين وليس لشخصه هو ولا لأحد بعينه ممن يسمع، فمن المحكمات البيّنات المقررة، والمتكررة، في القرآن الكريم أن شخص رسول الله ﷺ لم يوعد بالنصر في حياته هو، وتدبر قول الله تعالى: "وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفِينَاكَ

(1) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي، 1375هـ/1955م)، ج1،

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ" (الرعد: 40)، وتكرر هذا المعنى في أكثر من موضع من كتاب الله⁽¹⁾. وهذا ما كانت قريش تفهمه، وما كان يفهمه الملاء في كل زمان ومكان، كانوا يفهمون أن الدخول في الدين يعني التخلي عن الكبرياء في الأرض، وأن يكون التمكين للدين نفسه في هيئة عباد الله يأتمرون بأمر الله وينتهون بنهيه وبالتالي تقام بهم الحياة على منهج الله في الحقوق والواجبات بين الأفراد والمجتمعات. وكانوا يفهمون أن الدخول في طاعة الله يعني نزع التكبر والاستعلاء والتأله الذي يمارسه الملاء على العوام "فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ" (المؤمنون: 47)؛ ويعني نزع ما في أيديهم من سلطان، ويعني تسويتهم بمن يتسلطون عليهم ويحتقروهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ (البقرة: من الآية 13)، ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء: 111) ﴿وَمَا تَرْبِكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِكِ الْأَسْوَاقِ﴾ (هود: 27).

وفي تفاصيل البعثة المحمدية لم تكن الحروب مصدراً للوفرة المالية، بمعنى أنها لم تكن حالة من نهب أموال الناس وتوزيعها على المؤمنين بالله المتبعين لرسوله ﷺ، وإنما غلب العفو مع المخالفين، سواءً من المنافقين الخائنين أم من الكافرين المقاتلين، حتى عوتب ﷺ في العفو، فكانت حالة من الرحمة ودعوة الناس لعبادة الله العلي الكبير، وقد بينت عددًا من الأمثلة حال مناقشة "ديورانت"⁽²⁾، والزكاة توزع في مكانها ولا

(1) ﴿وَمَا تَرْبِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: 46)، وقول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُ بَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (غافر: 77)، وقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (أ) أَوْ تِرْيَاقُ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (الزخرف: 41-42).

(2) مثل العفو عن قريش بعد الهجرة، والعفو عن قبيلة طيء، وثمامة بن أثال، وطبيعة التوصية للجيش من الرحمة بالصغار والكبار وتجنب النساء والزروع؛ والعفو عن عبد الله بن أبي بن سلول والاستغفار له.

يذهب للمركز إلى الفائض، فكانت البعثة تمكين للناس مما قدره الله في الأرض من إمكانات. كان البعثة تحرير للإنسان من استعباد بعض البشر له وفي ذات الوقت تمكينه مما خلق الله في الأرض من إمكانات⁽¹⁾، ولم تكن حالة من نزع الاستبداد على العباد وعلى الأموال من مجموعة ووضعتها في يد مجموعة أخرى كما يحاول أن يصور هؤلاء.

ويصح هنا أن نستدل بحال النموذج التطبيقي للبعثة (الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم) ومن تبعهم بإحسان) فقد عاشوا كغيرهم ممن دخلوا الإسلام. وادعى أن النبي ﷺ أباح الكذب تحقيقاً للمصلحة⁽²⁾ يحاول أن يُلبس البعثة ثوب السياسة المعاصرة التي تقوم على الكذب والخداع. وإن تحريم الكذب من المحكمات في الشريعة، يقول الله، سبحانه وتعالى وعز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (النحل: 105)، وفي الحديث: "إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا". وفي الحديث: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ - يَعْنِي: الرَّجُلَ - لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا" (2) ، وفي الحديث: "أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: لَا". وهذا (الرصافي) يستحضر التورية في حالات استثنائية في موطن الحرب.. حال الحرب أو للصلح بين الناس أو لتطيب العشرة مع الزوجة بثناء جميل مما يعجب النساء، ثم يعمم ويقول أباح الكذب سياسة على الناس!!

(1) والتفاصيل عند الدكتور جميل أكبر في أطروحته "قص الحق".

(2) ص 45 وما بعدها.

وإن السياق العام في مكة والمدينة وحال الهجرة يبين بوضوح أن رسول الله ﷺ اختار الصدق بالأفعال والأقوال في مواطنه كلها، قبل البعثة وبعدها، فقد لقبوه بالأمين، وحين اعتلى الصفا يحدثهم بأنه رسول الله إليهم قالوا له: "ما جربنا عليك كذباً قط" (1). وقد نعت قريش بالكفر ورفض أن يداهنهم بأقل شيء: ﴿ وَدَوُّوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيَدْهِنُونَ ﴾ (القلم: 9)، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿ لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا اَعْبُدُ ﴾ ﴿ لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ ﴾ (سورة الكافرون). وإن حال النبي ﷺ هو الصدق قبل البعثة وبعدها حتى قال له قومه يوم أعلنهم ببعثته ﷺ "ما جربنا عليك كذباً قط" ﷺ.

وزعم الرصافي أن الرواية ظلت هي وسيلة النقل للقرآن الكريم والسنة النبوية إلى القرن الثاني، وهذا كذب بين، فقد كان الصحابة يكتبون القرآن الكريم بين يدي النبي ﷺ ويعرف القاصي والداني "كتبة الوحي" كمعاوية بن أبي سفيان وسعد بن أبي السرح وعلي بن أبي طالب وغيرهم، فقد تلقينا نصاً مكتوباً ومنطوقاً.

والمقصود من الاسترسال في هذا المثال مع أنه غير مشهور هو بيان أن أفكار المستشرقين كانت معروضة على من يقتبسها دون تثريب منهم عليه، فاقتبس كل واحد حسب جهله بالدين ومكر الكافرين، أو حسب جرأته على الجهر بالباطل. فمنهم من أخذ فكرة أو فكرتين وتحرك بهما على أنهما من بنات أفكاره ولم ينكشف أمره إلا بعد انتشرت ثقافة الغرب وعزى الله باطله بمن استخدمهم في نصرته دينه ككثير من أفكار طه حسين والعبقریات، ومنهم من نقل نقلاً مباشراً عن الكافرين كهذا المأفون عدو نفسه؛ ومنهم من أعاد صياغة حديثهم وكأنه يتحدث من تلقاء

(1) ينظر: "صحيح البخاري"، (دمشق، دار ابن كثير، 1414هـ/1993م)، كتاب التفسير، باب "تفسير سورة تبت يدا أبي لهب"، وينظر سيرة ابن هشام السقا، ج1، ص351.

نفسه، كخليل عبد الكريم وسيد القمني⁽¹⁾. فقد كانت المرحلة نقل عن الكافر أو نشر لأفكاره، أو تسكين للسيرة والشريعة في المذاهب العلمانية الحديثة التي اجتاحت العالم الإسلامي.

ومن الأمثلة التي ينبغي أن نقف عندها لبيان التبعية الفكرية للمستشرقين.. لبيان أن الأدوات الغربية استُخدمت لفهم البعثة المحمدية.. لبيان أن أصحاب المذاهب العلمانية قرؤوا السيرة النبوية، والشريعة عمومًا، من خلال مذاهبهم العلمانية، ما قام به عبد المجيد الشرفي وطلبته من دراسة حول القرآن الكريم. وأنظرُ إلى تجربة الشرفي من زاوية محددة وهي أن هؤلاء استخدموا أدوات المستشرقين المنهجية (النقد النصي تحديداً) وحاولوا بكل تعسف تطبيقها على القرآن الكريم، رغم بعده التام (كموضوع) عن الصلاحية لهذه الأداة البحثية. وذلك أنه إن كان النقد النصي صلح للكتاب "المقدس" كونه لم يظهر إلا مخطوطات، فإن القرآن الكريم نقل إلينا بالضبط الشفهي بجوار الضبط الكتابي وذلك منذ نزوله على رسول الله ﷺ. فالنبي ﷺ تلقى القرآن من الله سبحانه وعز وجل عن طريق الروح الأمين جبريل، عليه السلام، وضبط جبريل للرسول ﷺ النصَّ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿٧﴾ ﴿القيامة: 17﴾. فقد كان يراجع كل عام مرةً وراجعه في العام الأخير مرتين والحديث في صحيح البخاري (وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ)، والصحابة، رضي الله عنهم، تلقوا القرآن من النبي ﷺ، مشافهةً وكتبوه بين يديه، ورتبه لهم، فكان كل لفظٍ مأخوذٍ عنه ﷺ وكل قراءة أخذت عنه ﷺ، وكان ترتيب السور وترتيب ما فيها من آيات منه ﷺ، وكان الجمع من أبي بكر جمعًا للمحفوظ والمكتوب والمرتب في آياته وسوره بين دفتين (مصحف)، ثم جاء عثمان فضبط اللفظ مع النطق ببعض الإشارات (كالألف الصغيرة بعد الميم في ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٤﴾).

(1) خليل عبد الكريم يكاد يتطابق مع كتابات جوزيف قزي، وكذلك سيد القمني وناقشتها كل في موضعه.

وما لا يحتمله الرسم فَرَقَهُ في النسخ التي وَرَّعَهَا على الأمصار. فكان مجموع نسخ عثمان بن عفان رضي الله عنه يحتوي على كل القراءات. وبكل قراءة قرأ قومٌ. بمعنى أن القراءات موجودة من أول يوم نقلاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليست من صنع الصحابة والذين من بعدهم كما يزعم هؤلاء. أما "عبد المجيد الشرفي" وتلاميذه ومن وافقهم. فلكثره مخالطتهم المستشرقين والثقافة الغربية دخلوا في حالة متوهمة. أو بالأحرى أعرضوا عما هو مثبت في كل بيت مسلم وفي كل ساعة مرت على الأمة، من أن نص القرآن الكريم محفوظ من الله العليم الخبير سبحانه، نطقاً وكتابةً، وأن الذي بين أيدينا هو الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ (الحجر: 9)، يقرأه الضابط منا كما قرأه جبريل وكما قرأه محمد صلى الله عليه وسلم. فرددوا أكاذيب المستشرقين (ادعاء أن القراءات حالة من التضارب والاختلاف، وأنها ظهرت متأخرة بفعل الأعاجم مع أنها بلسان عربي مبين، وكذلك رددوا الزعم بأن القرآن الكريم كتب في أزمنة متلاحقة!!). وفتشوا عن أقدم مخطوطة بيد المستشرقين، وذلك على اعتبار أن البحث "العلمي" لا يعمل إلا على مخطوطات (وثائق)، فوجدوها في اليمن مهترئة ناقصة رقعها مستشرق أعجمي لا يحسن العربية، فأخذوا نسخته الناقصة والمرقعة هذه وراحوا يدرسون القرآن منها!!⁽¹⁾ و ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ أَنْفَ يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ سورة التوبة: آية ٣٠.

(1) ينظر: "المصحف وقراءاته" لعبد المجيد الشرفي، محرراً، (الرباط، مؤمنون بلا حدود، 2016م)، ص 15-23. وللوقوف على تعمدهم الخطأ في كثير من معالجتهم من حيث المنهجية والتطبيق ينظر: "نقد كتاب المصحف وقراءته" لمحمد أمين بن مصطفى العوني، (تونس، دار المازري، 2021). وللوقوف على فساد منهجية المستشرقين وتعمدهم الخطأ حال دراسة القرآن الكريم ينظر: "المستشرقون والقرآن الكريم في المراجع العربية"، لعلي بن إبراهيم النملة، (بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، 2010م). وللوقوف على نماذج مشابهة فيما يتعلق بالمخطوطات ينظر: "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1996م)، ص 290، 291. وينظر: "الفكر الأصولي واستحالة التأصيل"، لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، دار الساقي، 1999م)، ص 45. ومن أفضل ما

المتوافقون مع التنصير كلية:

في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين الميلادي بدأت موجة جديدة شديدة التطرف الفكري، والبذاءة اللفظية، وشديدة الانحطاط في التعامل، ومن أشهر هؤلاء الكذاب اللئيم زكريا بطرس، وجوزيف قزّي (أبو موسى الحريري)، و خليل عبد الكريم، وسيد القمني. والسياق الذي خرج فيه هؤلاء هو سياق التنصير المدعوم من الإلحاد العالمي، ولم يأت هؤلاء بمجرد فقط أعادوا ما قيل من قبل، وأكدوا الحقيقة التي نحاول إبرازها وهي تبعية المثقف المعاصر للفكر وإن شاء الله نناقش المفاهيم من خلال من اشتهر منهم.

وماذا أفعل هنا في هذا الكتاب؟

أحاول، بحول الله وقوته، كشف هذا السياق من التبعية للآخر، أو بالأحرى من تفعيل الآخر للتابعين له، وإظهار مقولاتهم الرئيسية والرد عليها، أعرض المقولة وأشهر المتحدثين بها لأجمع بين: كشف السياق وكشف المقولات وكشف المتحدثين بالباطل. أرجو أن يكتبني الله ممن جاهد المعتدين من الكافرين والسماعين لهم والمنافقين بالقرآن الكريم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: من الآية 52). والله أسأل عوناً وقبولاً، وبركة، إنه كريم منان.

د. محمد هلال القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

فجائية الدعوة أكثر ما يورق المخالفين

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

قبل عقد ونصف تقريباً كنت مهتماً بالرد على شبهات زكريا بطرس، وجرتني الرد عليه إلى نقد عباس العقاد والدعاة الجدد وغيرهم. مكثت أكثر من خمسة أعوام بين بطرس والعقاد والدعاة الجدد وما قاربهم؛ لاحظت أن قضية ما تبرز بوضوح عند الجميع. هي إنكار الوحي. أو إنكار الرسالة!!

بطرس يتحدث بما توحيه الشياطين للكافرين في كل زمانٍ ومكان. يقول: ساحر، ويقول: مجنون، ويقول: علمه بشر. ويقول: يطلب الرئاسة في قومه.. كالذي قاله أبو جهل ورفاقه من قبل. لا تكاد تجد فرقاً بين كفار قريش وكفار اليوم، (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنُونَ. أَتَوَصَّوْا بِهِ بِئِلَّهِمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ)، (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ)، فالعلة هي تشابه القلوب وإن اختلف الزمان والمكان، والعلة هي تسلط الشياطين على هؤلاء (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ).

وبعض المنتسبين للإسلام تبني أطروحات النصرانية كاملة كما فعل خليل عبد الكريم، وكما فعل سيد القمني. وبعض المسلمين تبني الفكرة وعالجها بطريقة كما حدث في تبني فكرة "التطور الفكري"، و "تأثير البيئة"، مثل: عباس العقاد وعلي الوردي (انظر مقال: فنظرة الإلحاد: عباس العقاد وعلي الوردي نموذجاً) وزاد العقاد طريقاً مستقلاً

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة.

هو طريق العبقريات. وقد ناقشت أفكار العقاد في كتابٍ مستقل بعنوان: "مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد".

وورط الكافرُ والمنافقُ نفرًا من المسلمين من خلال التواصل الثقافي والمنافع والمصالح المشتركة، فحديثًا ظهرت أطروحات تزعم أن السيرة النبوية تجربة بشرية قامت على التخطيط والثقافة العامة للنبي، صلى الله عليه وسلم، وأن الوحي محدود الأثر ولم يتدخل في الأحداث!!، ثم يدَّعون أنهم "على خطى الحبيب"، والله يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: 4-5).

وكلما جمعوا فكرةً وجاءوا يتحدثون يأتيهم شهاب ثاقب يحرقهم وما في أيديهم. هذا الشهاب الثاقب الذي يقضي على أكاذيب الكافرين وأراجيف المنافقين وأحاديث الغافلين هو فجائية الدعوة في ثلاثة مستويات: الأول: شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضوان الله عليهم -، والثاني: والبيئة التي عاشوا فيها، والمستوى الثالث: القضايا التي أثارها البعثة (العقيدة).

لم يتلق شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، أيَّ معارفٍ ممن حوله، فلم يكن يقرأ أو يكتب (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ الْمُنبِطُلُونَ) (وعاش بين قومه أربعين سنة لم يفارقهم، وخلال هذه العقود الأربعة لم يجلس لأحد ويتعلم منه حرفًا واحدًا، بمعنى أنه لم يتعرض لتطور معرفي انتهى بالرسالة. وكذلك لم تؤثر فيه البيئة فقد كان مخالفًا لقريشٍ في دينها، لا يقف بمزدلفه ولا يلتزم بشعائريهم في الأعياد والمواسم دون أن يكون له موجه أو مثيل من بينهم؛ حتى التأهيل الخلقي كان من الله كليةً (شق الصدر، وفي الحديث: أدبني ربي فأحسن تأديبي). وفجأة بدأ يتحدث بحديثٍ آخر (القرآن الكريم) من جنس كلامهم ويخالفه تلاوةً وتركيبًا، ويخبر عن السابقين واللاحقين...

وقل مثل هذا في حق الصحابة، رضوان الله عليهم، فالذين وحدوا الجزيرة العربية تحت راية الإسلام وكسروا كسرى وأرغموا قيصر على ترك الشام وشمال أفريقيا.. لم يتصلوا بغيرهم مطلقاً قبل فتح هذه البلدان، ولم يطوروا شيئاً من علوم الأرض هؤلاء الذين هم أهم حدثٍ في تاريخ البشرية نبتوا من نص مسموع ومقروء (كتاب وسنة).

وفي المستوى الثالث الخاص بالمحتوى، نجد أن الدعوة لم تتفاعل مع أسئلة مطروحة في البيئة التي بعث فيها رسول الله بل أثرت قضايا جديدة: عن الخالق سبحانه وعز وجل، وعن الخلق، وماذا يراد منهم وماذا ينتظرهم إن آمنوا أو كفروا.

الاتصال بالأمم الأخرى:

يحلوا بعضهم التحدث بأن الحضارة الإسلامية دخل في تكوينها الحضارات الأخرى. وكأن المسلمون عكفوا على دراسة ما عند غيرهم ثم أكملوا المسير. يقولون: العلم إنساني.. تراكمي، والمسلمون حلقة فيه؛ والمتحدثون بهذا القول من أبناء نظرية التطور المعرفي أو ممن يخافون أبناء التطور المعرفي، أو لهم مصالح يخافون عليها إن خالفوا التطور وأهله. وقد جاءوا ظلماً وزوراً!!

البشرية لا تسير في خط مستقيم صاعد، بل في دوائر. تولد الأمم وتشب وتشتد ثم تهرم وتشيوخ وتموت. والمسلمون الأوائل الذين أسسوا الدولة الإسلامية (الخلفاء والتابعين وتابعيهم إلى بداية القرن الثاني، وهو ذروة التسوع الحضاري للمسلمين) لم يتصلوا بغيرهم. فالإتصال بالحضارات الأخرى جاء متأخراً (في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث)، بمعنى أنه جاء بعد التأسيس. والملاحظة الأهم أن الأمم الأخرى كانت متخلفة حين اتصل بهم المسلمون، وما أخذها علماء المسلمين منهم عبارة عن أوراق مهملة وعكفوا عليها ودرسوا ما فيها وصوّبوا بعضه وطوروا كله ضمن قواعد الشريعة، ولم يأخذوه كما هو بفلسفاته ونماذجه التطبيقية، بمعنى أنهم نزعوه من سياقه

(فلسفاته) وأعادوا تشكيلة ضمن سياقنا، وعلى سبيل المثال: هندسة المعمار - وهو أكثر ما يستشهد به - خرجت عندنا في صيغة خاصة جداً عبارة عن أقواس ودوائر تترجم قيمة عليا عندنا هي محورية المسجد في قلب المدينة كمحورية الكعبة. ومن يتتبع سيرة أوائل علماء الطبيعة المسلمين، كالخوارزمي والبيروني وابن سينا وابن الهيثم.. يرى بوضوح أنهم متأخرين عن فترة التأسيس والازدهار وأنهم أخذوا كتابات نقحوها وطوروها، وأنهم لم يخالطوا أمما متقدمة تتلمذوا على أيدي علمائها. وأما علوم الفلسفة فكانت - ولا زالت - هدمًا في الشريعة. فالفلسفة بالمعنى الواضح لها إجابة مختلفة للأسئلة الرئيسية التي يجيب عليها القرآن الكريم والسنة النبوية: الخالق والخلق والمآل. والذين تأثروا بالفلسفة كلية من المسلمين عدوا زنادقة واختلف الناس فيمن تأثر جزئياً. كمن أخذ أداة العقل كمصدر للمعرفة وكحكم على الأشياء يسبق الوحيين (الدليل النقلي)؛ وحتى هؤلاء - المتأثرين جزئياً - كانوا منبوذين في الحضارة الإسلامية كابن رشد الحفيد. وعند التدقيق نجد أنهم كانوا ضمن سياق المخالف.. شكّلوا قنطرة بين ماضي أوروبا وحاضرها الذي قطعه الإسلام وكاد يقضي عليه، ولذا يفاخر بهم الغرب وتلاميذ الغرب!!

ماذا يؤرقهم في فجائية الدعوة؟!

يؤرقهم أننا سماويون. أن النص الشرعي المقروء (الكتاب والسنة) يصلح تمامًا لإتمام عملية إصلاح شاملة وسريعة جداً في حياة الناس. وعلى صفحات التاريخ نموذج عملي أضاء حياة الناس وعطرها قرونًا من الزمان، وعاد مرة بعد مرة في بعض جنبات المعمورة.

ويؤرقهم أن نرفع سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته كنموذج عملي نفهم من خلاله النص الشرعي، فلم نتلق نصًا في فراغ. بل تلقينا نصًا وتطبيقًا عمليًا لهذا النص في شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، والصحابة من بعده في المستوى

الاجتماعي والمستوى السياسي (الخلفاء الراشدين). وهذا يقطع الطريق على محاولات مصادرة النص من خلال التأويلات المطلقة.

ويؤرقهم حضور الوحي كمصدر للإجابة على الأسئلة الرئيسية التي تدور حولها المعرفة: الخلق والخالق والمآل؛ وبالتالي كموجه للناس وضابط لحركتهم. ويؤرقهم أن فجائية الدعوة تقطع الطريق على فكرة التطور المعرفي والتي هي اليوم تمكين للمناهج الغربية الملحدة، والتي هي اليوم تحويل للمجتمعات في اتجاه الجنسانية والكفر بكل دين باعتبار أنه تطور طبيعي لحياة الناس!!

نعم منهجان يتدافعان: منهج من الله ومنهج من الأرض. ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٣٩﴾. ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ اسْتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾

محمد مهدي القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

تراهم ركعاً سجداً

محمد جلال القصاص (1)

منذُ كنتُ صغيراً وعشراتٍ من المشاهدِ والصورِ تتراكمُ في خاطري، وكلما دخلَ مشهدٌ - من هذا النوعِ - أثارَ غباراً وقلقاً، وأقامَ ولم يرحلْ. كلُّ المشاهدِ كانت تطرُحُ سؤالاً أستحي من التصريح به. ودعني أعرضُ عليك بعضَ المشاهدِ والغبارِ الذي أثارته، ثم أعرضُ عليك كيف ترتبتُ في ذهني بعد سنواتٍ من القلقِ علَّ اللهُ أن يجعلَ هذه الكلماتِ سبباً في إزاحةِ قلقٍ وإرشادٍ لطريق.

يومَ جاءت الرسالةُ لسيدِ الناسِ الرسولِ، صلى اللهُ عليه وسلم، كان في أفضلِ حالٍ يتمناه إنسانٌ: رُزِقَ المالُ (كَانَ أَغْنَى قَرِيشٍ.. إِذْ كَانَ يُتَاجَرُ بِمَالِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، ورُزِقَ سيدةَ النساءِ (خديجةُ بنتُ خويلدٍ)، ورُزِقَ البنينَ والبناتِ، وكان، صلى اللهُ عليه وسلم، من أفضلِ بيتٍ حسباً ونسباً في مجتمعٍ يُفاخرُ بالأحسابِ والأنسابِ. ويحبهُ الناسُ ويحترمونه، ويلقبونه بالصادقِ الأمين. ويجدُ مساحةً من الوقتِ للتعبُدِ والخلوةِ دونِ شاغلٍ من طلبِ رزقٍ أو ولدٍ أو زوجةٍ. وكان من أولِ ما تلاه الحبيبُ جبريلُ على الحبيبِ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) (الضحى: 5). ثم ماذا؟!

ذهب هذا كله. ذهبَ المالُ كله. وتناول عليه المملأُ والسفهاءُ وأقسموا أن يجذُّوا في التعدي على حسبه ونسبه، وهو خيرُ خلقِ اللهِ كلِّهم؛ وحوصر في الشعبِ ثلاثَ سنواتٍ رفقَةً أهله وعشيرته لا يجد ما يأكل ولا يأمن على نفسه وبناته، وماتت سيدةُ النساءِ خديجةُ بنتُ خويلد، وحلَّ الحزنُ والشغلُ؛ ثم طردَ من أحبِّ البلادِ إلى اللهِ وإليه في نفرٍ

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة.

قليل من أصحابه يخافون أن يتخطفهم الناس، وأقام بين ظهري يهود وموالي يهود ومن خلفهم أمواج من البشر بُغضه وأصحابه، كلهم يُقاتله وحريصٌ على قتله (وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ). نُزعت النعماء كلها.. وحلَّ البؤسُ من كلِّ مكانٍ، فأين عطاءُ الله!؟

ويعقوب- عليه السلام- يتلى بفقدان أعز أبنائه (يوسف عليه السلام)، ويظل، وهو النبي التقي النقي ابن النبي (إسحاق عليه السلام) ابن النبي (إبراهيم عليه السلام) يدعو الله عشرات السنين أن يرد الله عليه يوسف. تمكن منه الحزن حتى ابيضت عيناه وكاد أن يكون حرصاً أو يكون من الهالكين، ولم يستجب له إلا بعد عقود من الزمن.. تُرك للحزن والكمد عشرات السنين، فأين إجابة الدعاء؟ وهذا نبي تتوفر فيه كل شروط الإجابة. أين قرب الله من هذا الولي التقي النقي النبي!؟

وزكريا- عليه السلام- يسأل الله الولد ليرثه ويرث من آل يعقوب، فيأتيه الولد، ثم يُذبح في حجره بأمرٍ من بغي!!

وموسى- عليه السلام- يقيم بعد هلاك فرعون بين من يعصونه ويسخرون منه، ثم يموت في التيه، على تخوم الأرض المقدسة يشتاقي إليها ولا يستطيع دخولها.

وداود- عليه السلام- يؤتيه الله الملك والنبوة ووفرةً من زينة الحياة الدنيا في مقدمتها ابناً نبياً ملكاً (سليمان عليه السلام)، وجنوداً من الجن والإنس والطير يُوزعون. ثم ماذا؟ لم يستمر ذلك لجيلٍ واحد.. ذهب كله.

وحالي وأنا لا أكف عن الدعاء بالعافية والسعة حيث يرجى الإجابة، والأيام لا تكف عن صفع وضربٍ وما استطاعت، كأني وترتها في أعز ما عندها. كنت أحاذر السجن وأدعو الله بالعافية ليل نهارٍ ثم دخلته أربع مرات، وذقت ما كنت أحاذر. ورافقت في الحبسة الأولى كريماً حسن الخلق من بيت طيب، وكان من الحفظة لكتاب الله المجتهدين في العبادة يطلب من الله الخروج من السجن ليل نهار، وسجن خمس سنوات في شيء لم يفعل!!

والإسلاميون وهم يقومون في وجه الظلم العالمي والظلم المحلي، وكلّما قاموا قامَ عليهم الظالمون وغلبوهم وتنتهي الجولةُ بهزيمةٍ نكراءٍ لمن يُعلنون الإلتزامَ بشرعِ الله.

كانت هذه النوعية من المشاهد تُثيرُ سؤالاً عن عطاءِ الله لعباده الصالحين. ما طبيعته؟، ماذا أخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد البعثة؟، وماذا أخذ زكريا -عليه السلام- وقد قُتل وحيداً وقُتل هو أيضاً، وماذا يأخذُ من يجتهدُ في الدعاء ثم يأتيه غير ما يطلبُ؟!

يستحضرون ما جاء في الحديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، بأنك إن دعوتَ تُجاب دعوتك، أو يُفرجُ عنك من الضيقِ مثلما طلبتَ من غيره، أو يُدخِرُ ثوابَ ذلك للآخرة. وهي إجابةٌ جيدةٌ، ولكني أفتشُ عن شيءٍ آخر. أفتشُ عن المشهدِ كيف يُدار؟، ماذا يُراد منا؟، وماذا يُراد بنا؟

وأفتشُ عن وعدِ الله للصالحين من عباده بنصرهم وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة: (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)، (فَلَنَحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا) (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي).

وأنا عبدٌ يفتشُ عن حكمة سيده، ولا يكفُ عن الدعاءِ بالعلمِ والحلمِ والفهمِ والحفظِ والسعة...، وانتهيتُ إلى تصورٍ يمكنُ صياغته في مقولاتٍ خمسٍ، كلُّ واحدةٍ منها تُفسِّرُ جزءاً من المشهد، وكلُّها -مجتمعةً- تُفسرُ المشهدَ كاملاً، على النحو التالي:

المقولة الأولى: عبد ومعبود.

ينتشرُ الفكرُ في العقولِ كما تنتشرُ موضئةُ الثيابِ على الأبدان، فكما يأتينا من عند أعدائنا ملابسٍ لا تسترُ، وإن سترتُ تصفُ ما لا يصحُ وصفه، يأتينا موضئةً فكريةً تذهبُ بحشمةِ العقولِ ووزانتها وتدنيها. والجيلُ الحاليُّ يتعرضُ لموضئةٍ فكريةٍ يمكنُ أن نسميها بـ "تأليه الإنسان". فحينَ تتأملُ ما يتلوه "الدعاةُ الجددُ" ودعاةُ "التنمية البشرية" وخاصةً من يحاولون أسلمتها.. ما يُسميه باتريك هايني بـ "إسلام السوق"، تجدُ هؤلاءِ يتحدثون للزبائنِ على أنهم أربابٌ يأمرون. على أن الله "في خدمتهم" يُسخرُ لهم كلَّ شيءٍ، فقط

عليهم أن يأتوا إلى الله ويتفضلوا بالسؤال (الدعاء) وأن الله لا بد سيعطيهم. والله هو الكريم المنان، المعطي الوهاب، النافع الرافع، رب كل شيء ومليكه. بيده الخير، وعنده خزائن كل شيء، وهو على كل شيء قدير، ولكنه رب خالق معبود وغيره عبد فقير مقهور.

وهذا الخطاب تأثر بالاحاد الذي هو عبادة الذات، ويخدم - بقصد أو بدون قصد - الإلحاد. فكان أن أثمر هذا النوع من الخطاب تضخم البعد الدنيوي على حساب البعد الأخروي، حتى لا تكاد تسمع أحدهم يتحدث عن اليوم الآخر وإن تحدث فعن الجنة ولا يكاد يذكر النار. يتمحور حول الدنيا.. حول المشروع الدنيوي المادي البحت الذي في جوهره حضور الأنا بين الناس، وكانت النتيجة أخذ الناس بعيداً عن الآخرة، والله يقول: (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)، فكانت المحصلة أن فشل هذا النوع من الخطاب في تحقيق الغاية من الدعوة وهي "تعبيد الناس لله" وفوق ذلك أوجد كائناً يشعر أنه رب، أو أن الله يعطيه ما شاء فقط بمجرد الدعاء. كأنه يأمر لا أنه يتضرع (أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (الأعراف: 55).

المقولة الثانية: يحق.. ويربي (الحق والبركة).

في سياق تحريم الربا يقول الله تعالى: يحق الله الربا. وحين تتأمل هذا المعنى وتبحث في دلالاته اللغوية والواقعية، تجد أن "الحق" زهابٌ للشيء دون أن يشعر صاحبه.. اختفاءً بهدوء، وعكسه "يربي" يزداد دون أن يشعر صاحبه. بمعنى أن الذي يأكل الربا يحاول أن يزيد ماله من حيث لا يحل فتكون النتيجة عكس مراده، وكذلك الذي يتصدق ينفق من ماله فتكون النتيجة زيادة المال. ويمكننا نقل هذا المعنى من سياق الربا لسياق الحياة عموماً. الذي يحاول القرب من الله والذي يتبع هواه. الأول يبارك له والثاني يُمحق. ونعود ثانية للحبيب، صلى الله عليه وسلم، ظاهراً نقص ماله وولده وطرد من وطنه، ولكن حين تنظر لما أُعطي بعد سنوات قليلة فستجد شيئاً عظيماً: صلاة من الله وملائكته عليه، وأصحاباً يحبونه ويحيطون به ويصلون عليه، وأثراً صالحاً لا ينقطع، وذكرًا حسناً

يملاً الدنيا كلها، فكان حاله على ما وصف الله في سورة التحريم "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ" (التحريم:4)، فأى عطاءٍ أكثر من هذا. وكذا حال المهاجرين والأنصار، وكلِّ من يعملُ لله.

ولنفسك خذ نقطتين على سطح الأيام وانظر حالك قبلها وحالك بعدها، وستجد أن التجارة مع الله رابحةٌ وإن ثمة خسارةً-بمقاييسك أنت- في التفاصيل. إن مَنْ يتاجرُ مع الكريم المنان يربو. (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (سبأ:39)، وفي الحديث: "ما نقصَ مالٌ عبدٍ من صدقةٍ". تأخذُ بقدرِ حضورِ الله في قلبك وقدرِ خضوعك له بجوارحك، ومن أعرَضَ أخذَ شغلاً وهمًا وحرزاً وإن ملئت يدها مما يجب (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) (طه:124)..

المقولة الثالثة: لا يوجد اضطراب.

ليس كلُّ الأنبياءِ فقراء، وليس كلُّ الصالحينِ أشقياءَ مجردونَ من الدنيا، فقد كان في الأنبياءِ ملوكُ (داودَ وسليمانَ)، وكان منهم من يَلْتَحِفُ السماءَ (عيسى عليه السلام)؛ وكان من الصحابةِ عثمانُ بن عفانٍ في غناه وحبِّ الناسِ له وقوته على قراءة القرآن والذكر... مَنْ الله عليه بالنعماء في العطاءِ الدنيوي والأخروي، وكان منهم أبو ذرٍ. وقد قال عثمانُ قَوْلَهُ: ما كان يرجوه عمرُ بزهده أرجوه بمالي. فليس فضلُ الله في الغنى ولا فضلُ الله في الفقر بل في أن تكون ذاكرًا منشغلاً بما أراد الله منك، وبما يُحِبُّ أن يراك عليه. (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَتَنِي ﴿٥٧﴾ كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٥٩﴾)...

ويشتركُ المقربونَ كلُّهم في الأنسِ بالله وما يشمُّله ذلك من الراحةِ والطمأنينةِ وتيسيرِ الحال.

المقولة الرابعة: لا تعطِ الله خطة عملٍ.

يُحَوِّلُ بعضهم فَهْمَهُ هو للوحي (كتابٍ وسنةٍ) إلى حقائق، ثم يبحثُ عن تحقيقها في أرض الواقع، ومن أشهر ما يُستحضرُ هنا الخطابُ السلفي الدعوي (السلفية العلمية)

في التسعينات. كان بعضُهُ يندُرُ الناسَ بعذابِ الله، يقول: بأنَّ الناسَ قد استوجبوا العقابَ، فَهُمُ سَمَّاعُونَ للكذبِ (الإشاعات) أكالون للسحتِ (الربا) ولا بدَّ أن تُصيبَهُمُ السننُ الربانيةُ، وبعضُهُ على النقيضِ تمامًا، يبشُرُ الناسَ بأنهم على أعتابِ خلافةٍ على منهاجِ النبوة. وحين تدفُقُ النظرُ في حالِ الفريقين تجد أن كلَّ واحدٍ قد استحضَرَ من الشريعةِ ما يوافقُ شخصه هو أو ما يوافقُ مصلحته، فلم تكن أسواقُ الكاسيتِ (وكانت بالملايين) تستقبلُ المندرينَ (المتشائمين حسب تعبيرهم). وفي الاعتقالِ الأولِ (2014) كانوا يسألونني (باعتبارِ أنني مُتخصصٌ في السياسية): عن الحالِ ومتى سنعوُدُ؟، وكنتُ أقولُ: إننا على أعتابِ الأزمةِ ولم تَشْتَدُ بعدُ، وأنَّ البُشرى فرديةٌ فعلى كلِّ أن يَشْتَدُ تَضَرُّعًا إلى ربه ليفرِّجَ عنه وعن غيره من المسلمين فالدعاءُ يَنْفَعُ مما وَقَعَ ومما لم يَقَعْ، كما في الحديث. وفي الاعتقالِ الرابعِ (2019) تحدَّثَ إليَّ أحدهمُ يُواسيني-وهو يَظُنُّ أن حبسي سيطول- بأنَّ كلَّ الرؤى أجمعت على أنَّ عامَ 2019 هو عامُ الحسمِ ضدَّ الظلمِ، فدعوتُ له بخيرٍ، وكدثُ أحدثُهُ بأنَّ الرؤى تُجمَعُ على هذا كلِّ عامٍ، ولكني خشيتُ أن يفهمَ أنه طعنٌ في المبشراتِ التي تأتي من خلالِ الرؤيةِ، وهو حقٌّ جاءت به السنةُ. المقصودُ هنا هو الانتباهُ إلى أن كلَّ واحدٍ ينسُجُ من الشريعةِ ما يناسبُ شخصه أو مصلحته وينتظرُ من الله أن يسيرَ على خطته هو، تعالى الله علوًا كبيرًا. وعلى المتلقي أن يكونَ يقظًا، وأن لا يَحْتَنانَ نفسه هو الآخرَ فإنَّ كلَّ واحدٍ من العوامِ ينتقي من يتبعه.. يختارُ تبعًا لما يحبُّ، ولذا (لكلِّ ضِعْف) (الأعراف:38).

المقولة الخامسة: الله يعطي أكثر مما يدعى به

الله يعطي أكثر مما يطلبه العبد في دعائه. هذه حقيقة شديدة الوضوح في كل الأمثلة التي ضربها الله لنا في كتابه. فقد نجا الله يوسف من مكر إخوته، وجعله عزيز مصر، ونجا به مصر من مجاعة لو حلَّت بها لأهلكت الحرث والنسل، وأغاث به أهله أجمعين بعد أن مسَّهم الضر، وجمعه بأبويه، وعاشوا في دين الملك هم وذريتهم من بعدهم لقرونٍ من الزمن.

أليس هذا خير من إجابة دعاء يعقوب (رد يوسف عليه بعد فقدانه مباشرة)؟! ويونس، عليه السلام، لم يكن يرجو أكثر من الخروج من بطن الحوت، ولو أعطاه الكريم المنان ما دعا به لهلك على الشاطئ من أثر المرض الذي أصابه من المكوث في بطن الحوت، ولو أعطى الله يونس عليه السلام ما أراد، وكان طلبه فقط أن يخرج من بطن الحوت، لربما مات على الشاطئ من المرض والجوع أو حرارة الشمس، ولكنه الكريم أكرمه وأعطاه -كعادته سبحانه وعز وجل- فقوق ما تمنى، أخرجه من بطن الحوت، ونجاه من الهم والغم، وأنبت عليه شجرة من يقطين تطعمه وتظله، وأعاد له لوطنه، وآمن به قومه.

المقولة السادسة: التغييرُ عملٌ أجيالٍ.

لم يشأ الله أن يحدت التغيير في واقع الناس بشخص واحد، بمعنى أن تبدأ وتنتهي دورة التغيير في حياة فرد واحد، ولا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالتغيير عمل أجيال، وقد قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد ارتدت العرب، ووقف بعض المرتدين أدعياء النبوة (طلحة الأسدي) بجيش على أبواب المدينة يريد غزوها، وليس فيها جيش الصحابة وقتها (خرج الجيش منها للشام بقيادة أسامة بن زيد)، كان مقتضى الحال أن يبقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قليلاً، وخاصة أنه كان على الستين بكامل صحته (توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن 61 ميلادي / 63 هجري)، ولكن لحق بالرفيق الأعلى وأكمل السير أصحابه، وقبض الصحابة وأكمل التابعون، وظل السير بالدعوة على قدر تمسك الناس بدينهم لا على أشخاص بأعينهم. كان دور كل شخص محدوداً. وعند تدقيق النظر في مفردات حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء وكبار الصحابة والتابعين، أولئك الذين رضي الله عنهم وأمرنا بالافتدائ بهم (وَالسَّبِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة: 100)، (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق) (البقرة: 137). نجدهم مشغولين بأنفسهم كلياً إلا حين يوسد إليهم شبي من

أمر الناس (ولاية/ خدمة عامة)، وحتى الولاية كانوا يصرفون نصف وقتهم على الأقل للعبادة الخاصة (الصلاة بالليل، وقراءة القرآن، والذكر آناء الليل وأطراف النهار). ولذا وصفهم الله بقوله (تَرَنَّهُمْ رَكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح: 29)؛ فالعبادات الشخصية، ومحدودية الدور (التخصسية) الذي ينفع به الناس، وتراكمية العمل، كان هو الأبرز في حياة كل من ترك أثرًا في حياة الناس، وهذا هو المفقود الآن. فعامة الحاضرين أهمل في العبادات الشخصية ولا يؤدي دورًا محددًا متقنًا. ولذا نتحرك سريعًا بلا فائدة تذكر.

والمحصلة: أن على كل واحد أن ينشغل بتحقيق العبودية على مستوى شخصه هو، والحد الأدنى منها- على مدار اليوم أعني-: الصلوات الخمس بسننها، والأذكار طربي النهار، وصلاة الليل، وورد من القرآن، والله يقسم أرزاقه كما يشاء، يُعطي ما شاء من شاء. علمًا، وفهمًا، وحفظًا، وعملاً، ومالًا، وملكًا، وبنين وحفدة. وكل الطائعين يحصلون على السعادة، وهي الراحة والطمأنينة، وهي الرضا وانسراح الصدر، (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً) (النحل: 97)، (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد: 28)، والسعادة (الراحة والطمأنينة) مطلب الجميع درى أم لم يدر. ثم الجنة في الآخرة، وهذا هو الفوز العظيم. (فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ) (آل عمران: 185). وأن يتخصص في شيء ينفع به الناس، علمًا أو حرفة.

محمد جلال القصاص

2019 / 12 / 30

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أثر العقيدة الإسلامية في صياغة الشخصية

نموذج توضيحي: خالد بن الوليد رضي الله عنه

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

هذا المبحث قراءة لشخصية خالد بن الوليد، رضي الله عنه، كحالة دراسة أحاول من خلالها بيان فساد القول بأن الصفات الشخصية هي التي صنعت هؤلاء الكرام الأفاضل من الصحابة رضوان الله عليهم. وتعمدت خالداً، رضي الله عنه، لوضوح المثال فيه، ولأنه من الشخصيات الرئيسية التي تحدث عنها القائلون بهذه المقولة، مثل: عباس العقاد في عبقرية خالد. وأبدأ بعرض مشاهد ثم أعلق عليها مستنبطاً منها.

خرجت قريش، يوم أحد، بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة والظعينة⁽²⁾ موتورين بأبائهم وإخوانهم، يُجمع فرسانهم، وتضرب بالدف نساؤهم، وينادي بالثارات جميعهم؛ فيهم مائتا فارس على رأسهم خالد بن الوليد يواجهون سبعمائة رجل رجالاً حُسرًا. ولم يغن قريشاً أن بها خالد بن الوليد، فلم يستطع شيئاً، هو ومن معه من الفرسان، إلا على غرّة. وعلى غرّة، والناس منهزمون قد انفضوا من مواقعهم واستدار بعضهم على بعض، لم يستطع خالد بثلاثة آلاف أن يقتل أكثر من سبعين رجلاً!!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة.

(2) من سيرة ابن هشام في ذكر غزوة أحد.

وفي يوم الحديبية خرجت قريش كخروجها يوم أحد أو أشد، ووقف خالد بن الوليد على رأس فرسان قريش، وما تجراً على قتال رسول الله ﷺ وصحابته، وهم مُحْرِمُونَ لا يحملون إلا سيف الراحلة. وقف يبحث عن وقت غفلة كي يأخذهم على غرّة، كما فعل يوم أحد، وما استطاع شيئاً⁽¹⁾.

وفي العام التاسع من الهجرة عقد رسول الله ﷺ لواءً لخالد بن الوليد، رضي الله عنه، بأربعمائة وعشرين فارساً إلى إحدى قرى الشام (دومة الجندل) كي يغير على زعيمها أكيدر، فقال خالد: يا رسول الله، كيف لي به وسط بلاد كلبٍ وإنما أنا في أناس يسير؟! فقال رسول الله ﷺ: «ستجده يصيد البقر فتأخذه»⁽²⁾. فتشجع خالد وصار إليه، فوجده على الحال التي وصف رسول الله ﷺ فأخذه.

وبعد عامين فقط تجمعت قبائل كلب ومن جاورها من بني تميم ومعهم أحياء قضاة في ذات المكان (دومة الجندل)، فتحرك إليهم خالد في جيش أقل منهم بكثير وقضى على مقاتلتهم في الحصون وحولها.

وبعد عامين فقط ركب خالد بن الوليد في نفر يسير، مقارنةً بعدد المخالفين، لمن ارتد من العرب من غطفان وبني حنيفة، ثم صار إلى أهل العراق والشام فأتى على قوى الكفر كلها من عرب وفرس وروم في هذه البلاد، وما تردد في معركة، وما انهزم.

ما الذي حدث؟! خالد هو خالد، بل كبر سنه ورق، بعض الشيء، عظمه،

(1) المغازي 582/2، وذكره النووي في شرح حديث صالح بن خوات عن صلاة الخوف في البخاري باب المغازي برقم 3817.

(2) ذكره الواقدي في المغازي 1025/3.

كيف يهزم كل هذه الجيوش المتماسكة المجتمعة وكيف يقتل كل هذا العدد من البشر؟!

حدث تغير في المفاهيم والتصورات الداخلية التي تحرك خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ومن معه، نوع جديد من المفاهيم عن طبيعة المعركة وأسباب النصر والهزيمة، جعلت خالدًا يحدث كل هذا الأثر في واقع الناس. وتدبر هذين الموقفين:

في يوم اليرموك جاءه أحدهم يخوفه من الروم وقد أقبلت كالسحابة السوداء تسد الأفق، تموج بهم الأرض كما يموج البحر، صوتهم كالرعد. كما يصف ابن كثير، رحمه الله، على لسان من حضر المعركة. والمسلمون قلة. وقف أمام خالدٍ يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ويلك، أتخوفني بالروم؟! إنما تكثر الجنود بالنصر (أي من الله)⁽¹⁾، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر (فرس خالد) براء من توجيئه وأنهم أضعفوا في العدد.

وحين همَّ بعبور بادية الشام من العراق إلى اليرموك تخوَّف بعض من معه واستداروا كأنهم يريدون مراجعته في أمر العبور إلى الشام، فقام فيهم خطيبًا بهذه الكلمات القليلة: "اعلموا أن المعونة على قدر النية، والأجر على قدر الاحتساب، فأروا الله من أنفسكم خيرًا يمدكم بمدده".

خالد بالأمس القريب، حين أمر بالتوجه لأكيدر يحسب للعدد حسابًا وينادي: كيف وإنما أنا في نفر يسير؟!، وهو اليوم يلغي عامل العدد من أسباب النصر والهزيمة.

(1) ما بين القوسين مني. والنص من ابن كثير رحمه الله في أحداث غزوة اليرموك.

وخالد يتمنى شفاء فرسه ليكون أنشط في القتال مقابل أن يزيد جيش الروم ضعفاً كاملاً.. أهذا خالد يوم أحد والحديبية؟!

وخالد يُقَدِّمُ على عبور المفازة سالكاً طريقاً لا يظن عاقل أن جيشاً يسير به وينجو، معتمداً على أن "المعونة من الله على قدر النية"، فهو يتكلم بأن السبب المطلوب بذله لعبور هذه المفازة هو صدق اللجوء إلى الله وحسن التوكل عليه، ويُذَكِّرُ من معه بالاحتساب حتى لا يضيع الأجر.

إن العامل الأساس هو الإيمان بالله (العقيدة)، وليس شخص خالد رضي الله عنه، فكما رأيت حدثت نقلات نوعية في شخصية خالد وما أنجزه بعد الإسلام، وهذا الأثر ازداد تدريجياً بثبات الإسلام في صدر أبي سليمان، رضي الله عنه وأرضاه.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً حين نتذكر أن الفتوحات الإسلامية لم تتأثر مطلقاً برحيل خالد عن القيادة، وإنما برحيل الجيل الأول من الصحابة ومجيء من كانوا أقل شأناً في الدين.

إن النصر والهزيمة وطبيعة المعركة من حيث أطرافها له تصور خاص في الشريعة الإسلامية؛ ففي كتاب الله أن الملائكة تحضر القتال، تُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا وتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (الأنفال: ١٢). وحضور الملائكة الكرام متوقف على تقوى الله لا على عدد المسلمين وعتادهم، ولا على كونهم منتسبين للإسلام فقط؛ يقول الله: (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا بِمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) (آل عمران: ١٢٥).

والعدد في التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة ليس من الأهمية بمكان؛ ف (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة: ٢٤٩)، وفي التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة أننا ستار لقدر الله سبحانه وتعالى، فالله يُنفذِ قَدْرَهُ من خلال عبادته، فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المتاحة للنصر والله ينصر من ينصره.

وفي الشريعة الإسلامية الهزيمة سببها الذنوب - ومن الذنوب التقصير في الأخذ بالأسباب المتاحة كما أمر الله، يقول الله تعالى ذكره: (أَوَلَمْآ أَصْبِتْكُمْ مَّصِيبَةَ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَيُّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: ١٦٥)، (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ، إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران:).

والشاهد: أن هذه معارف يكتسبها أحدنا بقراءتها فقط إن صدق المخبر بها، أمّا أن تستيقن منها وتصطبغ بها وتتعامل من خلالها فهذا لا تناله في يوم وليلة، فالشبهات والشبهات تتصارع مع خطاب الوحي ولا يستقر الإيمان في القلب إلا بعد حين، (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) (فصلت: 30)⁽¹⁾.

(1) وهذا مفهوم من المثل المضروب في سورة الرعد: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَبْنَغُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۗ﴾ (الرعد: ١٧)، ولا ين القيم في مدارك السالكين وفي الداء والدواء كلام طيب عن النفس المطمئنة والنفس الأمامة، أو قوة الخير وقوة الشر، وكيف الطريق لغلبة الخير على الشر، لمن شاء أن يستزيد...

حين استقرت هذه المعاني في قلب خالد والصحابة تغيرت أسباب النصر، لا من خالد ولكن من الصياغة الجديدة التي صاغتها العقيدة لخالد والصحابة رضوان الله على الجميع.

ودعنا نفترض الصورة العكسية: لو اجتمع ثلاثون ألفاً من مشركي العرب أمام ربع مليون أو يزيد من الروم والعرب هل ينتصرون؟!

لم يكن بين العرب من يفكر في جمع مثل هذا العدد تحت أي شعار، وإن اجتمعوا ما كان ليخطر ببال أحدٍ منهم أن يغزو الروم، والشواهد في كل مكان تتحدث بأعلى صوت عن تفرق العرب وتشرذمهم حين كانت هويتهم قبلية وثنية، وعن تفرق الحضور في واقعنا المعاصر حين تخلوا عن الهوية الإسلامية، فالذي جمعهم وألف بين قلوبهم هو الدين وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال: 63)، اَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (آل عمران: 103).

فتوحدتهم من الله وحده وبالإسلام لا بشيء غيره.

ومن أوضح الشواهد على أن العقيدة هي المحرك الأساس للفرد والجماعة، وأن العقيدة هي التي صاغت خالدًا وغير خالدٍ من قادة الأمة، تلك الآيات التي تتحدث عن المنافقين حال القتال، مثل قول الله تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (الفتح: ١١).

ومثل قول الله تعالى: (إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: ٤٩) (الأحزاب: ١٢).

ووجه الاستدلال من هذه الآيات الكريمات: أن من تكلموا في هذه الآيات من المنافقين كانوا من جنس المسلمين، لا يختلفون عنهم من حيث الظاهر والبيئة التي نشأوا فيها. قد كانوا إخوة وأبناء عمومة، ومتشابهون في الصفات الخارجية ونبتوا جميعاً في مكانٍ واحدٍ من أبٍ واحد، ولكن خُلعَ قلب هؤلاء حين جاء الخوف والسبب، الذي يذكره العليمُ الخبيرُ سبحانه، أنهم لم يؤمنوا.. لم تستقر حقائق الإسلام في قلوبهم، لم يستيقنوا أن الفرار لن ينفعهم، وأنه لا عاصم من الله إن أراد بهم ضرراً أو أراد بهم نفعاً، ولذا راحت جوارحهم تبحث عن مخرج حين جاء الخوف، كابن نوح، عليه السلام، (قَالَ سَأُوِيَّ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) (هود: 43)

إشكال والجواب عليه:

يشكل على بعضهم أنه إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يتساو الجميع أو يرتبوا على حسب إيمانهم. هل برز أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وقتيبة الباهلي لأنهم الأكثر إيماناً؟!!

نقول: ليس الأمر كذلك، فالله سبحانه وتعالى خصَّ بعض الأفراد ببعض الصفات، وفتح على بعضهم من أبواب دون أبواب، فالناس مختصون بطبعهم، هذا حَبَّبَ إليه الجهاد ورزقه بنية قوية وشجاعة تجعله يقبل ولا يدبر. وهذا حبب الله إليه طلب العلم وتعليمه، ورزقه عقلاً وعزيمة في الطلب، وهذا حبب الله إليه الإنفاق وأمدّه بالمال... وهكذا. والعقيدة تصل بالمرء إلى أقصى مستوى؛ بل تصيغه صياغة

جديدة بحيث لا يقارن بمثله الذي لم يتأثر بالعقيدة. وقد يمد الله أحاد المشركين وجموعهم فيمكن لهم استدراكاً لهم وعقوبةً للمفترطين من المسلمين، (كُلًّا مُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا) (الإسراء: 20).

والتزام الشرع يعطي البدن قوة، ومن الشواهد على صحة هذا الأمر ما ورد في صحيح مسلم من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن فاطمة - رضي الله عنها - طلبت خادمةً لتساعددها في أمر بيتها فقال لها رسول الله ﷺ: «أَلَا أَعَلَّمَكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟! إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعِكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»⁽¹⁾.

ففاطمة رضي الله عنها تشتكي من الجهد المبذول في بيتها وتريد خادمة تحمل عنها، ويكون الجواب ورد من الأذكار "يحصل لها بسبب هذه الأذكار قوة على الخدمة أكثر مما يقدر الخادم"⁽²⁾، أو بعبارة أخرى: "أن الذي يلازم ذكر الله يعطى قوة أعظم من القوة التي يعملها له الخادم، أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أموره أسهل من تعاطي الخادم لها"⁽³⁾.

(1) متفق عليه.

(2) تحفة الأحوذى لشرح سنن الترمذي في التعليق على الحديث رقم 3330، كتاب الدعوات. وهو قول العيني، نقله صاحب التحفة.

(3) فتح الباري حديث رقم 4942.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

كيف تعمر الأرض بمن لا يستهدف العمارة؟

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

تكملة لمقال سابق (القيمة العليا في الإسلام) وفيه أن القيمة العليا في الإسلام هي تعبيد الناس لله، وأن عمارة الأرض ثمرة من ثمرات الالتزام بشرع الله وليست هدفاً ولا قيمة عليا في الإسلام، نحاول الإجابة على سؤال: كيف تعمر الأرض بمن لا يستهدف عمارتها بدايةً؟

أحاول الإجابة من خلال عدد من النقاط:

أولها: أن الناس متخصصون بطبعهم، ولا يتحركون في اتجاه واحد إلا في الأزمات فقط، والنموذج الإسلامي يراعي هذا الأمر بخلاف النموذج العلماني المادي المعاصر. وذلك أن الإسلام يطالب الفرد المؤمن بتعلم التوحيد وتحقيق العبودية الحقة لله (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) (محمد:19)؛ وقيمة التوحيد في توطين أسماء الله وصفاته في حس كل مؤمن، وأول ما يثمر مبدأ المراقبة والعمل للآخرة، فالله يرى ويسمع ويحاسب، والله يجزي على الإحسان إحساناً، وحقوق العباد لا بد أن تؤدي إليهم..

والشريعة تأمر الناس بالسعي وإتقان العمل، وفي الحديث: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)، والتفاضل بالتقوى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات:13)، والتقوى قيمة خلقية وليست وظيفة أو مهنة، ما يعني أنها لا تعيق أحداً من الاتجاه لما يحسن أو إلى ما يجب، فكل ينافس من حيث يحسن أو من حيث يجب.. ينافس في تحصيل التقوى وإتقان العمل. وكل يدعو إلى الله في مجاله بحسن خلقه أو

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

بما تعلم من كتاب ربه وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم. وإن ثمة ثغر فالكل مطالب بسده عن طريق فروض الكفايات، والتي أوجدت التكافل الاجتماعي وبني عليها المجتمع كله، أو جلّه.

ثانيها: الالتزام بالنص الشرعي أوجد عمراناً من حيث لا يشعر الناس، بمعنى أن مجرد الالتزام بتعاليم الشريعة أثمر عمراناً؛ وفي كل مجالٍ من مجالات الحياة شهود على ذلك، ولأن المقام مقال نستعرض بعض الشهود:

القتلى في معارك الإسلام والقتلى في معارك الأمم الأخرى:

في معارك الأمم الأخرى تبرز فكرتين أساسيتين حول كل معركة: الأولى: أن المعركة كانت بمثابة كارثة تحل بأهل المنطقة التي يحدث فيها القتال، والثانية: أن عدد من يموت بعد المعركة أضعاف من يموت في القتال المباشر حال المعركة. بخلاف المعارك الإسلامية التي لم تكن تسبب أي ضررٍ للمنطقة التي ينشب فيها القتال ولم يكن يقتل في المعركة إلا من يجهز عليه حال القتال. والسبب هو أن الفرد المسلم امتثل لأمرٍ رباني وهو: التعجيل بدفن الميت (ثم أماته فأقبره) (عبس: 21)، فكان المسلمون يدفنون القتلى (منهم ومن غيرهم) يوماً بيوم.. امتثالاً لأمر الله دون أن يفتشوا في الحكمة الخفية وراء هذا الأمر.. فقط يمثلون للأمر كونه من الله العليم الحكيم، وبالتالي لا تتعفن الجثث ولا تنتشر الأمراض المعدية كما حدث في معارك الأمم الأخرى، فقد كانوا يتركون الجثث تتعفن وتنشر الأمراض في المنطقة فيصاب أهلها بالطاعون. فمعالجة هذا الأثر السيء للمعارك لم يأت بعد التعرف على خطورة ترك الجثث تتعفن، وإنما جاء بالتأدب بأدب رباني تم الإلتزام به دون أن يعرف سببه. بمعنى أن المقاتل المسلم ل وهو يسارع لدفن القتلى بعد يومٍ طويلٍ من القتال لم يفعل ذلك طلباً للعمران وإنما امتثالاً لأمر الله وحدث العمران دون قصدٍ .. جاء ثمره للامتثال لأمر الله.

المنهج التجريبي:

أوجد المسلمون تحولاً في العلوم، وذلك بظهور المنهج التجريبي: الانطلاق من المشاهدة لا معالجة مسائل نظرية.. فلسفية. وهذا التحول جاء كثمرة مباشرة للإلتزام بأمر الله ونهية.. جاء ثمره مباشرة لتطبيق نص شرعي؛ وذلك أن الله أمر عباده أن يتفكروا فيما يعمرون عليه من آيات الله المشاهدة سواءً أكانت مخلوقات أو كانت آثاراً للأمم السابقة، جاء ذلك بالأمر المباشر (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا) وجاء بأسلوب الحض والحث (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا)، وغير ذلك من الأساليب.. ولأن الفرد المؤمن يسعى لتحقيق العبودية والتي هي الذل والخضوع لله عز وجل، والتي هي طاعة الله ورسوله، فإنه امتثل للأمر وراح يتدبر في كل ما يرى ويسمع؛ وكلّ حيث يحسن أو يجب؛ فحدث تطوير في جميع مجالات الحياة، حدثت نقلة نوعية في العلوم التقنية والعسكرية. وبين عيني الآن عشرات الأمثلة التي تبين كيف حسم المسلمون المعارك الكبرى مع الفرس والروم ببركة التدبر والتفكر فيما تقع عليه أعينهم وفيما يقع على أسماعهم ولعل الله أن ييسر مقالاً خاصاً لهذا.

بناء المدن:

يظهر في فكر الذين يتحدثون بأن القيمة العليا في الإسلام هي الاستخلاف من أجل عمارة الأرض قيمة أخرى مرتبطة بقولهم أن عمارة الأرض هي المقصد الأعلى في الشريعة الإسلامية هذه القيمة هي: أن الإسلام امتداد للحضارات السابقة، يقولون بتراكم الخبرات وأن كل حضارة استفادت من التي قبلها، مع أن الحضارات تباد، ومع أن الحضارة الإسلامية لم تخلط غيرها إلا بعد أن سادت ومخالطة غير المسلمين ثقافياً في بداية القرن الثالث الهجري كانت في العلوم الفلسفية وليست التقنية المتعلقة بال عمران، وكانت بداية الانحدار في الأمة. وسئل المفكر الفرنسي الشهير جارودي عن مدى صحة القو بأن الحضارة الإسلامية امتداد

لما سبقها من الحضارات، فنفى هذا القول وتعجب منه واستدل بأن حضارة المسلمين حضارة دوائر وأقواس بخلاف حضارة غيرهم (خطوط مستقيمة). وهو ما أقصده. المسلمون ارتكزوا على المسجد بدايةً.. يؤسسوه في أول يوم ينزلون فيه مكاناً ما، وبجواره السوق تسهيلاً على الناس في قضاء حوائجهم، بمعنى أن تكون الأغراض اليومية بجوار المسجد الذي يؤتى إليه كل يوم خمس مرات، ثم يستديرون حول المسجد في حلق، من هنا جاءت فكرة جديدة للعمران (تعمير المدن)، في هيئة دوائر وأقواس، كما وصفها جارودي، وأصبح الفن الإسلامي يتكئ على فكرة الدوائر في البنيان وفي تشييد المدن، وظهر بركة هذا الأمر في قرب الوصول لمركز المدينة من أطرافها، وعدم تمركز الشمس في طول الشارع فيشق على من يسير فيه، وغير ذلك.. وانعكست المفاهيم على طريقة بناء البيوت ذاتها؛ فالبيت كبير يحوي ثلاثة أجيال (الجد وأبنائه وأحفاده) .. مستدير يفتح للدخل من أجل الستر .. بمعنى أن العمران (البنيان) جاء من قيمة أخرى.. العبودية.. جاء ثمرة لها.. محققاً لها... نبت من الإلتزام بالنص الشرعي.

كادت تنفذ الكلمات المخصصة للمقال ولم تنته المحاور الأساسية التي تبين أن العمران أو الاستخلاف ليس هو المقصد الأساسي للشريعة الإسلامية، وأن عمران الأرض (تعميرها) ثمرة للإيمان بالله وأن الكافر مفسد وأن الكفر والعصيان فساد محض، علينا أن ندور حول الفكرة مرة ثالثة نبين نشأتها وسياق تمددها في الفكر الإسلامي في مقال قادم إن شاء الله وقدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

تعامل الإسلام مع المخالفين: رؤية في الأخذ والترك من المخالف

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

مُكِنَّا النَقْدُ الفِكْرِي من وضع المخالف في إطاره (هيئته ومكانته) الصحيح، فيراه الناس على صورته الحقيقية وفي مكانه المناسب. ومن خلال التأطير نستطيع إزاحة كماً كبيراً من المعلومات التي تأتينا من كل مكان، تحاول خلط الحق بالباطل وصدّ الناس عن الحق بعد إذ جاءهم. والسؤال: كيف تعامل الإسلام مع المخالف؟ سواءً المعارض.. ذلك الذي يتحدث بشبهات نظرية؟ أم ذلك الراض للدين.. صاحب المواقف العملية؟ أم الذي يبدو "متحضرًا" يمتلك مفيداً؟!

في القرآن الكريم منهجية للتعامل مع المخالفين.. تتكون - هذه المنهجية - من ثلاثة محاور رئيسية:

أولها: بيان أن قولهم كذب صريح، كما في قوله تعالى: "مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا" (الكهف: آية 5)، أو كذب مفتعل، كما في قوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (آل عمران: 71).

وثانيها: كشف الأسباب الحقيقية وراء صد الناس عن الهدى بعد إذ جاءهم، وهما سببان رئيسيان: كراهية اتباع الحق، وذلك لما في النفوس من كبر واستعلاء وحبٍ للدنيا وما فيها من شهوات "أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ" (المؤمنون: 70)؛ والسبب الثاني: غياب الإيمان باليوم الآخر وما فيه من

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة.

نعيم مقيم وعذابٍ أليم عظيم مهين "أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ" (سبأ: 8).

والمحور الثالث: معالجة هؤلاء وما يقولون ويفعلون في سياق بيان الحق، بمعنى التعامل مع المخالف ضمن سياق خاص، وهو موضوع هذا المقال.

صناعة سياق مستقل وتناول المخالف، بكل ما عنده من ضار ونافع، داخل هذا السياق الخاص مقولة مضطردة في المستوى النظري والمستوى العملي، عند المسلمين وعند غيرهم. ومن خلالها يمكن تفسير كثير من عوامل الصعود والتراجع لدى الأمم؛ ومن خلالها، أيضاً، يمكننا فك الاشتباك المعرفي الناتج حول عديد من القضايا الثائرة في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، وخاصة تلك التي تثير غباراً على نشأة الأمة الإسلامية وعلاقتها بغيرها من الأمم.

بدأت البعثة بخطاب مستقل عاجل قضايا لم تكن معروفة في أم القرى ومن حولها، فكان إرسال رسولٍ وتنزيل كتاب، يُعرّفهم بالله خالقهم وخالق كل شيء، وحق الله عليهم من عبادته وحده لا شريك له واتباع أمره واجتناب نهيه، وحقهم عليه إن هم فعلوا؛ ويحدثهم عن خلق الإنسان.. كيف بدأ أول مرة وكيف يحدث في الأرحام كل مرة. وبيان فساد عقائدهم فيما يعبدون من دون الله؛ ويعلمهم ما يُصلح دنياهم ويلقون ثوابه في آخرتهم إن التزموا به إيماناً واحتساباً، فأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وأحلّ لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، ونظم شعون حياتهم على منهاجٍ لم يكن لهم به سابق معرفة من قبل. وعلمهم أن الله استخلفهم في الأرض وطلب منهم عمارتها بما شرعه لهم على لسان رسوله ﷺ. وأن أعمالهم تحصى عليهم، وأنهم مبعوثون من بعد الموت، وبعد البعث حساب، وبعد الحساب جنة أو نار؛ وقص عليهم أنباء السابقين: كيف نجى الله من أطاعوا، وكيف أهلك الله من عصوا رسل ربهم؟ بحديث لم يكن له ﷺ ولا لهم علم به؛ فكشف عن سياق

متصلٍ لرسول الله ومن آمن بهم في مواجهة الشيطان ومن استجاب لغوايته. فاستقر أن التاريخ صراع بين الحق والباطل؛ وصحح انحرافات اليهود والنصارى في حديثهم عن الله ورسله وما ابتدعوه في الشعائر والشرائع. وفي هذا السياق بدأ تناول المخالفين، أولئك الذين حاولوا تلبس الحق بالباطل، فاتهموه ﷺ، كذبًا، بالجنون، والسحر، والتعلم على يد غيره من الأعجمين،،، إلخ، كما مرّ في المحورين الأولين.

وفي المدينة كانت البداية من صناعة سياق عملي (واقعي) خاص بالمسلمين مع أنهم لم يكونوا الأكثرية (مقارنة بمن لم يسلموا مضافاً إليهم يهود قينقاع والنضير وقريظة ومن حول المدينة من الأعراب ويهود خيبر ووادي القرى وفدك): فكان المسجد، والمؤاخاة، والسوق، وفرض واقع جديد على ساكني المدينة من غير المسلمين، فكانت القيادة للمسلمين والتبعية لغيرهم ومن خالف عوقب وتم إخراجهم من هذا السياق.

وبدأ يبعث السرايا حول المدينة لفرض سياق جديد على قريش ومن دخل معها في الإيلاف وشاركها عداوة المسلمين.

وإن حاولنا النظر لمساحة أكبر، وهي حركة الأمة (الحضارة) الإسلامية فس نجد أن الأمة الإسلامية نشأت من الوحيين (الكتاب والسنة)، ولم يتلق جيل التأسيس (الصحابة رضوان الله عليهم) شيئاً غيرهما، وقد تُهر من حاول المطالعة في صحيفة لليهود "أُمَّتَهُوَ كَوْنُ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكْتَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيضَاءَ نَفِيَّةً"⁽¹⁾.

(1) ينظر: "شعب الإيمان" للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، (الرياض، مكتبة الراشدين، 1423هـ/2003م)، ج7، ص171.

وما تم أخذه من علوم الآخرين إنما: أ) جاء متأخرًا بعد التأسيس والفتوحات واستقرار المجتمع المسلم؛ ب) وجاء في سياق خدمة الأمة الناهضة، بمعنى أن المسلمين أخذوا ما يحتاجون إليه لا كل ما وجدوه، وسيوضح هذا بعد قليل إن شاء الله؛ ج) وجاء في التدابير العملية لا في منظومة العقائد المؤسسة للأمة المسلمة. مثال ذلك: البريد، والعسس، والدواوين، وصك العملة في عهد عبد الملك بن مروان⁽¹⁾، وأخذوا بعض ما استحسنوه من الفرس في إدارة شئون الحياة اليومية، مثل إسقاط الضرائب عن فقراء المزارعين، وإعطاءهم البذور الجيدة دون مقابل.

لم يتم نقل ما عند المخالف إلا بعد إنشاء سياق خاص من الكتاب والسنة، وتم النقل بانتقائية حيث مارس المسلمون النقد على ما وجدوه، فراجعوا وصححوا وأخذوا ما يخدم مشروعهم⁽²⁾.

وكان نقلًا لما يحتاجونه، لا نقلًا لما في أيدي الأمم القوية كونها قوية. فقد سعوا لتعلم الفلك بحثًا عن طريقة لضبط مواقيت الصلاة في البلاد التي لا تنتظم فيها حركة الشمس نهارًا وخاصة في الشتاء⁽³⁾؛ وحين انتشرت تجارتهم ووجدوا أن طريقة الحساب

(1) حدث ذلك بعد أن تهدده الرومان بمنع العملة الذهبية، واستعان بحالد بن يزيد بن معاوية، وكانت لديه نزعة معرفية تجاه العلوم الطبيعية؛ ولم يكن يترجم أو ينقل علوم الآخرين. والذين يقولون بالتأثر المبكر يتحدثون عن القرن الثاني من الهجرة، وعن حالة أو حالتين، وعن وريقات وجدت وترجمت في نطاق ضيق جدًا. وظهور الترجمة وانتشارها جاء مع بداية الانحدار (القرن الثالث الهجري).

(2) ينظر: "علم الرياضيات في التاريخ الإسلامي"، لعبد الحليم عويس، موقع شبكة الألوكة، أخذ بتاريخ 2021/12/31، من الرابط: <https://2u.pw/hJac3>

(3) من أفضل من تحدث عن جهد المسلمين في العلوم التقنية الدكتور جورج صليبا وله العديد من الكتب واللقاءات المتلفزة يتحدث فيها شارحًا ومدافعًا عند دور المسلمين في التقدم التقني، كان آخرها وأشملها لقاء في "بودكاست ثمانية". وينظر: "الفكر العربي: نشأته وتطوره"، لجورج صليبا، (لبنان، منشورات جامعة البلمند، 1998م).

التقليدية لا تكفي لحساب عملياتهم التجارية جدّوا في تعلم الرياضيات، فكان الخوارزمي والبحث عن "الصفّر"، وهكذا⁽¹⁾.

ولم يكن تتلمذاً على يد علماء الأمم السابقة، فما حصله المسلمون من غيرهم كان شيئاً مهملاً تلقّوه بالوجدادة (وجدوا وثائق عامتها مهمل)، ولولا أنها وُضعت في سياقٍ جادٍ ناهضٍ لما تطورت.

لم نتعلم من هؤلاء بالمعنى المعاصر للتعليم (التتلمذ)، بل أخذنا منهم ما نراه نافعا لنا وأعدنا صياغته ليناسب منظومتنا العقديّة. ومن يتتبع سيرة أوائل علماء الطبيعة المسلمين، كالخوارزمي والبيروني وابن سيناء وابن الهيثم، يرى بوضوح أنهم متأخرين عن فترة التأسيس وأنهم أخذوا مخطوطات لغيرهم وقاموا بتنقيحها وتطويرها، وأنهم لم يتتلمذوا على أيدي علماء أمة أخرى متقدمة، وإنما أفادوا من كتابات (مخطوطات) وجدوها مهملة في الغالب⁽²⁾.

وإن الاتصال الثقافي (الفلسفة وعلم الكلام والفلسفة) جاء متأخراً كما الاتصال في العلوم الطبيعية، وارتبط بنهاية الصعود وبداية التراجع، ولم يكن أبداً من عوامل النهوض.

(1) ينظر: "الأعلام" لخير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، (بيروت، دار العلم للملايين، 2002م)، ج7، ص116.

(2) ينظر: "العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية"، لـ دونالد هيل، ترجمة أحمد فؤاد الباشا، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004). وذكر ابن خلدون في مقدمته أن المسلمين لم يستفيدوا من علوم الفرس، وذكر، أيضاً، أن أول اتصال معربي بعلوم الرومان كان في عهد العباسيين (أواخر القرن الثاني الهجري)، ينظر: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، لعبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، (بيروت، دار الفكر، 1408هـ/1988م)، ج631/1.

لم يكن الأمر كما يدعي هؤلاء حضارة تسلمت من حضارة. وإنما وحي أغاث الله به الأرض بعد موتها. أحيا الله به قومًا وأحيا به وبهم آخرون "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الشورى: من الآية 52).

وفعلت العلمانية المعاصرة ذات الشيء: أنشأت سياقًا خاصًا يرفض الدين كمصدر للمعرفة ويتبنى الوضعية (Positivism) منهجًا للحياة، ثم اقتبست منا ما يخدم سياقها، أو أعادت صياغة ما أخذته منا ومن غيرنا ليتناسب مع سياقهم الجديد (الإلحاد الكلي أو النسبي). وفرضوا علينا قضاياهم هم، مثل: التبرج، والسفور، وتفتيت الأمة لكيانات صغيرة (دول) بدعوى التحرر والاستقلال، ونموذجهم في الحكم (الدولة القومية الحديثة)، أو تنحية الشريعة، بل وما في التفاصيل من قضايا فرعية تتعلق بحياة الفرد العادي.

إن كثرة الشوائب التي خالطتنا وكدرت صفو عقيدتنا ومجتمعاتنا، من أهم أسبابها أننا فقدنا السياق الخاص بنا.. أننا في سياق غيرنا، ولذا فإن أفضل الطرق لتنقية شوائب الآخر تتمثل في الخروج من سياق المخالف وإنشاء سياق خاص بنا كما كان أول مرة. وهنا يثور سؤال: كيف نبنى سياقًا خاصًا ونحن غرقى في الشوائب وتائهون حيث يراد لنا وبناء، لا حيث نريد نحن (أتحدث عن المجموع لا عن الجميع)؟

محمد مهدي القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

التدبر حالة

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

القرآن الكريم إجابة على الأسئلة الثلاثة الأهم في حياة الناس، وهي: من خلَقهم وخلق كل شيء؟، وماذا يراد منهم في هذه الحياة؟، ثم ماذا ينتظرهم بعد الوفاة؟؛ ومن خلال الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة يتم ربط العبد بربه في كل شيء، ربط مخلوقٍ بخالق، ربط فقير لا يملك شيئاً بغني مالك كل شيء؛ بمعنى ترسيخ الحقيقة الكبرى في هذه الحياة وهي محورية الله، (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ) (هود:123).

وواحدة من أهم الطرق التي يعلمنا الله إياها في كتابه للاهتمام إلى تفرد بالكمال والعبادة التأمل (التدبر) في كل شيء وفي جميع الأحوال. في القرآن الكريم (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) (ص:29)، وفي آثار السابقين من نجا منهم ومن هلك (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (محمد:10)، وفي ذات الإنسان: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الذاريات: 21).

وفي جميع الأحوال:، فحيناً يأمر الله عباده بالسير في الأرض من أجل النظر والتأمل (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا) (النمل:69)، وحيناً يحضهم على السير والتأمل، (أولم يسيروا) وحيناً لا يكون أمراً ولا حضاً وإنما طلباً رقيقاً ممن يضرب في الأرض أن يتأمل حال سيره، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) (الأنعام:11). فهي دعوة لإعمال الفكر في كل ما يرد على الإنسان فحتى الذين

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

لا يستطيعون السير عليهم أيضاً أن يتألمي في الأخبار التي تأتيهم ممن ساروا وشاهدوا، وانظر إلى ختام هذه الآية الكريمة: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنِ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَفَلَا يَسْمَعُونَ) ذكر السماع لينبه من لم يمش إلى أن يتأمل في الأخبار التي سمعها من مشى في مساكن السابقين ورأى كيف هلاكهم. ولنا أن نسأل: ماذا يفهم من الدعوة للتأمل في كل شيء وفي جميع الأحوال؟

الذي أفهمه أن الله- سبحانه وتعالى ذكره- يُرسخ التأمل كمنهجية (Method) / (approach) للتعلم والتفاعل عند المؤمنين. يُثَبِّت التأمل كحالة تتصف بها الشخصية المؤمنة بالله. فليس للمؤمن وهو مؤمن أن لا يفكر فيما يعرض عليه؛ بمعنى صياغة شخصية يقظة تدقق النظر وتعمل الفكر في كل ما يَرِدُ عليها. وقد ظهر هذا جلياً في الصحابة رضوان الله عليهم، فأثمر تأملهم وتفكيرهم تساؤلات ظهرت كأنها اعتراض أو استشكال: (أمزّل أنزلك الله أم هي الحرب والمكيدة؟.... ليس بمنزّل إذا يا رسول الله)، (رأى تراه لنا أم وحي أمرك الله به... ليس لهم عندنا إلا السيف)، ويطلب منهم المشورة فيشيرون عليه بغير ما يرى ويظنون به حتى يوافقهم كما حدث في يوم أحد وفي حصار الطائف حين هم بفك الحصار ولا زالوا به حتى أمهلهم يوماً آخر، صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم؛ ويعرض على بعضهم حكماً فلا يجد حرجاً من أن يُظهر ما في صدره منه (أيجد أحدنا رجلاً مع زوجته وينطلق يلتمس البينة؟!!!)، (والله لا تكسر سن الربيع يا رسول الله).. فكانت شخصية يقظة تمارس التفكير والنقد وتعبّر عما في صدرها دون خجلٍ. نعم هذا حالهم وهم أطوع الناس وهو سيد الناس رسول مؤيد بالوحي من الله، صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم؛ واليوم بعض الوعاظ ومن ينقلون كلام العلماء، أولئك الذين أحضرتهم أدوات العلمانية على مسرح الأحداث، حين تعترض عليه بحق ينتفخ

سحره ويصول ويجول ويحشد المتعصبين من أتباعه، يفعل ما لم يفعله النبي، صلى الله عليه وسلم!!

ودعني أتلو عليك بعض ما أرى لأزيد الفكرة وضوحًا:

الناس متخصصون بطبعهم:

حين يترسخ التأمل في الشخصية المسلمة فإن الناس ينصرفون إلى ما يحسنون أو إلى ما يجبون، كل يتأمل فيما يحسنه أو فيما يجبه، فالناس متخصصون بطبعهم، وهذا واضح من مواقف الصحابة-رضوان الله عليهم- فمن تحدث في تحديد أرض المعركة غير من تحدث في بيان شأن الأسرى، غير من تحدث في الموقف من الخروج لقتال المشركين على جبل أحد. كل موقف يستدعي الذين يفهمون فيه، ويحترم كل واحد إمكاناته الشخصية (تخصصه) فلا يتحدث فيما لا يعلم. وحين انتشر الدين تخصصوا أيضًا: فكان بعضهم في حلق العلم فقيهاً كزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عباس، وكان بعضهم في القتال يدير المعارك كأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد أو ينزل الأبطال كالزبير، وكان بعضهم في السياسة والحكم كأبي بكر وعمر بن الخطاب، وكان بعضهم في قراءة القرآن وتعليمه كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، وكان بعضهم في التجارة كعبد الرحمن بن عوف، ثم كان الأئمة بعد ذلك: فقهاء، ومحدثين، ومؤرخين، وأدباء (كالخليل بن أحمد) وعلوم طبيعية (الخوارزمي ومن بعده)...

تدبر القرآن الكريم:

انتشرت مؤخرًا بشكل ملفت الدعوة للتدبر، ويقصرون التدبر على كتاب الله، ولا أدري لماذا؟، فالقرآن الكريم أمر بالتأمل (التدبر) في كل شيء وليس القرآن الكريم فقط، وأريد هنا أن أسجل بعض الملاحظات على هذه الدعوة في ضوء ما سبق:

أولاً: لن نتدبر جميعاً، فالناس متخصصون بطبعهم، ومما يرصد هنا أن الذين رووا حديث التدبر (حدثنا من كانوا يقرؤوننا القرآن... فتعلمنا الإيمان والقرآن معاً... الحديث) لم يعرف عنهم التدبر، ولا عن الذين أخذوا عنهم، وإنما عنوا بضبط النص وتعليمه للذين جاءوا من بعدهم، ولا زالوا يتطورون - كما غيرهم في العلوم الأخرى - حتى ظهر علم القراءات واستقل، ولم يعرف أئمة القراءات بغير القراءات. بل إن عددًا من كبار أئمة القراءات طعن في روايته للحديث. أدل بهذا على التخصصية العالية التي اشتهر بها الأوائل ممن يحتج بهم علينا الآن.

ثانياً: الدعوة للتدبر انتشرت هذه الأيام بعد تكرار الفشل السياسي للحالة الإسلامية، وبهذا مثلت ساحة هروب لكثيرٍ ممن فشلوا في المواجهة السياسية، وأمانة ذلك في التحول المفاجئ لبعضهم من الاهتمام السياسي والفكري إلى حديث عن التدبر. والطبعي أن يحدث تطور ونمو للفكرة، أما القفز المباشر تكون له دوافع أخرى غير الاقتناع بالفكرة، وإن رأيت أحدهم يتحرك بين مربعات مختلفة فجأة ويدعي أن مقتنع بما يفعل فلا تصدقه، هو في الحقيقة يتحرك في المساحات الخالية، بمعنى أنه يتحرك حيث يسمح له، وهذا لا تعول عليه. فإنه في الحقيقة تبع.

ثالثاً: الذي أفهمه من حال الصحابة رضوان الله عليهم، أن قراءة القرآن ثابت مشترك بين الجميع. كان القرآن مورداً.. مآدبة يردها الجميع كل يوم، ويتدبرون التدبر العادي الذي يفهمه الجميع ويمارسه الجميع دون مشقة؛ ثم ينطلقون إلى ما يحسنون أو إلى ما يحبون، بعقلية يقظة متأملة متخصصة مثمرة...

رابعاً: عامة المتحدثين عن التدبر والزهد لا يعلمون الناس أدوات التدبر الحقيقية والتي أولها التفسير واللغة، وإنما ينقلون النكات العلمية عن أئمة المسلمين الأول كابن القيم وابن تيمية، ولذا وقعوا في الاغتراب وخسروا المعارك الحقيقية في الواقع المعاصر. إنها ليست حالة من نشر التدبر وإنما حالة من الهروب من واجب الوقت. وقد أكثر ابن

القيم في أكثر من مكان بأن أفضل الأعمال هو واجب الوقت يليه ما تعدى نفعه للغير.

بعضهم حسن النية نحسبه محباً لله ورسوله؛ يريد شخصية قرآنية مطمئنة لم تتلوث بفضلات الفكر العلماني ويظن أن العزلة والبناء بعيداً عن هوث العلمانية يكفي، والأمور ليست هكذا. فالعلمانية شيء يتشربه الجميع قبل أن يدرك أنه مسلم، شيء اجتاح المفاهيم والتصورات وأصبح من المسلمات في العادات والسلوك. هل تجد الآن خاليًا تغرس فيه ما تشاء وتعزله عما تشاء؟!!!.

فيا أيها الكرام الأفاضل المعركة منذ كانت ذات شقين: كفر بالطاغوت وإيمان بالله، وقدم الله في كتاب الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا) (البقرة: 256)، وكلمة التوحيد نفي قبل الإثبات.

إن التدبر حالة. وصف لازم للشخصية المسلمة ويظهر في مجالات متعددة حسب ما يحسن الشخص أو ما يجب. نعم نحتاج لإعمال التدبر.. النقد.. التفكير في كل ما يرد علينا وليس فقط في القرآن الكريم، وإن فعلنا خرجنا من حالة التبعية التي أثمرت الهوان والذلة عند عامة الناس والتحزب والتشيع (النسق المغلق) عند الملتزمين.. إن أعملنا التدبر والتأمل وانطلق كل لما يحسن أخرجنا فرداً يقظاً حساساً يصعب اقتياده وتوجيهه.. إن أعملنا التدبر كل فيما يحسن أو يجب خرجنا من التبعية للريادة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من فوائد التكرار في القرآن الكريم

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

قبل عَقْدِ ونصفٍ تقريبًا كنت معنيًا بالرد على شبهاتِ النصارى، وكانت بعضُ
الشبهاتِ عن التكرارِ في القرآنِ الكريمِ، يقولون: ما فائدته؟

وفنشئتُ طويلًا فيما درسته من قبل في التفسيرِ وأصوله، ثم تحولتُ في دروسِ
المختصينَ عن إجابةٍ شافيةٍ، ولم أجد. يقولون: لا تكرار. وذلك لأن السياقَ يُغيرُ
المعنى فكلُّ لفظَةٍ في سياقها تدلُّ على معنىٍ آخر غيرِ التي تشبهها. وكلامهم يدفَعُ
التكرارَ في بعضِ المواقعِ دون بعضها. وسياقهم الذي يتحركون فيه سياقٌ دفاعي..
كأنَّ التكرارَ في القرآنِ الكريمِ همّةٌ وقصارى جهدنا أن ندفعها. ويَقيني أن كثرةَ
التكرارِ في القرآنِ الكريمِ تدلُّ على فائدةٍ كبرى علينا أن نبحثَ عنها ونبرزها وليس
شيئًا سلبياً يحتاجُ أن نستره وندافع عنه.

ثم جاءتِ الدراسةُ الأكاديميةُ لتضيفَ على القضيةِ أحمالًا أخرى، وذلك أن الكتابةَ
الأكاديميةَ ترفضُ التكرارَ مطلقًا وتراه مخلًا بالصياغةِ، وترفضُ الاسترسالَ، وفي الوسطِ
الأكاديمي يرتفعُ سؤالٌ عن التكرارِ في القرآنِ الكريمِ: لماذا التكرارُ، ولماذا الاسترسالُ؟،
ولماذا لا توضعُ قضايا القرآنِ منفصلةً عن بعضها ومحرةً بشكلٍ دقيقٍ وصارمٍ كما
يُفعل في الكتابةِ الأكاديميةِ؟!، حتى تجرأ بعضُ من ترجمَ معاني القرآنِ الكريمِ من
المستشرقين وقال: يحتاجُ إلى تحرير!!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

لم أجد إجابة شافية وقتها، وما شئت أن أنقل قولاً أراه منقوصاً، وشاء الله أن أطالع في كتابات الدكتور على الوردى، وخاصة تلك التي يتحدث فيها عن (مهزلة العقل البشري) وكتابات الدكتور عبد الوهاب المسيري، وخاصة تلك التي يتحدث عن رحلته الفكرية من البذور والجذور إلى الثمر، والتقيت قوماً يتحدثون عن (علم صناعة العادات). ومن هنا حُلَّتْ في ذهني قضية التكرار في القرآن الكريم. وأحاول عرض هذا الغليان الفكري الذي استمر لعقد ونصف تقريباً في رأسي في هذه الأسطر إلى أن ييسر الله وقتاً لبسط القول في المسألة.

يعتقد علي الوردى أن الإنسان يجبر على أفعاله، والجبر عنده من البيئة وليس من الله، يقول: كل ما يظهر على الإنسان من خيرٍ أو شرٍ من أثر البيئة، ورفض-هو- أن يتسلم جائزة الدولة التقديرية، بدعوى أن ليس له فضلٌ فيما حصل عليه من شهادات، يقول: إنما الفضل للبيئة وللظروف التي أعطته ولم تُعط غيره، ولا أدري: ألم يكن معه عشرات، بل مئات، في نفس الظروف وفشلوا، أو لم يكونوا مثله؟!، أم كان وحيداً طيلة حياته!!

والقول بأن الإنسان ابن بيئته، وأن البيئة هي الفاعل والمؤثر الأقوى أو الوحيد، هو قول ابن خلدون، والوردى نقل هذه الفكرة عن ابن خلدون وطورها، وراح يبت بين الناس أن الإنسان آلة تتحرك بمؤثرات البيئة.

رحل علي الوردى وبعد عقودٍ من الزمن جاء التطور التكنولوجي، وأصبحت التقنية الحديثة-التي تُسهّل التواصل بين الناس- في يد الجميع، وظهر على أثر ذلك (علم صناعة العادات)، ومن خلال هذا العلم يحاول بعضهم صنع عادات الناس والتحكم في سلوكهم، والوسيلة إلى ذلك هي التكرار: تكرار الطلب، تكرار المعلومة، صناعة النموذج (المثل) (القدوة) وتكرار عرضه. وبفعل التكرار تم صناعة تسعة أعشار الإنسان المعاصر!!.. بفعل التكرار تم التحكم فيما يأكل الفرد، ويشرب،

ويلبس، ويسمع، ويشاهد، وفيما يتحدث فيه من موضوعاتٍ، بل وفيما يفكر فيه ويهتم به من قضايا. وبسبب امتلاك الناس لوسائل التواصل التكنولوجية الحديثة سهّل صنع العادات حتى أصبح كثيرٌ من الناس على ما يقول علي الوردي: بلا عقل، أصبح الحديث عن أن للإنسان عقلٌ مهزلة!! أصبح الإنسان المعاصرُ مصنوعٌ بأفلامٍ ومسرحياتٍ وإعلاناتٍ وأغاني، ومناهجٍ دراسية، ومتطلباتٍ وظيفية حكومية.. إلخ.

ثم أتيتُ الدكتور عبد الوهاب المسيري وهو يتحدث عن رحلته في الحياة، وفي التفاصيل تحدث عن إصرار الشركات الكبرى (العابرة للقوميات) على التكرار، في الإعلانات وفي تصميم المطاعم، ثم بين أن التكرار هدفة تثبيت عادة من العادات، أو صنع عادة جديدة. ووقف ذات مرةٍ يعرض ورقةً قدّمها لعددٍ من النخبة المثقفة عن النماذج كأداة تحليل، يقول في شرحه لورقته: كررتُ كثيراً في الورقة كي أثبت الفكرة عندكم.

خرجتُ من عند علي الوردي ومن عند الدكتور المسيري وهؤلاء الذين يصنعون العادات بأدوات التكنولوجيا يستهدفون صنع إنسانٍ استهلاكي، وكالعادة وضعت ما فهمت بين يدي ورحتُ أعيّد النظر فيه مرةً بعد مرة، وخرجتُ بشيء أتلوها على حضراتكم في ثلاث نقاط محددة:

أولها: أن التكرار في القرآن الكريم وفي الشعائر مقصودٌ لصنع عادات الإنسان، ففي القرآن الكريم عددٌ محدودٌ من القصصٍ تمثل كل قصة نموذجاً محدداً من انحرافات البشر. ويحدثُ تكرارٌ غيرٌ مُحلٍ، ففي كل عرضٍ إضافةً - باعتبار السياق -، وفي كل عرضٍ إظهارٌ لبيانٍ بهي عطرٍ عالٍ منفردٍ أخاذٍ، وتكون المحصلة أن الذي يقرأ كتاب الله مرةً كل أسبوعٍ (وهو حالُ عامة الصحابة) يمرُّ عشرات المرات على عددٍ محدودٍ من المفاهيم والقيم المركزية والقصص الهادفة التي تُنبئُ هذه المفاهيم، ويمرُّ عشرات المرات على النماذج المثالية لحزب الرحمن، وهم الأنبياءُ ومن اتبعهم بإحسان، ورؤس

الشرّ وهم الشياطينُ ومن تبعهم. بمعنى: تُعرض القيمُ من خلالِ النماذجِ المثاليةِ لها؛ ومن ثم يحدثُ تَنَمِيْطاً للشخصية. ولذاتِ الهدفِ تم توزيعُ الصلاةِ على النهارِ والليلِ، خمسُ صلواتٍ في وقتِ النشاطِ وصلاةُ الوترِ قبلِ النومِ، وقيامُ الليلِ للمجتهدينِ الراغبينِ في الرقي، والأذكارِ قبلِ طلوعِ الشمسِ وقبلِ غروبها، في مواعيدِ ثابتة تقريباً. بمعنى يُستخدم التكرارُ في القصصِ والآياتِ والشعائرِ من أجلِ تنميطِ الإنسان.. من أجلِ صناعةِ إنسانٍ بمواصفاتٍ ربانية.

وتكون النتيجةُ أن من يمثّل للبرنامجِ الرباني يكونُ حاله على ما وصفَ اللهُ المؤمنين في كتابه (رحماءٌ بينهم) ۞ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۞ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح: 29).

هذا حالُ النموذجِ المثالي (الصحابةُ رضوانُ الله عليهم): كأنَّ من ينظرُ إليهم في أي وقتٍ يجدهم رحماءً بينهم، ركعًا سجدًا، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا..

يحدثُ هذا بمجردِ المرورِ على كتابِ الله واتيانِ الفرائضِ، ولا يحتاجُ الأمرُ لما يتنادون إليه الآن تحت مسمى "التدبير"، فبمزيدٍ من التفكيرِ نجدُ أن الذين يطالبون بالتدبيرِ ويهملون التلاوةَ بشكلٍ دائمٍ متكررٍ (أعني الوردَ اليومي) ينتطعون، وخاصةً حين يطالبون مَنْ لا حظَّ له من التفسيرِ والفقهِ والدرايةِ بالسيرَةِ النبويةِ أن يتدبر، فالتدبيرُ الذي يقصدونه لا يصلُ إليه إلا مَنْ عَبَّرَ بجرِ المعنى بعلمٍ بالتفسيرِ وقلبٍ حاضرٍ وحالةٍ من الرقيِ الإيماني. وهو حالُ الخاصةِ. وإلا فهي ظنونٌ وتخميناتٌ. وأكثرُ الذين يتحدثون عن التدبيرِ ينقلون نُكْتةَ أهلِ التفسيرِ وقدامى المتدبرين، وكثيرٌ منهم هاربٌ من المجالِ السياسيِ ويقضي وقتًا في ظلالِ القرآنِ بعيدًا عن حرِّ السياسة. وهي حالةٌ من الهروبِ من مواجهةِ فروضِ الأعيانِ والكفاياتِ...

تكفي فقط التلاوةُ التي يعقلُ فيها صاحبُها ما يقرأ. ويكفي فهمُ ما يتبادرُ للذهنِ من النصِّ (المعنى الأول من التفسيرِ الذي ذكره ابنُ عباس)، يكفي ما يحمله النصُّ

على جبينه وراحته ويراؤه كلُّ عابرٍ عليه، لا داعي أبداً أن نستحثَّ العامة للبحثِ عما يخفيه النصُّ لخاصةِ القراء، ومن يتدبر يجد أن الله- سبحانه وتعالى ذكره- جعلَ التزكيةَ على التلاوةِ (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)، وبهذا فإن التدبرَ المطلوبَ في قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)، هو فهمُ المعنى المتبادرِ من النصِّ وليس القراءةَ بلا أدنى تفكيرٍ.. هذه التي قال عنها ابن مسعود نثرَ الدُّقْلِ، وَ هَدَّ الشَّعْرِ.

ثانيها: أن كثيرين تُصنَعُ عاداتهم وتقاليدهم وتحدُّ لهم أهدافهم، سواءً في الثيابِ، أو الطعامِ والشرابِ، أو مواضيعِ المناقشةِ على المواقعِ، أو في مواضيعِ الكتابةِ والمشاركةِ الفكريةِ.. كلُّ هؤلاءِ عامةٌ يتحركون حيثُ يُرادُ لهم.. مجبرين على ما يفعلون، وإن انتفخوا، وإن ظهرَ أنهم متبوعين. ففي المشهدِ مَنْ يَصْنَعُ الحدثَ. فالبيئةُ تُصنَعُ.. والهويةُ تُصنَعُ. وكان على الدكتور علي الوري أن يسألَ عمن يصنعُ عاداتِ الناسِ وتقاليدهم. لا أن يُعممَ باعتبارِ الكثرةِ العددية. كان عليه أن يفهم أن قلةً تتحكمُ في الأكثريةِ وتستتبعهم، أو تستعبدهم. كان عليه أن يفهم أن الناسَ فريقان: ملاً وأتباعاً.. في الخيرِ والشرِّ. ملاً يخططون وأتباعٌ يسرون خلفهم. وكلُّ يختارُ حسبَ ما أُشربَ في قلبه. فالعامةُ ليسوا سكارى، وإنما يدعون السكرَ لِيَحْمِلُوا غَيْرَهُمْ إِثْمَ مَا تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهُمْ، وكلُّ مأخوذٌ بعمله ولكلُّ ضِعْفٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (قَالَ أَدْخُلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبْتُمْ وَأَنْتُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَكَاتِبَتُهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (الأعراف:38)، والله أعلمُ بخلقهِ.

ثالثها: أن القوةَ قوةً أدواتٍ، وأن الأدواتِ الحديثةِ (التكنولوجيا) تعملُ مع صاحبِها. وهادفةٌ لا تتحركُ بعشوائيةٍ، وأن كثيراً من الذين يظنونُ أنهم يفيدون من التقنية

الحديثة لخدمة دينهم يتحركون حيث يُرادُ لهم.. يخدمون عدوهم. وهذا الشرُّ كله يُزال بأن يردَّ الناسُ مآدبةَ الرحمن، بأن يُرتلون حزباً كلَّ يومٍ ويلتزمون الأذكارَ والفرائضَ ليُعادَ صياغةَ شخصيتهم بما في الذكر الحكيم من تكرارٍ.

محمد جلال القصاص

صباح الاثنين

2019 /07 /22

ذوالقعدة 1440

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
أثر الشيطان في عقيدة الإنسان؛

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

من أهم ما يمكن رصده في حياة الإنسان على الأرض وجود تشابه بين آثار السابقين مع اختلاف الزمان والمكان، وهذه بعض الأمثلة من حقول معرفية مختلفة:
المثال الأول: التشابه بين أصنام العرب وغيرها من معبودات الأمم التي سبقتهم بأزمنة بعيدة، ومن الأمثلة على ذلك التشابه بين "اللات" وبعض معبودات الفراعنة⁽²⁾.

المثال الثاني: تكرار الرواية النصرانية عن التجسد والصلب من أجل الفداء عدة مرات في أماكن متفرقة وأزمنة متباعدة قبل المسيح عليه السلام⁽³⁾.

- (1) دكتوراه في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.
(2) ينظر: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد علي، (بيروت، دار الساقى، 1422هـ/2001م)، ج11، ص233.
(3) ينظر: "المسيحية قبل المسيح: المخلصون الستة عشر المصلوبون فداءً للبشر"، موقع طريق الإسلام أخذ بتاريخ 2023/7/2، من الرابط: <https://2u.pw/EXIDAbv> وهو عرض لكتاب "المخلصون من «الخطيئة الأولى» الستة عشر الذين ماتوا على الصليب في العالم"، لكيرسي جريفز 1813-1883م. وتم تأليف الكتاب للقول بأن شخص المسيح، عليه السلام، لم يكن حقيقياً وإنما قصة أسطورية تكررت عدة مرات. وهذا مذهب الذين يعتمدون على الوثائق المكتوبة كتيبة للتاريخ، والذين يعتمدون على التشابه في القصة بين عصور مختلفة للقول بأن القصة "أسطورة" بمعنى خرافة أو من الخيال. والكتاب بالإنجليزية عام 2001 كاملاً، وحدث تفاعل كبير معه في سياق تأويل قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّهُمُ بَصُلُهُمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَلْبَهُمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ﴾ سورة التوبة(9): آية30.

المثال الثالث: ادعاء التطور بين المخلوقات، بمعنى استحالة (تحول) بعض المخلوقات لمخلوقات أخرى⁽¹⁾. هذه التي اشتهرت منسوبة لدارون. فالحقيقة أنها وجدت من قبل في أزمنة عديدة وأماكن متفرقة، فممن قال بها قبل "دارون" ابنُ خلدون في مقدمته للتاريخ، يقول: "اعلم أرشدنا الله وإياك أننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض،.." ⁽²⁾، وقال بها إخوان الصفا في رسائلهم⁽³⁾، وابن مسكويه في تهذيب الأخلاق⁽⁴⁾، وابن طفيل في حي بن يقظان⁽⁵⁾، والقزويني في عجائب المخلوقات⁽⁶⁾، وأرسطو في تصنيفه

(1) ولا تقل فكرة التطور، عند الغربيين، أهمية عن القول بجمتية الواقع، وذلك أن التطور يرسخ مفهوم استمرارية الحياة الدنيا، فالتطور يعطي تصورًا مفاده أن حياة الإنسان على الأرض حلقة من مليارات الحلقات، وسيتطور لغيره كما تطور غيره إليه، فلا معنى للحديث عن فناء الدنيا وإنما الدخول في أشكالٍ أخرى، هذا ملخص فكرة التطور، وهي فكرة شيطانية أملاها الشيطان على نفرٍ قبل ابن خلدون ودارون كما هو موضع في النص.

(2) ينظر: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" لعبد الرحمن بن خلدون، (بيروت، دار الفكر، 1401هـ/1981م)، ج1، ص120.

(3) يُرجِّح المؤرخون أن "إخوان الصفا وخلائ الوفا" ينحدرون من الطائفة الإسماعيلية، ولا يُعرف أشخاصهم ولا سكنهم ولا عددهم. ورسائلهم اثنتين وخمسين رسالة، حاولوا فيها تقديم رؤية توافقية بين الإسلام ومختلف الملل الموجودة وقتها، أو حاولوا "أن يصبغوا ما انتهى إلى المسلمين من آثار الأمم الأخرى صبغة إسلامية" كما يذكر طه حسين في ترجمته لهم. بمعنى أسلمة الملل الأخرى أو دمجها في الإسلام. ينظر: "رسائل إخوان الصفا وخلائ الوفا" لإخوان الصفا، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، 2017م)، وفي الجزء الأول من الطبعة المشار إليها ترجمة طه حسين و أحمد زكي باشا لهم. وفي الترجمتين، بالترتيب: بيان للمحتوى والسياق الذي أخرج هذه الرسائل في حينها، وبيان لاهتمام المستشرقين بهذه الرسائل.

(4) ينظر: "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" لأحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، (القاهرة، المطبعة الحسينية، 1329هـ/1911م).

(5) ينظر: "حي بن يقظان"، لمحمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسي، (بيروت، دار الهلال، 1993م).

(6) ينظر: "عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات" لذكريا بن محمد القزويني، (بيروت، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، 1421هـ/2000م).

(ترتيبه) للمخلوقات. بمعنى أنها فكرة منتشرة في أماكن متفرقة وأزمنة متباعدة فكيف قال بها هؤلاء مع تفرقهم؟! وخاصة أن القول بها ليس مضطرباً؟!)

وفسر بعضهم التشابه بين معبودات السابقين بتمدد الحضارات، بمعنى أن غلبة شعب من الشعوب على غيره جعلت ما اشتهر به الغالب من أصنام وأنصاب تتواجد عند شعوب أخرى. من هؤلاء عباس العقاد وسيد القمني⁽¹⁾. وفي مقدمته للتاريخ رفض ابن خلدون القول بوجود تمدد حضاري وكذب، أو شكك، في مثل هذه الأخبار وعلل بأن عامة كُتَّاب التاريخ، الإخباريين كما يسميهم، يتوهمون الصدق، وبعضهم يتقرب لأهل التجلَّة والمراتب (السلطة والملاأ/ النخبة) بالمدح والثناء وتحسين الأحوال، ويجهلون "قوانين الاجتماع الإنساني" الثابتة والتي يجب أن نعرض عليها الأحداث ونأخذ ما توافق معها⁽²⁾.

(1) قال بهذا عباس العقاد في كتاب "إبليس"، وهذا المعنى موجود عند سيد القمني وهو يتحدث عن أصول العماليق وجرهم ينظر: حيث ادعى أن الشيطان ظهر تدريجياً بعد مرحلة خيالات وأرواح مر بها الإنسان، ووضع عنوان "قبل الشيطان" ينظر: "إبليس" لعباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص 41. وينظر: "النبي إبراهيم والتاريخ المجهول" لسيد محمود القمني، (المملكة المتحدة، هندواي للنشر والتوزيع، 2017)، ص 90، وقبل - هذه الصفحة - صفحات طوال يتحدث فيها عن هجرة المصريين للجنوب. وكذا وهو أي سيد القمني يتحدث عن وجود مقابر ذات شكل هرمي في أماكن متفرقة من الجزيرة العربية، يستدل بذلك على تمدد المصريين الفراعنة في الجزيرة العربية، وكأن الجزيرة العربية كانت قبل خلية حتى انتشر فيها المصريون وعمروها، ينظر: سيد محمود القمني، "النبي إبراهيم والتاريخ المجهول"، (المملكة المتحدة، هندواي للنشر والتوزيع، 2017)، ص 97-99.

(2) ضرب مثلاً ب: المبالغة في عدد جيوش بني إسرائيل في عهد موسى وسليمان، عليهما الصلاة والسلام والتي ذكرت في العهد القديم. وتمدد تتابعة اليمن تجاه الغرب المغرب العربي والشمال أرض الترك، وأنكر ما ذكره المفسرون في وصف مدينة [إرم ذات العماد]، وأنكر نكبة البرامكة، وأنكر الطعن في نسب العبيدين الفاطميين. ينظر: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" لعبد الرحمن بن خلدون، (بيروت، دار الفكر العربي، 1408 هـ / 1988 م)، ج 1 المقدمة، ص 13-36.

والحقيقة أن التشابه حاصل ولا سبيل إلى إنكاره، وأن تفسير التشابه بالغلبة والتمدد بعيد، والدليل على ذلك أن سلطان فرعون، مع قوته وتجره ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ﴾ (طه:45)، لم يتجاوز أرض مصر المعروفة الآن، ودليل ذلك قول الرجل الصالح لموسى عليه السلام بعد أن ورد ماء مدين⁽¹⁾ (الأردن) نجوت من القوم الظالمين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (2).

وإن من أفضل ما يُفسر به هذا التشابه، بعد توافق بعض النفوس في الشر⁽³⁾، هو وساوس الشيطان. وهذه حقيقة شديدة الوضوح في كتاب الله. ففي القرآن الكريم أن الشيطان سبب رئيس في ظهور الكفر والعصيان. ليس فقط بالوسوسة وتزيين الباطل وإنما، أيضاً، تواجد الشيطان عملياً بشخصه متمثلاً في هيئة بشر ويعمل على غرس الكفر والعصيان، وإليك أمثلة تبين حضور الشيطان كسبب رئيس في ظهور المعاصي وما يترتب عليها من فساد في الأرض ومن ثم هلاك المفسدين واستبدالهم، وهذا الظهور كان بالوسوسة الوحي وتزيين الباطل وكان، أيضاً، بالفعل، وهذه بعض الأمثلة منذ خلق الله الإنسان:

(1) و"مدين على بحر القلزم [البحر الأحمر حالياً] محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى، عليه السلام، لسائمة شعيب" "ومدين اسم القبيلة، وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدين بن إبراهيم، عليه السلام" "وقيل: مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية". ينظر: "معجم البلدان" لياقوت بن عبد الله الحموي (بيروت، دار صادر، 1995م)، ج5، ص77، 78.

(2) سورة القصص (28): الآية 25.

(3) توافق النفوس في الشر مثل توافقهم مع اختلاف زمامهم ومكائهم على اتهام الرسل بالسحر والجنون: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥١﴾ أَنْوَاصُوا بِهِ بَلَاهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٢﴾﴾ سورة الذاريات (51): الآيات 52-53 فهذا التوافق مبعثه مرض النفس.

وسوس الشيطان لآدم وحواء، وعالجهما بالقسم حتى عصيا رهما وخرجا من الجنة: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيَدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ (1) و"الوسوسة الحديث في إخفاء همسا وأسرارا" (2) و ﴿فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ﴾ خدعهما بزخرف من القول باطل (3). فهنا حضور للشيطان بالوسوسة وفي الأمثلة التالية حضور فعلي من شخص الشيطان .

في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبرَّجَ الْجَهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾﴾ متى أورد أهل التفسير أن بداية ظهور الفاحشة في أبناء آدم الأول من شخص إبليس، حيث "إن إبليس أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام، فأجّر نفسه منه، وكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئا مثل ذلك الذي يزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع مثله، فبلغ ذلك من حولهم، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيدا يجتمعون إليه في السنة فتتبرج الرجال للنساء، قال: ويتزين النساء للرجال، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن، فظهرت الفاحشة فيهن" (4).

(1) سورة الأعراف (7): الآيات 19 . 22.

(2) ينظر: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1418، ج3، ص815

(3) ينظر: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج10، ص110.

(4) ينظر: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج19، ص98.

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ذكر أهل العلم أن شخص الشيطان هو الذي صور الصالحين لقوم نوح، عليه السلام،⁽¹⁾ وما زال بهم حتى عبدوهم⁽²⁾.

وظهرت الفاحشة في قوم لوط، عليه السلام، ولم تكن فيمن قبلهم ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتأوت الفحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾⁽³⁾. وذكر أهل العلم أن بداية ذلك من إبليس نفسه حين تمثل لهم غلامًا حسن المنظر ومكنهم من نفسه⁽⁴⁾.

ومن خلال تتبع ظهور الشرك في الجزيرة العربية نجد أن الشيطان كان سببًا ظاهرًا في ذلك، فقد ورد في السيرة أن الشيطان جاء عمرو بن لحي وكان له رأي من الجن فقال "عجل السير والظعن من تهمامة"⁽⁵⁾ بالسعد والسلامة اتت جدة، تجدد أصناما معدة فأوردها تهمامة ولا تهب وادع العرب إلى عبادتها تجب "فأتى جدة فاستشارها، ثم حملها حتى أوردها تهمامة"⁽⁶⁾.

(1) ينظر: "الجامع لأحكام القرآن" للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج18، ص307.

(2) ينظر: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج23، ص303.

(3) سورة العنكبوت (29): الآية 29.

(4) ينظر: "الدر المنثور في التفسير بالماثور" للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، (بيروت، دار الفكر، 1431هـ)، ج3، ص496.

(5) وتهمامة من التهم وهو شدة الحر وركود الرياح، ويقصد بها الأرض المنكفئة إلى البحر الأحمر من جهة الشرق وتمتد من الأردن شمالاً إلى اليمن جنوباً، ينظر: ياقوت الحموي، "معجم البلدان"، (بيروت، دار صادر، 1995)، ج2، ص64.

(6) ينظر: "مختصر سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم"، لمحمد عبد الوهاب التميمي، (الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية، 1418هـ)، ص73..

والشيطان هو الذي غير تلبية التوحيد إلى تلبية الشرك، "وكانت التلبية من عهد إبراهيم: لبيك لا شريك لك لبيك حتى كان عمرو بن لحي، فبينما هو يلي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلي معه فقال عمرو: لبيك لا شريك لك، فقال الشيخ إلا شريكاً هو لك، فأنكر ذلك عمرو، وقال ما هذا؟ فقال الشيخ قل تملكه وما ملك فإنه لا بأس بهذا، فقأها عمرو، فدانت بها العرب"⁽¹⁾.

ووجد الشيطان في الأصنام وتكلم للمشركين منها.. كأنها حالة من استجابة الصنم لمن يعكف عليه متعبداً. وذكر ذلك في أخبار هدم الأصنام بعد فتح مكة وفيها أن امرأة خرجت من هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها تخمش وجهها وتضرب صدرها، وقد جاء في الحديث أنه الشيطان⁽²⁾.

وانتشرت الكهانة في الجزيرة العربية، وعظم العرب الكهان فكانوا يتحاكمون إليهم⁽³⁾. وحين التأمل في الكهانة كحالة نجد أنها إملاءات الشياطين على الناس فالكاهن هو ولي الجن كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁾؛ أو الكهان هم رسل الشياطين،

(1) ينظر: "الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام" لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1421هـ/2000م)، ج1، ص166.

(2) ينظر: "البداية والنهاية" للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1424هـ/1997م، ج6، ص608..

(3) ينظر: الإمام ابن حجر العسقلاني، "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، (بيروت، دار المعرفة، 1379هـ)، ج10، ص219.

(4) ينظر: "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، كتاب الطب، باب الكهانة، ج8، ص136. والكهان ليسوا سواء منهم من يدعي الاتصال بالجن يعرف منهم الغيب. بزعمه. ومنهم من لا يدعي الاتصال بالجن، وهناك العراف والمنجم وهما غير الكاهن. ينظر: "شرح صحيح مسلم" للإمام يحيى بن شرف النووي، شرح صحيح مسلم، (بيروت، دار إحياء التراث، ط1392هـ)، ج14، ص223.

تتنزل عليهم، وتوحي إليهم، يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (1)

وصف الله من تنزل عليهم الشياطين الكهان بالإفك والإثم، والإفك نوع خاص من الكذب؛ كَذِبٌ يقصد منه صاحبه صد الناس عن الحق (2)، فالأفك هو الكذاب الذي يعرف الحق ويصد الناس عنه، والأثيم هو كثير الإثم والفجور. ولذا عرف العلماء الكهان بأنهم قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية، يفتنون إلى الجن في أمورهم ويستفتونهم في الحوادث فيلقون إليهم الكلمات (3).

وبعد أن بعث الله محمداً ﷺ وقفت الشياطين في صف الكافرين وهم يجادلون ويقاتلون النبي ﷺ ومن آمن معه. بمعنى أن الشياطين تواجدت مع الكافرين ضد المؤمنين في المستوى النظري الجدال والمستوى العملي القتال، وهذه بعض الشواهد على حضور الشياطين في المستوى النظري.. الإيحاء بالشبهات والحض على المعصية.

(1) سورة الشعراء(26): الآيات 221-223.

(2) ومادة أَفَكَ تدور على القَلْبِ والصَّرْفِ، قَلَبَ الشَّيْءَ عن وضعه الطبيعي أو صرفَ الإنسان عن الشيء، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [سورة النجم(53): الآية 53] والمؤتفكات هي قرى قوم لوط سميت بذلك لأن الله قلبها عليهم، وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَن آهِنِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَادِقِينَ﴾ [سورة الأحقاف(46): الآية 22]، أي تصرفنا، والمأفوك هو المصروف {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنِ أَفَكَ} سورة الذاريات(51): الآية 9] أي يصرف عنه من صرف. ينظر: "لسان العرب" لمحمد بن مكرم بن منظور، (بيروت، دار صادر، 1414هـ)، ج10، ص391.

(3) قول الخطَّابي ينقله ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري"، ينظر: "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"، للإمام بن حجر العسقلاني، (بيروت، دار المعرفة، 1379هـ)، ج10، ص217. ولمزيد من أخبار الكهان ينظر: د. جواد علي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، مرجع سابق، ج12، ص347.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥١) ، وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴾ (١) و ﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ تعني تلاوته (2) ، يلقي الشيطان في أسماع أوليائه ما لم يقله النبي ﷺ ، فيمحو الله أثر هذا الإلقاء ويحكم آياته. وهذا مما كثر حوله الحديث من المستشرقين و"المنصرين" يقولون أن الشياطين أوحى للنبي ﷺ ، وهذا بعيد تماماً وإنما ألفت في أذن أوليائها ما لم يقله النبي ﷺ فيمحو الله ما ألقوه ويحكم آياته (3).

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيَجْذُلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (4) ؛ والمعنى: "أي يوسوسون فيلقون في قلوبهم الجدل بالباطل" (5)؛ وقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (6) "والمقصود ب ﴿ شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ الشياطين التي تضل الإنس، وشياطين الجن الذين يضلون الجن، يلتقيان فيقول كل واحد منهما: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، وأضللت أنت صاحبك بكذا وكذا،

(1) سورة التكويد (81): آية 25.

(2) ينظر: "معاني القرآن" للإمام يحيى بن زياد الفراء، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1431هـ، ج1، ص49.

(3) ينظر: "أسباب النزول" لعلي بن أحمد بن محمد الواحدي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1411هـ)، ص320.

(4) سورة الأنعام(6): من الآية 121.

(5) ينظر: "الجامع لأحكام القرآن" للإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج7، ص77.

(6) سورة الأنعام(6): من الآية 112.

فيعلم بعضهم بعضاً" (1). وقول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، ومعنى "اتخاذ الشياطين أولياء من دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم" (2)، وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوَزُّؤَهُمْ أَرَا﴾، "والأز والهز التحريك أي تحركهم وتحثهم على المعاصي" (3)

وفي المستوى العملي: شاركت الشياطين الكافرين صدهم عن سبيل الله، ومن أمثلة ذلك حضور الشيطان بيعة العقبة الثانية ومحاولته إفشال البيعة بالنداء على قريش. يحاول استنفار من بالموسم من الحجيج ليقاتلوا النبي-صلى الله عليه وسلم- ومن بايعه من الأنصار (4).

وفي يوم بدر جاء قريشاً في صورة سراقة بن مالك الجشعمي، يؤمنهم من غدر أعدائهم من القبائل إن هم خرجوا لقتال محمد ﷺ وأصحابه ﷺ، وظل معهم إلى أن تراء الجمعان وفرّ حين رأى الملائكة (5)، وهذا قول الله تعالى: ﴿وَأَدْرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غٰلِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ

(1) ينظر: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج9، ص498.

(2) ينظر: "لطائف الإشارات" للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1431هـ)، ج3، ص343.

(3) ينظر: "معالم التنزيل في تفسير القرآن" للإمام الحسين بن مسعود البغوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، ج3، ص251.

(4) ينظر: "السيرة النبوية لابن هشام"، لعبد الملك بن هشام، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1375هـ/1955)، ج1، ص447.

(5) ينظر: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، ج11، ص222.

أَلْفَيْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ (1) .

وفي يوم أحد حضر الشيطان القتال، وهذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ (2) . وفي الآية الكريمة "استئناف لبيان سبب الهزيمة الخفي، وهي استزلال الشيطان إياهم" (3)

وفي السيرة النبوية وصحيح الأحاديث ما يبين عداة الشياطين لشخص النبي ﷺ، من ذلك تفلت أحد الشياطين عليه وهو يصلي، وأن له قرين من الجن ولكن الله أعانه عليه فأسلم هذا القرين، أو فسلم النبي ﷺ من شره. (وقد سبق بيان هذا في هذا البحث).

د. محمد هلال القصاص

غرة صفر 1445هـ

سبتمبر 2023

(1) سورة الأنفال(8):آية 48. وينظر: "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي، مرجع سابق، ج8، ص26.

(2) سورة آل عمران(3):الآية 155.

(3) ينظر: "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" / التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، (تونس، الدار التونسية للنشر، 1984هـ)، ج4، ص139.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
من وحي الشيطان

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بدأ النباش عن آثار الهالكين مع العلمانية. فبعد أن قضى العلمانيون على الكنيسة ونُظِم (جمع نظام) الحكم المصاحبة لها (الإمبراطوريات)، أسسوا المرحلة جديدة تعادي الدين جملةً وتتخذ من نموذج الدولة القومية الحديثة وسيلة للحكم، وراحوا يبحثون عن مصدرٍ معرفيٍ بديلٍ "للعهد القديم والعهد الجديد"، وذلك بعد أن ثبت كذبهم في كثير مما تحدثوا به عن الأولين؛ ومحاولةً لبناء ذاكرة خاصة بهم بعيداً عن الديانات السماوية؛ ومحاولةً لطمس هوية الشعوب التي احتلوها وخاصة الشعوب الإسلامية؛ وإرباكاً للمعرفة الإنسانية بحديث عن ماضٍ لم يثبت مطلقاً، أو لم يثبت بيقين، أو قرئ بشكل مجتزء.

ومن أهم ما يمكن رصده في الكشوفات الأثرية هو التشابه بينها، وخاصة التماثيل والأنصاب، فالأهرامات وجدت في "أمريكا الوسطى"، ووجدت في أفريقيا، ووجدت في الصين. وكذا الرواية النصرانية عن التجسد والصلب من أجل الفداء تكررت أكثر من مرة على مدار التاريخ، وموزعة على صفحات الأيام والأماكن، ففي كل مكان وزمان ذات القصة.. وقوم يقولون أن "مخلصهم" هو المخلص الوحيد!!
ذهب عباس العقاد إلى أن سبب ذلك هو تمدد الحضارات، وراح يتحدث عن بطولات خارقة لشعب من الشعوب جعلت أصنامهم وأنصابه تتواجد عند شعوب أخرى⁽²⁾!!

(1) كاتب وباحث. دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة.

(2) وهذا المعنى موجود عند سيد القمني وهو يتحدث عن أصول "العمالق وجرهم" انظر: سيد محمود القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، (المملكة المتحدة، هندواي للنشر والتوزيع، 2017)، ص 90، وقبل- هذه الصفحة- صفحات طوال يتحدث فيها عن هجرة المصريين للجنوب.

يفسر عباس وجود تماثيل مشابهة لتماثيل الفراعنة في الهند بأن المصريين (الفراعنة) بلغت دولتهم الهند⁽¹⁾!! ويفسر الغربيون تواجد تماثيل الإغريق في الهند بأن اليونانيين غزوا الهند واستقروا فيها حيناً من الدهر وشيدوا أصنامهم ونصبوا حولها أنصابهم (الأسكندر المقدوني)!!

ووقف ابن خلدون في مقدمته عند هذه الأخبار ومثلها (كالقول بتمدد تتابعة اليمن تجاه المغرب العربي)، ولكنه أراح نفسه من عناء التفسير. راح ينكر تلك الأخبار ويتهم من نقلها بأنه ينقل الكذب بقصد أو بدون قصد، واتكئ في مقدمته على أن عامة كتاب التاريخ (الإخباريين) ينقلون ما يجدون دون تدبر، ولم يحاول تفسير هذه الظاهرة، فقط شكك فيها واتهم من نقلها بالتساهل في نقل الأخبار الكاذبة!!

وفي القرآن الكريم أن الشيطان سبب ذلك كله.

في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة، أن الشيطان هو الذي حرض البشر حتى نصبوا الأوثان (التماثيل والبيوت) وشيدوا الأنصاب (منصات) وجعلوا حرماً آمناً حول أوثانهم. وأن ذلك مرَّ بمراحل: كان بدايتها تعظيم السادة والكبراء، ثم تصويرهم على الجدران، ثم نصب أصنام لهم، وأنصاب حولهم يذبح عليها من شاء أن يتقرب إليهم. ويكتمل المشهد بوضع الأصنام وأنصابتها في حرمٍ يخلعون عليه "قداسة" كي يتخلى الداخل إليه عن يقظته الفكرية والإنسانية فيهريق عقله ومروءته بدعوى أن لا عقلانية في "التعبد"!!

أفكار الكفر وتطبيقاته العملية محدودة جداً، وتتكئ كلها على فكرة واحدة هي: تعظيم شيء في الأرض لذاته أو وصولاً لمن في السماء، سبحانه وتعالى وعز

(1) وكذا فعل سيد القمني وهو يتحدث عن وجود مقابر ذات شكل هرمي في أماكن متفرقة من الجزيرة العربية، يستدل بذلك على تمدد المصريين (الفراعنة) في الجزيرة العربية، وكأن الجزيرة العربية كانت قبل خليه حتى انتشر فيها المصريون وعمروها، انظر: سيد محمود القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، (المملكة المتحدة، هندواي للنشر والتوزيع، 2017)، ص 97-99.

وجل. فهذا التشابه في التصوير على الجدران، والتمثيل بأحجار، و"الحرم الآمن"، أمانة في "المخبر عنه" بأنه خرج من رأس واحدة.. إبليس لعنه الله. وليست كما يدعى العجلى أنها حالة من اجتياح الحضارات بعضها بعضاً.. ليست بصمة تتركها كل حضارة على غيرها حين تستحل حرامها.

وشيء آخر في المخبر عنه يدل على أنه إبليس. كان ولا يزال. وهو أن النابشين عن تماثيل الأمس والمسوقون لها اليوم يخفون تماماً ذكر الرسل والأنبياء في تلك الأمم، والله يقول: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر : 24].

إنه إبليس وإنهم جنود إبليس. عظموا شيئاً، ثم صوروه على الجدران، ثم تماثيل تحس ليأنس بها الغبي البليد، ويتخذها الملاً أداة للسيطرة على المال والسلطان؛ ثم جعلوها أفكاراً يعظمها ويضل بها الذين من بعدهم؛ فطبعي أن ينزعوا ذكر الرسل وأتباعهم من إفاكهم.

يقول الله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام : 121]، فأثبت للشيطان وحي، وهذا يعني أتباع وشرع وواقع يتحرك في مواجهة الأنبياء والمؤمنين بالله ورسله.

اللهم لا أقول بقولهم، ولا أفف في صفهم، اللهم إني أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك.

محمد جلال القصاص

2015 / 10 / 12

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
علاقة النبي ﷺ بالجن

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

مدخل:

القضية الرئيسية عند الذين كفروا بالله وما أرسل به محمداً ﷺ هي إنكار الوحي وادعاء أن البعثة مبادرة ذاتية من شخص رسول الله ﷺ، أو أن البعثة المحمدية بنتٌ بيئتها.. إفراس للبيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ وليست وحيًا من الله. ويأتون من طرقٍ شتى، فمنهم من يقول عبقرى، ومنهم من يقول: عظيم تألم لحال قومه فنهض بهم، ومنهم من يقول: شاعرٌ، أو ساحر، أو مجنون، أو كاهن تنزلت عليه الشياطين (مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (الكهف:5).

وبأقوى أدوات التوكيد (النفي والاستثناء) عرّف الله محمداً بن عبد الله ﷺ في كتابه بأنه رسول من عند الله متبعٌ لما يوحي إليه في شأنه كله، وتدبر يقول الله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (آل عمران: من الآية 144)، ويقول الله تعالى: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا) (النساء: من الآية 79) ويقول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾. وهذا ما كان يُعرّف به النبي ﷺ نفسه: (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) وأثنى الله عليه أعظم الثناء: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحریم:4).

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

وإن ما رددته الكافرون في وجه الرسل والأنبياء قبل محمد ﷺ، هو هو ما رددته الكافرون الذين واجهوا محمداً ﷺ، وهو هو بأمر عينه ما يردده الكافرون اليوم في بطون الكتب وعلى شاشات الفضائيات وصفحات مواقع التواصل . ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ (المؤمنون: من الآية 44)، ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (أنصأوا بهء بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ) ﴿الذاريات: 52-53﴾، فلاشتراك في الطغيان (التمرد والتعدي على أمر الله ونهيه) ¹ وخذ منطق الكافرين رغم اختلاف الزمان والمكان.

وفي هذه الورقة محاولة للرد على شبهة مركبة من عدد من الافتراءات تدور حول الزعم بأن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان على اتصال بالشياطين.. عن طريق الكهانة، والسحر، والشعر ⁽²⁾، أو أن الشياطين تسلطت عليه في المنامات (الأحلام)؛ ويلحق بهذا الزعم بأن النبي ﷺ أصيب بالجنون ⁽³⁾.

(1) ينظر: "جامع البيان" للإمام محمد بن جرير الطبري، ط. هجر، ج 21، ص 551.
(2) وكان العرب قديماً يظنون الشعر وحي من الشيطان: إِيَّيْ وَكُلِّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَرِ... شَيْطَانُهُ أَنْثَى وَشَيْطَانِي ذَكَرٌ.

(3) الآيات التي رصدت وصف الكافرين للنبي ﷺ بالجنون كثيرة، مما يدل على انتشار هذه الشبهة قديماً، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٦﴾ ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ الْيَقِينُ وَكَفَرُوا لِحَقِّ كُرْهُونَ﴾ ﴿٧﴾ ، ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ﴿٨﴾ ، ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿٩﴾ ، ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿١٠﴾ ، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿١١﴾ .

وأول ما نلاحظ في هذا الزعم الكاذب أن الله، العلي الكبير، سبحانه وتعالى وعز وجل، تحدّث عن هذا الإفك في كتابه أكثر من مرة؛ ولعل بعض ما في هذا من الخير أن نعلم أن الكفر كله ملة واحدة، وأنا لا نواجه شبهات حقيقية وإنما نواجه نفوساً مريضة ترفض الحق وتفترى الكذب لتدفع الحق وأهله؛ وأن ذكر الشبهة والتعامل مع الشبهة واجب بما في ذلك ذكرها.

واتهام النبي ﷺ بأن له علاقة بالجن (الشياطين)، بمعنى أنهم تسلطوا عليه ﷺ فأذهبوا عقله وإرادته. فأصبح مجنوناً، أو كاهناً أو شاعراً يقول بقولهم، وكانت العرب تظن أن الشعر وحي من الشياطين. هذا الإفك والكذب البين ذكره العليم الخبير في كتابه في أكثر من موضع، مما يدل على انتشار هذا المنحى من الافتراء على الرسل عموماً ورسول الله ﷺ على وجه الخصوص، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ (الأعراف: 184)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَتَرْتَهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونَ ﴿٧٠﴾ (المؤمنون: 70)، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ (سبأ: 8).

وقوله تعالى: ﴿ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابِ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ (سبأ: 46)،

وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾،

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (القلم: 2)،

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (التكوير: 22).

وفيما يتعلق باهتمامه بتعاطي الشعر (وهو نوع اتصال بالجن كما سبق):
يقول الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ
كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾ (الأنبياء: 5)، ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ
بِهِ رَبِّ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ (الطور: 30)، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا
مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الحاقة: 41-
43). ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ
﴿٦٩﴾﴾ (يس: 69)؛

وفيما يتعلق بالزعم بأن الوحي من الشياطين، نفى الله الكبير المتعال ذلك
في أكثر من موضع، مما يدل على انشار هذا الزعم الكاذب وقت نزول
الوحي، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿١١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الشعراء: 210-212). ويقول
الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيزٍ ﴿٥٥﴾﴾ (التكوير: 25).

الرد على الشبهة في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم مسارين رئيسيين للرد على أقوال الأفاكين.
أولهما: بيان عدم معقولية كلامهم، وأنهم تحدثوا بالكذب الصريح، بمعنى أنهم
يكذبون وهم يعلمون أنهم يكذبون.
ثانيهما: بيان دوافع التحدث بهذا الإفك المبين، تحديداً دافعين رئيسيين:
أولهما: كراهية اتباع الحق، وذلك لما في النفوس من كبر واستعلاء وحبٍ
للشهوات، وثانيهما: غياب الإيمان باليوم الآخر وما فيه ثواب وعقاب.

ففي القرآن الكريم ينفي الله، سبحانه وتعالى وعز وجل، عن نبيه الجنون مطلقاً، بمعنى أنه ﷺ لم يخالطه أي شيء من الجنون، يقول الله تعالى مخاطباً قريش: ﴿ مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير: 22). وذكر النبي ﷺ بوصف الصاحب ليستحضر في ذهن المتلقي حال النبي ﷺ بينهم. قد كان صاحبهم... بمعنى ملازم لهم ملازمة الصاحب لصاحبه.. أربعين عاماً قبل البعثة لم يفارقهم فيها أبداً، حتى في المرتين اللتين خرج فيهما متاجراً للشام كان بين أهله من قريش. خالطهم صبيًا، وشابًا، وكهلاً. يتعامل معهم في الأسواق، ويتحرك بينهم ليلاً ونهاراً. ولم يعرفوا عنه سوى الرشد والصدق والأمانة ثم يقولون به جنة. أيعقل هذا!!؟

ومثل تذكيرهم بصحبته لهم تذكيرهم بطبيعة ما يتلوه عليهم (القرآن الكريم)، يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ وظاهر المعنى تضارب، فكيف يُقرون بأنه نزل عليه الذكر ثم يتهمونه بالجنون؟!، ولذا فسر بعض أهل العلم الآية بتقدير مضمرة (يا أيها الذي تدعي أنه نزل عليك الذكر)، والأصوب أن هذا حالهم بالفعل يؤمنون بداخلهم أنه نزل عليه الذكر ثم يتناقضون مع أنفسهم فيزعمون أنه مجنون، وما هذا إلا لأنهم كرهوا ما أنزل الله ولم يتجزر الإيمان بالله واليوم الآخر في قلوبهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: 14)، ﴿ قَدْ نَعَلَّمَ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿ (الأنعام: 33)..

ومثله ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴿ مئى فهنا نفي للجنون عن النبي ﷺ واستصحاب لحال النبي ﷺ وكيف أن نعم الله، "من الفصاحة التامة

والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة" ظاهرة عليه. والمعنى أنه "إذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون" (1)، والمعنى: أن كلامهم كذب صريح ليس له أي شاهد من حال النبي ﷺ.

وكان الرد، أيضاً، من العليم الخبير، سبحانه وتعالى وعز وجل، ببيان الدافع وراء هذا الكذب الصريح. وهو عدم الإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم مقيم للمؤمنين وعذاب عظيم أليم مهين للكافرين، وأن هؤلاء يكرهون الحق ولا يريدونه عناداً واستكباراً واتباعاً لشهواتهم. وتدبر: يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ (المؤمنون: 70)، ويقول الله تعالى: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ: 8). فهذا إجابة على الشبهة بذكر سببها. فالحقيقة أن هؤلاء لم يروا من محمد ﷺ إلا الكمال في شخصه وما جاء به فما كفروا "الشبهة في الأدلة ولا لخروجها عن مستوى تفكيرهم، فإنها أعلام على الحق واضحة الدلالة عليه لم تتجاوز دائرة عقولهم، وإنما كفروا استكباراً، وعلواً في الأرض أو حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، أو اتباعاً للهوى واندفاعاً وراء العصبية الجاهلية، أو تقليداً للآباء، وإذعاناً للسادة والوجهاء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ﴿

(1) ينظر: "مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، ج30، ص600.

الزخرف: 21 الآيات، وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام: 124 ، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: 109، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَشْتَعِبُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولَٰئِكَ ءَأَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧)، وقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (٢٧)، وقال: ﴿أَقْلَمَ يَدَّبُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَرَّهُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٢٠). (١) فحالمهم أنهم كارهون للحق، كافرون باليوم الآخر وما فيه... في ضلال بعيد لا يرجع منه إلى الهدى (٢).

وهذان المحوران (حال النبي ﷺ وحال من تحدث بالشبهات) يكفیان تماماً لبيان كذبهم، وكفیان لتثبيت المؤمنين. وفيهما عظة لمن أراد الحق وعلم أنه مخلوق ومأمور ومحاسب، فالقرآن يخاطب أعماق النفوس ويكشفها أمام أصحابها قبل غيرهم.

ماذا يقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون؟

- (1) ينظر: "الإحكام في أصول الأحكام" للإمام علي بن محمد الآمدي، (بيروت/ دمشق، المكتب الإسلامي، 1402هـ)، ج4، ص181. والنص من الهامش من تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي.
- (2) الطبري هاجر، ج19، ص216.

إن جمعت ما تحدث به المستشرقون العلمانيون كـ "ديورانت" (1) و "توينبي" (2)، ودعاة النصرانية كزكريا بطرس و "جوزيف قذي/ أبو موسى الحريري" (3) و "توفيق فهد" (4)، والمتبعين لهم القائلين بقولهم من المنتسبين للإسلام كخليل عبد الكريم،

(1) ويليام جيمس ديورانت (1885م-1981م)، فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة والذي شاركته زوجته اليهودية أرثيل ديورانت (1898م-1981م) في تأليفه، تخرج من كلية القديس بطرس (مدينة جيرسي سيتي / ولاية نيو جيرسي الأمريكية) 1907م، وحصل على الدكتوراة في الفلسفة 1917م من جامعة كولمبيا، ودرس فيها الفلسفة، ومن خلال محاضراته كتب عددًا من الكتب، من أهمها "قصة الفلسفة"، و "قصة الحضارة" ينظر: "من هو وول ديورانت" موقع أراجيك، أخذ من الرابط: <https://www.arageek.com/bio/will-durant>

(2) أرنولد جوزيف توينبي 1889م-1975م، مؤرخ بريطاني، عمل أستاذًا للدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن، ومديرًا لدائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية، قدم "دراسة للتاريخ" في اثني عشر مجلدًا درس فيها صعود وهبوط الحضارات، ويرى أن الحضارات إلى أفول باستثناء الحضارة الغربية، وكتابه ومقولاته التفسيرية واسعة الانتشار. ينظر: "من هو أرنولد توينبي"، لفاتن دراج، أخذ بتاريخ 2023/7/4، من الرابط: <https://2u.pw/5XUhLCv>

(3) جوزيف كليم قزّي (1937م-2022م)، كاهن راهب في الرهبانية المارونية اللبنانية، نشر أربعة كتب في تفسير البعثة المحمدية هي "قس ونبي"، و "نبي الرحمة"، "عالم المعجزات"، "أعربي هو"، باسم مستعار "أبو موسى الحريري"، وهذه الكتب الأربعة، بالترتيب، تتصدر سلسلة من اثنين وعشرين كتابًا بعنوان "الحقيقة الصعبة" يقدم فيها رؤيته عن الإسلام والطائفة الدرزية. ينظر: "قراءة في كتاب تبرئة الله للأب جوزف قزّي أبو موسى الحريري جزء 1" لسامي الذيب، أخذ بتاريخ 2022/7/29، من الرابط: .

<https://2u.pw/hJk44> وقد عمّر هذا الظالم لنفسه وظلّ محتبئًا خلف اسم مستعار (أبو موسى الحريري) عقودًا من الزمن ثم ظهر في آخر أيامه وأعلن أنه كافر بالرسول كلهم، وأن هذا الكفر بكل الرسل هو الإيمان الحقيقي بالمسيح، عليه السلام، فكان كتابه الأخير بعنوان "تبرئة الله". يبرئ الله من رسله. ينظر: "منهجية المستشرقين في الاستدلال بالقرآن الكريم: جوزيف قزّي نموذجًا" للدكتورة إيناس جلال القصاص. نشر في: مجلة الزهراء، المجلد 32، العدد 32، أكتوبر 2022، (ص 397-ص 442).

(4) لبناني، ماروني، مؤسس ورئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة ستراسبورغ بفرنسا، وقدم عددًا من الأبحاث عن الإسلام من أهمها كتاب "الكهانة عند العرب"

وسيد القمني⁽¹⁾، ونصر أبو زيد⁽²⁾، ومعروف الرصافي، وهشام جعيط⁽³⁾، والمتأثرين بأفكارهم جزئياً كعباس العقاد في عبقرياته، وأعدت النظر فيه مرة بعد مرة، فإنك ستلاحظ بوضوح ثلاثة أشياء:

أولها: غياب الإيمان بالله العلي العظيم وما له من أسماء حسنى وصفات عليا واليوم الآخر وما فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم.

وكتاب "الألوهية عند العرب"، ينظر: "ذكرى العلامة توفيق فهد"، موقع الحركة الثقافية- أنطلياس، أخذ بتاريخ 2022/12/25، من الرابط: <https://cutt.us/AYhEX> وهو من الشخصيات التي لا يكثر الحديث عنها، ويحرصون على عدم ذكر هويته النصرانية المارونية، ربما لأنه كان أكاديمياً ولم يكن يظهر في الساحة الثقافية، ولكن أفكاره في كتابيه المذكورين منتشرة جداً، والعجيب أن "رضوان السيد" يقدم لكتابه هذا ويتحدث عنه بفخر وإعزاز!!

(1) سيد محمود القمني (1947م-2002م)، حاصل على ليسانس آداب قسم فلسفة من جامعة عين شمس بالقاهرة، واشتغل بتدريس الفلسفة لطلبة الثانوي في مصر ودولة الكويت، ثم تفرغ للكتابة، وبدأ- حسب ما يذكر في بعض حوارته- قاصاً، ثم اتجه للكتابة في الإسلاميات. حصل على جائزة الدولة المصرية التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام 2009، وبعدها ثارت شكوك حول ادعائه الحصول على درجة الدكتوراه لم يستطع أن ينفجها، وطبعت كتبه مؤخراً دون أن يرفق اسمه بلقب "دكتور". ينظر: "أفكار مارقة"، إبراهيم عوض، (القاهرة، مكتبة جزيرة الورد، 2011).

(2) لم يكن سيد القمني يصرح بإسلامه طيلة حياته، وقبل وفاته بقليل صرّح بأنه كافر.

(3) هشام جعيط (1935-2001م)، تونسي، أكاديمي، حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة السوربون، وشغل منصب رئيس المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) بين 2012 و2015 كما كان عضواً في الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون اهتم بدراسة وتحليل الشخصية العربية المسلمة، والمدينة الإسلامية، والسيرة النبوية بحليب من المناهج المتعلقة بعدد من العلوم كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأديان والفلسفة، وبعيداً عن التحليل الإيماني، ينظر: "هشام جعيط" موقع المعرفة، أخذ بتاريخ 2022/12/25 من الرابط:

<https://cutt.us/yagtP>

وثانيها: كراهيتهم للحق والذي جاء به ﷺ، فمن تدبر حال هؤلاء نجد أنهم يحملون نوعين من البغض: أحدهما للشريعة وما فيها من أوامر ونواهي تجمع الناس على الفضيلة وتمنعهم من الرذيلة، وما فيها من إعطاء العوام حقوقاً تمكنهم وتساويهم بغيرهم؛ والثاني بغض لشخص الرسول ﷺ عليه وسلم: على ما آتاه الله من الكتاب والحكمة والأصحاب والزوجات والذكر الحسن الممتد.

وثالثها: حالة من التردد تدل على الكذب فالقول وضده عند ذات الكاتب بل في ذات الكتاب. حتى أنك تستطيع أن تدلل على كذبهم فقط من خلال رصد أقوالهم المتضادة ووضعها أمام القارئ ليعلم أنها حالة من رفض الحق وليست، أبداً، حالة من البحث عن الحقيقة. مرة يزعمون أن ملك الوحي شيطان ﴿ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ (التكوير: 25)؛ ومرة يزعمون أن النبوة حالة متطورة من الكهانة، ومرة يزعمون أن الوحي منامات وخيالات. ومرة يزعمون أن كل الكمال وجملة الجمال ﷺ أصابه جنون. وإن حال رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ كمال كله ولم يكن فيه شيء مما يفتره هؤلاء. وهذه بعض الحقائق التي تبين كذب ما يزعمون:

أولاً: لم ينزل القرآن الكريم على النبي ﷺ من خلال الرؤيا (الأحلام)، وإنما تلاه الروح القدس (ملك الوحي / الروح الأمين / جبريل عليه السلام،) بصوتٍ مسموع على النبي ﷺ، وفي صحيح البخاري "وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن الكريم"⁽¹⁾، بمعنى أن نص القرآن الكريم، فضلاً عن أنه كان يُلقى على النبي ﷺ نصاً مقروءاً يسمعه من ملك الوحي (جبريل، عليه السلام)، فإنه (أي

(1) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، مرجع سابق، باب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ج4، ص113.

النص) كان يُضبط ويراجع مرة كل عام ومرتين في آخر عام بصوت واضح ومن شخص جبريل ظاهرًا لرسول الله ﷺ. يقول الله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾) (القيامة: 17-19)، فالنبي ﷺ تلقى القرآن تعلمًا وضبطًا من جبريل، عليه السلام.

وغاية ما ورد في الرؤيا أن الرؤيا الصادقة كانت واحدة من إرهاصات النبوة حيث كان النبي ﷺ يرى الرؤيا فتتحقق مثل فلق الصبح؛ وأن الرؤيا الصادقة من حال المؤمن الصالح والتي يشابه فيها بعضًا من حال الأنبياء "الرؤيا الصالحة جزءٌ من سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ" (متفق عليه)، وأنها من المبشرات يراها المؤمن أو ترى له. وأن رؤيا الأنبياء حق لأنهم معصومون لا يتسلط عليهم الشيطان في المنام ولا في اليقظة، والذين يقولون بهذا يستدلون بإقدام إبراهيم، عليه السلام، على ذبح ولده إسماعيل، عليه السلام، ولا يجدون شيئًا في حال رسول الله ﷺ يستدلون به اللهم بعض الرؤى التي تنبئ بشيء رآه في منامه ﷺ. وكانت قليلة ولم تكن، أبدًا، مصدرًا لنص القرآن الكريم أو التشريعات.

والسبب في حضور هؤلاء حول الرؤى والمنامات للقول بأنها مصدر الوحي هو زعم ابن خلدون أن تلقي الغيب إنما يأتي من خلال الصفاء الذهني، وأن الصفاء الذهني يتحصل عليه بالخلوة والرياضة النفسية. كأن النبي حين خلا عشرات الأيام في غار حراء أعد نفسه للمعرفة عن الله.

ونقل هذا المعنى نصر حامد أبو زيد⁽¹⁾، وعباس العقاد حال حديثه عن "الوعي الكوني"، فالوعي الكوني عند عباس العقاد هو هو بعينه ما تحدث به ابن خلدون

(1) استدل به نصر أبو زيد "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" لنصر حامد أبو زيد، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2014)، ص36، و37.

عن تلقي الغيب من خلال الرياضة النفسية التي تُصفي الذهن وتجعله يعلم الغيب من تلقاء نفسه⁽¹⁾. ومحصلة هذا القول أن النبوة مجهود ذاتي وليست اصطفاءً من الله، وأن النبي، أي نبي، شخص اجتهد لا أن الله اختاره وأعدّه بعناية خاصة لتلقي الوحي وتبليغه للناس، يقول الله: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (الحج: 75)، والله يقول: (يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (النحل: 2)، والله يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأعراف: من الآية 124).

وإن كل عزلة إعداد. ثم حسب ما يعتزل له المرء. ولم يكن اعتزال محمد بن عبد الله في غار حراء سوى تعبد لله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.

ثانياً: من الدلائل الواضحة على أن الوحي كان من ملكٍ لرسول الله ﷺ ولم يكن من شيطان ولا من منامات وتهيؤات، حادث بدء الوحي في غار حراء. والرواية في الصحيح، وفيها ملك الوحي (جبريل، عليه السلام) يظهر بشخصه للرسول ﷺ ويتحدث إليه. وفي الصحيح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ

(1) ينظر: "الله"، لعباس محمود العقاد، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، 2013)، ص 15-56، ص 191-208.

لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَرَوُّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: (مَا أَنَا بِقَارِيٍّ). قَالَ: (فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَمُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }). فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْجِفُ فُؤَادُهُ.. الحديث "

هذه هي الرواية التي عندنا. وهي رواية في الصحيح يرافقها سورة من سور القرآن الكريم (سورة العلق) وحديث عريض ممتد عن نزول ملك الوحي جبريل، عليه السلام، على رسول الله ﷺ في غار حراء، من علماء التفسير في تفسيرهم لسورة العلق، وشراح الحديث في شرحهم لحديث بدء الوحي. ويتحدثون عن رؤية حقيقية وتفاعل مباشر بين الملك والرسول ﷺ. والذين في قلوبهم مرض والكافرون يتحدثون من عند أنفسهم، وأقوالهم متضاربة وهذه أمانة على كذبهم، فمرة يقولون: رؤية منامية، ولم تكن رؤية منامية. ومرة يقولون: لم تحدث، وقد حدثت ودونت في القرآن الكريم (سورة العلق) وفي الصحيح.

ثالثاً: لم يكن النبي ﷺ يصرع كما يصرع المجنون حين يأتيه الوحي، فما كان يصاحب الوحي هو إجهاد وعرق، كمن يحمل شيئاً ثقيلاً (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا).
رابعاً: إن يقولون إلا كذباً⁽¹⁾:

يتحدث زكريا بطرس عن إخبار السيدة خديجة رضي الله عنها للوحي فيقول: جاء في كتاب "السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 230": قال ابن إسحاق: "عن خديجة

(1) فكرت كثيراً في حذف هذه الفقرة من البحث، وأبقيتها، مع كراهتي الشديدة للتفاعل مع هذا الرخص في الكلام، كي يعلم المتلقي أن نواجه حالة من السفالة وليست، أبداً، حالة من طلب الحق.

رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله: أي ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال نعم، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال رسول الله لخديجة يا خديجة هذا جبريل قد جاءني، قالت قم يا ابن عم فاجلس علي فخذي اليسرى؛ فقام رسول الله فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم قالت: فتحول واجلس علي فخذي اليمنى؛ فتحول رسول الله فجلس علي فخذه اليمنى، فقالت هل تراه؟ قال نعم، قالت: فتحول واجلس في حجري، فتحول رسول الله فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال نعم، [وفي رواية أخرى] أدخلت رسول الله بينها وبين درعها، ثم ألقت خمارها عن وجهها، ورسول الله جالس في حجرها، ثم قالت له هل تراه؟ قال لا، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت: يا ابن عم اثبت وأبشر فو الله إنه لملك وما هذا بشيطان".

هكذا يروي القصة، ثم يعلق قائلاً: "كان هدف خديجة أن هذا الذي ظهر لمحمد لو كان ملاكاً لنجل من فخذيها ودرعها... إلخ"، ويتساءل: "كيف أن ملاكاً لا ينجل من أعضاء المرأة: لا فخذه ولا حجرها ولا درعها، ولكنه ينجل من وجهها؟ وكيف تُعلِّم امرأة نبي الله الذي تجلّى له الوحي، فتعلّم هي ما لم يعلمه هو؟ ثم كيف يؤخذ بشهادة امرأة، والمرأة في الإسلام ناقصة عقل وناقصة دين؟ وكيف اعتبرت شهادة امرأة واحدة شهادة شرعية، والشهادة المقبولة في الإسلام امرأتين ورجل؟ ثم كيف تأكدت أنه ملاك وليس بشيطان، والشيطان يستطيع أن يغير شكله إلى شبه ملاك نور. ويؤكد هذا الرأي ما جاء في (تفسير الرازي لسورة الحج 52 وسورة التكويد 20) "إن الشيطان المسمّى الأبيض تصدّى لمحمد وجاءه في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي". هذا نص كلامه.

التعليق: - كذب على مستمعيه حين ادعى أن هذا حديث صحيح، والحديث غير صحيح.. لم يثبت، وبطرس يكذب كعادته، وهذه بعض كذباته في هذا الاستدلال فقط!!:

ادعى أن هذا حديث صحيح، والحديث غير صحيح.. لم يثبت.

وادعى أن السيدة خديجة- رضي الله عنها- كشفت عن فخذيها وحجرها ولم ينصرف الملك إلا حين كشفت عن وجهها، وهو أسلوب سخرية منحط لا يليق بمن ينتسب للوعظ والتوجيه، وفوق ذلك غير موجود في النص الذي أورده هو - لاحظ- ولا في النص الأصلي فقد حذف من النص الذي ينقل عنه هذه الجملة "فتحسرت وألقت خمارها"؛ والخمار هو غطاء الرأس؛ وكانت بثيابها ترتدي درعاً (ثياباً وافرة ساترة كأنها درع)، بدليل الرواية الثانية التي أدخلها بطرس في السياق (فأدخلته في درعها)، عندها ذهب الملك. ذهب من ماذا؟ من كشف الرأس والرقبة وأعلى الصدر، وليس كما يقول الكذاب اللئيم زكريا بطرس، أن الملك بقي حين كشفت فخذيها، وحجرها وانصرف حين كشفت وجهها. ليس في النص، الذي ينقله هو، كشف فخذي ولا حجر، وإنما فقط تحسر بإزالة ما تضعه على رأسها رضي الله عنها وأرضاها. إذاً بمقاييسه هو: هو ملك، استحى من كشف القليل وانصرف، وهي رضي الله عنها. كانت تظنه ملكاً وبالفعل رأته (علمته) ملكاً، إذ لو كان شيطاناً ما استحى حتى من ما هو أبعد من الرقبة وأعلى الصدر.

وادعى أن ليس عند المسلمين دليل على الوحي إلا هذه القصة، أو إلا شهادة السيدة خديجة، رضي الله عنها، في هذه القصة التي لا تثبت ولم تظهر إلا في بعض كتب السيرة. وهذا محض كذب فعندنا القرآن الكريم ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت:51). وقد صنف أهل العلم كتباً في دلائل النبوة، وأولها ما في القرآن

الكريم والسنة النبوية من إنباء عن غيب سابق أو معاصر أو لاحق. حتى مقاييس الكذاب اللئيم زكريا بطرس التي وضعها هو كدليل على النبوة تنطبق تماما على رسولنا ﷺ. وقد ناقشت هذا في ردي المفصل عليه [ينظر كتاب الكذاب اللئيم زكريا بطرس].

وزعم أن الشيطان قد يتحول إلى شبه ملاك من نور. وهذا محض كذب فمادة الملك غير مادة الشيطان. الملك من نور والشيطان من نار. الملك للخير والشيطان للشر. الملك رسول من رب العالمين لعبادة المتقين.. الأنبياء وبعض الصالحين، والشيطان عدو للمتقين والصالحين المصلحين وعاون للأفكاريين الكذابين.

وزعم أن في تفسير الإمام الفخر الرازي لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَمَّتْ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج: 52)، وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ (التكوير: 25). ذكر لشيطان أبيض كان يأتي للنبي ﷺ على هيئة جبريل ويوحى إليه!!

يكذب كذب صريح وينسبه لأحد أشهر كتب التفسير، مع أن الكتاب موجود ويستطيع أي أحد الرجوع إليه ومعرفة أن بطرس كذاب. ولكنه يتحدث لمن يثق في كلامه.. يُنبت أهله على الكفر بالله وما أنزل على رسوله.

والذي في تفسير الإمام الرازي غير ما يقول بطرس تماما. فقد اشتد الإمام الرازي في نفي قصة الغرائق والرد على من قال بها، وفي هذا السياق ذكر رواية تقول بأن شيطانا يقال له الأبيض أتاها على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمات فقرأها. ثم يعلق الفخر الرازي على هذه الرواية قائلا: "وهذا القول لا

يرغب فيه مسلم البتة لأنه يقتضي أنه ﷺ ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث!!

وفي سورة (التكوير)، جاء ذكر الشيطان الأبيض في سياق مختلف، وهو يتكلم عن قوة جبريل عليه السلام يقول: "ذكر الإمام مقاتل بن سليمان أن شيطاناً يقال له الأبيض صاحب الأنبياء قصد أن يفتن النبي ﷺ فدفعه جبريل دفعة رقيقة وقع بها من مكة إلى أقصى الهند" فهنا جبريل، عليه السلام، يدفع الشيطان ويبيعه لا ما يفتريه هذا الكذاب اللئيم.

ومن أكاذيب بطرس حديثه عن "ليلة الجن"، يستحضرها مدللاً بها على ما يفتريه على الحبيب صلى الله عليه وسلم، يقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى ليلة كاملة مع الجن عند غار حراء، وإليك نص كلامه: "جاء في (سنن ابن داود كتاب الطهارة حديث 85) عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب أحد منكم النبي ليلة الجن؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكن افتقدناه ذات ليلة وهو بمكة، ولم نجده، فقلنا: اغتيل، أو استطير، ماذا فعل به؟ حتى إذا أصبحنا إذا نحن به آتيا من جهة حراء. فقال لنا: أتاني داعي الجن، فأتيتهم، فقرأت عليهم القرآن. ثم انطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم". ثم يعلق: "ما هو مدلول هذه الحادثة؟ أليس أن محمدا كانت له علاقة بالجن؟"

وبطرس كعادته يكذب فليس في سنن أبي داود شيء مما ذكر تحت هذا الرقم ولا في هذا الباب ولا في غيره، والذي عند أبي داود هو: «عن علقمة قال قلت لعبد الله بن مسعود من كان منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ فقال: ما كان معه منا أحد» وليس عند أبي داود شيء مما ذكر، ويأتي نص حديث ليلة الجن بعد قليل إن شاء الله.

الجن والشياطين في القرآن الكريم:

يحاول دعاة النصرانية والمستشرقون إيجاد علاقة تبعية بين شخص النبي ﷺ والشياطين كما في حالة الكهان.. كأن النبوة حالة متطورة من الكهانة والسحر والشعوذة. وهم يتحدثون من عند أنفسهم.. يكذبون (إن يقولون إلا كذبا)، ويكفي في الرد عليهم أن نستحضر الآيات التي تتحدث عن الجن والشياطين في القرآن الكريم.

بداية بين الله في كتابه أن الجن من مخلوقات الله وبالتالي لا يستحقون، لا هم ولا غيرهم، العبادة من دون الله⁽¹⁾، يقول الله تعالى، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرُقُوا لَهُ وَبَيْنَ وَبَيْنَ بَغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣﴾﴾⁽²⁾، ويقول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾⁽³⁾.. وبالتالي فليس لأحد أن يعبدهم من دون الله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُمَوَّنُونَ ﴿٥١﴾﴾⁽⁴⁾؛ وبيان أنهم مكلفون ومحاسبون مثل الإنس تماما، يقول الله تعالى: ﴿يَلْمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴿٥٥﴾ قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴿٥٦﴾﴾⁽⁶⁾؛ وأن ما كانوا يفعلونه من استراق السمع في الجاهلية قد منعوا منه بعد الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا رَتَبْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِينَةً الْكَوَاكِبِ ﴿٦١﴾ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ

(1) وكانت العرب في الجاهلية يعبدون الجن، ومن مظاهر العبادة خشيتهم والاستعاذة بهم وخاصة في الأسفار حين ينزلون مكاناً موحشاً.

(2) سورة الأنعام: آية ١٠٠

(3) سورة الرحمن: آية ١٥

(4) سورة سبأ: الآيات ٤٠ - ٤١

(5) سورة الأعراف: من الآية 38

(6) سورة الأعراف: آية 38

عَدَابٌ وَاصِبٌ ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنْ حَظَفَ الْحُظْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٧﴾ (الصفات: 6-10). ويقول الله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ، شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحجر: 18). وعلى لسان الجن: ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴿١٩﴾ ﴾، وما ورد في الذكر الحكيم موجود مفصلاً في كتب الحديث والسيرة، فابن هشام في السيرة النبوية.. في المجلد الأول... في ذات المكان الذي يدعي زكريا بطرس أنه ينقل منه، عقد باباً سماه "كذف الجن بالشهب وآية ذلك على مبعثه ﷺ"؛ ونص على ذلك البخاري في صحيحه: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ حَبْرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَبْرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ حَبْرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ فَأَضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا فَانظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ حَبْرِ السَّمَاءِ فَانصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تَهَامَةٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِنَحْلَةِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ حَبْرِ السَّمَاءِ فَهَذَا الَّذِي حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَبْرِ السَّمَاءِ فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾».

وحين وجد الجنُّ الرسول ﷺ يُصَلِّي تجمعوا حوله ينصتون للذكر الحكيم { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } [الجن: 19]، ثم عادوا إلى قومهم مندرين ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا

أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾
يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ
﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴿(الأحقاف: 29-32).

وفي القرآن الكريم أن الشيطان عدو للإنسان.. كل الإنسان وخاصة المؤمنين بالله وما
أنزل على رسوله ﷺ: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ لَا يَفْتَنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ
عَنَّهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ
أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو
حِرْبَهُ وَلِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾⁽¹⁾ ، ويقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ (الإسراء: 53).
وبين أن الشياطين بعيدون تمامًا عن القرآن الكريم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٦٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي
لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُوفُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (الشعراء: 210-212)، وأنهم
يتسلطون على كل أفاك أثيم من الكهان والسحرة ﴿هَلْ أَنْتَ كُرْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ
﴿٦٣﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٦٤﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الشعراء:
221-223). فهؤلاء هم أولياء الشياطين ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْوَىٰ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ
وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنعام: 121).

ومن أكاذيب بطرس الزعم بأن الإسلام يعظم الجن بدليل وجود سورة باسمهم في القرآن
الكريم؛ وفي السورة (سورة الجن) إخبار من العليم الخبير سبحانه وتعالى، وعز وجل⁽²⁾،
بأن الجن سمعت القرآن فوعت الخطاب ومن ثم آمنتم وأسلمت، وراحت تتكلم عن

(1) سورة فاطر: آية 6.

(2) بدأت السورة ببيان أن ما فيها وحي من الله (قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن...).

حالتها.. عن غفلتها، وعن جهلها، وعن ضعفها؛ وعن الذين لم يؤمنوا وقد خافوا منها فاستعاذوا بها فزادتهم رهقًا، والسياق آخَاذ لا يقدر علي صياغته إنسٌ ولا جانٌ، والسورة موجودة لمن شاء أن يقرأ أو يسمع ولكن بطرس يراهن على أن الذين يسمعون لن يراجعوا وراءه، أو ليس أمامه سوى افتراء الكذب ليضل من شاء الله له الضلالة.

وفي القرآن الكريم يبين الله لنا حال بعض الجن وقد استمعوا لآيات الذكر الحكيم ثم عادوا إلى قومهم منذرين، وتدبر حالهم ومقالمهم: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا لَكُمَا قُضِي وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَعْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ { [الأحقاف: 3229].

فهذا إخبار على لسان الجن بأنها لم تكن تعلم شيئًا عن القرآن الكريم، وحين علمت آمنت ودعت للإيمان بالله وما أنزل على محمد بن عبد الله ﷺ.

و (ليلة الجن) التي يتكلم عنها (بطرس) نعرفها وخبرها صحيح، ولكنه مختلف تمامًا عن الذي يقول بطرس وأمثاله، وهذا ما ورد فيها: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: فَقَالَ عَلْقَمَةُ: أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ قَالَ: لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ قَالَ فَبِتْنَا بِبَشَرٍ لَيْلَةَ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِبَشَرٍ لَيْلَةَ بَاتَ بِهَا

قَوْمٌ فَقَالَ: أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ قَالَ: فَاذْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا
آثَارَهُمْ وَأَثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الرَّادَ فَقَالَ: لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَفْعُ فِي
أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَ لِذَوَابِكُمْ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهَمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامٌ إِخْوَانِكُمْ».

فهذا خبر ليلة الجن، يتعلمون القرآن الكريم من النبي ﷺ ويسألون عن الحلال والحرام،
يتلقون الدعوة من رسول الله ﷺ، ويتبعون رسول الله ﷺ، وقد عقد شيخ الإسلام
ابن تيمية رحمه الله فصلاً بعنوان: "بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع
الإنس والجن". ومن كذبه (أي زكريا بطرس) قبَّحه الله أنه يذكر ليلة الجن، ولم يذكر
ما دار فيها، لا يذكر سوى أنه أراهم - رضي الله عنهم - آثار نارهم. ويحيل لرواية أبي
داود، والتي لم تذكر تفصيلاً ما حدث.. يريد من المتلقي لإفكته وبهتانه أن يعرف أن
كانت هناك ليلة للجن، ثم بعد ذلك يفسر ما حدث في تلك الليلة من أم رأسه.

ويحاول أن يربط بين غار حراء وحراء (الجبل). وغار حراء هو الغار الذي كان يتعبد
فيه رسول الله ﷺ، وفيه نزل الوحي أول مرة. وحراء هو الجبل الذي عليه التقى الجان
يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الحلال والحرام. يخلط بين الاثنين ليقول أن حراء والجن
قرينان، فكل ما في حراء جنٌّ.

وهو كلام بعيد لا نجده إلا عند بطرس فقد جاء جبريل للنبي ﷺ في غار حراء وفي
غير غار حراء، والجن وُجدوا في جبل حراء وغير جبل حراء.

ونعم لكل واحد منا قرين من الجن يأمره بالسوء، وقد أعان الله رسوله ﷺ على قرينه
فأسلم. في الحديث: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ قَالُوا وَإِيَّاكَ
يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ ». ولك
أن تتعجب من هذا - أُكَلِّمُ من يقرأ من النصارى - وليس لك أن تقول بقول (بطرس)
الكذَّاب) ... ليس لك أن تقول بأن قرين النبي صلى الله عليه وسلم، كان يُوحِي

إليه ويعلمه، فهذا لا دليل عليه، ولا نجده في ديننا. بل نجد أن القرين يأمر بالسوء، وقرين النبي صلى الله عليه وسلم أسلم فلم يعد يأمره بسوء، وها هو نص الحديث بين يديك.

بل تجرأ أحدهم على النبي ﷺ وهو يصلي فحاول أن يفسد عليه صلاته، في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عِفْرِينَآ مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرِيَّهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ { رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي }».

والشيطان يكره شعائرتنا يفر هاربًا حين يسمع الأذان أو الإقامة، ويبدل جهده ليصرفنا عنها ويفسدها علينا بوساوسة. في الحديث: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّنَوُّبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَحْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ ادْكُرْ كَذَا ادْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»، .

ونستعيد بالله من الشيطان حين نقرأ القرآن قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل:98]، ونسمي الله على كل شيء كي لا يشاركنا فيه الشيطان حين ندخل البيت لنطرد الشيطان، ونسمي الله حين نأكل الطعام كي لا يأكل معنا الشيطان، ونسمي الله حين يخلو أحدنا بزوجه كي لا ينظر إليها ويجامعها معه الشيطان وطلبا للذرية الصالحة، والتسمية عندنا على كل شيء. وأخبر سبحانه وتعالى أن الكافرين والشياطين لهم نفس المصير بعد الموت، ولهم نفس الجزاء، فهي جبهة مشتركة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا} [مریم:68]، وقال تعالى مخاطبا إبليس كبير الشياطين: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص:85]، {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا

مَذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ { [الأعراف:18]،
 وقال تعالى: { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ { [السجدة:13] وقال تعالى: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ
 جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ { [هود:119]. فمن الشياطين الكافر، ومن
 الشياطين المؤمن، وكافر الشياطين عدو مبين، نستعيذ بالله منه، ونلعنه صباحا ومساءً
 وفي كل حين، ومؤمن الشياطين متبع لمحمد صلى الله عليه وسلم لا أنه هو الذي
 أوحى لمحمد صلى الله عليه وسلم. هذا ما نعرفه، وهذا ما تتكلم به كتبنا، وغير ذلك
 هو من تدليس المدلسين وكذب الكذابين.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
يظهره الرحمن ويخفيه الشيطان!!

محمد جلال القصاص (1)

يبدو الفن أحد وسائل الترفيه، وفي الحقيقة الفن أحد أهم وسائل التوجيه، فالفن يؤرخ، والفن يوجه، والفن ينفي ويثبت. وكاتب الرواية خطيب يتحدث على السنة "أبطال" روايته، والقارئ يُتلى عليه. ولا يقاوم الأفكار من الناس إلا القليل. فلا أحد يمارس النقد خارج تخصصه.

وتأتي الرواية في مقدمة الأدوات الفنية التي يأتيها الناس طلباً للترفيه أو إمضاءً للوقت وفي الغالب تؤثر في مفاهيمهم وتصوراتهم، وبالتالي اختياراتهم وتوجهاتهم. فالفن هو الدائرة الثالثة في دوائر التغيير الثلاث؛ في المقدمة صناعة الفكرة من قبل المفكرين والمجتهدين، وفي الوسط النخبة توزع منتوجات المفكرين على عوام المثقفين والمهتمين بالعلم، ثم يأتي الفن والإعلام عمومًا بأدواته وينتقي بوعي شديد من بضاعة المثقفين والمفكرين ويوزع على العوام، ومن ثم يساهم بجزء كبير في صناعة المجتمع. والقوة قوة أدوات وليس فقط قوة فكرة. فالأفكار في العقول والأدراج حتى يأتيها أصحاب الأدوات فيحولونها واقعًا.

وفي رواية "في الجحيم" للكاتب الأمريكي الأشهر "دان براون" أكثر الكاتب من تكرار مشهد جهنم، أو الجحيم كما يسميه. نقل عن الشاعر الإيطالي "دانتي" وصف جهنم بكثيرٍ من الأوصاف التي عندنا.. في كتاب ربنا القرآن الكريم وسنة نبينا، صلى الله عليه وسلم، فيصف الجحيم بأنه دركات بعضها تحت بعض، وكل

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

دركة من دركات الجحيم لنوعية معينة من الخاطئين، وأشد الخاطئين عندهم في أسفل الجحيم. تمامًا كالذي عندنا يقول الله تعالى: "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار" (النساء: 145).

وينقل "دان براون" عن شاعر الكوميديا الإلهية "دانتي" حديثاً عن جنة عالية، يصعد إليها الناس بعد أن يتطهروا من الخطايا. كالذي عندنا في كتاب ربنا "في جنة عالية" (الحاقة: 22)، فالجنة درجات لأعلى حتى تستظل بعرش الكريم المنان ربنا الجميل، سبحانه وتعالى ذكره.

الملاحظة الأهم أن كل ذلك اختفى. فلم يعد اليهود ولا النصارى يتحدثون عن الجنة والنار إلا شيئاً مجملاً بلا تفاصيل. أصبح الحال عندهم كالحال عند مشركي العرب، جاءهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وقد طمس ذكر الجنة والنار بينهم فلم يكن ذكر الآخرة إلا ظن يظنونه، ويتردد في أشعار وخطب قلة قليلة منهم، وكاد يختفي من تصور العامة وعامة الخاصة، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَؤَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِينَ} (الجاثية: 32).

ما القصة؟

تتلخص في جملتين: أن وحي الله إلى أنبيائه يتركز على النذارة والبشارة. إنذار من عصي رسله بالعذاب المهين وتبشير من أطاعهم بالنعيم المقيم. ولا تكاد تخلو آية عن ذكر العذاب بإحدى دلالات الخطاب المختلفة. حتى أن الأبرز في كتاب الله هو الحديث عن الجنة والنار. تعرض مشاهد حية كأن من يقرأ يشاهد بعينه، وتدبر هذا المشهد: "يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ ۗ هَذَا مَا كُنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (التوبة: 35) كأنك تشاهد الذهب والفضة وهي تحمى في نار جهنم، وهما من أشد المعادن توصيلاً للحرارة، ويؤتى بمن قد كنز المال ولم ينفقه فيما أمر به ويشوى كالشاة على الذهب والفضة وهما في حالة

انصهار يشتعلان.. تقلبه ملائكة العذاب على النار وتوبخه. كأنك تشاهد هذا المشهد فتزهد في كنز المال وتسعى لنفقته فيما يرضي الله.

ويأتي ذكر الجنة والنار متجاورين، وتستنفر العقول للمقارنة والتفكير: { أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۗ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [فصلت: 40].

لا تكاد تقرأ شيئاً من كتاب الله إلا وتجده حديثاً عن العذاب والنعيم، ولا تكاد تستعرض قضية اهتم بها القرآن الكريم، من قضايا الاعتقاد أو التشريع، إلا وتعرض بين يدي العذاب والنعيم. وفوق ذلك يفرد القرآن الكريم للجنة والنار وحال الناس فيهما حديثاً خاصاً يطول أو يقصر، ولكنه يتكرر كثيراً، حتى أن من يفتح المصحف ويدنوا من أي آياته لا بد أنه سيقراً عن النعيم وعن العذاب. فثمة إصرار واضح على توطين العذاب والنعيم في حس من يقرأ ولو آية من كتاب الله.

وفي المقابل فإن وحي الشيطان يخفي اليوم الآخر، أو يحاول أن يجعلها كلها دنيا، وإن جاء ذكر الآخرة فشيء مجمل لا يردع.. شيء يسكن الضمير حين يتقلب.. يهدده حتى ينصرف ثانية إلى دنياه.

وتتضح الفكرة أكثر من تدبر تشريع الحدود في الإسلام (حد السرقة، وحد القتل، وحد السحر، وحد الزنا.. إلخ). كان العرب -قبل الإسلام- على أسوأ حال لا يأمن أحدهم على نفسه إلا أن يكون ذا شوكة أو في الأشهر الحرم. كل شيء مباح. وحين جاء الإسلام وشرع الله الحدود ورأى الناس جدية في تطبيق الحد على من خالف أيّاً كان نسبه أو حسبه، انصرفوا عن المحارم تلقائياً. فلم يحتج الجادون إلى قطع أكثر من يد أو يدين في ثلاث مئة عام، ولم يقترف أحد الزنا إلا حالات فردية تعد عدداً.. انصرف الناس تلقائياً عن المحارم، وعادوا إليها بعد أن ضعف تطبيق الحدود.. عادوا إليها بعد أن أمنوا العقاب.

الباب الثاني:

بيت مبارك (مقالات في الأسرة)

منذ وعيت وأنا أتأمل في حال مَنْ ينفع الله بهم العباد والبلاد؛ وأجد أن للأسرة الدور الأكبر في صياغة هؤلاء..

ومنذ وعيت وأنا أصغي للمختصين في التربية والمعنين ببناء الإنسان. أبحث - مستعيناً بربي - عن سبيل لبناء بيت مبارك. وخضت تجربةً بدأتُ الإعداد لها منذ فكرت في زوجة.

وقد عرضت الأفكار الأساسية في هذه التجربة، التي انقضى من عمرها ربع قرن من الزمن، في عدد من المقالات، تمحور بعضها حول المرأة كعنصر أساسي في بناء بيت مبارك، وبعضها حول بناء إنسان صالح مصلح، وبعضها نقد لحال السلفيين مع المرأة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وهذه النوعية من النساء تكفي !!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا إخلوَلوت النبوة في عين عباد السلطة، فخرج في كل ناحية دَعِيٌّ يطلب الأتباع بادعاء النبوة، يظن أن مجرد الادعاء يكفي. فكان مسيلمة الكذاب، وطلحة الأسدي، والأسود العنسي وسجاح. والأدعياء الكذبة يقتلون كما جاء منسوبًا للمسيح عليه السلام. ودارت الأيام تموج بالصلحين والطحين يدفع بعضهم بعضًا كلٌ يطلب ما يجب ويدفع ما يبغض. وقتل الله الأسود العنسي بلا جيش ولا عتاد.. قتله رجل بمعاونة نفر من أقربائه، ونزل الوحي من السماء يخبر النبيَّ بهلاك الأسود العنسي، وأخبر النبيُّ، صلى الله عليه وسلم، أصحابه بكلماتٍ حُفرت في خاطري منذ قرأها صبيًّا، قال، صلى الله عليه وسلم: " قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين".

وقفت طويلًا عند وصف الصادق، صلى الله عليه وسلم، لهذا الرجل الكريم بأنه مبارك من بيت مبارك. وهو، رضي الله عنه، حديث عهد بالإسلام. اتكأ هذا المشهد بخاطري ولم يرحل؛. فقلت: هذا أثر المعدن الثمين. والناس معادن كما جاء في الحديث. ومن يومها وأنا أقول: اللهم بيتًا مباركًا. اللهم آمين.

إن تسعة أعشار ما يظهر على أحدنا سببه المباشر الصفات الوراثية، والبيئة التربوية تُظهر طبيعة المعدن ولا تنشئه، فالفرد يستقبل من معطيات التربية ما يناسب معدنه، وقد تلقى الوحي من آمن به وتلقاه من شقي به، وهذا المعنى كثير في كتاب الله،

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

يقول الله تعالى: "قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى" (فصلت: 44).

وبعد أن استقر المسلمون في الشام ركبوا البحر يبلغون رسالات ربهم، ويزيجون الطواغيت ليختار الناس بحرية بين الإيمان والكفر (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، وأتم الله لهم فتح قبرص، وجاءوا بالأسارى إلى دار الخلافة (دمشق)، وكان من بين الأسرى راهب قد تمكن من علم النصرانية. عرّفه أحد نصارى الشام، فاشتراه من المسلمين بثمن بخس دراهم معدودات، وأخذه لبيته وأكرم مثواه وجعله معلماً خاصاً لولديه.

اتخذ لولديه معلماً خاصاً رفيع المستوى؛ وجلس هذا الذي تمكن من "علم" مع الغلامين، فكان أحدهم (يوحنا الدمشقي).. أحد أسوأ من عرف التاريخ ضد المسلمين.

خُفرت هذه القصة بخاطري، فاتكأ مشهد "يوحنا الدمشقي" وهو يتعلم من أمهر أهل زمانه، وليس فقط يتعلم بل يعايشه طول الوقت، وأبوه وهو يقتنص الفرصة ليعلم أبناءه على يد أفضل المعلمين. وقرأت بعد ذلك أن هكذا تفعل الأسر الغنية (المرتاحة) يرحل أبناؤهم للمدارس الراقية أو يأتون بمربيات بموصفات خاصة جداً لأبنائهم.

والأم تكفي. وذلك إنما إن كانت حسيبه نسيبه تمدك بمعدن ثمين نفيس، وإن كانت مُعلّمة وأكرمت كرم الرجال (باللسان واليد وحسن العشرة) علّمت أبناءها أو أشرفت على تعليمهم. والمشكلة تأتي من أن السائد اليوم هو الاختيار على الدخل المادي.. يسر الحال. فيطلبها من أسرة غنية، أو موظفة ذات راتب شهري، ومن يختار هكذا يصعب أن يحصل على أسرة مباركة، وذلك أنه إن كانت المرأة مجهدة (عاملة) فإنها لا تستطيع تربية أبنائها وتعليمهم أو الاشراف على

تعليمهم، والذي يحدث عملياً هو أن الأبناء يسلمون كلياً لمؤسسات العلمانية ويحدث ما يشتكى منه أكثرنا، والكل يطالب بمحاضن تربوية، ومن أين والكل يجري وراء تحصيل الرفاهية؟!

وتأتي المشكلة-أيضاً- من اعتقاد بعض الذكور أن المرأة هي المسئولة الأولى والأخيرة عن العملية التربوية والتعليمية، فيطالبها بالمساعدة في نفقات البيت، والقيام بحاجة الزوج، وحاجة الأبناء، ثم تربية وتعليم الأبناء!!

ويحدث العكس، بمعنى أن بعض النساء يفسر نجاح بعض التجارب التربوية بوجود رجل في البيت ذو رؤية وقدرة على الضبط والتوجيه، وكثير من التجارب الناجحة قامت بأم وحدها، ونقول: أم الإمام مالك، وأم الإمام الشافعي، وأم الإمام أحمد بن حنبل، وغيرهن كثيرات، والله حيي كريم لا يرد سائلاً، وفضله واسع، وينادي على عباده ﴿ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾.

وأمرٌ ما في المشهد الأسري أن يتم تجاهل عملية إعداد الزوجين للعمل التربوي. يباشرون العمل التربوي دون سابق إعداد في الغالب، ولذا يتوقفون أو تكون النتائج محدودة، لا بد من عملية إعداد.

إن كثيراً من مشاكلنا تنتهي إن أطعنا ربنا وزوجنا الطيبات اللطيبين، وأكرمنا المرأة، ووضعت مناهج لرفع مستوى النساء في بيوت آبائهم تربوياً، ومن ثم توجيههم إلى مهماتهم الأساسية تربية الأبناء أو الإشراف على تربيتهم.

محمد جلال القصاص

رمضان 1441هـ. إبريل 2020

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

تأملات في نقصان عقل المرأة

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بعض النساء لهن القدرة على نقد الخطاب، والرد على الخفيف من الكلام، والمبادرة، وأخذ قرار وتنفيذه إن رأت تماوتاً من الرجال. وهذا النوع من النساء مغري لأكثر الرجال، ولكنهم يحبونه نظرياً ويكرهونه عملياً!

يريد عاقلة حازمة تخلفه في أهله وماله بخير، وتتخلى عن حزمها وعقلها حال التعامل معه. ولا يكون. فالطبع واحد.

وهذا النوع من النساء لا يستكين-حقيقة وليس ادعاءً- إلا تحت نوعية خاصة جداً من الرجال.. السادة من الرجال.. أولئك الذين لهم عقل ويد. وحتى مع هذه النوعية يأتيها طبعها من وقت لآخر فتتقلب. وتحتاج لنوع عالٍ من السياسة: عقل وحزم.. رقة وصلابة.. ومنطق عذب.. وأحياناً "شخط" وربما سب!!

حضور هذا النوع من الكريزمات الفضليات يثير سؤالاً عن معنى ناقصات عقل ودين، الذي ورد في الحديث الشريف الصحيح. كيف تكون هذه العاقلة الحازمة التي تتفوق على كثيرٍ من الرجال ناقصة عقل؟!

ذكر بعض المنتسبين للعلم والدعوة الحديث ثم قال عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه كان "بيهزر مع الستات". ولم يكن الهزار مع النساء من خلق النبي-صلى الله عليه وسلم، ولم يكن المقام مقام هزار. بل كان مقام موعظة. يرغبهن في الجنة ويخوفهن النار. وعظ الرجال ثم وقف على النساء يعظهن رفقة خاصته من الرجال،

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

وهذا نص كلامه، صلى الله عليه وسلم: (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرَاكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ. فُقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْفِرْنَ اللَّعْنَ، وَتُكْفِرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقِصَانُ عَقْلَهَا؟ قَالَ: أَلَيْسَتْ شَهَادَةُ الْمَرَاتَيْنِ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ؟). هذا هو الحديث بسياقه العملي.. ليس فيه شيء من هزار كما يدعي هؤلاء.

وقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكذلك لازم قوله، حق كله. فإن صح نسبة القول إليه فعلينا أن نحاول فهمه بشكل صحيح، لا أن نبادر برد النص أو ترحيله بالتأويل لمناطات أخرى. ونسأل: ما نقصان عقلها؟!، كيف تكون المرأة ناقصة عقل؟، وخاصة هذه النوعية من النساء؟

أوضحُ إجابة هي التي ذكرت في ذات الحديث الشريف، حيث استخدم الحبيب، صلى الله عليه وسلم، المثل في البيان (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُونَ) (العنكبوت: 43)، واستخدم الاستفهام التقريري، ما يعني أن المثل حق مستقر في حس من يسمع، (أليست شهادة المرأتين بشهادة رجل؟!).

نعم لا بد من امرأتين حال الشهادة، والسبب مذكور في كتاب الله (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (البقرة: 282)، والضلال اختلاط الأمور حتى يصعب التمييز بينهما. وهو غير النسيان الذي يعني غياب الأمر كلية، (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى) (طه: 52)، يذهب عقلها حال الحدث الجلل وتختلط عليها الأمور فتحتاج من يتحدث معها حتى تُنقى هذا من هذا، وهذا من هذا.

يفقدن السيطرة على مقود القيادة حال الجد فتتحرف وقد يهلك الجميع. ولذا: "لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ" (صحيح البخاري) ولفظة "قوم" و"امرأة" نكره في سياق النفي تفيد العموم لا أنها تعليق على قصة خاصة، بل استخدم "الحالة" للتعميم،

ولو كان القصد الفرس وحدهم لقال، صلى الله عليه وسلم.. وهو أفصح الناس بياناً، لأن يفلح الفرس بعد أن ولوا أمرهم امرأة.

وإن كانت بجوارك إحدى النساء فانظر إليها مع من تحب-أو تكره- تميل كل الميل إلى من تحب.. وعمن تكره. تكون معك على أحسن حال ثم تثور زعايب الخيال برأسها فتستخفها وتحملها على الحماسة، ثم تفيق بعد أن قطعت ما بينك وبينها، إلا أن تكون أنت حليماً عاقلاً فتصبر وتتصبر وتستحضر خيرا لتمرر ما اعترض عقلها فأنقصه.

وقد ربط الحبيب، صلى الله عليه وسلم، بين نقصان الدين بما يدور عليها كل شهر ونقصان العقل، وهذا ربط بديع. والمعنى فكما أنه يعترضها عارض كل شهر ينقص دينها يعترضها عارض من وقتٍ لآخر ينقص عقلها.. وهو اجتياح العاطفة. ومعلوم أنه حال نقصان الدين يحدث حالة من اضطراب المزاج عند المرأة بفعل تغير الهرمونات في الجسد، يؤثر، هذا التغير، على قرارها أو استقرارها النفسي.

ويكمل المتأملون في سلوك الإنسان (علماء الاجتماع) بأن أسباب النقصان هذه (اجتياح العاطفة) ضرورة للقيام بمهامها تجاه الأبناء والزوج. وأكمل أنا بأن جل الخلل سببه زاوية الرؤيا، بمعنى أن من ينظر في الغالب ينظر من زاوية محددة، بمعنى يرى شيئاً ويغيب عنه أشياء، ثم يحاول تعميم نظرتة الجزئية، وهذا بعينه ما يحدث في تناول موضوع "ناقصات عقل ودين"، وهذا تفصيل بما يليق بمقال:

وحدة البناء عندنا هي الأسرة، والتي تتكون من أربعة عناصر: أولهما: رجل شاب فتي شغله السعي على تأمين حاجة أسرته المادية والنفسية والاجتماعية. وثانيهما: زوجة تقوم على حاجة زوجها وأبناءها. وثالثهما: أبناء يلعبون ويمرحون ويبتعدون في بناء ذاتهم.. كل حسب ما يحسن أو ما يجب. ورابعهما: أجداد نمت عقولهم وتراكمت خبراتهم وضعفت أبدانهم ولهم عند الشباب جميل سبق. ويرد، فاستراحت أبدانهم، وعُنوا بدورٍ يناسب ضعف أبدانهم وتراكم خبراتهم، وهو تثقيف الصغار

وإرشاد الشباب بمفاهيم كلية تحدد مساراتهم في الحياة.. تمد من يصغي إليهم بتجارب توفر عليهم سنوات من أعمارهم إن عقلوا وامثلوا. كأن الأسرة مؤسسة ذات تخصصات متعددة.. كل حيث يحسن.

وكل فرد في الإسلام في أسرة، ولحظة انفكاكه عن أسرة هي لحظة التحامه في أسرة جديدة. فوحدة التحليل الاجتماعي عندنا هي الأسرة لا الفرد ولا الفعل (واحد الأفعال/ السلوك).. هذا هو مستوى النظر والتحليل عندنا (الأسرة)، فلا الرجل خير من المرأة كونه رجلاً، ولا المرأة خير من الرجل كونها أنثى، التفاضل في منظومتنا بالتقوى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ) (الحجرات:13). وصنف الرجال من حيث العموم رفعه الله على صنف النساء في بعض الأمور التي تتعلق بالقوامة وإدارة شئون الأسرة وليس في كل شيء، وقد جاء في ذكر الطلاق والخلافات الأسرية (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) (البقرة:228). ومن أراد أن يقارن فلا يقارن بين رديء وسيدة، وإنما بين سيد وسيدة، ورتديء ورتديئة.

ولم يحدث أن أثير خلاف ذكوري أنثوي في نموذجنا المثالي الذي نقيس عليه، أعني الصحابة والتابعين ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 110)، (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا) (البقرة:137). كان الكل راضياً. وكل منصرف لأداء ما يحسن أو ما يجب، لم تكن القضية أبداً ذكر وأنثى، فكل ذكر معظم لأنثى (أمه، وابنته، وأخريات) وكل أنثى تعظم ذكراً وترجوه (ابنها، وأبيها، وآخرين).

ظهر التنافس الذكوري الأنثوي مع العلمانية، وذلك أن العلمانية تقيم المجتمع على مستوى الفرد (ذكراً كان أم أنثى)، وليس على مستوى الأسرة. ولذا يعتبرون الكل سواء. ولذا يدعون للمساواة بين الجميع، مع أن المساواة ظلم إن اختلفت الإمكانيات. فليس الذكر كالأنثى كما قال العليم الخبير سبحانه وعز وجل. وبالتالي تجاهلوا التخصصية والتكامل بناءً على الإمكانيات الذاتية.

والملاحظ أن عامة النساء اللواتي خرجن من البيت، حقيقة بأجسادهن أو حكماً من خلال العمل من داخل البيت، عملن في مجالات تناسب صفاتهن الأنثوية، وأيضاً، استخدمن من قبل المنظومة العلمانية فيما يناسب صفاتهن الجسدية (الدعاية للسلع التجارية، ونشر الشهوات/ أو توطين عبادة الأنثى وهو دين العلمانية أو أحد أشهر أديانها).

وإن النظر للمجتمع من مستوى "أسرة" متعددة التخصصات، يعطي لكل حقه، ولا يدفع به إلى حيث لا يحسن. والله يقول: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (النساء: 32). وبداخل الأسرة تجد هذه العاقلات من النساء (السيدات) مساحة واسعة وخاصة في التأثير على أبنائها، فكما قيل وراء كل عظيم امرأة (أمه).

ألا إن قرار المرأة داخل البيت خير وبركة. فلمنتج من الرجال والنساء بحال من يُنتجه، فمن تربيته "سيدة" معلّمة مدربة ليس كمن تربيته تافهة خفيفة لا حظ لها في علم ولا فهم.

وإننا نردد حديثاً عطرًا بهيّا عن نساء صنعن سادة الرجال، فنقول: أم الإمام مالك، وأم الإمام الشافعي، وأم الإمام أحمد بن حنبل. تاه منا، أو تُهنا نحن عن حديث شديد الوضوء ملاً الدنيا بشذاه قرونًا عن دور النساء في تعليم أبنائهن. وخاصة تعليم القرآن والسيرة والحديث وقيم الإسلام العليا (العقيدة). فمن ذا الذي ينشط لأخذ المرأة من أتون الشارع ومكاتب البيروقراطية وجعلها معلّمة ومربية لأبنائها ومن حولها من الصغار؟.. من ذا الذي ينشط لجعل البيت مؤسسة تربوية وتعليمية؟

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الزوجة، والأبناء، وما لم يكن في الحسبان: تجربة شخصية

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

لاحظت مبكرًا أن ظاهرة المنضبطين خلقياً وعلمياً (الملتزمين، أو الصحويين) لا تتطور من خلال بيوتهم؛ وكنت أسأل: لماذا لا يكون ابن "الملتزم" ملتزمًا؟؛ لماذا لا يكون أبناء الحاملين لهموم الأمة واستعادة نهضتها مثل آبائهم!!؟

قدّم المعنيون تبريرًا لا تفسيرًا لهذه الظاهرة، وذلك بانتقاء بعض النماذج المشابهة لهم من التاريخ واستدلوا بها. يقولون: كان فلان عالماً عاملاً ومعلمًا ولم يكن أبناءه مثله، وكان نوح نبياً -عليه وعلى نبينا والأنبياء جميعًا الصلاة والسلام- ولم يكن ابنه مثله!! وكل نموذج استدعوه شاهداً لهم جاء معه عشرات النماذج التي تشهد عليهم. فمن المسلمات أن الناجحين -أيضاً- أبناء بيوتهم. بل كل ناجح في تراثنا يُعرّف بأبيه وأمه، نقول: أم الشافعي، وأم مالك، وأم أحمد بن حنبل. وحتى هؤلاء الحضور أبناء بيوتهم أيضاً، فلا تكاد تقع عينك على مميز في دينه وخلقه إلا وهو ابن أبيه؛ وبعد تفكيرٍ وأخذ ورد لسنوات تم تعديل السؤال: لماذا انتهى دور البيت في أيامنا هذه؟! من المسئول عن غياب دور الأسرة؟؟، فالأمر في حقيقته انتهاء لدور الأسرة، لا أن بيوت الطيبين تفرز الخبثاء ولا أن الطيبين ينبتون من بين الخبث، فالناس معادن كما أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم-. وللمحامد بيوت، كما أن للمكاهر بيوت. مع بداية التفكير، وفي مراحل الشباب الأولى، تبادر لذهني أن السبب يكمن في عدم قيام النساء (الأمهات) بواجبهن. كنت أقول: السبب في سوء اختيار الزوجة!!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

كنت أقول: لا يحسن الرجل اختيار المرأة، فينشغل هو بأمر الدعوة أو العمل ولا تستطيع هي أن تقوم بتربية الأبناء أو متابعتهم. أو يلتقي الرجل والمرأة على غير هدى ثم يهتدي أحدهما ويبق الآخر مفرطاً ويخرج الأبناء على شاكلة من فرط. كانت هذه بدايات التفكير وأنا على أعتاب المراهقة مغادراً وعلى أبواب الشباب أفكر في أسرة!!

دفعني هذا الفهم إلى اختيار زوجة بمواصفات تتعلق بتربية الأبناء؛ فيممت وجهي شطر بيتٍ كله متفوق دراسياً، وكله - أو جلّه - يحفظ القرآن الكريم ويسبقون غيرهم في الدراسة وفي الحفظ والتجويد؛ وحصل هذا البيت على جوائز عالمية ومحلية في القرآن الكريم وفي الدراسة، وكان لزوجتي أوفر نصيب من هذا، إذ أنها حصلت على المركز الرابع على الجمهورية في الثانوية الأزهرية أدبي 1998م، وتفوقت في الجامعة، وتركت التعيين في الجامعة براً بي وافرغاً لبيتها.

وبدأت الرحلة الأسرية بحماس شديد!!

كانت البداية من إكرام الزوجة، وإكرام من تحبهن الزوجة، كي تقبل وتجد فرحةً مسرورة محتسبة. وحسن التعامل يفتح الله به القلوب فقلّ أن تحسن لأحدهم ولا ينصت إليك. فإذا أردت أن تؤثر في أحدهم فكرياً فأحسن إليه، فإن عامة النخبة، وليس فقط العامة، تتكون أفكارهم من مواقف عملية لا من تفكيرٍ عقلي. قلّ من يفكر ابتداءً.. جلهم يستدعي الفكر نصرةً لخيارات مسبقةٍ تتخذ بناءً على مواقف شخصية. وقبل الزواج وبعده يدي مرفوعة لربي أسأل الله من فضله.. فكلها ممن من الكريم الوهاب، الغني المغني، سبحانه وبحمده. وفي الحديث: "الدعاء سلاح المؤمن". فالدعاء ثم الجد. والبداية من عينين ترمق ما ترى وتفكر فيه مرة بعد مرة تبحث عن إكراهات لتفاديها أو معالجتها وعطايا للإفادة منها.

وبدأ العمل على محورين: محور الزوجة نفسها (إعداد الزوجة)، ومحور الابناء.

البداية وما لم يكن في الحسبان:

بدأت إجراءات الارتباط وأنا دون الخامسة والعشرين، ولم يكن ثمة نضج يكفي، ولم يكن لي علم بتجارب سابقة كي أقلدها أو أطورها، ولم تكن البيئة التي تربيت فيها تهتم بتعليم النساء علمًا شرعيًا يستهدف تربية الأبناء، أو تتحدث عن ذلك. وفرق بين أن تنطلق من تجارب سابقة وأن تنطلق من رفض. النقد يستلزم الصدام مع القديم وحراس القديم.. تصطدم مع الفكر السائد نفسه وتصطدم مع المستفيدين منه والمتعصبين له. بمعنى أنك تخطوا ثلاثة خطوات: أولها: اكتشاف عيوب السائد. وثانيها: نثرها على الناس وتحمل الصدام مع المتعصبين والمستفيدين مادياً ومعنوياً من الفكر السائد، وثالثها: البحث عن بديل. وكل واحدة من هذه أمر من أختها. تحركت بزوجتي إلى حلق العلم الخاصة بالسلفيين؛ وجلست "لأهل الحديث" فوجدتهم يشرحون "العلل للدارقطني" للرجال والنساء سواءً بسواء!! وجدت مشروعهم التربوي مسابقة لجمع الأحاديث النبوية التي تحدثت عن تربية الأبناء في السنة النبوية المطهرة!! جلست في مسجد الشيخ مصطفى العدوي بـ "منية سمنود" - وكنت آتية من بعيد- أنظر للحضور: عدد قليل من الرجال والنساء يجتمعون بعد صلاة الظهر، بعضهم ترك دراسته، وبعضهم قد فرغ نفسه لطلب العلم، يقلدون التعليم في العصر الأموي والعباسي. يجلس الشيخ في المنبر على وسادة وحوله طلابه متحلقين، والنساء في مكان مرتفع (سندرة) من وراء ستار يسمعون ويرسلون أسئلتهم ومدخلاتهم مكتوبة في ورقة يسقطونها من أعلى.

ولم أقتنع بهذا!!

الله يقول: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ} [آل عمران:36]. الذكر ليس كالأنثى، الذكر له مواصفات جسدية ونفسية خاصة، والأنثى لها مواصفات جسدية ونفسية خاصة؛ وبالتالي كل له ما يناسبه. وهؤلاء كالعلمانيين سواءً بسواء يسوون بين الذكر والأنثى؛

وكنت أسأل: ما حاجة المرأة لتعلم "العلل للدارقطني"؟، هل تحتاج المرأة للتعلم في علم الحديث؟، هل ستصبح محدثة؟؟. وأتحدث عن العموم لا عن حالات فردية قد تصلح للتخصص وهو أمرٌ نادر الحدوث. أم أن القوم مصابون بداء العلمانية من حيث لا يشعرون، فهم يسوون بين الذكر والأنثى مع الاختلاف الفطري والشرعي بينهما؟! فالذكر ليس كالأنثى: اختلاف لا تفاضل. والتفاضل عند الله بالتقوى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} وعند الناس كل بما يحسن. وبدأت بمحاولة تعليم الزوجة مما أتعلم (وكان يومها أصول الفقه وقضايا الإيمان والكفر ونحو ذلك مما انشغلت به السلفية العلمية في نهاية التسعينات وبداية الألفية الثالثة)، واكتشفت سريعاً أن هذا لا يصلح للنساء، أو لزوجتي خاصة مع أنها ذات إمكانيات ذهنية عالية. وشاء الله أن تتجه للقرآن الكريم، وبدأت الزوجة في اتقان حفظ القرآن الكريم واتقان التجويد (وقبل كانت حافظة حفظاً عادياً) وحصلت على إجازة في القرآن الكريم بقراءة، ثم قراءتين وثلاث، ثم أجيزت بالعشر الصغرى فالكبرى. وفي حلقات القرآن الكريم: لم يكن الاتجاه للقرآن الكريم بدايةً يستهدف أكثر من البحث عن ساحة جديدة لإعداد الزوجة استعداداً للأبناء قبل قدومهم.

نظراً لحضور فكرة التأمل والتدبر في الواقع بحثاً عما أودعه الله من إكراهات وما أودعه من عطايا، كنت أجلس مع صاحبتني بعد كل درس تتعلمه وأسمع منها، وحديثنا لليوم، بعد أكثر من عقدين من الزواج، في القرآن وما يتعلق به.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حلقات التحفيظ وما لم يكن في الحساب

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

حفظ القرآن الكريم وتحفيظه عمل تخصصي، بمعنى أنه فعل فئة من الناس، وليس كل الناس، ولم يكن كل الصحابة والتابعين حُفَاطًا ولا محفظين للقرآن الكريم. ولن يكون كل الناس حُفَاطًا ومعلمين للقرآن الكريم. ولذا جعل الله التزكية على التلاوة لا على الحفظ، قال الله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (آل عمران: 164)؛ وما يحدث عمليًا هو أن فئة معينة من الناس يمن الله عليها بتعلم القرآن وتعليمه، وغيرهم فريقان: فريق يأوي إليهم ويتعلم تعليمًا جملاً.. يحسن تلاوته ويحفظ بعضًا من كتاب الله؛ وفريق ربما لا يسمع بهم أو لا يهتم بحالهم أو يسمع بهم ولا يهتم. وهكذا الناس في كل مجال: تجدهم ثلاثة: مختصون، ومثقفون في هذا المجال، وغافلون عنه. وحين تنظر من زاوية الفرد لا الموضوع تجد ذات الشيء: تجد أن كل إنسان يحسن شيئًا، أحبه أم لم يحبه، ومثقف في شيئين أو ثلاثة ربما، وغافل عن أشياء كثيرة لا يهتم بها إلا حين تطفوا على السطح أو يلجأ إليها مضطرًا.

وتحفيظ القرآن الكريم وتجويده عمل مستقل من أول يوم، فالقراء مميّزون منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم. والآن وحين تحاول النظر لتحفيظ القرآن الكريم.. حين تنظر للحفظة ومن يحاول أن يحفظ تجد أنك أمام ظاهرة تختصر، أو على الأقل لا

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

تنمو بشكل جيد يتناسب مع الإمكانيات والدوافع والحاجات. ويقف وراء بطيء نموها أسباب عدة من أهمها:

أولاً: طبيعة من يتخصصون في علم القراءة والقراءات، سواء في التعليم النظامي حيث لا يلتحق المتفوقون بالكلية المختصة كما الطب والهندسة. مع احترامي الشديد ومحبي لكل من أقبل على كتاب الله. فعلم القراءة تحتاج لنوعية خاصة جداً من الطلبة، وذلك لصعوبة استيعاب القواعد النظرية (كالشاطبية، والدرة والطيبة، ومن قبلهم الجزرية) من حيث الجهد والفهم، وكذلك صعوبة التطبيق العملي للقراءات. إلا أننا نجد أن عامة الذين يتجهون للحفظ والتحفيظ ممن لم يرزق اهتماماً بطلب العلم. وهذا الحال مع الظاهرة الدينية كلها.. يتم توجيهه من لا يُعرفون برغبة في طلب العلم ولا يُظهرون تميزاً في معالجة مسائل العلم وقضاياها لها. ولذا تراجعت الظاهرة الدينية الرسمية وخف وزنها بين الناس. وأتكلم عن العموم الذين يشكّون الظاهرة وإلا ففي التفاصيل استثناءات تبقي على الحد الأدنى من هيكل الظاهرة، وهؤلاء غرباء شرح الله صدرهم، ويسر أمرهم وكتب أجرهم أضعافاً مضاعفة. وفي السنوات الأخيرة ظهر تضيق رسمي آخر على المهتمين بالتحفيظ، وذلك بعدم إعطاء تراخيص لدور التحفيظ والتقليل من نشاط المعاهد المختصة بالقراءات.

ثانياً: أدى حضور ضعيف القدرات إلى فقدان التخصصية. والأدعياء كثر، والمختصون فعلاً قليلون جداً، فالمتقنون للحفظ وللتجويد وللقراءات أفراداً أو جمعاً قليلون جداً ولا يصلحون، لقلة عددهم وضعف أدواتهم، لتطوير الظاهرة؛ وهنا سؤال: أين الصحوة الإسلامية من تطوير ظاهرة الحفظ؟، أين هي والصحيون لا ينفكون يدعون الاهتمام بالمرأة وتربيتها؟، وهم يعلمون أن تحفيظ القرآن للأبناء أساسه البيت، والأم بالتحديد؟

الواقع أن العلمانية خيمت على الجميع، وليس ثمة من يفكر في المرأة ككيان مستقل له ما يناسبه.

وأدعو من يعترض على هذه الملاحظة أن ينظر حواليه ويسأل: هل ثمة حافظات .. متقنات للتجويد نظريًا وعمليًا فضلًا عن القراءات؟، ثم يسأل نفسه ثانية: هل هن من أبناء الصحوة أم من العوام؟

وأنا أحسبها هكذا: أقول: كم نمتلك ساعة يوميًا؟، وكم ننفق منها فيما ينفق؟

والإجابة: الهدر كثير!!.. كأننا نلعب!!

سيصدم من يتأمل الواقع حين يعلم أن عامة المهتمين بالقرآن الكريم ليسوا من الصحوة الإسلامية بل من عامة الناس.

ثالثًا: **ضعف الأدوات المعرفية والمادية:** فلا يوجد تخطيط لرؤية ممتدة طولًا وعرضًا وعمقًا؛ ولا يوجد وعي بالظواهر الاجتماعية: نشأتها وتفاعلها وتطورها. والنقص في الأدوات المادية حاد جدًا. يُنفق على الفقراء والمساكين ممن يكرهون الصحوة وأهلها ويعينون عليها ولا ينفق على القرآن وأهله، مع أن انتاج فرد قرآني وتوطين القرآن في المجتمع من أسباب البركة والسعة، فالله سبحانه وتعالى وصف القرآن في ثلاثة مواضع من كتابه بأنه مبارك؛ فإن كان ولا بد فلتكن النفقة لقاء التعلم، وهو كلام الله لا متونًا حزبية. المطلوب وقف وليس نفقة تتيسر اليوم وتنقطع غدًا، والمطلوب أبنية ومؤسسات لا دور صغيرة يتحكم فيه متعصب متشنج أو قليل الفهم يثير الأحقاد بين المعلمين والمتعلمين وينحدر بالعمل ولا يصعد.

رابعًا: أن الناس يتحركون في الغالب تبعًا للرائج المشهور، لا لسد الثغور وإكمال ما قد نقص. والرائج في هذه الأيام لما يسمى بالنشاط الدعوي والحركي، أو بالأحرى يتابعون الأحداث!!.. سُكر معلوماتي يمارس على الأكثرية بأدوات السوشيال ميديا

والهواتف ... يجلس وتجلس على الفيس وأخواته بالساعات الطوال وحوهم أبناءهم لا يقرءون ولا يكتبون!!..

وفي الساحة من يقلل من شأن الحفظ والتحفيظ ويحاول صرف الناس للتدبر، يقولون: لا نحتاج النص وإنما من يفهم النص، ويحتجون بما ورد عن بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- من أنهم كانوا يتعلمون الأحكام ثم يضبطون الحفظ. وعشر آيات بعشر آيات. ولا يوجد تعارض بين القول باستقلالية الحفظ والحفاظ والدعوة للتدبر والتفقه في النص المقروء؛ وهذه بعض النقاط تزيد الأمر بياناً:

تلاوة القرآن نقطة بداية:

تلاوة نص القرآن الكريم - وإن بغير تدبر- نقطة بداية لا يمكن تجاوزها. من لم يبدأ منها أحسب أنه لم يبدأ، فهو قرآن بمعنى يُقرأ، وهو مأدبة الله في أرضه- كما جاء في الحديث- نأتيها كل يوم نأكل منها ونشرب، ولذا يسمى ما يقرأ كل يوم "وردًا" من الورد.. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ۖ﴾ (القصص: من الآية 23)، (ونشرب إن وردنا الماء صفواً .. ويشرب غيرنا كدرًا وطينًا). كأن المسلم لا يستطيع أن يحيا بشكل طبعي دون أن يتزود من نص القرآن الكريم، ثم يرتقي تدبرًا وتفقهًا. والقرآن سهل يفهمه الجميع وإن غرب المعني في بعض الكلمات فإنه لا يؤثر على المعنى العام في الغالب كما في قوله تعالى ﴿نَزَّاعَةَ ۖ لِّلشَّوٰى ۖ﴾ وكما في قوله تعالى ﴿عَلٰى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۖ﴾، وقد ذكر عبد الله ابن عباس، رضي الله عنهما، أن "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"⁽¹⁾. فكثير من معاني القرآن من النوع الذي

(1) الطبري، ط هاجر. ج 1، ص 70.

لا يعذر أحد بجهله، وقليل منه ممن "تعرفه العرب من كلامها"⁽¹⁾ وممن "يعلمه العلماء"⁽²⁾ وأقل من ذلك بكثير "ما لا يعلمه إلا الله" وهو المتشابه الذي لا سبيل كفواتح السور. ولذا فإن من تحدث من أهل العلم في وجوب التدبر جعل البداية من كثرة التلاوة وأن أفعال القلوب المذكورة في قوله تعالى (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَي قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: 24) لا تفتح إلا لمن يتلون كتاب الله ويسارعون في الخيرات (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورًا) (فاطر: 29). وكثرة التلاوة تحدث التزكية وقد شرحت هذا مفصلاً في مقال بعنوان: "من فوائد التكرار في القرآن الكريم".

واقع مشاهد في كل جيل:

لم يكن كل الصحابة رضوان الله عليهم فقهاءً، ولكنهم جميعاً كانوا قراءً، بمعنى يحفظون على ورد ثابت من القرآن كل يوم. وحين انتشر الإسلام وكثر المسلمون ظهر التخصص تدريجياً. وازدادت التخصصية في عصر التدوين فصار كل قوم إلى في فرع من فروع العلم. ولذا برز القراء كابن كثير المكي ونافع المدني وحفص وحمزة الكوفيان ويعقوب الحضرمي، وغيرهم من السادة رواة كلام الله الكبير المتعال سبحانه وعز وجل. ولم يُعرفوا بغير القراءة. وبرز المحدثون همهم ضبط متن الحديث وسنده. وانتهى المجتمع المسلم إلى ظواهر علمية متخصصة.. انتهى إلى متعمقين في عددٍ من العلوم الشرعية وغير الشرعية. فنهضت العلوم كلها حين انصرف الناس إلى ما يحسنون أو إلى ما يجنون، وأتقن كل واحدٍ منهم صنعته.

(1) وهو المتعلق بمعنى الكلمات كما "الشوى" "موضونة"، "غذاء أحوى"،،،،

(2) وهو المتعلق بالمطلق ومقيدته، والمنسوخ وناسخه، والعام ومخصصه

وهو هو بأمر عينه ما تفعله المنظومة العلمانية: فعلماء الهندسة غير علماء الطب غير علماء الاجتماع... والمنظومة العلمانية تفرض التخصصية في جميع المستويات: مستوى إنتاج المعرفة ومستوى التشغيل للمؤسسات (الوظائف)، فلا تجد صيدلي يمارس -باذن من المنظومة العلمانية- الهندسة، ولا تجد عالم عقاير يدعي العلم بالرمد... والسؤال إذًا: لماذا يشجب المعترضون على من تخصصوا في الحفظ والتحفيظ؟! وأكرر: أن هذه التخصصية لا تعني الجهل التام بغيرها.

ثالثًا: الجهل والكسل:

الشجب على الحفظ والتحفيظ كتخصص له سببان رئيسيان:

أولهما: الجهل بالظواهر الاجتماعية، وأن المجتمع ظواهر، والظواهر نخب وأبنية؛ والنخب تعدُّ، بمعنى تُنتج كما الثمرة من النبات وكما السلعة في المصنع. والمثقف ثقافة سطحية لا يمكن أن يبدع، وإنما يوظفه غيره، وفي أحسن الأحوال يوزع معرفة أنتجها غيره.. هذا إن كان ذا وعي.

ثانيهما: مشقة التخصص، فالقلة القليلة هي التي تصبر على مكابدة التفاصيل والاشتباك معها. وإن التقافز بين التخصصات جعل الفرد بلا قيمة حقيقية وبلا أثر حقيقي.

رابعًا: الهاربون واليائسون في ساحة التدبر:

في المشهد الثقافي يوجد ما يسمى بالتواطئ المعرفي.. وأسميه سُكر معرفي: شيخ، أو عالم، أو ناشط يسقي الناس ما يشتهون.. يلقي عليهم ما يرتاحون إليه ويجمعون حوله لأنه يسعدهم ولا يزعجهم. حالة من التواطئ أو التنادم.. تمامًا كمجالس الشراب.

وساحة التدبر اليوم فيها من هذا المعنى: فقد آوى إلى التدبر كثير من الفارين من الهزيمة السياسية التي تعرضت لها الحركة الإسلامية بعد الثورات المضادة. فكثير

من رموز هذه الساحة اليوم ممن لم يجد له مكاناً أو موضوعاً بعد الثورات المضادة فنزل ساحة التدبر وجاءه الطيبون الذين ملؤوا أحاديث السياسة أو خافوا منها أو يئسوا من التغيير؛ ووجد كل بغيته: الملقى (الخطيب): وجد جمهوراً وقضية ينشغل بها ولاقطاً يتحدث فيه، والمنهزمون وجدوا تسليّةً بأحاديثٍ روحانية تحدثهم عن الابتلاء في الدنيا العوض في الآخرة، وقيناً لا يتحدث عامة المتدبرين اليوم عن كيد الكافرين ووجوب منازل الظالمين إلا بأحاديثٍ عامة وعلى عجلة. وهم هم أنفسهم الذين أثاروا قضايا فرعية في وقت الجد. بالأمس واليوم كالثياب وتغطية الرأس،، . ولذا يصعب على مثلي أن يقرأ ظاهرة التدبر والتفقه والتمذهب بحسن نية.. وأرجو أن لا يفهم من كلامي أنني ضد التدبر أو التفقه وإنما ضد السياق الذي يستحضر فيه اليوم!!

خامساً: أداة تسلط وأمارة تنازع:

في تفاصيل الحركة على الأرض يبرز نموذجان يفسران كثيراً من الشعب الحاصل في ساحة التحفيظ وأهله: نموذج تنازع ونموذج تسلط. أما نموذج التنازع، فإن ما يحدث عملياً هو أن الناس يقبلون على الحفظ والتحفيظ وخاصة العوام، وحين يجتمعون ويكثر عددهم؛ يأتيهم أصحاب الأنساق المغلقة (الجمعات المنظمة وشبه المنظمة) يحاولون نزعهم وأخذهم لأحزابهم. فمثلاً يأتيهم من يحدثهم عن أهمية العقيدة (التوحيد)، والعقيدة كليات تفهم في ساعة أو ساعتين والتفاصيل للمختصين؛ ويأتيهم من يحدثهم عن قضايا الأمة وضرورة الانشغال بها ونصرة المنشغلين بها!! كل يريد أن ينزع الجمع ويأخذه لنسقه المغلق مدعيًا الخير فيما يراه هو وحزبه. ولا بد أن تكون الظواهر الاجتماعية في المجتمع بلا أطر من جماعات منظمة أو شبه منظمة. ونموذج تسلط: ولذلك صورة عملية متكررة على أرض الواقع: أحدهم -أو إحداهن- يقيم حلقة تحفيظ فيجتمع حوله الناس، وهو غير متعمق في الحفظ

والتجويد؛ ويمضي الوقت، ويطلب الحضور بشيء جديد، فيضطر لاستحضار موضوع آخر غير الحفظ والتجويد ليُبقي على الحضور، ويدعي هو المهارة في الإدارة، ويدعي التأسيس للعمل، وربما يظل يسقّه الطلاب ويشعرهم بالدونية والنقص وحاجتهم لمزيد من التعلم كي يبقوا بين يديه متعلمين.. أتباع. ويتطور المشهد لمناطقة غيره من النماذج الأخرى المجاورة، وربما يتطور للتعب للمسجد/الدار أو القائم على المسجد. نموذج متكرر وخاصة في مساجد الحركيين (منظمين وشبه منظمين) أضع جهدًا ووقتًا، فلا هو طور نفسه وطور غيره، ولا هو ترك النجباء من الطلاب يطورون أنفسهم. بل استخدم التحفيظ أداة تسلط.

نقطة البداية من فرد متخصص في مجالٍ ومثقفٍ في أكثر من مجال، ثم أبنية متخصصة، فظواهر اجتماعية نشطة. ونقطة البدء من مدارس القرآن الكريم. وفي القرآن آيتان تضعان من يحفظ ويحفظ على رؤوس الجميع قول الله تعالى: (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)، وقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ). فجعل الربانية على تعلم الكتاب وتعليمه، وجعل من يمسك بالكتاب ويقيم الصلاة مصلحًا، وفي صحيح مسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

رحلة الأبناء القصيرة:

أتم الله لولدي البكر (جلال) حفظ القرآن الكريم وتجويده.. أتقن الحفظ وأتقن التجويد وهو لم يتجاوز السادسة.. قبل دخوله العام الدراسي الأول، وكُرِّم في مسابقة جادة (فاز بالمركز الثاني بفارق 0.5% عن الأول)، وتكرمه منشور فيديو على الشبكة، وله حلقة تلفزيونية بعد ذلك؛ ثم جاءت سارة بعده بعام وأتم الله لها الحفظ والتجويد وهي في الصف الأول الابتدائي، ثم جاءت مريم وأتم الله لها الحفظ والتجويد

وهي لم تتجاوز السابعة، وكذلك عائشة مثلهن. ثم شبّ سؤال واشتد: ماذا بعد؟، ماذا علي البيت أن يفعل بعد تحفيظهم القرآن وتعليمهم الآداب العامة؟، ماذا على الأم أن تفعل بعد أن فرّغت فيهم ما تعلمته من أجلهم؟، ماذا على الأب والأم وقد بدأ الأبناء يخرجون للشارع بما فيه؟!

ما لم يكن في الحسبان = وظهر الجاني الحقيقي!!

توقف دور البيت أو لم يعد البيت وحده هو المؤثر. لم يعد باستطاعة البيت أن يفعل أكثر من مراجعة الحفظ، ومراقبة السلوك العام، وتلقين الآداب العامة من أذكار ومحافضة على الصلاة؛ ومناقشة ما يطرح من أسئلة، وهذه من مهام الأب في الغالب، بمعنى أن دور الأم تراجع بنسبة كبيرة لصالح الأب، وهنا مأزق. فالأب أيضًا يحتاج لإعداد، يحتاج لإمكانات ذاتية من أجل ممارسة التربية في سن البلوغ وما دون البلوغ، ثم التعامل وقت الشباب وما بعده، وغالبيتهم لا يهتم بهذا. وعدم وجود رؤية عند الأب، وكذلك غياب القدرة على توجيهه يؤدي إلى تسليم الأبناء للشارع والمؤسسات العلمانية.

اضطررنا لتسليم أبنائنا لمنظومة التعليم التي يعلم الجميع أنها فاشلة: لا تتقن التعليم ولا التربية. اضطررنا لدخول أتون العلمانية. أخذت أبنائنا رغماً عنا. تضيع أموالنا وأوقانتنا دون ثمرة حقيقية!!

وبدأ التفكير في محاولة للتغلب على هذه العقبة، ورحت أفتش في نواحيها عن بديل، أو عن وسيلة للتغلب على هذه العقبة. وكانت البدائل: المدارس الخاصة، والتعليم من المنزل (التعليم المرن والتعليم الموازي).

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أنياب العلمانية!!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

لا يستطيع أحدنا أن يربي أبناءه كما يريد، وأن العدو الحقيقي للمشاريع التربوية الأسرية هو العلمانية التي تضرب مخالبتها في كل شيء، تأخذ منا أبناءنا وتربيتهم.. تغرس قيمها فينا وفيهم رغمًا عنّا وعنهم، ولا نستطيع دفعها، بل ندفع من أموالنا ووقتنا لاكتساب معارفها. فمن منا يستطيع أن يمنع أبناءه من المدارس ثم يحيا حياة طبيعية؟! بل إن حالنا الآن أننا ندفع أبناءنا لمؤسسات العلمانية لتعلمهم و"تربيتهم"!!

وقفت يعتصر قلبي على غرسي وهو يُقلع من أرضي ويغرس في أرضٍ أخرى، ويُروى بما لا أرتضيه!!

وقفت أنظر لهذا المشهد النكد في المدارس وحظائر التعليم (الدروس الخصوصية): غلظة بعض المعلمين، وسوء خلق بعضهم، وخلو هذه البيئة التعليمية من التربية وتحولها إلى سوقٍ تجارية، حتى كاد يَختفي من يهتم بغرس القيم والمبادئ الإيمانية. والطالب يكد طول اليوم بين مدرسة لا تؤدي دورها كما ينبغي ودرسٍ خصوصي جاء رغمًا عن الجميع يؤدي دور البديل بلا إمكانات، ويعود الطالب للبيت منهكًا مشغولًا يبحث عن راحةٍ أو ترويح، ولا تستطيع غير تركه!!

إن حلم الشباب يُمزق بأنياب العلمانية (مؤسسات العلمانية)!!

ورحت أبحث عن حل.

(1) دكتوراة في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

ثانية رحلت أفتش عن تجربة ناجحة أقلدها أو أطورها، ووجدت ثلاثة نماذج عملية للدجادين الراضين لهذا الواقع الأليم: المدارس الإسلامية، والتعليم المنزلي، ومحاولة الإفادة من التعليم الأجنبي (الحضانات والمدارس الدولية).

ومرة ثانية اشتغل النقد الفكري للتجارب التي واجهتها!!

كان لا بد من الاشتباك مع التفاصيل ليُعلم ماذا يحاول كل فريق أن يفعل (الأهداف والنتائج التي تتحقق عملياً). ثم لا بد من الصعود لأعلى ليظهر حال هؤلاء في سياق الواقع، وهل ثمة ترابط بينهم، بمعنى: هل نحن أمام ظاهرة اجتماعية متعددة الجوانب تشكل في مواجهة أنياب (مؤسسات) العلمانية؟ أم أننا أمام حركة عشوائية لم تتمثل في ظاهرة بعد؟!، محاولة للإجابة على سؤال: أين يقف المعارضون على الواقع التعليمي؟! أين يقف الراغبون في النهوض بأبنائهم، وخاصة من ذوي الإمكانيات المادية المحدودة؟

والصورة العامة للمشهد تبين أننا أمام دافعين رئيسيين لرفض التعليم النظامي، أحدهما: الرغبة في رفع قيمة الفرد، والثاني: الحماية من الغزو الثقافي أو التوزيع القهري للقيم الذي تمارسه الدولة من خلال مناهج التعليم النظامي. الذين نظروا لحماية الفرد من الغزو الثقافي بعضهم اتجه لإقامة مدارس إسلامية، وبعضهم اتجه لتقليل التواجد في المدارس النظامية عن طريق ما عرف بالتعليم المرن؛ والذين رأوا الحل في رفع قيمة الفرد اتجهوا لتقليد المشاريع التربوية الناجحة دولياً بعد خلطها- أو بدون خلطها- ببعض الثقافة الإسلامية. والسؤال: هل تنجح هذه النماذج لتحقيق الهدفين: حماية الفرد من المنظومة العلمانية ورفع قيمته اجتماعياً لينفع نفسه وأمتة؟.. السؤال: هل يستطيع أيٌّ من هذه النماذج افتكاك أبنائنا من أسر العلمانية وأنيابها؟، هل يستطيع أي منها أن يعيد توطين معارفنا واقعاً في حياة الناس؟

التعليم المنزلي إرهاب زائد للبيت، وخاصة إن كانت الأم عاملة، وهو الغالب على النساء الآن، ويواجه تحديات أهمها: أنهم يضطرون للدروس الخصوصية بكثافة وفيها اختلاط (مجيء المدرس/ المدرسة للبيت)، وإتهاك مادي، ولو مارست الأم التدريس فلن تكون كالمدرسة أو كالمدرس الخصوصي، وغالبًا ما يتعرضون لمخالب حاد آخر من مخالب العلمانية وهو ألعاب الأطفال وأفلام الكرتون، والغالبية تستسلم للألعاب والأفلام وخاصة الذين يسكنون الشقق ويبحثون عن شيء يجمد الأطفال ويقضي على "شقاوتهم" في الشقة؛ وفوق هذا كله لا يُعلّمون إلا المناهج الدراسية، ما يعني أن حصاد هذا النوع من الرفض العملي لواقع التعليم هو توفير وقت الطلاب للعب وسماع أفلام الكرتون في الغالب، وقد ينجح إذا ما طبق الرؤية التي سأقدمها بعد قليل إن شاء الله، تحت عنوان "غرس القيم".

المدارس الإسلامية، تضيف الانضباط الخلقى، وبعض تعاليم الإسلام، وهو أمر لا أقلل من شأنه ولكنه لم يرق لمستوى افتكاك أبناءنا من مخالب العلمانية. فأقصى ما تفعله هذه المدارس هو الانضباط السلوكي وقت الدراسة. ولكنها -أيضًا- يذهب جل جهدها في خدمة أهداف العلمانية.

والطريق الثالث يسعى لرفع مستوى الأبناء من خلال الدفع بهم إلى الحضانات والمدارس الدولية، بدعوى أن مستوى التربية والتعليم في هذه المحافل التعليمية متطور؛ وثمة عدد من الملاحظات على هذا الطريق، بعضها يتعلق بالسياق وبعضها يتعلق بالمحتوى، وهذه أهم ملاحظتين على السياق العام:

الملاحظة الأولى: تتعلق بالأموال الطائلة التي تنفق في هذا الاتجاه: وأضرب مثلاً بالأموال التي تنفق للحصول على شهادة التوفل بأنواعه والآيلتس، وتقدر بمئات الملايين من الأمة الإسلامية، وتجمع هذه الأموال من الطبقة المتوسطة والفقيرة في الغالب ولا يتم تدويرها في مشاريع إنتاجية. والسؤال: ما المقابل لكل هذا الجهد

والمال؟!، هل يؤدي هذا الجهد والمال إلى تعلم اللغة حقًا؟، ومن يتعلم اللغة هل يستفيد بها في نقل ما ينفعنا أم أن غاية القلة التي تتقن اللغة أن يعمل موظفًا لتحصيل فوائد شخصية؟!

وإذا كان النقل عنهم ضرورة في بعض الأشياء وخاصة فيما يتعلق بفهم حالهم وأهدافهم الكلية والتحويلات التي تحدث بينهم والتحويلات التي يحدثونها هم دوليًا. وفيما يتعلق بتعلم اللغة من أجل النقل عنهم، فإن النقل فعل نخبة متخصصة تخرج من سياق واعٍ هادف. تخرج لتتعلم شيئًا محددًا من غيرنا أو عن غيرنا؛ بما يعني أن تعلم اللغة لا يلزم الجميع وإنما يلزم قلة قليلة، تنقل ثم تطرح بيننا ما قد جلبته من عندهم ونأخذ منه ونترك، ونطوره في إطارنا الثقافي وضوابطنا العقدية. وقد مضى قرنين على تعلم لغتهم وثقافتهم، وماذا حصلنا؟!

والمقصود هنا أن التعليم الأجنبي يمثل نزيغًا حادًا للمال والجهد ولا يؤدي ثماره المرجوه. **الملاحظة الثانية:** حين تتدبر المشهد التعليمي وتحاول البحث عن الأهداف الكلية (السياسات) التي تحاول الاستراتيجيات تحقيقها باستخدام المؤسسات التعليمية، وخاصة هذه التي نتوجه لها الآن (التعليم الأجنبي)، تجد أن التعليم الخاص يستخدم كأداة من أدوات تقسيم المجتمع إلى طبقات، ويستخدم كأداة من أدوات توزيع الثروة، وأوضح مثال على ذلك الجامعات الخاصة التي تهدر التفوق الدراسي كشرط للمنافسة في السوق بعد التخرج، بمعنى لا تهتم بجودة التعليم بقدر ما تهتم بإعطاء شهادات، فيلتحق من لم يتفوق في الثانوية بكليات القمة بمجموع منخفض ثم يخرج للسوق ينافس المتفوقين (انظر قطاع الصيدلة والطب والهندسة)!!

والملاحظات السلبية على التعليم الأجنبي كثيرة، وإنما أردت أن ألقى الضوء على بعدٍ معين غير الذي يتردد في ساحة المتدينين (أعني أن هذا النوع من التعليم ينشر قيمًا تعادي عقائدنا)، أريد أن ألقى الضوء على أن هذا النوع من التعليم يستخدم في

تحريك المال تجاه فئة ضد فئة مما يساهم في ترسيخ الطبقة في المجتمع. وبالتالي فإننا نخسر الكثير مقابل القليل. وأنا دخلنا في معادلة لم تثمر لنا رقيًا بذواتنا، لم ننتفع منها شخصيًا وبالتالي لم ننتفع بها أمتنا، وغاية ما يرحى من التعليم الأجنبي هو الحصول على وظيفة جيدة ضمن مؤسسات العلمانية المحلية أو الدولية.

وأريد أن أقرب من هذه ظاهرة (رفع قيمة الفرد بتلقي المناهج الأجنبية المستوردة) من مدخلٍ آخر، أريد أن أجيب عن سؤال يبحث عن العلاقة بين متغيرين: تطوير الذات والمناهج التي تدرس في التعليم الأجنبي وغير الأجنبي. وذلك أن رفع قيمة الفرد هدف رئيسي لكثير من المشهورين في الساحة الدعوية والفكرية، وهدف لعامة المشاريع الكبرى.. تلك التي تستهدف نهضة الأمة وتبدأ ببناء الفرد، وهدفٌ للآباء والأمهات الذين يريدون لأبنائهم حضورًا أكثر في حياة الناس، طلبًا للأجر من الله أو طلبًا لعارضٍ من عوارض الدنيا. والسؤال: بم يتحقق رفع قيمة الفرد؟

الأفراد -بوعي أو بدون وعي- يبحثون عن السعادة، وهي الراحة والطمأنينة.. انشراح الصدر وسكون النفس، وهي غير اللذة وغير النجاح، والأمة تبحث عن حضور قواعدها الكلية (العقيدة) واقعًا في حياة الناس. وبالتالي علينا أن نعيد صياغة السؤال مرةً ثانية: هل ما يطرحه أرباب التنمية البشرية والمجتمعون تحت مسمى (النهضة) يحقق غاية الفرد (السعادة) وغاية الأمة (الحضارة)؟

شهر كامل وأنا أحاول تقديم إجابة مختصرة غير مخلة على هذا السؤال، وكلما كتبت مسحت، وكلما جئت للمقال قمت ولم أضف شيئًا، ثم استقر الأمر على عرض الفكرة من خلال الطرب. نعم الطرب. بم يتحقق الطرب؟

الإنسان.. هذا الذي يتحرك أمام عينيك ثلاثي التركيب: جسد وروح ونفس. والتفاصيل في كتاب بعنوان: "ماهية النفس لأحمد كرار الشنقيطي"، والروح من أمر ربي لا نعرف عنها شيئًا، والنفس تحتاج الطرب، وتطلبه، تمامًا كما يحتاج الراحة

والنوم بعد التعب. وثمة منظومتان للطرب، منظومة إسلامية من وحي الله، ومنظومة أخرى من وحي الشيطان (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ) (الأنعام: 121). في الإسلام الطرب بالترتيل: بالغُنة التي تشبه عصر الأعصاب، وبالمد الذي يشبه الرفع المفاجئ ثم الخفض فجأة على الهمزة الساكنة، والإخفاء الذي يشبه الرَّج، وبين الثلاثة (المد والإخفاء والغن) مسافات زمنية محسوبة؛ والطرب بسجع ينتظم ثم ينقطع ليقطع الملل ويوقظ الحس ويؤكد على التنوع؛ والطرب، أيضاً، بالمشاهد الحية التي يعرضها القرآن أمام ناظريك، فحين تقرأ متأنياً وتفكر في المعاني.. حين تتدبر ما تتلوا فكأنك تشاهد. بل كأنك تحس، كما يقول الأستاذ سيد قطب في (التصوير الفني)، تقرأ (وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) فكأنك تشاهد الجبال تقلع وترفع ثم تدفع بقوة لأسفل فتتهشم وتستحيل تراباً، ويجول خاطرك في هذه القوة التي تفعل بالرواسي الشامخات هكذا، وكيف أنها شيء من قوة ربك وسيدك، أمرك وناهيك، المهيمن الجبار. وتقرأ قول الله تعالى عن المتقين في الجنان: (مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) (ص: 51-52)، مشهد حي مما نحب ونشتهي كأنك تشاهده.. بل كأنك تعيشه وأنت في الدنيا. وتقرأ قول الله تعالى عن المجرمين وهم في طريقهم للجحيم (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) فكأنما هم بين عينيك تشاهدهم مقيدين في مكانٍ ضيقٍ يرون العذاب ويُدْعُونَ إِلَيْهِ دَعَاءً، ويصطرخون، ويدعون على أنفسهم بالهلاك، ولا مجيب، فتطيب نفسك وتشفى من سقمها وخاصة إن كانوا قيدوك في الدنيا بجديدهم ودفعوك بأيدهم وأرجلهم وعصيهم، مشهد بمشهد ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وفي كل آية حديث عن الكبير المتعال، الجميل الوهاب، ربنا سبحانه وتعالى، وأنه خالقك وأمرك وناهيك، وأنه قادر عليك، وأنت راجع إليه، وواقف بين يديه،

ومحاسب لا محالة.. تجد هذا في كل آية بخاتمها، حيث تحتّم باسم أو اسمين من أسماء الله، أو تستقل الآية بهذا المعنى كلية.

وحال الطرب بالترتيل، وحال الحديث عن الله وأمره ونهيه، تُعرض قصص الأولين: كيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين في الدنيا قبل الآخرة، تهيئةً للمؤمنين ووعيداً للكافرين. منظومة متكاملة متعددة الأشكال. وكلها في أي مقطعٍ تقرأه من كتاب الله، فلا يستلزم الأمر قراءة الكثير، فمهما صغر وردك تجد كل هذا فيه. (صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ) (النمل: 88).

بهذه التركيبة الربانية يتحقق، ليس فقط الطرب. بل ورفع قيمة الفرد، وتحقيق هدفه هو، ومن ثم غاية الأمة بعد ذلك (التمكين في الأرض). فالترتيل والذكر يورثه راحةً وطمأنينة.. يعطيه غايته الأولى: السعادة.. انشراح الصدر. والله حاضر في حسه شهيدٌ رقيب معين. ولذا سمي الله كتابه مآدبة، وسمى الصالحون ما يُتلى كل يومٍ وردًا، وكأن لا بد لك من ورود مآدبة الرحمن كل يومٍ وإلا فسدت. جعلنا الله وإياكم من أهل القرآن.. أهل الله وخاصته. اللهم آمين.

ولم ينزل الله على رسوله-صلى الله عليه وآله وسلم- أكثر من هذا، فهذا كل ما في كتاب الله.. ضبط للفرد عن طريق إجابة لسؤال النشأة الأولى في الدنيا والنشأة الآخرة للحساب، وتعريفه بخالقه، ثم يتحرك الفرد من نفسه إلى ما يحسن أو إلى ما ينجم وينجو من العذاب الأليم، وبالتالي يتكون مجتمع نشيط منضبط بلا خلل.

حالة من الجد الهادئ المستكين مرهف الحس، حسن القول والفعل.

ولسنا نتحدث عن فلسفات ونظريات كلية لا يمكن تطبيقها. بل تم التطبيق على بشرٍ مثلنا. رسول ربنا-صلى الله عليه وسلم- وصحابته- رضوان الله عليهم-.

المقصود أن الشريعة الإسلامية تحقق غاية الفرد (السعادة) ورفع قيمته في المجتمع، وبالتالي غاية الأمة كلها (النهضة.. الحضارة) بطريقة خاصة، سهلة وميسرة جداً تركز على معرفة الله وما أعده للطائعين وما توعد به العاصين، وهذا يكفي لإنتاج فرد صالح مصلح ومجتمع كالمجتمع الأول الذي أضاء الدنيا في أعوامٍ قليلة.

وبعيد تماماً يتقافز المتحدثون عن (التنمية البشرية) والمشاريع النهضوية للأمة. والسؤال: هل يحقق هؤلاء هدفهم المعلن (رفع قيمة الفرد) و (نهضة الأمة)؟

دعونا نعود للطرب كمثالٍ نبين به المعنى ونتمدد من خلاله لرفع قيمة الفرد وتحقيق النهضة للأمة: الطرب في غير القرآن والسنة بموسيقى وكلماتٍ تثير غرائز شهوانية في الغالب، وذلك طلباً لتحريك كل طرف تجاه الآخر. والحقيقة أن العلاقة العاطفية لا تكفي لاستمرار الأسرة، مهما كانت قوتها، وذلك أن العاطفة تتقلب والشهوة ملولة لا تستقر، وإنما يستقر الزوجان بشيءٍ آخر.. بمشروع حياة.. بتعاونٍ على البر والتقوى.

وما يقدمه هؤلاء لإسعاد الفرد ورفع قيمته يتمحور حول (بناء الذات). والذاتية/الفردية هي صلب الإلحاد وقاعدته، فالمعنى المرادف للذاتية هو عبادة الفرد نفسه. يحل ويحرم ما يشتهي، ويُقبل على ما يراه هو نافعاً ويعرض عما يراه هو ضاراً، فهو إله نفسه (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ) (الجمانية: 23) وبعضهم يستدعي الوحي بشكل جزئي، يقطع نصاً من سياقه ويستدل به في سياقٍ مختلف على قضيةٍ مختلفة، بمعنى يشرعن الباطل، حال كما وصف الله ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم: 3). فنحن أمام منظومتين: منظومة الإسلام التي تحقق غاية الفرد وغاية الأمة من أقصر طريق وبأقل تكلفة، ومنظوماتٍ أخرى، تأخذ الأفراد في تيهٍ صخبٍ قلقٍ، وتتركه حيران لا يصل لشيء. يقول الله تعالى: (قُلْ أُنَدِّعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ

حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام: 71).

الطريق للغاية التي ينشدها الفرد (السعادة) سهل ميسر ويبدأ من كتاب الله ومشروح
عملياً في جيل الصحابة والتابعين.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
البداية من غرس القيم

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

التعليم أربعة أشياء: أولها: معلم ذو إمكانيات حقيقية؛ وثانيها: متعلم راغب أو مدفوع من راغب؛ وثالثها: مناهج تعليمية.. والمقصود بالمنهج هنا المحتوى العلمي بمعناه العام؛ ورابعها: الأبنية وما فيها من أدوات تعليمية كالكتاب والحاسوب والسبورة. بمعنى أن على كل من يهتم بالتعليم والتربية أن يجيب على هذه الأسئلة الأربعة مجتمعة: من سيعلم؟، وماذا سيعلم؟، ومن سيتعلم؟، وأين تتم العملية التعليمية؟

ولابد من الأربعة كي تتم العملية التعليمية بنجاح. النقص يحدث نقصاً موازياً. المدارس الخاصة تدرس مناهج العلمانية ولا تستطيع الفكاك منها اللهم إلا قليلاً بما تضيفه من (نكهة) إسلامية. والتيارات السلفية تعامل الجميع سواء: الصغار والكبار.. الرجال والنساء، ولا يوجد وعي أو عزيمة لصياغة مناهج تراعي الفروقات. ومما يُظهر الجهل -أو الكسل- بصياغة مناهج تناسب الأعمار المختلفة الكرتون الإسلامي، فمع ثراء المادة العلمية التي نملكها نحن المسلمين، ومع أن مجال الكرتون له شعبية عالية ومربح في ذات الوقت، إلا أن الكرتون الإسلامي في جملته بعيد عن مخاطبة الصغار، وبعيد عن التخصصية في الطرح، فغالبه لا يخرج عن الدفع بكمية كبيرة من المعلومات بين اثنين يتحاوران.. كأنها خطبة أو درس. ثم نشكو من انصراف أبنائنا للكرتون العلماني الذي يغرس فيهم القيم المخالفة.

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

أين الخلل؟

في عدم وجود مادة علمية؟!

بالطبع لا.

في عدم وجود مختصين على المستوى الفني (صناعة الكرتون في هذا المثال، وصناعة المناهج عمومًا)؟

نعم. يغيب الصنایعي.. الفني المحترف.. يغيب ذو العزيمة لصناعة الأدوات المعرفية والفنية. نتجمع كلنا عند المنتج النهائي ونغيب عن حرفية الإعداد.. عن الجهد الذي يبذل في الخلفية لإخراج عمل قوي يؤثر بإذن الله.

لا أريد الاسترسال، ولكني أريد الإشارة إلى أن التفكير الشمولي (معلم، ومتعلم، ومناهج، وأدوات)، مفقود، والحل لن يكون جزئيًا، وقد جربنا عشرات السنين ولا فائدة. حتى التجارب التي تنقل الآن ليس فيها إبداع، بل جملها تقليد لنماذج علمانية تحاول إصلاح المنظومة العلمانية ذاتها. وراجع - إن شئت - المدارس الخاصة والتعليم المنزلي (الكلّي أو التعليم المرن). عبارة عن علاجٍ لخلل في المنظومة العلمانية نفسها، وبالتالي لا يمكن الوصول لحل يناسب هويتنا الثقافية من خلال أدوات العلمانية؛ فما يدعيه قومنا من أنه تصويب للتعليم هو نماذج علمانية أيضًا.. بمعنى أننا أسرى الفكر العلماني، بمعنى أننا لازلنا نفتقد الذاتية الإسلامية.

ما الحل؟

نقد الموجود وبيان الخلل فيه نقطة البدء الصحيحة. ويجب أن يأخذ النقد حقه، فالنقد يظهر الخلل في المعروض لتجنبه، أو الانتقاء منه. وله وظيفة أخرى أهم، وهو أنه يزيح المرفوض جملة عن طريق التأطير، فمثلًا نتفحص التعليم في نوعية معينة من مسارات التعليم ثم نضعها في إطار معين يجعل من يراها يرفضها.. مثلًا نقول: التعليم

في هذا المسار سيء لكذا وكذا.. فيتجنبه الناس، فيكون النقد بهذا ازاح كمية كبيرة من الشر بكلمات معدودات.. عن طريق التأطير.

من خلال عقدين ونصف قضيتهما في هذا المجال كمهتم يرصد التجارب والظواهر ويحاول فهمها، وكصاحب تجربة يصفها غيري بأنها ناجحة، أعتقد أن نقطة البدء الصحيحة تكمن في أن يقوم البيت (الأب والأم) بمهمة أو مهمتين - حسب إمكانيات الأبوين -:

الأول: غرس قيم كلية تصحح أخطاء المناهج التعليمية.

الثاني: تعليم شيء محدد. مهارة، أو معرفة، يتقنها الأبوين: مثل تعليم القرآن، أو الحساب، أو لغة أجنبية، أو الرسم (بضوابطه الشرعية)..

يعطي غرس القيم حلاً سريعاً، وثابتاً لما يُرفض في العملية التعليمية الرسمية (مع الأخذ في الاعتبار أن الرفض من الجميع وليس من شريحة المتدينين فقط). ولا يحتاج لمجهود كبير فيمكن ممارسته من خلال النقاش الأسري حال الطعام أو حال الفسحة واللعب، وخاصة أن الأطفال يندفعون للأسئلة ويطلبون النقاش في مراحل التكوين. والفكرة قائمة على أن الواقع المشاهد لا يتغير وإنما تفسير الواقع هو الذي يتغير، وهذا التفسير يخضع للقيم الكلية التي يحملها الإنسان، فالتبرج نراه جرماً وخروجاً عن الشريعة، ويراه غيرنا أمراً عادياً وحرية شخصية. والكفر بالله وما أنزل على رسله نراه الداهية العظمى ويراه غيرنا حرية شخصية.

القيم الكلية قليلة عند الجميع، وهمية، بمعنى أن قيمة واحدة تجلس عاليًا، وتصطف باقي القيم تحتها، مرتبطةً بها خادمةً لها، بترتيب هرمي. وعندنا القيمة العليا هي التوحيد، عبادة الله وتعبيد الناس لله [انظر مقال: القيمة العليا في الإسلام]، وأنا في هذه الحياة الدنيا نطلب ما عند الله وإن ارتقينا في الإيمان نطلب القرب من الله الكبير الكريم. ثم نحن دعاة للتوحيد نحمل رسالة عن الله لمن لم يؤمن به (قُلْ هُذِهِ

سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (الأعراف: 108)، ويذكر بعضنا بعضًا لنستمر على الإيمان (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات: 55) (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ) (المائدة: 79). فالتوحيد والدعوة إليه في المقدمة. ثم غرس قيمة الاحتراب (طلب الأجر من الله على ما نفعه ونقوله)، وهكذا تتوالى القيم .. نغرسها بالنقاش .. بالمواقف الحسنة.. كل بما يستطيع.

ونمارس النقد لما نغرسه المدارس من قيم ومعارف؛ نتداخل معها، ومن أمثلة ذلك: أنهم يدرسون للأبناء تاريخ الفراعنة (أو أي تاريخ غير تاريخ الإسلام)، فتداخل نحن على ذلك ونذكر لأبنائنا: أنهم يدرسون التاريخ دون ذكر للأنبياء، فالفراعنة لا يذكرون معهم موسى - عليه السلام -، وكذا كل حضارة، والسبب في ذلك هو الرفض لدعوة الرسل - بقصد أو بدون قصد - مع أن الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - كانوا نقاط التحول والتصحيح في حياة الناس.. كل الناس.. (وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر: 24). ومثلاً: تكاد تجتمع أفلام الكرتون التي تتحدث عن الديناصورات إلى القول بأن الحياة الدنيا من مئات المليارات من السنين، بمعنى أن الوجود ازلي، وأن ثمة كائنات أخرى ضخمة وقوية كانت موجودة قبل الإنسان وتطور منها الإنسان، وأن الإنسان مرحلة في هذه الحياة فإن في غيره سيعقبه ولن تنتهي الحياة، وندخل نحن في وجه هذا الكذب ونتلوا على أطفالنا قول الله: (مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ) (الكهف: 51)، وأن بعد الحياة حساب وثواب أو عقاب في حياة آخرة بها النعيم الأبدي أو العذاب السرمدى.

وغرس القيم سهل ومقدور عليه، ولا يحتاج لفصل دراسي ولا معلم خاص؛ ومن عجز عن ذلك فليتعاون مع غيره، بأن يدفع بأطفاله (وخاصة من هم في سن المراهقة والشباب) لصديق له يتحاور معهم في جلسات صالونية أو مكالمات هاتفية.

تكمّن صعوبة غرس القيم في أنه يحتاج لأسرة واعية. ويحتاج - من المهتمين بالمجال العام- لتوفير مادة علمية (كتب، محاضرات..). يتم تثقيف الآباء والأمهات عليها، ويرجعنا هذا لنقطة البدء وهي: إعداد الآباء والأمهات، وإعداد المناهج.

في الحديث "ابدأ بنفسك". ابدأ بنفسك في تعليم ما يلزم كي تقوم بمهمتك كأب وأم، وخاصة في هذا الزمن الذي اشتدت فيه الغربة وركبنا الناس حتى غلبونا على أبنائنا وأنفسنا. والبداية الجادة من إعداد الأم وتفريغها، والإحسان إليها.. وتوفير الأمان النفسي والمادي والاجتماعي لها لتقوم بمهمتها.

محمد جلال القصاص

2023 /2016

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
الأهم في تربية الأطفال

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

جلس عالم الاقتصاد الإيطالي باريتو Pareto في منحل يتأمل حركة النحل، ووجد أن 20% فقط

من النحل يقومون بـ 80% من العمل. والعكس. ثم راح يتأمل في باقي الظواهر الاجتماعية فوجد أن

هذه الملاحظة مضطردة، فدائماً قلة (20%) تُغني عن كثرة (80%): في العلاقات الشخصية، والملابس، والطعام، والعمال.

تعرفتُ على قاعدة (20/80) من خلال علماء البرمجة العصبية/ التنمية البشرية. يتكثرون عليها في حث

الناس على توفير جهدهم ووقتهم بالتعرف على النافع ومحاولة الاقتصار عليه. وكم وضعت

باريتو Pareto الإيطالي والذين يحاضرون في التنمية البشرية بين يدي وجلست طويلاً أنظر إليهم وأفكر

في حالهم، ومقالمهم، والسياق الذي أفرزهم وأفاد منهم، وأطرح الأسئلة، وأبحث عن إجابات، وحدثت تفاعلات كثيرة بيني وبين أشخاصهم وأطروحاتهم، ومن ثمرة ذلك: أن قاعدة باريتو- مع انتشارها وكثرة المردين لها- تحتاج إلى تعديل؛

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

فبمزيدٍ من التأمل نلاحظ أن القاعدة يمكن تعديلها إلى (1/99)، (2/98)، (3/97)، (4/96)، (5/95) إلى أن نصل إلى 50-50؛ بمعنى أن في كل ظاهرة اجتماعية شخص واحد يبدأ ويكون وزنه النسبي بين الجموع يساوي ما عداه من الأشخاص، وهو

ما نقول عنه رجل بأمة. يقول الله تعالى عن إبراهيم- عليه السلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ۖ ۱۲۱﴾ (النحل: 121). ومحمد- صلى الله عليه وسلم- يعدل الأمة بأكملها، وأبو بكر يعدل ما سواه بعد النبي، صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن أبي بكر والصحابة؛ وعمر يعدل سائر الأمة بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر. والصحابة-رضوان الله عليهم- بمن خلفهم ويزيدون، والأئمة الأربعة في كفة ومن خلفهم من أهل الفقه في كفة. وقد تجد بين ألف رجل رجلاً يعدلهم. فتكون القاعدة (1/1000)، وفي الحديث: ("لَيْسَ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ أَلْفٍ مِثْلَهُ إِلَّا الْإِنْسَانُ").

استقر الأمر عندي بعد إعادة النظر في باريتو والذين يبحثون عن أرزاقهم في نشر قاعدة باريتو، أن دائماً شيء ما يغني عن الجميع، أو يبدأ ويتبعه الجميع. ولا يحرك هو الجميع بشخصه، فقط يبدأ ثم يأخذ كل حظه في تغيير الواقع. وذلك مضطرد في الأشخاص، والصفات، والأشياء.

ولأني منذ كنت مراهقاً أعقد العزم على إنتاج أسرة نافعة بحول ربي وقوته ومحض فضله، رحمت أطبق هذه

الملاحظة على الأسرة، وطرحت هذا السؤال: ما الذي أعلمه أطفالي ويغني عن الباقي؟، أو يكون

سببًا في باقي المكارم؟؛ أو: ما هو الشيء الذي إن تعلمته وأبنائي كان بابًا لغيره من المكارم؟

بعد أخذ ورد، ودخول وخروج، وتأمل في الأفكار والأشياء بالأيام والساعات استقر عندي أن هذا

الشيء هو التفكير والتأمل، هو أن نعمل النظر فيما نرى ونحاول أن نفهم الرسائل الكامنة في الأشياء والأشخاص، وأن نفكر في مآلات الأمور.

التفكير هو باب كل خير. وفي رأسي حشد هائل من الشهود على أن التفكير والتأمل فيما تراه أو يرد على خاطرك هو باب كل خير، وقد بينت أن هذه هي منهجية الإسلام في مقال سابق بعنوان "التدبير حالة"، وعلي هنا أن أكمل لأبين الطريقة التي اتبعتها مع أطفالي كي يتدبروا، وهذا بعض ما فعلت: كنت آخذ ولدي البكر (جلال) معي للمسجد في صلاة الفجر، وهو صغير لا يستطيع أن يمسك من يدي إلا أصبعي الصغير، ومرة بجواري ومرة على ذراعي يضرب الأشجار ويداعبها حتى نصل للمسجد، وفي الطريق أسأله: أيهما أكبر: النجوم أم القمر؟، وكان يبادر سريعًا بالإجابة: القمر أكبر. وكنت أقول له: بل النجوم أكبر، لأنها أبعد. وهو يرد علي بأن ما يشاهده عكس ذلك. وظلت هذه قضية نائرة بيننا شهورًا.

وكنت حين أغدو به للمدرسة، أسأله: تأخرنا أم لم نتأخر؟ (وكنا نتأخر غالبًا). ونفكر سويًا في الشواهد (الأمارات) على التأخير من عدمه فأقول: أول الأمارات وأقربها: الساعة التي في يديك، وثانيها: أشرقت الشمس بنور ربها وكانت تشرق عليك في الطابور، والشارع قد خفت فيه حركة السير... إلخ. وكم جلسنا نحاول قياس حجم أحدنا في الكون.. نستخدم حصيرة بلاستيك مرسوم عليها خريطة للعالم نتقافز عليها لعبًا وتأملًا، ونستخدم الأطلس، والأفلام التسجيلية عن الكون، والخرائط، وكلها موجودة تباع ضمن الأدوات التعليمية في المولات الكبيرة المنتشرة في

كل مكان. وذلك ليعلم حجمه في ملك سيده، وليعلم شيئاً من قدرة ربه وخالقه
(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ).

وحين كبر أكثر كنت أكلفه بكتابة جمل عن الشوارع، وعن بعض الحيوانات التي
يراهها.. وأرصد له

مكفئات كبيرة على كل جملة يكتبها؛ وأسأله بعد أن نخرج من المسجد: ماذا قرأ
الإمام؟، كم كان عدد

الناس (صفوفاً وأفراداً)؟ هل شاهدت في المسجد شيئاً جديداً؟. ولا زلنا للآن
مستمرين في طرح الأسئلة
ونحن في طريقنا لصلاة الفجر وغيره.

وفعلت هذا مع سارة ومريم بعده، وأعتقد أن التفاصيل لاتهم، ولكن، من باب
الترفيه: أعلمهم قراءة

العيون، ويحدث سجلات بيننا، أقول: هذه عين محب، وهذه عين حاقد، وغالبًا ما
أصيب فالعين لا

تكذب.. تفضح صاحبها. وحدث أن أحد الحقدة ممن يظهرون مودة كاذبة يعمل
أستاذًا في مدرسة

ابنتي، وحصلت هي على المركز الأول في القرآن الكريم على المستوى المدرسية (وكانت
تحصل عليه في كل مرة)، والتقاها وتمتم ببعض الكلمات يهنئها، فسألتها: كيف
ترينه؟ فقالت: غير محب، وكنت أذكره لها بخير لتأنس به ولكونه محسوبٌ علينا
ظاهرًا، قالت: ليس على ما تقول يا أبي.. لا يبدو سعيدًا بنجاحي. وتلت بعض
الشواهد.. كلها خلف ما يظهر هو.. كلها لا يفهم إلا بتأمل!!

وما يشغلني الآن - كطامح في مشروع تربوي يغير الله به بناء الشخصية لتناسب
التحديات التي نواجهها كمسلمين مستضعفين - هو تحويل تعليم التفكير والتدبر

إلى مهمة تربوية في البيوت، فأكاد أمتلى يقيناً أن البيت ضرورة للنهوض، وخاصة في هذه الأيام. وأعني أن يتحول البيت لفصل دراسي، ونقطة البدء من تعلم أحد الآباء ويصبح معلماً لأبنائه شيئاً محددًا، وتحدث عملية تبادل

خبرات/ مهارات بين البيوت، فبيت متخصص في تعليم القرآن، وبيت متخصص في التفسير (التدبر)، وبيت متخصص في السيرة والحديث، وبيت به حكيم يجالس الأطفال مرة كل أسبوع أو أسبوعين في سمر هادف، يسألونه ويجيب عليهم.. كصالون ثقافي مرح يناسب أعمارهم. ويتنقل الأطفال بين هؤلاء وهؤلاء. وهذا المطلب ضروري الآن بعد أن أصبح تشييد المؤسسات مكلف مادياً وسلطوياً.

والسؤال:

كيف نبدأ عملياً؟

نقطة البدء العملية في التوجه- كمرحلة أولى ضرورية- إلى الآباء بالتعليم، من أجل تخصيصهم.. من أجل إنتاج نخبة متخصصة، وقد جف حلقي من الحديث عن ضرورة النخبة المتخصصة (انظر مقال: :: الحل يبدأ من صناعة نخبة متخصصة". ويدعي الكل الانشغال، مع أن الغالبية تنفق وقتاً وجهداً فيما لا ينفع، أمام الشاشات الصغيرة والكبيرة، وعملياً لا أحد يصبر على تخصصية لن تكلفه نصف ما أنفق من وقت وجهد في المرحلة الثانوية، أو المرحلة الجامعية. الكل متعجل والكل مصاب بمرض العصر: العجلة والشيء الخفيف السهل.

النخبة المتخصصة سيحل الله بها مشكلة المناهج، فإلى الآن لا نملك مناهج للعملية التربوية التعليمية، وعمامة الموجود نقل أو تعريب أو أسلمة لمناهج المخالف، وبدهي أن مناهج غيرنا لا تنتج الفرد المطلوب لنهضتنا. والنخبة المتخصصة تحل مشكلة الأبنية، إذ أن وجود أب أو أم معلمة يغني بالضرورة عن الحاجة لمبنى رسمي

(حضانة/ مدرسة) ويحول البيت إلى فصل دراسي طول اليوم، يحتسبه أهله مجلس علم منعقد على مدار الساعة كالمحاضر الشنقيطية.

وأهم مما مضى كله أن لا تتحول العملية التعليمية إلى مصدر للتربح، فالتربح من مفسدات العملية التعليمية، الأصح أن ينفق قوم على قوم، رجل على زوجته.. يفرغها.. يقوم هو بعبء السعي على الرزق ويتركها لما تصلح له (تربية الأبناء).. ويكرمها بلسانه ويده؛ أو ميسورون ينفقون على المحافل التربوية وأدوات التربية محتسبين الأجر من الله، أو نسعى لإعادة الوقف.

محمد جلال القصاص

ذوالقعدة 1440. الراجز:

14 يوليو 2019

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حيث يحسن وحيث يجب

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

من مظاهر الحرية في النموذج الحضاري الإسلامي إطلاقُ سراح الناس إلى ما يحبون.. إلى ما يحسنون. حين يشب المرء يشتد إلى ما يحب أو إلى ما يحسن، إن كان محبًا للقتال التحق بالثغور: يتدرب ويتسلح ويجاهد مع المجاهدين دفاعًا عن الدين واعتناقًا لرقاب المستضعفين من المتكبرين في الأرض بغير الحق؛ وإن كان من أهل التجارة ذهب إلى السوق يتاجر؛ وإن كان حرفيًا فإلى ما يحسن من حرفة؛ وإن كان ممن يحبون العلم، تربع بين يدي العلماء في بيوت الله، في مجلسٍ تخشاه السكينة والوقار. ولم تكن الحرية في التوجه العام فقط. بل كان التوجه العام الواحد (جهاد، تجارة، زراعة، تعلم، حرفية...) به عديد من التخصصات؛ فهذا الذي قد يم وجهه شطر حلقِ العلم -مثلًا- يجد نفسه أمام ثمار شهية، بعضها قرآن كريم (تلاوة .. قراءات)، وبعضها تفسير، وبعضها حديث، وبعضها فقه، وبعضها شعر، وبعضها مما ابتدع في الدين (كعلم الكلام)...

وليس فقط تعدد أفقي للتخصصات. بل وتعمق في كل تخصص، ففي كل تخصص عديد من الطبقات، فأهل الفقه ليسوا سواء، وأهل التفسير ليسوا سواء، والقراء ليسوا سواء... طبقات بعضها فوق بعض. كل حسب ما يوفقه الله إليه، حتى ينتهي الأمر بأن يكون الفرد علامة على نفسه، يقف حيث هو وحده مميزًا بما من الله به عليه من صفاتٍ (حميدة أو ذميمة).

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

والدولة لا دخل لها بحركة الأفراد، لا تأمر أحدهم بأن يتخصص في هذا أو ذاك. بل تكفل للفرد الحد الأدنى من المعيشة من بيت المال. وفي كل تجمع سكاني حاكم، وبيت مال، يأخذ الحاكم من الغني ما فرضه الله عليه من زكاة ويوضع في بيت المال ويوزع بعد ذلك على الفقراء والمساكين ويوزع في التمكين للدين، فلا فقر ولا مهانة. لا يمنُّ الغني على الفقير، ولا يمد الفقير يده للغني. حرية وأمان مادي، وتفصيل تام للإنسان حيث يجب، أو حيث يحسن.

وهكذا كان الصحابة، رضوان الله عليهم، كل حيث يحسن، بعضهم لا تكاد تسمع به إلا في التجارة، وبعضهم في القتال، وبعضهم في الرأي والمشورة... كلُّ نجمٍ ساطعٍ في مكانه.. والجميع يحضر المواقف العامة، ويبرز في المواقف العامة من يناسبها، فقبل القتال يبرز من له رأي في تحديد موضع القتال، وحال القتال يبرز أهل الاختصاص: مبارزة، رمي،.. ومواقف الرأي - كما حدث في الموقف من أسرى بدر- يتحدث أهل الرأي فقط، وهكذا..

ولا يظن أحدٌ أن الناس إن تركوا فإنهم يسرون في اتجاه واحد، أو يتجمعون في تخصص بعينه؛ أبداً، لا يحدث هذا، الخمسة:

أولها: أن التفاضل في المجتمع الإسلامي بالتقوى لا بالوظيفة كما هو حاصل اليوم، ففي نموذجنا الحضاري أكرم الناس أتقاهم، وأحسنهم خلقاً. { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحجرات : 13].

وثانيها: أن الناس بطبعهم مختصون، كلُّ له ما يحسنه أو ما يحبه؛ وحين يترك لهم العنان لا يتجمعون في نقطة واحدة. يحدث هذا في النموذج الغربي الذي نعيشه، فالدخل المادي والنفوذ الاجتماعي مرتبط بالوظائف في الغالب.

وثالثها: أن في الشريعة ما يعرف بـ "فروض الكفايات"، وهي فروض إن تركت يأثم الجميع. فأحوال الناس كلها بين فروضٍ واجبة وفروضٍ كفاياتٍ، وبالتالي تسد كل حاجاتهم، ويستقيم المجتمع مترئناً بلا خلل، كما قد كان لقرون طوال.

ورابعها: أن الفرد كان يتحرك في مساحة كبيرة من الأرض دون أدنى عائق سلطوي أو اجتماعي. حيث شاء يحط رحاله كأنه قد ولد في ذات البلد، فمن الصين (تركستان المحتلة الآن) إلى جنوب فرنسا يتحرك من شاء متى شاء حيث شاء آمنًا مطمئنًا.

وخامسها: في نموذجنا الحضاري تكون الرتب بالأفعال لا بالدعاوى، والمهام تسند ولا تطلب، فالناس لا يستفتون جاهلاً لأنهم أتقياء، أو متدينون في الجملة، والعالم يعيش بينهم ويعرفونه، ولا يدعي أحد الجندية ثم هو يجلس بينهم بعيداً عن الثغور.. يعربد تجارةً وإرهاباً للآمنين؛ ولا يؤمن المجتمع الخائن على ما أوقفوه لفروض الكفريات، فهي أمواهم، دفعوها من قوتهم أو ينتظرون الإفادة منها،،،،

واليوم:

نساق كلنا في مسارٍ واحدٍ، لا ينظرون للفروق الفردية، لا ينظرون للمواهب الشخصية، كأننا قطع وسائقنا من قد رشد..

نساق إلى مسارٍ واحد: الذكور والإناث، الأذكياء والأغبياء، محبي الحرفة ومحبي التعلم والمطالعة؛ ولذا يتسرب الناس من التعليم، ولذا يكون الفرد مزدوج الشخصية، يتأرجح بين تخصصين أو أكثر، ما يحسنه وما هو مضطر إليه كسبًا لقوت يومه، فتجده صيدلي وسياسي، مهندس وشاعر، محامي وتاجر، فلا يحسن الهندسة ولا يحسن الشعر. ويفقد المجتمع التخصصية العالية التي تنفع الناس. إننا نمتلك أرقى وأبهى نموذج في التاريخ، وإننا -اليوم بما استوردناه من حضارة غيرنا- نضيع الأوقات والأعمار، فمتى نعود؟!.

محمد جلال القصاص

2015 /12 /30

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

كي تستمر المشاريع التربوية العامة

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

لساعات طوال ظلّ أستاذ "التنمية البشرية" يحاول ثني عددٍ من العاملين في "مراكز تحفيظ القرآن الكريم" عن استخدام الضرب كوسيلة عقاب ويرشدهم إلى عشراتٍ من وسائل العقاب والتحفيز الفعالة غير الضرب. انفصلتُ ذهنيًا عن المحاضر والحاضرين ورحت أتساءل: لماذا الإصرار على الضرب كوسيلة لتعليم وتأديب الصغار؟، لماذا تستمر الظاهرة رغم الحملة الشديدة عليها؟

ربما لأن الضرب يؤدي إلى نتيجة سريعة، فإن الطفل - وغير الطفل - حين يضرب ويهان (يقمع) يستجيب سريعًا دفعًا للضرب والإهانة، وحين يضرب ويهان (والضرب في حد ذاته إهانة) أكثر من مرة يتم القضاء على قدرته على الاختيار بين البدائل ويصبح محكومًا بإرادة من يقمعه (يضربه ويهينه) وبالتالي يصير تابعًا ذليلاً، وهذا يُرضي بشكل جيد الآباء وأهل النفوذ، ويُفسر على أنه برّ و"حسن خلق". وتحتاج هذه النقطة لنقاش مستقل، ولم أكتب من أجلها. ولذا دعني أمر للتي بعدها!! وربما يكمن السبب الرئيسي في استمرار الضرب في المحافل التربوية في ثلاثية تجتمع في كل محفل تربوي، وخاصة الكتابات في نموذجها القديم والحديث.. ما يقال له دور تحفيظ، ويلحق بهما الدروس الخصوصية في الريف والمدن الصغيرة)، وهذه الثلاثية هي: التكدس، ومحدودية ساعات العمل، وثباتها. فالمعلم لا يستطيع

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

تطبيق توصيات أهل "التنمية البشرية" وهو يُعَلِّم عشرات من الطلاب في مكانٍ ضيق وفي وقتٍ ثابت قد لا يناسب النشاط الذهني للصغير (إقباله على التعلم)، وفي ساعات قليلة (إذا قسمنا عدد ساعات التعليم على عدد الأطفال يكون حظ كل طفل من الرعاية الخاصة دقائق معدودة).

وربما يكون الحل في أن تتحول العملية التعليمية إلى البيوت، وبجوار تفعيل البيت تتخصص مراكز التعليم. فالبيت يعلم شيئاً محدداً، غالباً ما يكون غرس القيم العقدية والسلوكية، ويراقب العملية التعليمية ويدعمها بلسانه ويده. وهذا يتطلب بدهةً تبني برامج لإعادة تأهيل الآباء والأمهات. ونسعى لإنشاء مراكز تعليم متخصصة، فالمركز يعلم شيئاً محدداً (حفظ/ تلاوة- تجويد/ سيرة، تاريخ/ حساب..)، والخطوة التي تسبق هذه، وهي خطوة بديهية: تكثيف برامج إعداد الآباء والأمهات، وخاصة الأمهات، ولك أن تستحضر أن كثيراً من مراكز التعليم تقوم بغير متخصصين، أو شبه متخصص.

ومن الأسباب الخفية لثبات العملية التعليمية الموازية، أعني تلك التي تتعلق بالأطفال تحديداً، هو تحولها لمصدر دخل. فالمنتسبين للتنمية البشرية قبل غيرهم يدركون جيداً أنهم يوزعون العطور الفاخرة على الجوعى والمرضى، يدركون أنهم ينسجون أحلاماً عن رياضٍ عطرة للغارقين في المستنقعات الآسنة، يدركون جيداً أن محاضراتهم لا تعدوا تقديم أشخاصهم هم للحضور، وربما بعض المكاسب المادية، أما النتيجة العملية فتححتاج جهدٍ آخر يتجه لصحوة تنقل العملية التربوية للبيوت أو لمراكز تعليمية متخصصة أو تكافح حتى تطور مناهج المدارس.

وربما يكمن الحل في تكثيف عدد المعلمين، فهذا الإقبال على التعلم في الأماكن العامة لا بد أن يوازيه عدد أكبر من المعلمين، بمعنى أن يعطى إعداد معلم/ معلمة متخصص مساحة أكبر من الاهتمام حتى يكون لكل خمسة من المتعلمين معلماً

خاصًا. كأن فصول الدراسة بيوت. وهذا يدفعنا لأم الأسباب التي حطت من شأن العملية التعليمية وهي: أن العملية التعليمية أصبحت مصدر ترويح، أو مصدر لأكل العيش. ولا يكون. أو لا ينبغي أن يكون فإن التعليم يُنفق عليه، ولا ينبغي أن يكون سببًا لتحصيل المال، بمعنى أن العملية التعليمية لا بد أن تكون مناصفة بين أصحاب المال والمختصين في التعليم.

تفاعلات الناس مثل تفاعلات الأشياء، تظل على حالتها، من السكون أو الحركة، ما لم يأتيها مؤثر قوي من خارجها يغير من حالتها. وأعتقد أن المؤثر الأقوى لإحداث نقلة نوعية في الاهتمام بالنشأ هو تقسيم العملية التعليمية بين أهل المال وأهل التخصص. بعضنا بماله وبعضنا بجهد. وليتنا نعيد الأوقاف.

أبو جلال محمد جلال القصاص

صفر 1442

أكتوبر 2020

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من أجل نقلة نوعية في تحفيظ القرآن الكريم

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

من الظواهر التي تستحق التأمل ظاهرة تعثر حلقات التحفيظ في العقدين الأخيرين؟
لماذا قلَّ الحفظة مع انتشار دور التحفيظ/ الكتاتيب؟!

حين تفتش عن إجابة من واقع حلقات التحفيظ.. حين تستنطق القائمين على دور التحفيظ/ الكتاتيب تجدهم يتحدثون عن عددٍ من الأسباب، من أهمها: تسرب الطلاب من دور التحفيظ، بمعنى عدم التزامهم بالحضور، أو خروجهم المبكر من التحفيظ؛ ويتحدثون عن اهتمام أولياء الأمور بالدروس الخصوصية التي تبدأ من الصفوف الأولى للتعليم وقبلها "الحضانات"، بمعنى أن الطفل يُشغل ببرامج تعليمية مبكراً، وبالتالي لا يكاد يجد وقتاً للتحفيظ وخاصة في المدن.

ويتحدثون عن ضعف الإنفاق على التعليم، فالناس لا يدفعون مقابلاً مجزئاً لتحفيظ الأبناء كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وبالتالي لا يحصل المعلم على راتب يكفي لتفرغه للتحفيظ؛ ويلحق بضعف الإمكانيات المادية عدم وجود أبنية وأدوات كافية لممارسة العملية التعليمية بكفاءة.

حين تتأمل في هذه الأسباب وغيرها تجد أن هذه الأسباب تحيط بالظاهرة، فسبب من ناحية الطفل، وسبب من ناحية المعلم (قلة المختصين منهم وقلة المتفرغين) وسبب من ناحية الأبنية والأدوات (النفقة)، مما يهدد الظاهرة ككل، فما الحل؟

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

أعتقد أن الحل يكمن في أمور أهمها على الإطلاق هو تحويل الجهد الأكبر إلى تعليم الكبار وليس الصغار، وخاصة النساء، فإن تعلم الكبير علم أبناءه وإخوانه، أو زملاءه في العمل، وغالبًا لا يقدم على التعلم من الكبار إلا الراغب، أما الصغار فكثير ممن يتعلم ينصرف بعد أن يبلغ. بمعنى وجود هدر كبير فيمن نعلمه من الصغار. طبعًا لست أدعو إلى إهمال تحفيظ الصغار، وإنما معالجة المشكلة القائمة بالاتجاه للكبار، وإن فعلنا فسيأتي تعليم الصغار عن طريق البيوت سريعًا، وبذا نكون قد تغلبنا على كثير من مشاكل حلقات التحفيظ/ الكتاتيب، ونكون قد قدمنا نقلة نوعية للعملية الحفظ بنقلها للبيوت كما قد كانت، وعندنا وفرة من الوقت والجهد في كل بيت، فتسعة أعشار الوقت يقضى فيما قلّ نفعه، فلو علمنا الراغبين من الكبار لا نقلبوا لصبيانهم وعلموهم.

محمد مهدي القصاص

ربح 1442هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الذاتية سبب الطلاق وفشل تعدد الزوجات

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

لا يكاد يخلو مجلس من حديث عن انتشار الطلاق وخاصة بين المتزوجين حديثاً، وعادة ما يقرن بحديثٍ عن رغبة شديدة في التعدد؛ ويتحرك المتحدثون في نواحيها بحثاً عن سببٍ رشيدٍ لكثرة الطلاق في هذه الأيام؛ ومنهم من يقول: انتشار العري وسهولة التواصل عاطفياً وجسدياً دون تكاليف الزواج، ومنهم من يقول: ضعف التربية وعدم الوعي بالمسئولية.. ونحو ذلك. وهنا ملحوظتان:

الأولى: أن الأسباب وإن تعددت فغالباً ما يكون هناك سبب رئيسي، ما يقال له (متغير مستقل) يكون بمثابة المدخلات التي تؤدي إلى الظاهرة التي نرصدها؛ ولذا علينا أن نعيد النظر مرة بعد مرة لاكتشاف هذا السبب المتسبب بشكل كبير في الظاهرة محل البحث والتحليل، وأزعم أنني وضعت يدي عليه، وجئت أدل عليه، والله أسأل رشداً وعزيمة على الرشد.

الثانية: أن الأهم في ظاهرة انتشار الطلاق وصعوبة تعدد الزوجات، الأهم هو البحث عن السياق العام الذي ولّد هذه الظاهرة، وكذلك البحث عن مآلات الظاهرة. فالسياق والمآلات مهمان تماماً كما الأسباب.

هل ما يحدث طلاق؟!

يبدو طلاقاً. ويتحدث الناس عنه كطلاقٍ، وحين تدور حوله وتعيد النظر فيه مرة بعد مرة.. حين تنظر إليه من أعلى وتحاول أن تفهم السياق الذي أخرج هذه الظاهرة

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

ومآلات الظاهرة، تجد أن كثرة الطلاق عرض لمرضٍ آخر، هو التحول في مفهوم الأسرة المسلمة، تجده أحد مفردات سياقٍ أكبر هو: زحف العلمانية الملحدة على الثقافة الإسلامية. تجده تصديقاً لنموذج الأسرة الغربي. تجده ترجمة للقاعدة الرئيسية التي بني عليها الإلحاد: (الذاتية) أو (عبادة الفرد نفسه) (اتباع الهوى).

تكمن المشكلة في حالة التحول التي حدثت للفرد المسلم (ذكر أو أنثى). فبعد أن كان المجتمع أسر (جمع أسرة)، تحول إلى أفراد.. كل يبحث عن ذاته. تمكنت منه الذاتية. جاءته من كل مكان حتى أعادت صياغته.

تعرض هذا الجيل للتغذية بالتنمية البشرية فكانت النتيجة هي تمكن الفردانية (عبادة الذات)، وتعرض لأحاديث العشق والهوى التي تتمحور حول الذات.. الجسد، فغدا كل واحدٍ لصاحبه يبحث عن ذاته. هي تبحث عن ذاتها في الزواج، وهو أضعاف في عرض الصحراء قافلته.. تسرب من أسرته وجاء لعينها يبحث عن ذاته!!

كل يفكر بشكلٍ مستقلٍ عن الآخر. وكل واحدٍ يريد أن يأخذ من صاحبه أكثر مما يعطيه، وعلى فرض أن أحد الطرفين يريد العطاء للآخر فمحال. لأن الطلبات عاطفية والعاطفة تتقلب وتخمد بعد قليل، وأهداف هذا النوع من اللقاء (الزواج) قصيرة تنتهي بعد أيام. على عكس نموذجنا الحضاري. كان الرجل والمرأة يلتقيان على أهداف مشتركة طويلة المدى (مشروع حياة)، هذا المشروع هو الأسرة: أبناء، وأحفاد، وبر للآباء؛ ويجمعان متكاملان لا متساويان: المرأة في بيتها ترعى وتربي، والرجل يدافع الناس بحثاً عن قوت أسرته.. ورفعة أسرته. وكل في مجاله، وكل يكمل عمل الآخر، وكل مشغول عن صاحبه، والذات حاضرة ضمن إطار كلي يضبطها ويحفظها للعمل.

وذات السبب (الذاتية) يقف خلف كثيرٍ من الحالات التي تسعى للتعدد، قدرت عليه أم لم تقدر. ما يحدث هو أنه امتلئ بحب ذاته، وكبرت زوجته وشغلت بأولادها

وترهّل جسدها، وهو يريد ذاته فقط، ولذا يحوم حول (مراهقة عزباء)؛ وهي -مثله- امتلأت بحب ذاتها ولذا لا ترضى بأن يعدد زوجها؛ أو لا ترضى بالزواج من متزوج.. تبحث عن خلي بلا زوجة ولا أبناء.

ومن صور تمكن الذاتية: ان أحدهم يبحث عن ثانية وثالثة وأبناءؤه في سن الزواج، أليس الأولى به أن يزوج أبناءه مبكراً ليحقق لهم حلمًا كان يشتهيّه هو حين كان شاباً؟!؛

إنه ممتلئ بحب الذات ولذا لا يفكر إلا في نفسه.

فالسبب الرئيسي وراء الطلاق وفشل تعدد الزوجات هو تمكن الذاتية.

أين تسير الظاهرة؟، وأين ستستقر؟!؛

الظاهرة تقرأ في سياق موجة الإلحاد (العلمانية) التي تجتاح الأمة الإسلامية. فكثرة الطلاق (الانهيار السريع للأسرة)، وفشل تعدد الزوجات حتى عند السلفيين أنفسهم، وانتشار العلاقات المحرمة شرعاً، وانتشار ثقافة الانحلال والعري، كلها ظواهر لتمكن القيمة العليا في الإلحاد وهي (الأنا/ الذاتية). كلها تشير بوضوح إلى أننا نتحول سريعاً للنموذج الغربي الملحد فحالنا اليوم كحال المجتمعات الغربية قبل أقل من مئة عام، مع الأخذ في الاعتبار سرعة التحول هذه الايام بفعل التطور التكنولوجي وما أثمره من سهولة تدفق المعلومات وسهولة التواصل الاجتماعي.

ومن الظلم، ومن الخطأ البين، أن نستدعي النص الشرعي الذي يبيح التعدد لتوطين تجارب فاشلة ترسخ على المدى المتوسط والبعيد الذاتية، أو الإلحاد، وتنفر الناس من الشريعة، فالتعدد في المنظومة الإسلامية له سياق مجتمعي وفردى مختلف، أقل ما فيه هو توفير الأمان المادي والمعنوي والمجتمعي للمرأة، علينا أن نوفره ابتداءً قبل أن ننادي بتعميمه وإلا فنحن نعبث وندعم عدونا من حيث لا نشعر.

ومن الظلم أن نتحدث عن أن سبب انفجار الأسرة مبكراً هو خلل في التربية. ونصمت. علينا أن نبحث عن القيم التي عُرسَتْ في شبابنا من أين جاءت، ماذا يُفعل بأبنائنا؟، وكيف تم إعادة صياغتهم بأموالنا وجهدنا؟، وكيف يتحولون، رغماً عنا، لخلق آخر؟، كيف تسرق منا مجتمعاتنا؟، كيف تمزق محالب العلمانية (مؤسساتها) أجسادنا الثقافية وتعضنا.

نعم تصلح الذاتية (الأنا/الفردانية) كمقولة تحليلية لبيان سبب فشل الزواج وفشل تعدد الزوجات في واقعنا المعاصر. وفي صلاح هذه المقولة للتفسير. إشارة واضحة إلى أن مجتمعاتنا ترحل غرباً.. أو رحلت.

محمد هلال القصاص

غرة رمضان 1439

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أقتل أبي ويقتلني ولدي؟!!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

تدور قصة الرواية الأشهر في الفترة السابقة "في الجحيم" للكاتب الأمريكي "دان براون" حول فكرة رئيسية مفادها أن الموارد محدودة وأن البشر يزيدون بمتتالية حسابية (2، 4، 8، 16، 32...)، يقولون: وعما قريب ستنتهي الموارد بفعل ازدياد السكان. والحل عندهم في إبادة نصف البشر. مجتمعون على هذا، والخلاف بينهم في طريقة القتل. فأحداث الرواية تدور بين فريقين: فريق يحاول إبادة نصف سكان المعمورة بالأمراض البيولوجية الفتاكة، والنصف الآخر يريد إبادتهم بطريقة أخرى وهي استخدام وسائل منع الحمل. فهم متفقون على أصل الفكرة ومختلفون فقط في الوسيلة.

وفي إطار التنظير للفكرة داخل الرواية يتحدث بعض أشخاص الرواية مدافعاً عن إبادة الضعفاء من الفقراء والمرضى وكبار السن بأن هؤلاء مستهلكون، لا ينتجون، ويتلو على من يقرأ عدد ما ينفق على كبار السن الذين لا يستطيعون العمل من أموال في علاجهم وما يتقاضونه من رواتب دون عمل، بل ويعترض على أن يُعمر الإنسان طويلاً، يقول: كم يعمل وكم لا يعمل طول حياته؟! يحاول الكاتب في الرواية توطين فكرة بث الأمراض ليموت الناس مبكراً.. لتنتهي حياتهم مبكراً حين يتوقفون عن العمل!!

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

ويدعمون فكرتهم شديدة القسوة هذه بحديثٍ عن محدودية الموارد. وهو قولٌ منتشر في أدبيات الساسة، يكاد هذا القول (محدودية الموارد وأنانية الإنسان التي تؤدي إلى ظلم في تخصيص الموارد وتوزيعها) أن يكون هو القاعدة التي ينطلق منها كل من يتحدث في السياسة وخاصة الأكاديميون، فلا تكاد تصغي لهم ولمن تبعهم من قومنا ساعة إلا وتسمع هذه المقولة: محدودية الموارد وسوء التوزيع .

ودعنا نلقي على هذه الفكرة، التي شكلت صلب الرواية، نظراتٍ.. نستكشف مصدرها، وهدفها، وسلوكها حال الوصول لهدفها، ونضعها بجوار ما عندنا في شرع ربنا. ليظهر قبحها، وسوء فعالها، مقارنة بوقار وجمال وبهاء ما عندنا.

تخويف الناس من الفقر فكرةً شيطانية بالأساس، يقول الله تعالى: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا)، وفي المقابل نجد طمأننة تامة من الله الرزاق ذو القوة المتين لخلقه أجمعين، يقول الله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)، ويقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)، ويقول الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)، وفيما رواه البخاري ومسلم: "والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم".

وما نراه بأعيننا هو أنه كلما زاد السكان أخرج الله للناس الخير من حيث يعلمون ومن حيث لا يحتسبون: من عقولهم ومن الأرض، ومن البحار. ودعنا نضرب مثلاً واحداً بأكثر شيء يهم هؤلاء وهو الوقود (الطاقة): حين كان هؤلاء يُخَوِّفُونَ الناس من انتهاء مخزون الفحم (مصدر الطاقة الرئيسي يومها) أخرج الله البترول من كل مكان، وما كاد ينتهي أو يقل حتى ظهر البترول الصخري والغاز الطبيعي فضلاً عن هداية الناس لأشكال أخرى من الطاقة كالطاقة الشمسية، والنووية، واستخرجت

الطاقة من كل شيء تقريبًا.. من قاع البحار، ومصببات الأنهار، ومن الهواء (الرياح)، ومن الشمس، ومن الرمال، ومن الصخور. أمدهم الله بما يحتاجونه وزيادة.

إن المشكلة الحقيقية ليست في قلة الموارد مقارنة بالسكان كما يدعي هؤلاء، وإنما في سوء التوزيع، أو بالأحرى في تسلط الظالمين على أرزاق الناس وأقواتهم.

تكمن المشكلة الحقيقية في أشخاص هؤلاء الذين يريدون الاستحواذ على أسباب القوة والنفوذ استكبارًا في الأرض ومكر السيء. القلة تريد أن تتحكم في الكثرة.

تكمن المشكلة في سيطرة مناهج الكفر، يقول الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لَّا يُّؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)، فجعل من لا يؤمن مفسدًا. بل المفسد بالألف واللام التي تفيد الحصر. وتدبر في حالهم تجد أنهم يستخدمون التقدم لجمع المال والنفوذ. ويستخدمون الدواء سلعة للقتل وسلعة لجمع المال، ويستخدمون السلاح للقتل وجمع المال، وهكذا.. لا يعرفون إلا هذا. ولا تأخذهم رحمة بالضعفاء من كبار السن والفقراء، لا يرون إلا أنفسهم ومن ينتفعون منه.

ومن باب الضد يظهر حسنه الضد دعنا نحط رحالنا في رياضنا الخضرة العطرة.. في بعض رياضنا وليس كل رياضنا.

الأسرة عندنا هي وحدة بناء المجتمع، فلا تكاد تجد فردًا إلا في أسرة، إن أبًا أو ابنًا أو جدًا، فالمجتمع المسلم أسر، ثم قبائل وشعوب، متماسكة متراحمة، لكل فرد فيها على كل فرد حق، حل أو ارتحل، فالجارُّ المقيم (في السكن) له حقُّ على جيرانه أقل ما فيه الأمان والطمأنينة والجارُّ المرتحل له حق على من يجاوره، وابنُ السبيل له حق على من يمر بهم، والفقير له حق في مال الغني، والجالس في الطريق له حق على من يمر عليه. مجتمع متماسك متراحم.

في الأسر المسلمة ثلاث حلقات متصلة: ابن وأب وجد. الأب يسعى بحثًا عن أسباب الرزق لأبنائه ولأبيه الشيخ الكبير الذي أنفق عليه من قبل. فردُّ (هو الأب)

يسعى على فردين (الابن والجد)، والزوجة مع أبنائها تشبعهم من عاطفتها وترعاهم وتقوم بما لا يستطيع غيرها أن يقوم به تجاه الزوج والأبناء، والأب يتابع زوجته حال رعايتها لأبنائها ويوجه ويدعم، وإن كان البيت كبيراً كما قد كان في نموذجنا الأول.. وكما قد كان لوقتٍ قريب فإن اجتماع الجد مع الأحفاد فيه من الخير الكثير إذ يتلقى هذا النشء الصغير الخبرة من جدٍ عرك الحياة وسقته براحتها حلواً ومرّاً.

ففي النموذج الإسلامي رحمةٌ ومودةٌ، وتفعلٌ للجميع. فهذا الذي كبر سنة وضعف عظمه قد جد واجتهد وقدم من قبل، وهذا الذي يكد ويتعب يوماً سيضعف. فإن قتل الشاب المقتدر اليوم أباه فغداً سيقتله ولده الذي رباه. أيعقل هذا؟!

إن المشكلة في دين هؤلاء.. في منهجهم. في أنهم أقاموا الحياة على الفردية.. على المادية. في أنهم ممثلون بوساوس الشيطان لا بقول الرحمن.. قلقون خائفون أو انتهازيون مجرمون، أو عمي لا يرون آيات الله وكرمه وكفايته لعباده، ولو آمنوا لطمأنوا في الدنيا والآخرة: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، وقال بركات ولم يقل رزق. فالرزق لليوم كثير ولكنه منزوع البركة بسبب تسلط المفسدين، فالبركة مع التقوى كما جاء في الحديث.

محمد مهدي القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

عبادة الأنثى

محمد جلال القصاص (1)

من أعوامٍ ثار الناسُ حول رواية "شفرة دافنشي" للكاتب الأمريكي الأشهر "دان براون"، يقولون: كشفت من زيف النصرانية؛ ذلك أن الرواية تحدثت عن "وثائقٍ سرية" فيها أنَّ المسيح عيسى بن مريم، عليه السلام، كان إنساناً عادياً. تزوج امرأةً من آمنوا به واتبعوه (مريم المجدلية)، وأنجب منها نسلاً يتكاثر إلى اليوم. ولكنَّ هدفاً آخرَ غيرَ "شفرة دافنشي" هذه ظهر بوضوح في جُل مشاهد الرواية، وهو "عبادة الأنثى"، أو "عبادة الطبيعة" بتجلياتها الكثيرة، حتى كأنه موضوعُ الرواية الرئيسي!

أكثرُ الرواية من الحديث بالتفصيل عن "عبادة الطبيعة"، أو "عبادة الأنثى" وأنها ديانةٌ "معتبرة" لها روادها.

وتتعدى الرواية في كل مشاهدتها -تقريباً- على النصرانية وتحاول أن تنزع عنها ما تدعيه من الوقار والتعبد.. تقول للذين كفروا من أهل الكتاب: دينكم الأصلي هو ذا: "عبادة أنثى"... تقول لهم: أن "ربكم" كان "يستريح" بين يدي أنثى.. أن "ربكم" وضع سره عند أنثى (مريم المجدلية) وهي التي حملت الدين (وهذا واضحٌ حال تفسير علماء الشفرة في الرواية لمكان كل واحدٍ من الحواريين من المسيح، عليه السلام، في لوحة العشاء الأخير لدافنشي،..)؛ تقول لهم: أن للأنثى وما اتصل بها شأنٌ آخر، وضمنًا يستأنس كاتب الرواية (دان براون) بانحرافات المتبتلين للعبادة (الرهبان) نحو الأنوثة.

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

وقبل نشر هذه الرواية بعقدين كتب أحد الشواذ جنسياً .. ممن قتلهم "الإيدز" لاعتيادة جريمة الشذوذ مع الأطفال وغير الأطفال، كتب كتاباً يؤرخ للجنسانية، يقول: العالم يتحول من العفة والطهارة للجنس والدعارة، يقول: العالم يدير ظهره للأديان ويعبد الجسد والماديات؛ ويرصد الأسباب التي أحدثت هذه التحولات من الفضيلة للردية.

وقبل عقدين من الزمن اجتمع علماء السعودية وعامة مثقفهم عن بكرة أبيهم في مؤتمرٍ شهير يعلنون استعدادهم لوثبة عالمية على النصرانية. عزموا على منازلة النصرانية في ديارها.. اشتدوا لدعوة الذين كفروا من أهل الكتاب إلى الإيمان بالله وما أنزل على رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم. وكانت البدايةً من ترجمة كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية "الجواب الصحيح على من بدل دين المسيح". وبعد أقل من ثلاثة عقود فقط تجمع ثلثة من لهازمها في صالة أفراس يشتكون تفشي الإلحاد في ذات المجتمع!!..

ما الفرق بين المشهدين؟

تحرك المجتمع السعودي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .. من الاستعداد لوثبة عالمية على النصرانية، إلى الحديث عن أن الإلحاد والملحدين قد جاسوا خلال الديار. شاهدوا، بعد عقود، الحقيقة التي تحدث عنها المفكر الشاذ، وهو يحفر حول "الجنسانية" والتي تحدثت عنها رواية "شفرة دافنشي" في جل صفحاتها. وهي أن المجتمعات تتحول من الفضيلة للردية... من الإيمان لنوع جديد من الكفر، وهو "عبادة الذات"، أو "عبادة الأنثى". ومن الشواهد الجلية على أن هذا الفكر قد استوطن في حس كثير من أبناء المسلمين خيارات الشباب حال الزواج. هي تبحثُ عن يعاملها كأميرة.. تبحثُ عن ينقطع لإرضائها. وهو يبحثُ عن أنوثة طاغية وحسنة تسارعُ في هواه قبل أن يتكلم، وتراجعت القيم.. قلَّ من يتحدث عن بناء أسرة تكون لبنة في أمة، عن أثر صالح يرجوه بالزواج والإنجاب.

وبين المتزوجين شاهدٌ آخر يصرخ بأعلى صوته بأن "عبادة الأنتى" دبت واشتدت بين المتزوجين: هي تشتكي من أنه لا يتقطع شوقاً لرؤيتها ولا يغازلها حين يراها، وهو يشتكي من أنها لا تبالي بغيابه ولا تهيم به حين تراه؛ وكأن البيوت لا تبني إلا على الحب، وكأن الحب هو فقط حالة المراهقة التي تنتهي -عند البار والفاجر- بعد أن يلتقيا ويرتويا، وكأن البيوت لا تثقل بعد الزواج بموم المعيشة وتوزع العواطف بين الزوج والأبناء.

تفشت بيننا -بفعل رسل الديانة الجديدة وأدواتهم الإعلامية والسلطوية- "عبادة الأنتى" .. البحث عن أنتى .. عن اللذة المحرمة (من التحدث إلى أقصى ما يطلب) .. أصبح كثير من أوقاتنا وجهداً يفرغ حول أنتى. هي تبحث عن يعاملها كملكة، وهو يبحث عن جسد يفرغ حوله وفيه نزواته. ومقلٌ ومكثر، والله يسمع ويرى، ويتوب على من تاب.

والإطار الأوسع الذي يحتوي "عبادة الأنتى" كأحد المفردات هو أن الحضارة السائدة اليوم تفرض دينها (الإلحاد) علينا بأدواتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والإعلامية.. يُخربون بيوتنا بجنودهم وحلفائهم وأوليائهم من بني جلدتنا. المشهد الآن: حزب الشيطان يستبيح أهل الإيمان. والمادة الأولى في شريعة إبليس هي "التعري" .. "عبادة الجسد" .. "عبادة الأنتى" قال الله تعالى: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا} [الأعراف:20].

محمد جلال القصاص

27 أكتوبر 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

خواطر حول المرأة السلفية والأسرة السلفية!!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

من أغرب ما شاهدت في مصر بعد ثورة يناير 2011 حضور المرأة السلفية.. ذات النقاب الأسود في ميادين الثورة، وكذلك انتشارها في منتديات الحوار، وحاولت مرة بعد مرة أن أكتب ورقة عن حال المرأة السلفية، كوني مشغول بالأسرة والأبناء وعندني تجربة شخصية في بيتي، وكلما كتبت شطبت!

تتجمع الأفكار ثم تتبعثر. رياح من الأفكار تعصف برأسي.. لا تسكن ولا تخرج. والآن أحاول من خلال مقالٍ - أو أكثر- الإمساك بعددٍ من الأفكار، أحاول تشخيص الحالة السلفية من خلال أحد أهم زوايا الرؤية في المشهد.. المرأة.

أكتب عن هذه التي تجلس في بيتها ترعي زوجها وصبيانها.. هذه التي تغطي بالسواد في الميادين والطرقات.. هذه التي كلما رأيتها دعوت لها، فلا أحمل في نفسي من منقبةٍ مهما بدر منها فأقل أحوالها أنها تمنع شرًا عن غيرها. وإني من الذين يلقون اللوم على الرجل إن قصرت المرأة، فأني تقصير من امرأة سببه، أو أحد أسبابه، رجل.. زوج.. أب.. أخ،،، إلخ. أكتب كأب، وزوج، وأخ؛ وأضع ما عندي في هيئة فقرات على النحو التالي:

(1)

تمركز الخطاب السلفي حول عددٍ قليلٍ من القضايا، من أبرزها قضية الحجاب، فلا تكاد تجد سلفيًا إلا وهو ينادي على النساء بأن يتحجبن بالجدران¹ " وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

وَلَا تَبْرَجَنَّ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى " (الأحزاب: من الآية 33) أو بالثياب إن اضطررن للخروج. وبعد موجة "الربيع العربي" خرجت المرأة السلفية وشاركت. شوهدت في كل المواطن: في صفحات الميديا، وفي المنتديات الحوارية، وفي ميادين الثورة حيث الاحتجاج السلمي وشبه السلمي (الاشتباك مع الأمن بالحجارة)، ومع محرّم وبدون محرّم!!

وقل مثل هذا على مشاركة السلفيين في السياسة، فقد كانت الحالة السلفية ترفض الثورة الشعبية كوسيلة للتغيير ومع ذلك شارك بعضهم، وحضروا كلهم في المشهد السياسي، فأخرجوا مرشحًا للرئاسة (أبو إسماعيل)، وأيدوا مرشحين آخرين إسلاميين وشبه إسلاميين وعلمانيين؛ وأسسوا الأحزاب ودخلوا البرلمان!!

هذا التناقض بين النظرية والتطبيق يثير سؤالاً يبحث عن سبب مخالفة السلفيين لثوابتهم. عن مدى انضباط السلفيين على قواعدهم النظرية، أو: يثير هذا التناقض بين النظرية والتطبيق البحث عن القيم الحقيقية التي تصنع الفرد المتدين وتضبط سلوكه في واقعنا المعاصر، أو مدى فاعلية التحديات الخارجية، وكيف أنها تؤثر بقوة في سلوك السلفيين فتخرجهم عن ثوابتهم.

(2)

المفترض أن نموذج المرأة المثالي الذي ينشده السلفيون هو تلك التي في بيتها تساعد زوجها وتربي أبنائها.. تحفظهم القرآن الكريم والسنة وتعلمهم المغازي والسير ومتون الفقه، وهي الصورة المنقولة عن نساء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا زالت موجودة في بعض بوادي شنقيط (موريتانيا)، وحالات فردية هنا وهناك.

وفي واقعنا المعاصر لم تنهض المرأة السلفية بشيء من ذلك، لم تستقر في بيتها، ولم تعلم ما تعلمه لأبنائها، فقط التزمت بنوع معين من الثياب (النقاب)، وخرجت كغيرها- باستثناء الثياب- تطلب الرزق أو تبحث عن ذاتها، وانعكس ذلك على

طبيعة الأسرة السلفية، فقد تربي الأبناء في محاضن المجتمع العلماني، ولم يحفظوا كتابًا ولا سنة ولم يتعلموا السيرة والتاريخ الإسلامي ولم يتفقه أحد في الدين. وبالتالي أخرج السلفيون جيلاً علمانيًا بنكهة متدينة. ونسأل: من المسئول؟! أهى التحديات الخارجية التي شكلها المجتمع العلماني بمؤسساته التي تجبر الجميع على الدخول فيها فتأكل وقتهم وتغرس فيهم وفي أبنائهم قيمها رغمًا عنهم؟؟؟ أهى حالة الغفلة عن استراتيجيات التغيير وأدوات الفعل، والاستغراق في التفاصيل مما جعلهم في حسابات (أهداف/ استراتيجيات) غيرهم؟ أهى الانحراف الكبرى التي حدثت للحالة السلفية المعاصرة حين انشغلت بالتدين الفردي وغفلت عن التدين المجتمعي، وتدين السلطة (السياسة)؟ علينا أن نسأل عن الذي حال بيننا وبين الرجوع إلى نموذجنا الأول في الأسرة والمجتمع.. عن تلك اليد الخفية التي تدفعنا بعيدًا عن أهدافنا...

(3)

حدثني مرةً بأن فلانًا طيبًا خلوقًا.

فقلت: بل رديء .. سيء .. شديد السوء.

ثم عاد مرةً بعد مرةً ويحتج بحسن منطقة وحديثه عن المروءة وصلة الأرحام؛ وأعود عليه بذات الإجابة!

وبعد أعوام ظهر سوء خلقه، فجاء صاحبي يقول: كيف كنتَ تجزم بأنه سيء الخلق؟؟

فقلت: وضع النبي، صلى الله عليه وسلم، مقياسًا نعرف به حال الرجل، هذا المقياس هو: علاقته بأهله، قال، صلى الله عليه وسلم: "خيركم خيركم لأهله" وذكر أن الذين يضربون نساءهم ليسوا بخيار الناس.

وهو مؤشر شرعي من ناحية وعقلاني وواقعي من ناحية أخرى إذ أن أحدنا تظهر أخلاقه الحقيقية على مَنْ هم في دائرة سلطانه كالزوجة والأبناء ومَنْ يتقاضى منه راتبًا أو يخضع لتقييمه في العمل...؛ وكثير من الناس تتغير أخلاقهم حين يتعاملون مع من هم تحت سلطانهم. فأنت قِيمته على سلوكه الخارجي.. على حسن لفظه... على ما يتحدث به عن نفسه أمام الناس، وأنا وضعته على هذا المؤشر النبوي شديد الدقة.. شديد الوضوح!!

ثم قلت متابعًا، أحاول رصد واحدة من أهم الظواهر المنتشرة في واقعنا المعاصر، وخاصة بين مَنْ ينتسبون للتدين: في هذه الأيام ظهر نمط آخر شديد السوء بين المتدينين، يستخدم الدين في إحكام السيطرة على المستضعفين من النساء والولدان، يهدد بالطلاق.. يهدد بالنفقة.. يستحضر النصوص التي تأمر الزوجة بطاعة زوجها ويُعيّب تلك التي تأمر الرجال بحسن العشرة وإكرام الزوجة وتوفير الأمان النفسي والمادي والمجتمعي لها. قد كثر هؤلاء اليوم وأفسدوا..

يتزوج أحدهم بمن تتفوق عليه فهمًا وخلقًا، وهو ذكوري غارق في ذكوريته، فيغار منها. نعم يغار منها. وتشتعل نار الذكورية والغيرة في صدره.. فيصحو ويبيت ولا هم له إلا إحكام السيطرة عليها، ويستخدم النص الشرعي أداة لتنفيذ مآربه الذكورية... ينزع النص من سياقه ويستخدمه في تكبيل زوجته. فبدل أن يستثمر في إمكاناتها.. بدل أن يفعلها طلبًا للأجر من الله.. بدل أن يحول الأسرة لمشروعٍ يثمر الخير له وللناس في الدنيا والآخرة تتحول العلاقة إلى صراع بين الزوجين، ويشتعل البيت.

وإني أتهم العلمانية، تلك التي تسربت لكثيرين فجعلت خيارات الزواج على شيء آخر غير الخلق والدين. تلك التي جعلتهم لا يمثلون لأمر النبي، صلى الله عليه وسلم،: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض

وفساد كبير " . لو أن الدين متمكن من النفوس ما كان الخيار على المال (الوظيفة) ولا على الهيئة الخارجية، ولتأسست البيوت على مشاريع جادة تنشر الخير وتدفع الظلم.

وأثم هذه الغفلة عن انتخاب السلالات.. عن تزويج الأكفاء بحثًا عن مميزين يشكلون رأس مال اجتماعي...

(4)

في تسعينات القرن الماضي وما بعدها انتشر تعدد الزوجات بين السلفيين. ظهرت حالة من الحماسة بين النساء والرجال للتعدد، وتقدم المشهد شيوخ الفضائيات وطلبة العلم، وما كاد الزمان يمضي حتى انكفأت التجربة.. انحنت وغرست رأسها في الطين خجلًا مما ألمت به وألم بها!!

حاول السلفيون مصارعة العلمانية فكان أن صرعتهم العلمانية وصارت بهم إلى حيث لا يريدون!!
ما الذي حدث؟!

كيف لم تثمر التجربة مع حالة التوافق والحماسة التي صاحبتهما؟! دخلها المترفون والذكوريون يبحثون عن شهواتهم باسم الدين. كانت في جوهرها توظيف للدين في تحصيل الشهوات، وكانت حالة من الجهل بمقاصد الشريعة من التعدد، أو حالة من عدم الرغبة في تحقيق مقاصد الشريعة الحقيقية من التعدد، وإنما انتقوا بعض المقاصد التي توافق أهواءهم. فالتعدد توسعة للبيت. والبيت المسلم وسيع.. والبيت المسلم مؤسسة بها ثلاثة أجيال جيل يخدم ويعلم (الأبناء) وجيل يجتهد على تحصيل الرزق والقيام بحاجة الأبناء (الأباء) وجيل ثالث يرشد الجميع بخبرة سنوات طوال (الأجداد)، والتعدد لسد خلل في المجتمع فبه تكفل الأرامل

واليتامى والمطلقات وغيرهن، وبه تسد حاجة الهائج الذي تسكنه الأنوثة وتحركه، ومريض القلب الذي لا يجلس عن جسد النساء.. وحديث النساء،،،. ولكنهم- بقصدٍ أو بدون قصد- اتجهوا للمميزات من الأبقار، وأقبل عليهم المميزات من الأبقار طمعاً في المال وأجواء الشهرة والمال. ولذا فسدت التجربة.. لأنها لم تؤسس على تقوى من الله ورضوان. لم تنهض بواجب الوقت.

محمد جلال القصاص

13 شعبان 1440هـ

2019 / 4 / 18

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
نقاب العلمانيات

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

حاول السلفيون استنبات النموذج الإسلامي الأول في واقعنا المعاصر. وقاومتهم العلمانية. حدث تدافع كانت ثمرته شيئاً وسطاً لا هو علماني ولا هو إسلامي.. كانت النتيجة ما يمكن تسميته بـ "نقاب العلمانيات". كانت النتيجة تعثر مشروع إنتاج فرد إسلامي خالص ومن ثم مجتمع إسلامي. كانت النتيجة أن ظل المنتج النهائي يغلب على تكوينه المحتوى العلماني، فما هي أهم الأسباب؟

المتغير الرئيسي في الظاهرة هو جهل السلفيين بتفاصيل رفض ومقاومة العلمانية لهم. يمتلكون صورة كلية عن العلمانية (رفض الدين كلياً أو جزئياً) ويجهلون التفاصيل. وفي التفاصيل أن العلمانية ليست حالة رفض ساكن، وإنما تعمل بكلتا يديها على قضم غيرها وهضمه. فعملياً تغرس العلمانية قيمها قهراً في صدر الجميع عن طريق مؤسسات التعليم والإعلام وغيرها ومن ثم تعيد صياغة الفرد والمجتمع... وقد نشرت هنا مقالاً مستقلاً يتناول هذا الموضوع بعنوان "أنياب العلمانية".

جهل السلفيين بتفاصيل الصراع مع العلمانية جعلهم يخسرون المعركة، أو يخرجون بنتائج محدودة جداً، وعلينا الآن أن نعدل السؤال ونخصه في الحالة التي نتناولها (المرأة السلفية): لماذا خسر السلفيون معركتهم مع العلمانية في ميدان المرأة؟!

وأجمل ما عندي في نقاط محددة ومختصرة:

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

إهمال خصوصية المرأة:

يقول الله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) (آل عمران: 36)، كائنان منفصلان لكل منهما خصائصه النفسية والجسدية، وبالتالي يصلح كل واحدٍ منهما لغير ما يصلح له الآخر، وحين يجتمع الاثنان بالزواج يكونان شيئاً ثالثاً (الأسرة) غير الذكر منفرداً وغير الأنثى منفردة. وعند التدقيق نجد أنه لا يوجد إنسان منفرد في المجتمع الإسلامي فكل منا عضو في أسرة (ابن، أب، زوج..)، بمعنى أن وحدة تكوين المجتمع المسلم هي الأسرة؛ وبداخل الأسرة كل له وظيفة يكمل بها الآخر ويرسم بها جزءاً من معالم الأسرة.

العلمانية لم تفرق بين الذكر والأنثى. والسلفيون - وباقي الصحوة مثلهم - وقعوا في شيء من هذا، لم يتجهوا لانتاج مناهج تعليمية خاصة بالمرأة، بل راحوا يدرسون لها ما يدرسون للذكر، ولم يفرقوا إلا في الثياب الخارجي (النقاب). ويحتاج الأمر لإعادة التفكير في مستوى الإعداد المعرفي، ومستوى التوظيف (الفعل)، ولكن: انتاج المناهج يحتاج نوعية معينة من النخبة المتخصصة، ولا يصلح لها الوعاز. فهي هكذا: نخبة متخصصة في البرامج التعليمية، تنتج مناهجاً ومعلمين، يتجهون للذكر بما يناسبه وللأنثى بما يناسبها.

إهمال الأدوات:

مستوى من مستويات التفكير والفعل مهملاً بنسبة كبيرة؛ مع أهميته، حتى أنه يصح أن نقول بأن القوة قوة أدوات. ومجال الأدوات واسع، فالإعلام، والمدارس، ودور التحفيظ، والحضانات، والحلقات في البيوت (صالونات ثقافية أو تعليم فردي)، وكفالة الأكفاء من أجل إنتاج فرد متخصص متفرغ، والاتجاه نحو تكوين رأس مال اجتماعي....

ولك أن تراقب مستوى الأدوات في الحالة السلفية، فيما يتعلق بالمرأة وغيرها، تجد أن المسجد، وهو الأداة الرئيسية عندهم، أصبح ساحة صراع بين الأقران، فظهر ما

يمكن أن نسميه صراع المساجد بين السلفيين والإخوان، وبين السلفيين أنفسهم. وثمة ملاحظة دقيقة وهي أن اتكاء الجزء الأكبر من السلفيين على الخليج مادياً، وما حققه الشريط/ الكاسيت، والظهور في الفضائيات، واليوتيوب، من أرباح مادية، جعل كثيراً من نخبة الجيل الثاني من السلفيين يتخذ الدعوة مغنماً، فاحتشدوا حيث الشهرة والمال والتعدد. واختفي الانفاق على الإنتاج المعرفي وإنتاج الأفراد والأدوات عموماً. مع أن المتأمل في مصارف الزكاة يجد أن الإطار العام للانفاق في الإسلام يتجه لتمكين الدين في المجتمع (وليس تمكين الحركات)، ويفهم ذلك من أن عامة المستحقين للزكاة ليسوا فقراء، ف (الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) ليسوا فقراء محتاجين وإنما يؤدون دوراً آخر في المجتمع يتمحور حول التمكين للدين. وإلا لو احتشدنا حول إعانة الفقراء والمساكين وترك منظومة الفساد التي تنتج الفقر فلن يرحل الفقر والمسكنة، وكنا كمن يجفف ماءً طافحاً يقطع الطريق على المارة بثيابه؛ والصواب أن يصلح الخلل الذي أفسد على الناس حياتهم. وقد جعل الله الكافر مفسداً.. بل (المفسد) بالألف واللام، وكأنه لا مفسد غير من كفر، يقول الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۗ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) (يونس: 40).

التدين المجتمعي:

الحديث تحت هذا العنوان الجانبي ذو شقين:

الأول: أن الحالة السلفية اهتمت بالتدين الفردي: الثياب الصلاة، الصيام، الحج، وحتى في الزكاة، والتي هي شعيرة تعاون مجتمعي، جعلتها لدعم الدولة (ينظر مقال: لا تغشوا الفقراء والمساكين).

والذين اتخذوا من العمل المنظم أو شبه المنظم وسيلة دعوية كالإخوان وبعض السلفيين، وقعوا فيما هو أسوأ، وهو النسق المغلق، وقد ناقشت هذا مراراً. فقط أستحضره هنا حتى لا يظن أحد أن بديل التدين الفردي هو تدين النسق المغلق

(الجماعات والحركات). كلاهما لم ينجح. وكلاهما فيه قصور كبير، وقد عرضت رؤية للتصحيح تحت عنوان (من النسق المغلق للنخبة المتخصصة).

والشق الثاني: تمكن العلمانية من العمران. أعادت صياغة المدن والشوارع والبيوت، بما يتفق مع قيمها، واشتد الأمر الآن بعسكرة المدن. مما شكل تحدياً كبيراً حول مثلث النموذج الإسلامي واقعاً، ولا بد من التفكير في هذا التحدي، ولو من باب التنبيه على خطره وإعلان رفضه.

هروب الذكور:

ومن الظواهر المرضية بين المتدينين انتشار حالة التمرد-أو الهروب- بين الذكور. وأدق وأقرب زاوية يمكن رصد هذه الظاهرة منها هي زاوية "تعدد الزوجات" أو بالأحرى ظاهرة الراغبين في التعدد إذ كلهم يرغبون ولا يفعلون، وخاصة بعد الأربعين والتي يتم تلميعها بتسميتها "مراهقة متأخرة". حين تدقق النظر في حال هؤلاء المتمردين على بيوتهم من الذكور تجد أنها حالة من الهروب من المسؤولية الأسرية بعد تضخمها؛ يحدث هذا الهروب معنوياً بالبحث عن علاقات عاطفية غير شرعية، ويحدث عملياً بترك البيت الأول والزواج من ثانية، وغالباً ما يكون الزواج الثاني مؤقتاً، فبعد أن يكتشف أن التعدد أثقله ولم يحمل عنه يهرب من الثانية أيضاً. وأمر من هذا كله أن يمارس الهروب بالنفس دون الجسد.. أن يتخلى الذكر عن مسؤوليته النفسية والمادية والاجتماعية ويترك أسرته للمؤسسات العلمانية ذات الأنياب الحادة تنهشها وتقضمها وتضمها وتصيغهم خلقاً آخر. والمحصلة: قروح وجروح وقطع أوصال وإشعال نارٍ ما لها حد.. تزيد كل يوم.. والمجتمع المنهك هو الضحية.

هروب الإناث:

والنساء يهرين من طريق آخر، وإن أردت أن ترقب الهاربات منهن، وقد كثرت هذه الأيام، فأقرب وأدق زاوية هي مراقبة القادمات على الزواج، أو حديثات العهد بالزواج. والقصة باختصار: أن المرأة المعاصرة تعرضت لحزمة من الثقافة الكاذبة، غرست فيها أنها ملكة متوجة. أعلنت من الذاتية عند النساء، أوجدت ما أسميه

"عبادة الذات" عند الجميع وخاصة النساء، فصارت كل واحدة تبحث عن من يعبدها. نعم يعبدها. تبحث عن رجل يسارع في هواها، يهيم بها نشوةً وطرباً، ويجلس لخدمتها، وتفاجئ بعد الزواج بنمط آخر من التعامل، تفاجئ بفتور العلاقة العاطفية بعد الارتواء، وهذا طبعي عند البار والفاجر، وتأتي تكاليف البيت فتهرب، وتردد بأنها ما خلقت لغسيل وطبخ وكوي.. إلخ. ثم تتمرد.. ويتصدع البيت أو يتهدم.

بعضهن بالفعل يصلحن للمجال العام، وفي كل جيل يبرز عدد من النسوة في المجال العام، فنقول: خديجة بنت خويلد، وهند بنت عتبة، ولا يصح الاحتجاج بنساء النبي -صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهن- لأنهن كن أمهات المؤمنين وأمرن بالتحديث عما رأين من النبي، صلى الله عليه وسلم، في بيته (وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)، ولكن هذا النوع من النساء - وأسميهن سيدات - حين يلتقن رجلاً عاقلاً سيدياً يدخلن البيت.. كما فعلت السيدة خديجة - رضي الله عنها - فبعد أن تزوجت النبي -صلى الله عليه وسلم- دخلت البيت ولم تُذكر في المجال العام لا بقليل ولا بكثير. ولذا ظهور النساء في المجال العام يفسر بعددٍ من المتغيرات، منها: الخلل في الكفاءة فحين وجدت خديجة كفاً أَلقت عليه أحمالها وأخذت مكانها الطبيعي، وهنا ملحظ دقيق وهو أن الرجل لا يُقَيِّمُ بشخصه وإنما بالمرأة المختبئة خلفه إن كانت زوجة أو أمًا. ومنها: تمكن العلمانية. والتي جذبت النساء للمجال العام وألقت على ظهورهن عبء الأسرة؛ وأهم هذه المتغيرات: هذه الحزمة من الثقافة الكاذبة التي أوجدت عبادة الذات..

محمد مهدي القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
زواج الصغيرة

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يبدأ الفطام النفسي في الثانية عشر وينتهي عند الخامسة عشر، والإناث ينضجون-
بدنيًا وعقليًا- قبل الرجال. فكل من على الخامسة عشر شخص ناضج مكتمل
الرجولة أو الأنوثة.

وإلى وقت قريب لم يكن أحد يجادل في هذا المعنى. إلى وقت قريب كانوا يعاملون
الرجل بأمارات الرجولة والمرأة بأمارات الأنوثة، من يبلغ يُزوج إن كان قادرًا ماديًا
وراعبًا، ويخرج للقتال، وربما يقود الجيوش. وفي ذاكرتنا جميعًا أسامة بن زيد الذي قاد
الصحابة وهو في السادسة عشر، وعمرو بن العاص وكان بينه وبين ولده عبد الله
اثنا عشر عامًا فقط بمعنى أنه تزوج في الحادية عشر أو دونها (خامس ابتدائي)،
والسيدة مريم فقد حملت بالمسيح وهي في الحادية عشر من عمرها، ما يعني أنها حين
خاطبها الله بما ذكر-سبحانه وعز وجل- في كتابه (يا مريم ... يا مريم .. يا مريم)
كانت فيما يعادل الصف الخامس الابتدائي؛ وأمنا وزوجة سيدنا وحبينا المصطفى-
صلى الله عليه وسلم- عائشة تزوجت ووعت الحكمة (السنة) ونقلتها لنا وهي بين
التاسعة والثامنة عشرة (ثالث ابتدائي وثالث ثانوي). وفي سير أعلام الأمة أنهم
يتزوجون في سن قريبة من هذه، وأقرب هؤلاء في خاطري الأستاذ مصطفى صادق
الرافعي.. تزوج في الرابعة عشر من عمره؛ وإلى عهد قريب لم يعترض أحد على
زواج النبي-صلى الله عليه وسلم- من أم المؤمنين عائشة ولا برقع كلمة. كانت

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

المرأة تتزوج حين تصلح للزواج، وتزوجت الصغيرات وأخرجن للمجتمع رجالاً ونساءً صالحين مصلحين، ولم نسمع أن ممارسة الجنس قبل الثامنة عشر أصابت إحداهن بـ "البلة" كما يدعي النسويون.

ماذا حدث؟

فرضت العلمانية الملحدة تصوراتها واقعاً؛ فظهرت المساواة بين المختلفين (الرجال والنساء)، وهما كائنان منفصلان لكل واحدٍ منهما خصائصه النفسية والجسدية، وكل منهما يصلح لمهمة غير التي يصلح لها الآخر، والعلاقة تكاملية.

فرضت العلمانية على المختلفين السير في مسارٍ واحدٍ (التعليم النظامي) لربع قرنٍ من الزمن. ولا يستقل أي منهما بشخصيته إلا بعد أن يتم تعليمه، كأن الفطام النفسي يحدث بعد الخامسة والعشرين!!

وحين استقرت هذه الأعراف ظن الناس أن شيئاً غير هذا الذي يرونه لم يكن. من هنا جاء النكير على زواج المرأة حين تصلح للزواج، وقالوا: (زواج مبكر).. (زواج أطفال).. (إتجار بالنساء)!!

تبدأ المرأة ممارسة الجنس في أوروبا في الصف الثالث الابتدائي حسب بعض التقارير المنشورة على موقع BBC عربي، وتبدأ حالات الحمل والإجهاض في المرحلة المتوسطة، وقلَّ من تحتفظ بعذريتها بعد المرحلة المتوسطة، وعندنا تبدأ العلاقات العاطفية في ذات السن ولو أن المجتمع منفلت لتحولت إلى علاقات جنسية كاملة كما عندهم، فالواقع أن النضوج الجنسي مبكر عند الجميع وليس بعد الثامنة عشر كما يدعي هؤلاء.

ولا أحد يطالب بزواج الأطفال (القصر) ممن لا يعرفون شيئاً عن المعاشرة الزوجية، فهؤلاء يتحدثون عن صورة وهمية في ذهنهم وحدهم أو حالات فردية يجرمها الجميع. إن ما يقال هو أن تتزوج المرأة حين تصلح للزواج أيّاً كان عمرها. ما يقال

هو أن تأخير سن الزواج هو أحد أدوات الدفع بالمجتمع في اتجاه النموذج الغربي العلماني الملحد، وفيه يتزوج "الرجل" بـ"الرجل" والمرأة بالمرأة ويتزوج عدد بفرد واحد، ويلتقي الرجل والمرأة مؤقتاً دون مسؤولية من الرجل عن المرأة ومن تلده. إن ما يقال هو أن تأخير سن الزواج أدى إلى إشاعة الفاحشة بين الناس وخاصة مع انتشار دواعي الشهوة الجنسية.

إن الذين ينادون بتجريم الزواج المبكر يسعون لإحداث تغييرات جذرية في المجتمع لا قبلها، كونها تتصادم مع ثوابتنا الشرعية وتساهم في تقويض النموذج الإسلامي وتوطين النموذج الغربي العلماني الملحد. وإن النموذج الإسلامي عطرٌ مشرق؛ لا يتجه للصغيرة الجميلة يغرب بها حتى تتزوج شيخاً أحذب يسير على ثلاثٍ، بل يتجه لكل النساء يكرمهن بالزواج من الكفاء (الكفاءة من شروط الزواج عندنا، وتعني [أي الكفاءة] انتخاب السلالات، وانتخاب السلالات يعني الحفاظ على جودة الصفات البشرية بل الإكثار منها) حين تصلح للزواج وترغب فيه، فلا تُزوج من لا تصلح للزواج، ولا تُزوج امرأة وهي كارهة، ومن وقعت في غير كفاء أو تضررت من زوجها تستطيع بسهولة أن ترفع أمرها للقاضي وتخلعه. فتزويج المرأة حين تصلح للزواج جزء من منظومة حافظت على عفة المجتمع وطهره لقرون طويلة.

محمد مهدي القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يوم تحديتُ العيون (خاطرة من بيتي)

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

في مدينة "ينبع الصناعية" حديث لا يكاد ينقطع عن الحسد وآثاره، وعن الحساد وضحاياهم. ونَبَتَ ولدي البكر بينهم، وشاء الله أن ينصرف لحفظ كتابه، وأتم الله له حفظ كتابه قبل بلوغ السادسة، حفظاً وتجويداً، ونافس الشباب وحصل على المركز الثاني بـ 98.5% في مسابقة بالنقاط، وكَرِّم وتكريمه منشور على اليوتيوب في صفحته الشخصية.

وكنت أتألم لما يُفقد من وقت، ومالٍ تحتاج إليه الأمة. فالكل يهدر مالاً .. ووقتاً... بل وغير قليل يحمل إثمًا....

وليقيني بأن النموذج العملي أصدق وأقوى وأندى صوتاً من غيره، دفعت بولدي بينهم... أحدث من أعرف ومن يسأل عنه، وما منَّ الله به عليه من حفظ القرآن وتعلم الحساب، وشيء من الجغرافيا، والسياسة.... وغير ذلك.... وأحدثهم أنه بين أيديهم من شاء فليسأله!!

وحذرتني بعض المحبين. وتُليت علي عشرات من قصص الحساد.

يقولون : العيون.

وكنت أقول: والله موجود؟!!!

والله لا يرد من سأله؟!!!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

إن العبد يُكرم الجار، وإن العبد يحمي من استجار، وإن العبد يستحي أن يرد سائلاً، فكيف بالله العظيم الكبير المنان؟!

وما خرجت أفاخر بل أرجو ما عند ربي، وهو يكفيني الذين من دونه. ولا يدفع البلاء بمثل العطاء، يقول الله، عز وجل: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۗ) (الليل: 5-7). وفي الحديث: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء".

حين غدا ولدي لمدرسة "الإمام نافع" (الهيئة الملكية - ينبع الصناعية) وجد حفاوة ومقابلة حسنة من المدير والمدرسين، بل الطلاب أيضاً، وأمرته بأن لا ترد سائلاً، من سألك (يختبر حفظك) أجبه...

وحدت ما يشبه "النكت": يقابله الطلاب في "الفسحة" بالمصاحف يقولون له: أحقاً تحفظ يا جلال؟!

فيقول نعم. ويسألونه.. ويسألونه... ويجب بفضل الله ومنته. ويوماً مررت به في طرقات المدرسة فوجدت كريماً فاضلاً من المدرسين أعرفه فطلب مني أن أدخل الفصل بجلال. ودخلت فإذا بالطلاب يصيحون: هذا جلال القصاص نريد أن نسأله: ووقف أمامهم وكل منهم يرمي بسؤال: ويعود السؤال لصاحبه تمتطيه الإجابة.

ظلّوا يسألون حتى سكتوا. لم يبق لهم سؤال: ثم سأل المعلم فأجاب ولدي ولم يشأ الله له أن يتعلم. والله أسأل، لي وله ولأمه وإخوانه والمسلمين، علماً نافعاً وعملاً صالحاً وحياة كريمة وخاتمة حسنة، إنه كريم منان.

ما المقصود؟

تبدد الخوف من الحسد عند كثيرين ممن يتصلون ببיתי، ومن يخالطهم ولدي.

وهو (الحسد) تكئة أكثر منه حقيقة.

وهو داء ولكل داء دواء. والله على كل شيء قدير.

تشجع عدد من الأسر ونشطوا، ولا زال بعضهم على تواصلٍ معنا للآن ويسارعون في الخيرات بإذن ربهم،،،

ما المقصود؟

علماء التربية يتحدثون بأن التعليم قد يبدأ من الثانية، وإن تأخر فمن الثالثة. وأن الخطوط الرئيسية في شخصية الطفل ترسم قبل السادسة. وأن الفطام النفسي يكون بعد الثانية عشر، وإن تأخر ففي الخامسة عشر. فلم تُهدر وقتنا، ووقت الأجيال القادمة، ونضيع الفرصة، ونسير بالنفس البشرية عكس طبيعتها.. بتأخير التعلم.. بالحديث عن أن الحفظ دون السادسة أو دون الثامنة حفظاً مبكراً!؟

والحفظ دون السادسة، أو الثامنة، طبعي جداً، وسهل لمن يحاول بعزيمة وجد. والتجربة تقول بأن الطفل يستوعب في هذه السن كثيراً من الأشياء.. ولك أن تتدبر ما يعقله طفلك من أفلام الكرتون والألعاب!

محمد مهدي القصاص

الباب الثالث: نقد فكري

في هذا الباب عدد من المقالات البحثية تستهدف كشف المقولة التي يتجمع حولها المستشرقون والمتأثرون بهم.. وهي "حتمية البيئة" و "العوامل الوراثية". وذلك من خلال رؤية نقدية لأطروحات عينة منتقاة من مشاهير الفكر المعاصر، وذلك في ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: مناقشة لنماذج من غير المسلمين كالمؤرخ الأمريكي ديورانت، وذلك لشهرة حديثه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، واغترار كثير من المنتسبين للعلم بثنائه على الرسول، صلى الله عليه وسلم، في بعض ما كتب؛ وكالمؤرخ الإنجليزي "تويني" في نظريته عن نشوء الحضارات (نظرية التحدي والاستجابة)، وبيان أنها لا تصلح لتفسير نشوء الحضارة الإسلامية فالبعثة بدأت بمشيئة الله ولم تبدأ من خلال تحديات تعرض لها محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه في أم القرى ومن حولها.

والمستوى الثاني: مناقشة لنماذج ممن وقفوا وسطاً، فمن ناحية يشككون في الوحي ويرددون أقوال الكافرين ومن ناحية أخرى ينتسبون للإسلام، مثل الذين تبنا منهج "الهرمنيوطيقا" الغربية، كأمين الخولي ومن رافقه ووافقه (نصر حامد أبو زيد)، وناقشت عباس العقاد نقاشاً مفصلاً في كتاب مستقل، وهو أوضح نموذج في هذا السياق.

وتمثل المستوى الثالث في مناقشة أطروحات العصرانيين - وجل هؤلاء كرام أفاضل مجتهدون، ولكنهم تأثروا بذات المقولة-. وذلك من خلال إبراز بعض المفاهيم في أطروحات الدكتور عبد الوهاب المسيري-رحمه الله.

وعمدت لمصدر هذه المقولة وهو ابن خلدون وقدمت رؤية نقدية تستهدف سياق تولد هذه المقولة (حتمية البيئة) في مقدمته. والله أسأل توفيقاً وبركة إنه كريم منان.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ماذا يقول ديورانت عن الرسول ﷺ

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

أخذ "ويليام ديورانت" بشخص الرسول ﷺ كما كل الذين مروا على سيرته العطرة ﷺ، واكتسى حديثه ثوب المدح والثناء. وبإمعان النظر فيما كتب ديورانت، ومحاولة رسم خريطة ذهنية لما قدّم، نجد، بوضوح، أن أطروحته تنطوي على فكرة رئيسية مدعومة بعددٍ من الأفكار الفرعية وأنه لم يخرج عما قاله المشركون الذين واجهوا البعثة المحمدية!

والفكرة الرئيسية هي تقديم النبي ﷺ على أنه شخص عظيم ذو إمكانيات ذاتية عالية تألم لحال قومه وسعى إلى النهوض بهم واستخدم الدين وسيلةً لذلك، بمعنى أنه حاول تأطير البعثة في هيئة نشاط ذاتي لشخص الرسول ﷺ وأن فكرة تجميع العرب على أساس الدين كانت أحد الأدوات التي ابتكرها النبي ﷺ لتحقيق النهوض بالعرب. يقول "ديورانت": "وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقته به في دياجير الهمجية حرارةً الجو وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانًا غيره حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين"، ثم يقول: "وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلًا واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا قوامه البسالة والعزة القومية"⁽²⁾.

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

(2) المرجع السابق، ص 47.

ينزع الرسالة عن النبي ﷺ ويحاول أن يضع شخص رسول الله ﷺ في إطار العظمة الفردية، يدعي أنه ﷺ انطلق من بواعث ذاتية واتخذ الدين وسيلة للوصول إلى أهدافه!!

ولو أن النبي ﷺ انطلق من دوافع خاصة بحثاً عن ذاته أو تألماً لحال قومه لظهرت عليه أمارات البحث عن الذات في مرحلة الشباب المبكر، (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس: 16). كما أن النبي ﷺ لم يدع قط إلى قومية عربية، بل دعاهم لعبادة الله، ولم يعرف نفسه إلا كرسولٍ من عند الله، وهو ما تجاهله "ديورانت" تماماً، مع أنه شديد الوضوح في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن ذلك قوله تعالى: (أَلَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا إِلَيْهِ يُمْتَعِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾) (هود: 2-4). واتخذ "ديورانت" عددًا من الأفكار الفرعية من أجل إثبات إدعائه، مثل:

ادعاء أن النبي ﷺ تعلم من غيره، تماماً كما ادعت قريش؛ يقول: رحل إلى الشام عدة مرات، مع عمه ثم منفردًا، وتردد على المدينة قبل البعثة عدة مرات، وصاحب أحد أبحار النصارى في مكة (ورقة بن نوفل)، وأنه ربما التقى اليهود والنصارى وتعلم منهم ومن ورقة بن نوفل. يقول بما قال به مشركوا قريش من قبل، (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْبَهتْ قُلُوبُهُمْ) (البقرة: من الآية 118). وكلامه غير صحيح ويُرد عليه بما سبق في المبحث الأول، من أن الرسول ﷺ لم يفارق قريشاً في رحلته إلى الشام وكان ذلك قبل مبعثه بسنين عدداً، ولم يخالط غيرهم من يهودٍ أو نصارى، ولم يدخل المدينة قبل الهجرة إلا طفلاً صحبة أمه، ولم يكن يعرف الطريق إليها ولذا اتخذ دليلاً يوم الهجرة. ولم يصاحب ورقة، وإنما ذهب إليه مرةً واحدة، وبعد أن نزل عليه الوحي، باقتراح من زوجته خديجة، رضي الله عنها، لسؤاله عما رأى في غار حراء؛ وحدّثه ورقة بأنه النبي المنتظر. ﷺ. وتَمَنَى أن لو كان من أنصاره وأتباعه. ولم يُعرف بينهم

بقراءة وكتابة، أو مخالطة لمن يقرأ ويكتب، ولم يكن بينهم من يُعَلِّم الناس دينًا.. أي دين، كما مرّ في المبحث الأول.

وَصَفَّ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ بِمَا يَفْهَمُ مِنْهُ الْجَنُونَ أَوْ الْكُهَّانَةَ، فَادْعَى أَنْ الْوَحْيُ كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَنَامِ، وَيَصَاحِبُهُ صَرَعًا أَوْ مَا يَشْبَهُ الصَّرَعِ، وَهَذَا كَذِبٌ صَرِيحٌ جَمَلَةٌ وَتَفْصِيلًا، فَالْوَحْيُ بِالْقُرْآنِ لَمْ يَأْتِ فِي الْمَنَامِ، وَإِنَّمَا كَانَ جَبْرِيلُ يَأْتِيهِ وَيَتْلُو عَلَيْهِ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (وَكَانَ جَبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيَدْرُسُهُ الْقُرْآنَ) ⁽¹⁾، بِمَعْنَى أَنْ نَصَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ كَانَ يَلْقَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُ (أَيَّ النَّصِّ) كَانَ يَضْبُطُ وَيَرَاجِعُ مَرَّةً كُلَّ عَامٍ وَمَرَّتَيْنِ فِي آخِرِ عَامٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾) (القيامة: 17-19)، بِمَعْنَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَقَّى الْقُرْآنَ تَعَلُّمًا وَضَبْطًا مِنْ جَبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَكُنْ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ كَمَا يَدْعِي "دِيورانت"؛ وَمَا كَانَ يَصَاحِبُ الْوَحْيَ هُوَ إِجْهَادٌ وَعَرَقٌ، كَمَنْ يَحْمِلُ شَيْئًا ثَقِيلًا (إِنَّا سَنُلْقِيكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)، وَلَمْ يَكُنْ يَصْرَعُ كَمَا يَصْرَعُ الْجَنُونَ ﷺ.

الادعاء بأن النبي ﷺ نشأ في بيت سيادة وشرف واستخدم الدين وسيلة لتوحيد العرب والرياسة فيهم ⁽²⁾. تمامًا كما قالت قريش (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) (أي إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعوننا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريد منا محمد

(1) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، مرجع سابق، باب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ج4، ص113.

(2) وفي أماكن أخرى ادعى أن قوم النبي -صلى الله عليه وسلم- بدو رُحَّل. وهذا غير صحيح، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، نشأ وبعث في أم القرى (وَأَنْتَ جِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)، ولم يكن بدويًا مترحلًا ﷺ.

يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعاً⁽¹⁾. ومعلوم أن أول من رفض إجابة الدعوة وآذى النبي وقاتله هم أهله من قريش وفيهم عمه أبو لهب وأبناء عمومته كأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب⁽²⁾، ثم من قبائل مضر أبناء عمومة قريش⁽³⁾، ثم من قبائل قيس أبناء عم مضر، ثم باقي العرب؛ ولم يورث النبوة ولا الإمامة لأحد بعينه، وعرضوا عليه الملك ليكف عن الدعوة في بدايتها ولم يوافقهم⁽⁴⁾؛ وقد كان حاله حال الفقراء من الناس في مأكله وملبسه ومسكنه - ﷺ - . ولم يُرسل للعرب بل للناس كافة، ودعى نصارى نجران، وآمن به النجاشي في الحبشة، وراسل هرقل ونصارى الشام ومصر، وأرسل صحابته في مؤتة لمن غدر من نصارى الشام، وخرج للروم بشخصه الكريم ﷺ في تبوك، ودعا اليهود وقاتلهم من أول عام هاجر فيه (قينقاع) ثم (النضير) ثم (قريظة)، وراسل الفرس؛ ولم يُعرف الملك في قريش كلها ولا فيمن حولها من القبائل، وإنما فقط في أطراف الجزيرة (اليمن، والعراق، والشام) وكان مُلْكًا مستمرًا لم ينقطع وتابعا للفرس والروم. وهذا (ديورانت) يقول: كان يطلب ما فقدته آباؤه من رياسة وشرف.

سَرَدَ عددًا من المزايع حاول من خلالها إظهار الدعوة على أنها حالة من الاستعانة بمكر الساسة من أجل إنشاء ملك وتثبيت أركانه، مثل: ادعاء أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على التجار، وآمنوا به لأن ما سمعوه منه كان هو ما سمعوه من اليهود؛

(1) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج 21، ص 152.

(2) وكان من أشد قريش على النبي ﷺ والصحابة، ثم أسلم وحسن إسلامه، انظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م)، ج 1، ص 202-205.

(3) أعني بني سليم وكانت فيهم غزوة قراقره الكدر بعد غزوة بدر، وغطفان وكانت فيهم عدد من السرايا. انظر: إسماعيل بن عمر بن كثير، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1395هـ/1976م)، ج 2، ص 355.

(4) انظر: عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، ج 2، ص 101.

والحديث عن خروج الصحابة من مكة مهاجرين إلى المدينة وكأنه كان هروباً كما للصوص، يقول: تخفى الصحابة في هيئة تجار؛ وادعى أن النبي ﷺ هادن يهود ثم انقلب عليهم، كأنه غدر بهم؛ وادعاء أن النبي ﷺ لجأ للغارة على القوافل لتوفير طعام للمسلمين؛ وادعاء أن النبي ﷺ استعطف عدوه بالزواج، ويضرب مثلاً بالسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان؛ وادعاء أن السبب في زواج النبي ﷺ - هو الرغبة في انجاب الولد، وادعاء أن النبي ﷺ كان يقتل النساء والشعراء.

وكل ما ادعاه "ديورانت" غير صحيح. فقد كان يعرض نفسه الشريفة - ﷺ - على القبائل وفي موسم الحج. وستة فقط من الأنصار هم الذين آمنوا بدعوته ولم يكونوا تجاراً بل من الحجيج، وبقية الأنصار آمنوا في ديارهم بدعوة مصعب بن عمير، رضي الله عنه. وما سمعه الأنصار من اليهود كانت بشارة بظهور نبي لا أن النبي ﷺ - حدثهم بمثل ما تحدثت به يهود. يحاول ضمناً أن يؤكد فكرة تعلم النبي ﷺ - من اليهود، مع أن حال الأنصار في بيعة العقبة الأولى والثانية وحالهم مع مصعب بن عمير وحال يهود مع النبي ﷺ بعد الهجرة يثبت عكس ما يذهب إليه ديورانت؛ واستحضار التجارة يشي بأن البعثة كانت حول المال (تجارة)، ولم يحدث منه غدرٌ - ﷺ - بل مد يده لهم بسلام وأمان وعاقبهم (قينقاع) حين كشفوا عورة المسلمة، وحين هموا أن يقتلوه غيلة بعد عهدٍ وأمان (النضير)، وحين تواطئوا (قريظة) مع الأحزاب وحاولوا قتل النساء والأطفال. كانت مروءة وحسن جوار، وحزماً في التعامل مع الخائنين المتواطئين مع العدو وقت البأس. ولم تكن الغزوات مصدر ربح. فقد كانت سيرة النبي ﷺ - مع الأسرى هي العفو عنهم والإحسان إليهم حتى عوتب في العفو، وهذا كثير في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: (أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة: 80)، وقوله تعالى: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ) (التوبة: 43) إن الملمح الرئيس في غزوات الرسول - ﷺ - هو الرحمة

والحرص على هداية الناس، يظهر هذا من وصيته للمقاتلين قبل المعركة بعدم التعرض لمن لم يقاتل، وقلة عدد من قُتل في الغزوات، ومن التعامل مع الأسرى بعد الحرب، ومن التعامل مع الحكام إن هم أسلموا ولم يقاتلوا، ومن التعامل مع أهل الأرض بعد فتحها. قد كانت هداية للناس ولم تكن تجبراً وقتلاً وسلباً. وديورانت يقول: كان يعيش من السلب والنهب. وقد كان تودد النبي -ﷺ- لأصحابه لا لأعدائه، يتزوج من يرفضها غيره، ويصاهر خاصته؛ وأما أم حبيبة بنت أبي سفيان كانت في الحبشة بعيدة كل البعد عن أبيها ومات زوجها وهي في الغربة فأرسل إليها يواسيها بأفضل ما تواسى به أرملة؛ وكانت مسلمة تناصب أباه العدا، ورفضت أن تجلس أباه على وسادة جلس عليها رسول الله -ﷺ- فلم يكن إرضاءها إرضاء لأبيها أو غيره من الكافرين، كان حماية لمجتمع المسلمين ومواساة للمستضعفين من أصحابه. وقد كان لديه سبعة من الأبناء من زوجته الأولى.. ذكوراً وإناثاً. وقد كان النبي -ﷺ- يُقرب الشعراء ويستحثهم على قول الشعر، ويستدعي الجيد من شعر الجاهلية ويثني عليه كشعر أمية بن أبي صلت. ولم يقتل إلا عديم المروءة ذاك الذي تجرأ بالكذب على الأعراس. فهل الدفاع عن الأعراس قتل لأصحاب المواهب؟!، فهل يترك الدني البذيء يتعرض للطيبين والطيبات!!؟

محاولة تأطير البعثة على أنها حالة من الصراع بين بني هاشم (النبي، ﷺ) وأبناء عمومته) وبني أمية (أقرب بطون قريش إليهم نسباً وحسباً)؛ وغير صحيح فلم يكن رؤوس الكفر من بني أمية وحدهم، بل كانوا من جميع بطون قريش وفي مقدمتهم أقرب الناس للرسول -ﷺ- (عمه أبو لهب)، بمعنى أن الصراع في قريش لم يتميز لصراع بين بني هاشم وبني أمية. لا قبل الإسلام ولا في عهد النبي -ﷺ-. بل لم يكن الصراع بين النبي -ﷺ- وقريش وحدها، فقد دخل اليهود في الصراع مبكراً، وذلك حين اعترض بنو قينقاع على نتائج غزوة بدر وتوعدوا النبي -ﷺ- وأصحابه بالهزيمة إن هم قاتلوهم، وفيهم نزل قوله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِن سَعْتُهُمْ لَا تُبَلِّغُهُمْ وَلَا تُخَشِّرُهُمْ إِلَىٰ

جَهَنَّمَ وَيَبُئْسَ الْمِهَادُ) (آل عمران: 12)⁽¹⁾، ودخلت قبيلة سليم بعد بدر مباشرة (غزوة قرقرة الكدر) ، ودخلت القبائل التي بجوار المدينة المنورة مبكرًا (ضمرة، وغطفان، وغيرها)⁽²⁾؛ ولو كانت هاشمية لوَّث النبي ﷺ الخلافة لأحفاده وأبناء عمومته، وهذا ما لم يحدث، فخليفة رسول الله - ﷺ - لم يكن من بني هاشم، بل وإن أحد الخلفاء الراشدين من بني أمية (عثمان بن عفان رضي الله عنه).

(1) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج6، ص227.
(2) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ج2، ص45.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

نظرية أرنولد توينبي لا تصالح

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بعض النظريات يؤسس وبعضها يُفسر. بعضها يصنع الحدث والظواهر الاجتماعية، وبعضها يفسر الظواهر الاجتماعية والأحداث الفردية. وكل منا يمتلك كلا النوعين من النظريات: المؤسسة والمفسرة. فكل منا عنده تصور -ولو بسيط أو ساذج- يحاول أن يشكل الواقع على أساسه.. بمعنى يحاول أن يجعل الواقع موافقاً لهذا التصور؛ وكل منا يفهم الحدث بطريقة خاصة، أو يستقبل نوعاً معيناً من المعرفة يتناسب مع تركيبته النفسية والذهنية.

هذه مسلمة مستقرة في خاطر كل أحد. ولذا لا تتعايش القيم والمفاهيم إلا في إطار غالب ومغلوب.. تابع ومتبوع. ونفس الحدث تتنوع حوله الأفهام كل حسب ما يسكنه من نظريات مفسره، ويتنوع السعي كل حسب ما يسكنه من نظريات مؤسسة.

هذه المسلمة يعرفها كل أحد، ويقفز عليها عمداً، أو جهلاً، توينبي في نظريته لتفسير التاريخ (نظرية التحدي والاستجابة تحديداً). ويدخل الأتباع المأخوذون بما اشتهر فقط لأنه اشتهر دون وعي إلى أن الشهرة في هذه الأيام من فعل الأدوات ولا ترجع بالضرورة للمحتوى العلمي وحده، وأن السلطة تنشر نوعاً معيناً من المعرفة يناسب أغراضها، وأن ديورانت استخدم -هو وغيره- من قبل القوى المهيمنة من أجل نشر معرفة ترسخ هيمنة الغرب.

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

تفترض نظرية التحدي والاستجابة أن الحضارات تنشأ حين يمارس عليها نوعاً من التحدي يحفزها للاستجابة والمقاومة ومن ثم محاولة فرض رؤيتها واقعاً. يفترض ديورانت أن هذه المقولة تصلح إطاراً لتفسير نشوء الحضارات!!

لا تصلح نظرية توينبي (التحدي والاستجابة) لتفسير نشأة الحضارة الإسلامية، لا في نسختها الأولى، ولا في محاولات الإحياء والتجديد المتكررة عبر العصور. فالإسلام لم يبدأ من تحديات واقعية استجاب لها بما يناسبها. بل برسالة من الله- سبحانه وتعالى وعز وجل- أعطت رؤى خاصة لتفسير سبب الخلق والهدف من الحياة والمآل بعد الممات، والذين استجابوا لله ورسوله تغيروا هم أنفسهم ثم غيروا الواقع. الله- سبحانه وتعالى- هو الذي حدد من يتلقى رسالته والمكان الذي تبدأ منه الدعوة (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ). والدعوة إلى الله مستمرة للكافرين وللمؤمنين (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۗ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ). فمصدرها الوحي، وحركة التجديد مستمرة، وموطنها في الأحكام الفقيهية التي تستنبط من الكليات ما يناسب الجزئيات (تفاصيل الحياة المتجددة) لتبقى حركة القيم مقيدة بأصول ومرنة في التفاصيل.

وحركات التجديد الإسلامية المعاصرة نشأت لأمرين:

الأول: **توطين مجموعة من القيم** تمثل ماهية رسالة الله- سبحانه وتعالى وعز وجل- للبشر.. يحاولون أن تحضر هذه القيم واقعاً في حياة الناس... أو أن تستأنف الحياة على منهج الإسلام الذي شرعه الله لعباده، ما يقال له (تحكيم الشريعة).

الثاني: رد فعلٍ للهيمنة الغربية على العالم الإسلامي، ابتداءً من إخراج المسلمين من الأندلس، ومروراً باحتلال العالم الإسلامي، وتفتيته إلى أجزاء (دول قومية)، وانتهاءً بصيغ الحكم التي فرضت على المسلمين أنماطاً من العيش يرفضها المجددون.

وهذه التحديات التي أوجدها الغرب تدخل في مجال الأحكام الفقهية ولا ترقى لمستوى الأصول: إلا عند نفرٍ ممن يتحدثون بالمقاصد، بمعنى أن لنا قواعد كلية

(العقدية) نحاول توطينها ونراعي - حال التوطين - ما الذي نستطيعه (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)، وما الذي يتعذر علينا (التحديات الخارجية والداخلية)، ولكل شيء في التفاصيل حكم خاص يستنبط من القواعد الفقهية الكلية. وتبقى القاعدة الكلية كما هي صلبة تنتظر العاملين لله يطوعون الواقع حتى تتطبق كلية. إلا قلة طال عليها الأمد فقلبت فكرة المقاصد واتكثت عليها وهي منكفة.. مُنكَّسة. فمن يتدبر في الفقه ساعة يعلم أن المقاصد تعرف من الأحكام، بمعنى أننا نقرأ أحكام الشرع ثم نقول: مقصد الشرع كذا. إلا أن هؤلاء قلبوا هذه الحقيقة فأتوا بالمقاصد وفسروها من عند أنفسهم ثم راحوا يُشَرِّعون أحكاماً تتناسب مع فهمهم هم لما ادعوه مقاصداً، ولم ينتبه أحدهم أن مقاصدهم هي هي مقاصد الكفر وأهله أو قريبة منه، فالجميع يلتقي تحت مظلة دين العلمانية المعاصرة (الإنسانية)!!

وأرنولد توينبي والمؤمنون بنظريته.. يحاولون تفسير حركة التاريخ في إطار الفعل ورد الفعل، ويتغافلون عن إرادة الله في إرسال رسل يصلح بهم حال الناس "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ". ولا تصلح نظرية ديورانت إلا لتفسير بعض الظواهر الاجتماعية، وليست نظرية شمولية، ولا يمكن لمؤمن بالله وما أنزل على رسوله، صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن لعاقل يتدبر في حركة التاريخ أن يتبنى هذا التفسير العلماني لحركة الناس.

إن التاريخ صراع بين الحق والباطل. صراع بين المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنين بوساوس الشيطان. كلما غلب الشيطان وجنده أرسل الله رسلاً، وفي أمة محمد يبعث الله مجددين على هدي الرسول - صلى الله عليه وسلم -. صراع بين قيم مصدرها الوحي وقيم مصدرها الشيطان وأهواء البشر، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَدًا يَدًا وَسُوءًا لِلَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. ويقول الله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (النجم: ٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
منهجية الهرمنيوطيقا

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

الهرمنيوطيقا، أو فلسفة التأويل، منهجية غربية تستهدف تأويل النص الديني، وطبقت في أوروبا على الكتاب "المقدس"، وظهرت في مصر على يد أمين الخولي ورفاقه⁽²⁾ فيما عرف بـ "جمعية الأمناء". حيث حاولوا تطبيق هذه الفلسفة على "الذكر الحكيم"، كما طبقها الغربيون على كتابهم، وذلك بدعوى التجديد الديني، أو التطور المعرفي أو حتمية البيئة.. ذات المقولاتين اللتين انطلق منهما عامة المنحرفين فكرياً في قراءتهم للوحي كتاباً وسنة.

ويحلو لبعض الدارسين أن ينسب أمين الخولي ورفاقه إلى المنهج الاعتزالي، أو المنهج العقلاني في فهم النصوص، وذلك لأنهم يصرحون بتقديم العقل على النص بل يرون أن العقل أرحب وأوسع مدى من النص. وهو الهوى على الحقيقة. وهم الذين اتبعوا أهواءهم. يقول الله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مَنْ بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (الجنائفة: 23). فأصحاب العقول السليمة (الألباب) ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ١٨، وعلى عكس

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

(2) سبق التعريف بهم في مقدمة البحث، وقلت رفاقه لأنهم لم يكونوا جميعاً تلاميذه، فمنهم التلميذ بوضوح مثل محمد أحمد خلف الله، ومنهم من كان يحمل ذات الأفكار قبل أن يتحدث بها أمين الخولي، مثل شكري عياد، ولكن المدرسة نسبت للخولي وقيل أستاذ لأنه كان يدرس بالجامعة وأثار جدلاً بيث آرائه بين الطلاب.

هؤلاء الذين ينسبون الخولي للاعتزال هناك من يرى أنه كان مستقلاً لم يقلد أحداً من المذاهب والفرق الإسلامية. وعند التحقيق نجد أن نسبة الخولي للاعتزال تغطية على المنهجية الغربية التي انتهجها الخولي ورفاقه، وهذا متبع في وصف حال كثير ممن تأثروا بالفلسفات (المناهج) الغربية في قراءة الشريعة. فالحقيقة التي لا مراء فيها أن الخولي فتن بالتطور الإداري في الفاتيكان والتطور التقني الغربي عموماً، وآمن بفلسفة التأويل "المهرمنيوطيقا Hermeneutics". بمعنى أنه انتظم في السياق الثقافي الغربي، وكان ضمن من حاولوا قراءة الوحي من خلال النظريات الغربية. كان يجاهر بضرورة التحرك خلف الغرب لحيازة التقدم التقني الذي حازوه. وإن التجديد الذي دعا إليه هو إعادة قراءة الشريعة بما يتوافق مع السائد الآن (الحضارة الغربية)، وليس إعادة توطين القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام وأصلح بها الدنيا على يد محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه. كانت قضيته مواكبة التطور الثقافي الغربي من أجل الحصول على التطور التقني.. كان ضمن سياق طه حسين وسلامة موسى وأمثالهم. بل، بموجب شخصيته الحادة النائرة، اقرت ما لم يتجرأ عليه غيره، ومن ذلك:

أولاً: الدعوة لنزع القداسة عن القرآن الكريم:

دعا، ورفاقه، إلى نزع القداسة عن القرآن الكريم وإلغاء الأهداف التشريعية والأخبار الأخروية (الحديث عن الدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم وعذاب أليم) للقرآن الكريم، فدعا إلى التعامل مع القرآن الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ فصلت: ٤٢ على أنه كتاب أدبي للعبارة والتسلية، والنظر إلى ما فيه من قصص على أنه أساطير الأولين!!

نعم. والله. قالوا مثل ما قال كفار قريش بالحرف الواحد، وتدبر: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (النحل:)، (إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (القلم: 15).

وهي ذات الأفكار التي ردها طه حسين حين أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام⁽¹⁾. والفرق أن طه حسين قال كلمة ثم تراجع حين هوجم، أما الخولي بطبعه الحاد تصلب على رأيه واشتد مدافعاً عن باطله، رغم معارضة الجميع له. كانت موجة من الثقافة الغربية اجتاحت العالم الإسلامي.

ومما يروى في هذا الصدد أن أمين الخولي توافق مع أحد طلابه (محمد أحمد خلف الله) على تقديم رسالة "علمية" (دكتوراة) يتحدثان فيها عن زعمهم الكاذب بأن القصص في القرآن الكريم من أساطير الأولين، ورفضت الجامعة الرسالة وأزبح الخولي من الإشراف على الموضوعات ذات الصلة بالقرآن الكريم، ولم يتراجع بل اشتد في الدعوة إلى هذا الإفك المبين.

وبعد أربعين عاماً عاد تلميذه غير المباشر نصر حامد أبو زيد إلى ذات الحديث مرة ثانية، بل زاد على الإفك إفكاً مبيئاً، ومما زاد: زعمه أن التحدي لم يكن من القرآن الكريم وحده كما قال الله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ البقرة: ٢٣، يقول: بل كان التحدي من قريش أيضاً، ويستحضر ما طلبوه من معجزات، مثل: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) (الإسراء: ٩٠)، وما بعدها من آيات. يظن أن عدم إجابة طلبهم المعجزات عجز. يقول: كان التحدي من الطرفين. وهي جرأة على الله وجهل بالله وصفاته، وجهل بما أنزله على نبيه. أو جرأة على الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد وجدت المعجزات، وبكثرة، ولكن لم تتم إجابة

(1) رفض قصة إبراهيم وإسماعيل كان في الثلاثينات من القرن المنصرم حين كانت الموضة الثقافية المنتشرة هي موضة "الهرمنيوطيقا" أو: ادعاء أن التاريخ لي لا يعترف إلا بما هو مشاهد من آثار. ثم حين نشأ كيان لليهود في فلسطين واجتاح العالم الإسلامي موجة تنصير في الربع الأخير من القرن العشرين بدأ الحديث عن الخليل إبراهيم عليه السلام بشكل آخر. تحدثوا عن أنه موجود. وأنه مصري، وأن موسى - عليه السلام - من مصر، كما في كتابات سيد القمني (تل العمارنة). فالثقافة تحركت حسب السائد.

الكفار لما طلبوه رحمة بالأمة حتى لا يصيبها ما أصاب من قبلها حين طلبوا المعجزة ولم يؤمنوا بها، يقول الله تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيْفًا) (الإسراء: ٥٩)، قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (المائدة: 115).

وزعم أن القرآن الكريم نوع من الشعر. يقول: قريش أعلم بما هو شعر مما ليس بشعر، وبالتالي فإنها حين وصفت القرآن بالشعر فإن قولها معتبراً. والله يقول: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ* وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ) (الحاقة: 41 و 42)، ولم يكن للنبي، صلى الله عليه وسلم، أي دراية بالشعر، يقول الله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) (يس: 69)

يأخذ الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقول أعدائه، مع بيان كذب كلامهم، ومع بيان تعمدهم الكذب عليه، فقريش كانت تكذب وهي تعلم أنها تكذب، كانت تكذب لتصد الناس عن دين الله (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَاءِيتِ اللَّهِ يَبْجَحِدُونَ) (الأنعام: 33)، وهم بأنفسهم نفوا صفة الشعر عن القرآن الكريم وعن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحديث الوليد بن المغيرة بين الملاء من قريش مشهور ومعروف⁽¹⁾ والله يقول: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا

(1) روى الحاكم، وغيره، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأثاه، فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فوالله، ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني، والله، ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر

يَتَّبِعِي لَهَّ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ) (يس:69). وإن الشعر كَفَنٍ من فنون البيان معروف للعامة قبل الخاصة، وهذا القزم تجراً على ما لم يتجرأ عليه أبو جهل وكفار قريش والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين!! يقول: كل ما أثر شعر وبالتالي فالقرآن شعر. وهذا كذب بيّن فالتأثر موجود بالنثر مكتوباً أو إلقاءً (خطابة).

وزعم أن القصص القرآني، باستثناء قصة يوسف عليه السلام، مشتت وليس فيه سرد كامل للقصة، وادعى - كذباً - أنه أول من التفت لهذا. وهو ينقل عن المستشرقين وليس رأساً في هذا الضلال كما يزعم فقد عرّ على المستشرقين فهم فوائد التكرار في القرآن الكريم فطالبوا بإعادة صياغته وحذف المكرر منه. وقد أكثر علماء الأمة في بيان فوائد التكرار في القرآن الكريم، ومنّ الله علي بتقديم إضافة في هذه المسألة في مقال بعنوان "من فوائد التكرار في القرآن الكريم"⁽¹⁾. وكذلك ثمة فرق كبير بين أسلوب القرآن الكريم والأسلوب العلماني (الأكاديمية)، فكل منهما في وادٍ⁽²⁾. فلا يصح أن نحاكم القرآن الكريم للأسلوب الغربي في الكتابة، فأين الثرى من الثريا؟!!

ثانياً: ارتباط النص بالزمان والمكان:

تحدثت مدرسة "الهرمنيوطيقا" عن أن النص مرتبط بالزمان والمكان (البيئة التي ظهر

أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر، قال: (هذا سحر يؤثر) بأثره عن غيره، فنزلت: ذرني ومن خلقت وحيداً. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ينظر: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، (بيروت، الرسالة، 1405هـ/1985م)، ج1، ص125.

(1) ينظر: "من فوائد التكرار في القرآن الكريم" لمحمد جلال القصاص،

<http://www.saaaid.net/Doat/alkassas/300.htm>

(2) ينظر: "العبوس المتغطرة" لمحمد جلال القصاص،

<http://www.saaaid.net/Doat/alkassas/298.htm>

فيها)، وأن على كل أصحاب زمانٍ ومكانٍ أن يجتهدوا في إعادة تفسير النص بما يوافق زمانهم ومكانهم. بمعنى أن البعثة المحمدية بكل ما جاءت به من نصوص (كتاب وسنة) وما في النصوص من نبأ الأولين والآخرين مما لم يكن معروفاً في مكة ولا حولها، وتشريعاتٍ في جميع جوانب الحياة تُعجز كل من عُني بخطة إصلاحية أن يأتي بمثلها، والتطبيق العملي الذي تحقق على يد النموذج الأول من البعثة (الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم).. أولئك الذين غيروا وجه الجزيرة العربية وبلاد فارس وكثيراً من بلاد الرومان، زعموا أن هذا كله نتاج البيئة التي ظهرت فيها البعثة المحمدية!!

فزعم نصر حامد أبو زيد أن القرآن الكريم توافق مع حركة الدعوة في مكة والمدينة (قرآن مكّي وقرآن مدني)، ثم مع حركة المسلمين بعد ذلك (في عهد الراشدين والذين من بعدهم)، يقول: كلٌ يستدعي من النص ما يوافق واقعه الذي يعيشه. وكأن الوحي (الكتاب والسنة) تابع لا مؤسس. يقول كل من مرّ بالنص أوّله تبعاً لما يجب!! ولذا ظن أن من شغل بالقرآن الكريم إنما شغل به لتأويله تبعاً لهواه لا لمعرفة مراد الله من عباده. ولذا عمم "التأويل"، فذكر أن التأويل تعدّد حسب المجالات التي تعلق بعلم القرآن الكريم، فذكر التأويل اللاهوتي⁽¹⁾ (الديني، والمتدينون عنده هم المعتزلة)، وتأويل أدبي يتعلق بالسياق اللفظي (المجاز). وتأويل الأحكام (المحكم والمتشابه، وفي هذا السياق زعم أن القرآن الكريم متشابه كله.. أو ظني الدلالة كله، وأن المحكم غير موجود؛ ثم التأويل الصوفي، وينقل عن ابن عربي أن المعنى لا نهائي!! وينفي وجود نصوص قطعية الدلالة في القرآن الكريم، يقول: كل نصوص القرآن الكريم ظنية الدلالة، ويتنكر للعموم والخصوص والمطلق والمقيد، وما تحدث به علماء

(1) يستخدم المفردات الكنسية: (اللاهوت)، (يوم الدينونة). مع أنه يتحدث عن القرآن الكريم!!

أصول التفسير من قواعد ضابطة للفهم عن الله، فالكل عنده متأول. الكل عنده يفهم النص حسب هواه، يقول: دائماً يوجد تأويل وتأويل مضاد، والذي يسود هو ذو القوة (السلطة) وليس صاحب الحق.

وقوله غير صحيح، فكل سلطة (عادلة أو ظالمة) معها معرفة أنتجت هذه السلطة ابتداءً وتؤديها بعد أن سادت وتسلطت على الناس. والعكس: كل معرفة منزوية (مستضعفة) تظل تبحث عن أدوات للتمكين (سلطة) حتى تتمكن. فالحال على ما قال الله.. تداول. (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (ال عمران: 140)، لا أن كلام ذي السلطان هو الذي يستقر. فالسلطان لا يبقى... يذهب ومن أيده.

وأوضح مثال على هذا هو القرآن الكريم نفسه، فقد صنع الله بما في كتابه جيلاً فريداً غير به واقع مكة والمدينة فالجزيرة ثم فارس والروم والدنيا كلها.

ودعا "نصر حامد أبو زيد" إلى ترك التعامل مع القرآن الكريم كنص والتعامل معه كخطاب، ويعرّف الخطاب بأنه "بنية تحاورية، تجادلية، سجالية، بين أصوات متعددة"، يقول: الله تكلم بالقرآن (أوحى به) ولكن تفاصيل القرآن تحدث بها كثيرون: أحدهم الله، جل جلال ربنا وتقدس، (ويسميه المقدس، ولا ينطق لفظ الجلالة)، ومعه آخرون، البشر (أنبياء وعامة، يهود، نصارى، وعوام، ومنافقين.. الخ)، والحيوانات (قالت نملة) والطيور (جئتكم من سبأ نبأ يقين..).

وكأن هذا الذكر الحكيم تابع لأهواء البشر. والله يقول: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود: ١). فالقرآن محكم (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) (آل عمران: من الآية 7). والقرآن مفصل. يقول الله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ) (النحل: 89)، ويقول الله تعالى: (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) (الإسراء: 12)، ويقول الله تعالى: (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام: من الآية 28). ويقول الله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(الإسراء من الآية 9)، هادٍ وليس نتاج بيئة أو حركة اجتماعية. نور نزل من الله فتغيرت به البشرية (يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) (المائدة: 74).

والقول بأن "المجتمع مُنتج ثقافي واجتماعي" يستبطن أن النبي، صلى الله عليه وسلم، هو الذي جاء بالقرآن من عند نفسه، فكأنه كان يستحضر من القرآن حسب الموقف، وفي تفصيل البعثة أن القرآن كان موجهاً ولم يكن تابعاً. قد كان النص ينزل فيمثل لما فيه من أمر ونهي، لا أنه يُستدعى مؤيداً.

والقول بأن "المجتمع مُنتج ثقافي واجتماعي" لا يقبله عاقل، فبدهي أن ذات البيئة، بل ذات البيت ظهر فيه الأضداد، فقد كان خير خلق الله، صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب وأبو لهب، كانوا من بيئة واحدة، بل من بيت واحد (بني عبد المطلب بن هاشم). و-أيضاً- من صلب رأس النفاق (ابن سلول) خرج ابنه (عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول)، وكان ممن يحب الله ورسوله. وفي بيت نبي الله نوح - عليه السلام - تربى ولده الذي كان من المعرّقين. وفي بيت فرعون كانت آسية التي صدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين. وفي بيتي نوح، ولوط - عليهما الصلاة والسلام - امرأتان كانتا على غير ما عليه زوجيهما. فكيف يقال أنها البيئة وأنها العوامل الوراثية؟

وشيء آخر: هو "فجائية الدعوة". أو أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يتعرض، قبل البعثة.. ولا بعدها، لإعداد معرفي من البيئة المحيطة به، فلم يُعرف عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه طلب العلم على يد معاصريه، أو أنه قرأ في صحف السابقين له، أو أنه، صلى الله عليه وسلم، برز في فن من الفنون المعرفية التي انتشرت في بيئته كالشعر والخطابة. كانت صياغة ربانية نزل بها الروح الأمين (جبريل عليه السلام) على محمد صلى الله عليه وسلم. ولم تكن تطوراً من البيئة.

هذا هو الواقع الذي رأيناه على صفحات الأيام: تغير حال الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم، ثم حال المدينة ومكة، ثم العرب، ثم ما جاور العرب من بلاد فارس والرومان على يد من لم يتعلم سوى الوحي الذي نزل من الله، وحدث ذلك فجأة دون مقدمات معرفية أو حركية من البيئة التي خرجوا منها (مكة المكرمة).

ثالثاً: استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة:

ومن هذا المنطلق (التطور ومواكبة العصر وحتمية البيئة) تحدثوا عن وجوب التقليل من التفكير الغيبي (الأخروي) والإكثار من التفكير الاجتماعي أو الفهم الاجتماعي الحر للدين، وهم في هذا يحاولون التوافق مع الغرب المادي الذي لا يعرف سوى الحياة الدنيا (يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفُلُونَ) (الروم: 7). ويطنون أن الحصول على "الرفاهية" الدنوية لا بد أن يمر من خلال التخلي عن الخطاب الأخروي. يطنون أن "الرفاهية" لا تنال إلا بخطابٍ دنيوي.

وإن الوحي (كتاباً وسنة) غني بالأساس بالدار الآخرة. أو: اتخذ الوحي (كتاباً وسنة) من الترغيب في الجنة وما فيها من نعيم، والترهيب من النار وما فيها من عذاب أليم.. مهين.. عظيم، منطلقاً لإصلاح حال الناس في دنياهم (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: 97)، أو: الرسالة إنما جاءت لتعبيد الناس لله ليفوزوا بما أعد الله للصالحين من نعيم وينجوا مما توعد به العاصين من عذاب أليم، أو: الحياة الدنيا دار اختبار وثمة آخرة.. مستقرة ليس بعدها شيء. فيها عذاب أليم للعاصين ونيعم مقيم للطائعين (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون: 115)، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ.. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: 8-7)، وإن هذا الخطاب الأخروي قدّم للبشرية أفضل نموذج عرفته على الإطلاق.

وعملياً لم تساهم مخرجات هذه المدرسة وأمثالها في تقدم الأمة وإنما كانوا أداة في الصراع الثقافي مع الغرب. فهؤلاء لم يخرجوا من مكاتبهم وأقبيتهم، ولم يقدموا مشاريع عملية للنهوض بالأمة.. لم يتحدثوا في أكثر من المطالبة في الدخول في المنظومة الثقافية الغربية.. كأن التقدم لا يكون إلا بهذا. واشتهر أمرهم بين الناس بسبب تأييدهم من قبل أدوات العلمانية الغربية، وخاصة الإعلام، هي التي امتطت ظهر هؤلاء وقاتلت من على ظهرهم الشريعة وأهلها، فالفاعل الرئيسي هو الغرب ومن اتبع هوى الغرب من أصحاب الأدوات.. هم الذين أخرجوا كلام هؤلاء وحاولوا تفعيله بين الناس.. هم الذين يحاولون تقديم أعداء الوحي رموزاً للناس كي يتبعوهم.

رابعاً: مضمون النص:

من أهم أسباب الانحراف عند هؤلاء ظنهم أن النص هو، فقط، منطوق القرآن الكريم.. ما بين دفتي المصحف الشريف . وإن النص عندنا هو منطوق القرآن الكريم ومعه السنة النبوية الشارحة والتطبيق العملي الذي قام به الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم بين يديه وسيرة الخلفاء الراشدين في الحكم. فالسنة النبوية من الوحي، وقد أرسل الله الكبير المتعال، سبحانه وعز وجل، أنبياءه بكتابٍ وسنة شارحة (حكمة) يقول الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) (آل عمران: 81). (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) (آل عمران: 48)، (وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) (الأحزاب: 34). وذكر أن الاهتداء يكون باتباع ما كان عليه محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضوان الله عليهم، (فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا) (البقرة: 137)، وفي الحديث "فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة"، ومثل هذا كثير في الوحي (القرآن الكريم

والسنة النبوية). (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: من الآية 7).

إننا تلقينا نصًا وطريقة فهمه وطريقة تطبيقه.. تلقينا نصًا ونموذجًا عمليًا للتطبيق، فليس لأحد أن ينفرد بما بين دفتي المصحف ثم يقول هذا هو النص الشرعي، ثم يُعمل فيه الاحتمالات من عند نفسه، وقد حذرنا من هذا الفعل.

وقد ذكر الدكتور محمود خليل (مدير إذاعة القرآن الكريم المصرية سابقًا)، أن عدو القرآن هذا خط بيده، في أواخر أيامه بعض التراجعات تتعلق بالاعتراف بنبوة النبي، صلى الله عليه وسلم، والاعتراف بعالمية الإسلام. وليست تراجعات على الحقيقة، وإنما الاعتراف بنبوة النبي، صلى الله عليه وسلم، وعالمية الإسلام يأتي ضمن موضحة فكرية عالمية انتشرت في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي، مع تحول الغرب من الإلحاد الصلب (الكفر بالغيب وبالتالي الأديان كليا) إلى الإلحاد النسبي القول بأن الحقيقة نسبية وأن الكل حاضر.. الإسلام وغير الإسلام، وفي هذا السياق تجد الملحدين اليوم ينتمون إلى "الديانات الإبراهيمية".. حالة من الشك (لا أدري). وتجد رؤساء الإلحاد يصفون محمدًا، صلى الله عليه وسلم، بالنبوة، بمعنى يتنبأ، كما العرافين والمشعوذين، ويعترفون بالإسلام كأحد نماذج الإيمان، بل إن عديدًا من الملحدين يتجمعون تحت شعار "مؤمنون بلا حدود".

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

عدو القرآن نصر حامد أبو زيد

د. محمد جلال القصاص⁽¹⁾

حين تتأمل في مخرجات نصر حامد أبو زيد، وتحاول التعرف على الخيط الناظم لأفكاره. وتعيد النظر مرة بعد مرة. فلن تجد إلا شيئاً واحداً، ألا هو بغضه وعداوته للقرآن الكريم!

ويمكننا تلخيص أفكار نصر حامد أبو زيد في محورين رئيسيين على النحو التالي:

المحور الأول: ادعاء أن البعثة المحمدية إفراس للبيئة (المجتمع) الذي ظهرت فيه. حيث زعم أن "المجتمع مُنتج ثقافي واجتماعي" بمعنى أن البعثة المحمدية بكل ما جاءت به من نصوص (كتاب وسنة) وما في النصوص من نبأ الأولين والآخرين مما لم يكن معروفاً في مكة ولا حواليتها، وتشريعاتٍ في جميع جوانب الحياة تُعجز كل من عُني بخطة إصلاحية أن يأتي بمثلها، والتطبيق العملي الذي تحقق على يد النموذج الأول من البعثة (الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم).. أولئك الذين غيروا وجه الجزيرة العربية وبلاد فارس وكثيراً من بلاد الرومان، يزعم أن هذا كله نتاج البيئة التي ظهرت فيها!!

زعم أن القرآن الكريم توافق مع حركة الدعوة في مكة والمدينة (قرآن مكّي وقرآن مدني)، ثم مع حركة المسلمين بعد ذلك (في عهد الراشدين والذين من بعدهم)، يقول: كلُّ استدعي من النص ما يوافق واقعه الذي يعيشه وكأن الوحي (الكتاب والسنة) تابع لا مؤسس. يقول كل من مرّ بالنص أوله تبعاً لما يجب!! ولذا ظن أن

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

من شغل بالقرآن الكريم إنما شغل به لتأويله تبعًا لهواه لا لمعرفة مراد الله من عباده. ولذا عمم "التأويل"، فذكر أن التأويل تَعَدَّدَ حسب المجالات التي تعلقت بعلوم القرآن الكريم، فذكر التأويل اللاهوتي⁽¹⁾ (الديني، والمتدينون عنده هم المعتزلة)، وتأويل أدبي يتعلق بالسياق اللفظي (المجاز) وإمامه في هذا "أمين الخولي" ويأتي الحديث عنه وعن هذه المدرسة في نهاية المقال. وتأويل الأحكام (المحكم والمتشابه، وفي هذا السياق زعم أن الذكر الحكيم متشابه كله.. أو ظني الدلالة كله، وأن المحكم غير موجود)؛ ثم التأويل الصوفي وينقل عن ابن عربي أن المعنى لا نهائي!! وكأن هذا الذكر الحكيم تابع لأهواء البشر، والله يقول: (كِتَبٌ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود: ١)، والله يقول: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء من الآية 9)، فالقرآن هادٍ وليس نتاج بيئة أو حركة اجتماعية، وإنما نور نزل من الله فتغيرت به البشرية (يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) (المائدة: 74). والله يقول: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: 89)، والله يقول: (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام: من الآية 28).

والقول بأن "المجتمع مُنتج ثقافي واجتماعي" لا يقبله عاقل، فبدهي أن ذات البيئة، بل ذات البيت ظهر فيه الأضداد، فقد كان خير خلق الله، صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب وأبو لهب، كانوا من بيئة واحدة، بل من بيت واحد (بني عبد المطلب بن هاشم). و-أيضًا- من صلب رأس النفاق (ابن سلول) خرج ابنه (عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول)، وكان ممن يحب الله ورسوله. وفي بيت نبي الله نوح - عليه السلام - تربى ولده الذي كان من المعرّقين. وفي بيت فرعون كانت آسية التي صدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين. وفي بيتي نوح، ولوط - عليهما

(1) يستخدم المفردات الكنسية: (اللاهوت)، (يوم الدينونة). مع أنه معني بالقرآن الكريم!!

الصلاة والسلام - امرأتان كانتا على غير ما عليه زوجيهما. فكيف يقال أنها البيعة وأنها العوامل الوراثية؟

وشيء آخر: هو "فجائية الدعوة". أو أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يتعرض، قبل البعثة، لإعداد معرفي من البيعة المحيطة به، فلم يُعرف عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه طلب العلم على يد معاصريه، أو أنه قرأ في صحف السابقين له، أو أنه، صلى الله عليه وسلم، برز في فن من الفنون المعرفية التي انتشرت في بيئته كالشعر والخطابة. إذ أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يتحدث إلى الناس إلا بعد البعثة وبما أوحى الله إليه من الذكر الحكيم والسنة النبوية. وكذلك صحابته رضوان الله عليهم، إذ أنه لا يعرف عن الخلفاء الراشدين أنهم ساسوا الناس بتعاليم شرقية أو غربية، وإنما اقتصر إعدادهم على ما تلقوه من الوحيين (الكتاب والسنة)، فلم يتلمذ أبو بكر ولا عمر ولا ذو النورين عثمان ولا علي الإمام إلا على الكتاب والسنة⁽¹⁾.

وتتضح، وتتأكد، فجائية الدعوة من أمية النبي، صلى الله عليه وسلم، (وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (العنكبوت: 48). وأنه صلى الله عليه وسلم، لم يخرج من مكة المكرمة إلا مرة أو مرتين لتجارة وكان بينهم لم يفارقهم ولذا احتج عليهم في القرآن الكريم بأنه صاحبهم (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) (النجم: 2)، (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) (التكوير: 22) أي تعرفونه معرفة الصاحب بصاحبه. ولم يعرف عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه تعلم على يد أحد، ولم يعرف عنه، صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة الاهتمام بالشأن العام ومحاوله السعي في تغيير حال الناس أو مزاحمة الملأ في إدارة المجتمع (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس: 16)، ولم

(1) ينظر: "كيف تعمر الأرض بالعابدين" للكاتب، من هذا الرابط:

يعرف عنه، صلى الله عليه وسلم، قول الشعر أو الخطابة (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (يسن: 69). كانت صياغة ربانية نزل بها الروح الأمين (جبريل عليه السلام) على محمد صلى الله عليه وسلم. ولم تكن تطوراً من البيئة.

هذا هو الواقع الذي رأيناه على صفحات الأيام: تغير حال الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم، ثم حال المدينة ومكة، ثم العرب، ثم ما جاور العرب من بلاد فارس والرومان على يد من لم يتعلم سوى الوحي الذي نزل من الله، وفجأة دون مقدمات معرفية أو حركية من البيئة التي خرجوا منها (مكة المكرمة).

المحور الثاني: بغض القرآن الكريم، أو ما يسميه هو بـ "إعادة تعريف القرآن".

مع أن بعض آيات الذكر الحكيم حاضرة في ذهنه وعلى لسانه، ومع ظهور اطلاعه على ما تحدث به علماء البيان الأوائل، ومع أنه نبت في بيئة قروية وليس تحت تأثير مستشرقين، مع هذا كله إلا أنه وقف أمام القرآن، وهو قزم يناطح السموات العلاء، يتحدث بالغريب والشاذ مما قاله السابقون والمعاصرون، فدعا إلى إعادة تعريف القرآن من النص إلى الخطاب، بمعنى: دعا إلى أن يترك الناس القول بأن القرآن الكريم نص محكم البيان (قطعي الثبوت وقطعي الدلالة غالباً وظني الدلالة أحياناً كما قال الله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) (آل عمران: ٧) ويتحدثوا بأن القرآن الكريم خطاب، ويعرف الخطاب بأنه "بنية تحاورية، تجاذلية، سجالية، بين أصوات متعددة"، يقول: الله تكلم بالقرآن (أوحى به) ولكن تفاصيل القرآن تحدث بها كثيرون: أحدهم الله، جل جلال ربنا وتقدس، (ويسميه المقدس)، ومعه آخرون: البشر (أنبياء وعامة، يهود، ونصارى، وعوام، ومنافقين.. إلخ)، والحيوانات (قالت نملة) والطيور (جئتك من سبأ بنياً يقين..). وينفي وجود نصوص قطعية الدلالة في القرآن الكريم، يقول: كل الدلالة ظنية،

ويستدعي هنا: الناسخ والمنسوخ (من حيث وجوده ومن حيث كثرته)، ويتنكر للعموم والخصوص والمضاف والمضاف إليه وما تحدث به علماء أصول التفسير من قواعد ضابطة للفهم عن الله، ويستدعي قضية التأويل، ويقول بعموم التأويل: فالكل عنده متأول. الكل عنده يفهم النص حسب هواه، يقول: دائماً ما يوجد تأويل وتأويل مضاد، والذي يسود هو ذو القوة (السلطة) وليس صاحب الحق. وقوله هذا غير صحيح، فكل سلطة (عادلة أو ظالمة) معها معرفة أنتجت هذه السلطة ابتداءً وتؤديها بعد أن سادت وتسلطت، وكل معرفة منزوية (مستضعفة) تظل تبحث عن أدوات للتمكين (سلطة) حتى تتمكن، فالحال على ما قال الله.. تداول. (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (ال عمران: 140)، لا أن كلام ذي السلطان هو الذي يستقر كما يدعي هذا!!

وخير نموذج على هذا هو القرآن الكريم فقد صنع الله بما في كتابه جيلاً فريداً غير به واقع مكة والمدينة والجزيرة ثم فارس والروم.

ومن أقبح ما خط في كتبه وتفوه بلسانه ادعاء أن القصص القرآني للعظة والتسلية لا ذكراً لأحداث حدثت بالفعل، فعاداً وثمود وموسى، وفرعون وقومه، وإسرائيل (يعقوب) وبنو إسرائيل، والمسيح، والخليل إبراهيم لم يكونوا شهوداً، والله يقول: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) (السجدة: ٢٦)، والله يقول: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِالْآيَاتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الصفوات: ١٣٧ - ١٣٨)، وهو بهذا يزايد على غلاة المستشرقين والملحددين (الوضعيين ... أولئك الذين قالوا: نؤمن بما شاهدناه في واقعنا لا بما أخبرنا به القرآن والكتاب "المقدس" بعهديه القديم والحديث)، فهؤلاء آمنوا بما له آثار في الواقع، أما هذا فأعرض وجنح لأشد ما يتناول به على كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم!!

وزاد على تكذيب الخبر (القصص القرآني) التهكم على الأسلوب فزعم أن القصص القرآني، باستثناء قصة يوسف عليه السلام، مشتت وليس فيه سرد كامل للقصة، وادعى - كذباً - أنه أول من التفت لهذا، وهو ينقل عن المستشرقين وليس رأساً في الضلال كما يزعم، وقد أكثر علماء الأمة في بيان فوائد التكرار في القرآن الكريم، وقد من الله علي بتقديم إضافة في هذه المسألة في مقال بعنوان "من فوائد التكرار في القرآن الكريم"⁽¹⁾، وثمة فرق كبير بين أسلوب القرآن الكريم والأسلوب العلماني (الأكاديمية)، كل منهما في واد⁽²⁾.

وزعم أن التحدي لم يكن من القرآن وحده كما قال الله: **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (البقرة: ٢٣)، يقول: بل كان التحدي من قريش أيضاً، ويستحضر ما طلبوه من معجزات، مثل: **(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)** (الإسراء: ٩٠)، وما بعدها من آيات، يظن أن عدم إجابة طلبهم المعجزات عجز. يقول: كان التحدي من الطرفين. وهي جرأة على الله وجهل بالله وصفاته وما أنزله على نبيه، أو جرأة على الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد وجدت المعجزات، وبكثرة، ولكن لم تتم إجابة الكفار لما طلبوه، رحمة بالأمة حتى لا يصيبها ما أصاب من قبلها حين طلبوا المعجزة ولم يؤمنوا بها، يقول الله تعالى: **(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)** (الإسراء: ٥٩)، **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**

(1) ينظر: "من فوائد التكرار في القرآن الكريم" لمحمد جلال القصاص،

<http://www.saaaid.net/Doat/alkassas/300.htm>

(2) ينظر: "العبوس المتغطرة" لمحمد جلال القصاص،

<http://www.saaaid.net/Doat/alkassas/298.htm>

فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (المائدة: 115).

وادعى أن القرآن نوع من الشعر. يقول: قريش أعلم بما هو شعر مما ليس بشعر، وبالتالي فإنها حين وصفت القرآن بالشعر فإن قولها معتبراً!!

وقريش كانت تكذب وهي تعلم أنها تكذب، كانت تكذب لتصد الناس عن دين الله (قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَاءتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ) (الأنعام: 33)، (وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) (النحل: 103) وهم بأنفسهم نفوا عن القرآن الكريم صفة الشعر، ونفوا عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، صفة الشعاعية، وحديث الوليد بن المغيرة بين الملاء من قريش مشهور ومعروف. وإن الشعر كفن من فنون البيان معروف للعامة قبل الخاصة، وهذا القزم يتجرأ على ما لم يتجرأ عليه أبو جهل ورفاقه من كفار قريش والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.. يقول: كل ما أثر فهو شعر وبالتالي فالقرآن شعر. وهذا كذب بيّن فالتأثر موجود بالثر مكتوباً أو إلقاءً (خطابة).

وقد ذكر الدكتور محمود خليل (مدير إذاعة القرآن الكريم سابقاً)، أن عدو القرآن هذا خط بيده، في أواخر أيامه بعض التراجعات تتعلق بالاعتراف بنبوة النبي، صلى الله عليه وسلم، والاعتراف بعالمية الإسلام. ولا شيء من هذه الاعترافات تتعلق بما ورد في هذا المقال، وإنما الاعتراف بنبوة النبي، صلى الله عليه وسلم، وعالمية الإسلام يأتي ضمن موضة فكرية عالمية انتشرت في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي، مع تحول الغرب من الإلحاد الصلب (الكفر بالغيب وبالتالي الأديان كلياتاً) إلى الإلحاد النسبي القول بأن الحقيقة نسبية وأن الكل حاضر.. الإسلام وغير الإسلام، وفي هذا السياق تجد الملحدين اليوم ينتمون إلى "الديانات الإبراهيمية".. حالة من الشك (لا أدري). وتجد رؤساء الإلحاد يصفون محمداً، صلى الله عليه وسلم، بالنبوة، بمعنى

يتنبأ، كما العزافين والمشعوذين، ويعترفون بالإسلام كأحد نماذج الإيمان، بل إن عديداً من الملحددين يتجمعون تحت شعار "مؤمنون بلا حدود".

وبعد:

يتبع "نصر أبو زيد" مدرسة تأسست في الجيل الذي سبقه. بدأت إرهاباتها منذ مطلع القرن العشرين، بعد مخالطة الأمة العربية للثقافة الأجنبية، على يد "أمين الخولي" (1895-1966م)، فهو شيخ المدرسة وإليه تنسب، ومعه أفراد تحدثوا بمثل ما يقول، مثل: تلميذه محمد أحمد خلف الله (1916-1991م)، ومصطفى عبده ناصف (1921م-2008م)، وعبد الفتاح شكري عياد (1921-1999م)، وحسين محمد نصار (1925-2017م)، وشكري عمر فيصل (سوري الجنسية 1918-1985م).

وانطلقت هذه المدرسة من فكرتين رئيسيتين: الأولى: هي التطور المعرفي، والثانية: "حتمية الواقع"⁽¹⁾، ومحصلة هاتين الفكرتين: أن لكل زمان ومكان ما يناسبه، وبالتالي فإن "التجديد" واجب إذا اختلف الزمان والمكان، بمعنى إعادة قراءة الشريعة بما يناسب الزمان والمكان. ومن هذا المنطق (التطور) قالوا: بالتأويل (تأويل النص) تبعاً للسياق الذي يقرأ فيه، وهم في هذا يتوافقون مع مدرسة "الهرمنيوطيقا" الغربية، أو بالأحرى يطبقونها على النصوص الشرعية كما طبقت على نصوص الكتاب "المقدس".

(1) وانطلق عباس العقاد من ذات الفكرتين (حتمية البيئة والتطور)، بمعنى أن أطروحات عباس العقاد كانت تطبيقاً لهاتين الفكرتين، وقدمت مناقشة موسعة له في كتاب مستقل، وإن شاء الله أكتب بشكل منفصل عن هذه الفكرة كقاسم مشترك بين العقاد وغيره، وعلاقة ابن خلدون بهذا الطرح. وكل ما يقال هنا قلته في مقالات من قبل لمن شاء المراجعة.

ومن هذا المنطلق (التطور وحتمية البيئة) جعلوا العقل مركزاً، وأعطوه أولوية على النص وقالوا بأن العقل أوسع مدى من الوحي. وهو الهوى على الحقيقة، وهم الذين اتبعوا أهواءهم. يقول الله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (الجاثية: 23)

ومن أسباب الانحراف عند هؤلاء ظنهم أن النص هو منطوق القرآن الكريم.. ما بين دفتي المصحف الشريف. وإن النص عندنا هو منطوق القرآن الكريم ومعه السنة النبوية الشارحة والتطبيق العملي الذي قام به الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم بين يديه وسيرة الخلفاء الراشدين في الحكم. فالسنة النبوية من الوحي، وقد أرسل الله الكبير المتعال، سبحانه وعز وجل، أنبياءه بكتاب وسنة شارحة (حكمة) يقول الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) (آل عمران: 81). (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ) (آل عمران: 48)، (وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْتَلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) (الأحزاب: 34). وذكر أن الاهتداء يكون باتباع ما كان عليه محمد، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضوان الله عليهم، (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهْتَدُوا) (البقرة: 137)، وفي الحديث "فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة"، ومثل هذا كثير في الوحي (القرآن الكريم والسنة النبوية). إننا تلقينا نصاً وطريقة فهمه وطريقة تطبيقه.. تلقينا نصاً ونموذجاً عملياً للتطبيق فليس لأحد أن ينفرد بما بين دفتي المصحف ثم يقول هذا هو النص الشرعي، ثم يعمل فيه الاحتمالات من عند نفسه، وقد حذرنا من هذا الفعل ومن يفعله ولا أريد الإطالة، والمقام مقال، (وَمَا ءَاتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: من الآية 7).

ومن هذا المنطلق (التطور ومواكبة العصر وحتمية البيئة) تحدثوا عن وجوب التقليل من التفكير الغيبي (الأخروي) والإكثار من التفكير الاجتماعي أو الفهم الاجتماعي الحر للدين، وهم في هذا يحاولون التوافق مع الغرب المادي الذي لا يعرف سوى الحياة الدنيا (يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ) (الروم: 7). وإن الوحي (كتابًا وسنة) غني بالأساس بالدار الآخرة. أو: اتخذ الوحي (كتابًا وسنة) من الترغيب والترهيب منطلقًا لإصلاح حال الناس في دنياهم، أو: الرسالة إنما جاءت لتعبيد الناس لله ليفوزوا بما أعد الله للصالحين من نعيم وينجوا مما توعد به العصاة من عذاب أليم، أو: الحياة الدنيا دار اختبار وثمة آخرة.. مستقرة ليس بعدها شيء. فيها عذاب أليم للعاصين ونييم مقيم للطائعين (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون: 115)، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: 7-8).

وقد تجرؤوا وكذبوا أخبار القرآن الكريم (القصص القرآني). قالوا أن كثيرًا منه لم يحدث، قالوا أن قصص القرآن أساطير (حكايات خرافية) قصد بها الوعظ. إي والله. قالوا ما قال كفار قريش بالحرف الواحد، وتدبر: (وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (الأنعام: 25)، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (النحل:)، (إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (القلم: 15). وحين واجهوا الجمهور وحاولوا تخفيف العبارة تحدثوا بأن قصص القرآن حبكة (صياغة) أدبية من أجل العظة!! وهي ذات الأفكار التي ردها طه حسين وغيره.

وهؤلاء متأثرون بالمدارس الغربية.. آمنوا "بالمهرنوطيقا/ التأويل" الغربية وحاولوا قراءة القرآن بهذه الرؤية الغربية. كانوا ضمن موضة فكرية أساسها الغرب أو الرغبة في التوافق مع الغرب.

وعملياً لم تساهم مخرجات هذه المدرسة في تقدم الأمة وإنما كانوا أداة في الصراع مع الغرب. فهؤلاء لم يخرجوا من مكاتبهم وأقبيتهم التي يتصفحون فيها ولم يقدموا مشاريع عملية للنهوض بالأمة، وإنما أدوات الغرب والعلمانية، وخاصة الإعلام، هي التي امتطت ظهر هؤلاء وقاتلت من على ظهرهم الشريعة وأهلها، فالفاعل الرئيسي هو الغرب ومن اتبع هوى الغرب من أصحاب الأدوات.. هم الذين أخرجوا كلام هؤلاء وحاولوا تفعيله بين الناس.. هم الذين يحاولون تقديم أعداء الوحي رموزاً للناس كي يتبعوهم.

وإن ما قاله نصر أبو زيد والحوالي وأمثالهم قيل من قبلهم في مكة من كفار قريش، وقيل من المستشرقين والمنصرين، ولم يأتوا بجديد غير أنهم أعربوا عن مرض في قلبهم، وعن كرهه لما أنزل الله على محمد، صلى الله عليه وسلم. وردوا حياض الكافرين (الابتعاث للفتايات كان والألمان، وتبني نظرياتهم [الهرمنيوطيقا]) فأطاعوهم في بعض الأمور. وحاولوا التوافق مع الكافر، وقد مضوا إلى ربهم ولا بد أنهم يحاسبون على قولهم (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: 7-8)، والله يقول: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ. فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ) (محمد: 26-27).

د. محمد جلال القصاص

26 صفر 1444هـ

2022 / 09 / 22

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
خطيئة ابن خلدون

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يُعدُّ عالم الاجتماع العراقي الشهير الدكتور علي الوردي أحدَ أهمِّ وأشهرِ من اهتموا بمخرجاتِ ابنِ خلدون. ومن أهمِّ ما كتبَ "الورديُّ" عن ابنِ خلدون كتابًا بعنوان "منطقُ ابنِ خلدون". وفي مقدمةِ هذا الكتابِ عقدَ مقارنةً بينِ المفكرِ الإيطالي سيءِ السمعة ميكايلي و ابنِ خلدون، وذكرَ أن آراءَ ابنِ خلدون كانت أشدَّ انحرافًا عنِ شرعةِ الأخلاق والأديان من آراءِ ميكايلي، ولكنَّ الناسَ لم ينتبهوا لها، وذلك لأن ابنِ خلدون كتبَ بأسلوبٍ دبلوماسي غطَّى به الآراءَ المنحرفةَ بغطاءٍ براقٍ.

ومعلومٌ أن الناسَ أهملوا ابنَ خلدون بعد وفاته لقرونٍ عدة، فلم يلقَ اهتمامًا ممن حولَه ولا من الذين جاءوا من بعده، كما كان الحال مع الأئمةِ الأعلامِ كالإمام مالكٍ والشافعي وأحمد بن حنبلٍ والبخاري وابنِ تيمية وابنِ القيم. فكيف، ولماذا، زاع صيِّتُ ابنِ خلدونِ اليوم، وهو على ما وصف علي الوردي من الانحرافِ الشديد؟!

عكف المستشرقون على قراءة التراثِ الإسلامي وعمدوا إلى إخراجِ النماذجِ الشاذةِ منه، وكان الهدفُ العام هو تقديمُ قراءةٍ للإسلام تتوافقُ مع السياقِ العلماني الناشيء في أوروبا؛ فكان مما أخرجوه كتاباتِ ابنِ خلدون. اهتم به الغربيون لشيءٍ رئيسي أحدثه في الفكر الإسلامي، وهو القولُ بأن البيئةَ هي التي تُشكِّلُ سلوكك

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

الإنسان... بمعنى أن البيئة هي المؤثر الأكبر في شخصية الإنسان.. في أفكاره ومزاجه ولون بشرته.. وكل ما يظهر من سمات شخصية على الإنسان.

ويترتب على ذلك أشياء من أهمها: الاستسلام للقيم السائدة في البيئة التي نعيش فيها، وهي قيم العلمانية التي احتلت بلاد المسلمين. بمعنى أن أفكار ابن خلدون عن هيمنة البيئة وتحكمها قدمت تبريراً للاستسلام لواقع تغريب الشريعة.. قدمت تبريراً لهيمنة العلمانية. وليس هذا فقط بل قدمت دعماً لأمّهات الأفكار المنحرفة الوافدة إلينا من عند الغرب، مثل فكرة التطور في المجال الثقافي والعلمي والتي تعني أن البشرية تسير في خطٍ مستقيم وأن ما عليه الناس الآن في تفاعلاتهم الاجتماعية هو الرشد. يقولون الديمقراطية الغربية حالة من الرشد البشري، يقولون هذا وهي تفعل بهم وبنا ما لا يخفى على أحدهم، ويتفرقون حول هذه الفكرة ليُجمّلوها ويمرّروها على المسلمين، فبعضهم يحاول أسلمتها وبعضهم يحاول مد الجسور بينها وبين الإسلام، وبعضهم يمررها بدعوى الإضطرار، وكلهم قادمون من عند ابن خلدون.. من القول بأن السائد في البيئة لا يمكن دفعه.

ومن أخبث التطبيقات على فكرة ابن خلدون هذه القول بأن البعثة المحمدية بنت بيتها، وأن ما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، تطور للبيئة. وهو محور رئيسي عند الرافضين لرسالة الله للبشر بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وقد ناقشت هذا بشيء من التفصيل في مقال بعنوان "فجائية الدعوة أكثر ما يورق المخالفين"؛ وقدّم ابن خلدون تطبيقاً خاصاً لفكرته، وذلك فيما يتعلق بالبعثة المحمدية، وذلك حال تفسيره لنشوء الدولة، والقول بتوحش العرب كسبب مباشر لإقامة دولة، وهذا الكلام مردود كله، ويمرره قومنا لأنه يناسب هواهم فيما نكابه من أحداث، وإن شاء الله أقدم مناقشة منفصلة لهذه الفكرة في مقال مستقل.

وعند التأمل في خطيئة ابن خلدون، نجد أن الواقع (البيئة، أو المجتمع) نقطة انطلاقٍ للتشخيص، للتعرف على المناطِ كي نأتي له بالحكم الصحيح إذا كان المقام مقام افتاء، أو نبحت له عن الدواء إذا كان المقام مقام دعوة وإصلاح، ولكنَّ الواقع (البيئة أو المجتمع) -أبدًا- لا يكون مصدرًا للقيم الحاكمة. بمعنى أن القيم هي التي تصوغ الواقع وليس العكس. فكلُّ مجتمعٍ عبارة عن تطبيقٍ لمنظومة قيم، أيًا كان وصفها. وإذا وُجدت منظومة ما من القيم من يغرسها في قلوب النَّاس ويرعاها إلى أن تتحول إلى سلوكٍ وعاداتٍ فإنها ولا بد تُعيد صياغة الواقع/ البيئة من جديد؛ تمامًا كما تبدد ظلام الجاهلية بما أرسل الله به محمدًا، صلى الله عليه وسلم. فقد تغير واقع الناس كليَّةً، على عكس ما يزعم ابن خلدون والمتأثرون به.

وفي واقعنا المعاصر نموذجٌ شديد الوضوح يشهد على خطأ القول بحتمية البيئة... يشهد على خطأ القول بأنَّ البيئة تفرض السائد فيها من مفاهيم على الجميع. هذا النموذج هو تمكُّن الإباحية (الجنسانية كما يُسميها ميشيل فوكو في كتابه تاريخ الجنسانية)، من المجتمعات الغربية وظهورها في المجتمعات الإسلامية حتى كادت تتمكُّن منَّا كما تمكنت من غيرنا. فقد كانت المجتمعات الغربية إلى وقتٍ قريبٍ محافظةً لا تعرف التعري والرذيلة. كانت إلى وقتٍ قريبٍ لا تعرف غير الحجاب وقرار النساء في البيت، حتى دبَّت فيها منظومة الإباحية، ووجدت من يؤمن بها ويدعو إليها ويدافع عنها، فمكَّن لها في واقع الناس.

وكما تمكنت منظومة أفكار الإباحية (أيديولوجيا الإباحية) من المجتمعات الغربية والجنوبية تتمكُّن اليوم من مجتمعاتنا. فهذه أفكارٌ تغير واقعًا، ثم يأتي المؤمنون بخطيئة ابن خلدون يقولون بحتمية الواقع، وكأن هذا الواقع لم يتم صياغته من خلال مفاهيم حملها قلة من الناس ترمدوا على واقعهم وعالجوه بمنظومتهم الفكرية الجديدة حتى أعادوا تشكيله، ولا زالوا يفعلون.

ومما جعل الأمر يلتبس على بعضهم أن أغلب الناس تبع. بمعنى يخضعون للواقع في كل شيء .. أغلب الناس مع ما ذاع وانتشر، في عقائدهم وفي خاصة أمرهم. يرددون ما يتردد، ويلبسون ما يُلبس وإن كان محرماً، ويأكلون ويشربون ما يُؤكل وما يُشرب وإن كان مما لا يضر ولا ينفع. فالواقع هو المؤثر على هؤلاء، وهم الكثرة الكاثرة من حيث العدد، ولكن الواقع الذي يسوق هؤلاء حيث يشاء هو هو بنفسه تبع لفئة قليلة تؤمن بمنظومة فكرية ثم تعالجه حتى تغيره تبعاً لهذه المنظومة من الأفكار، وإنهم في كل زمانٍ ومكان .. صالحون(مصلحون) أو مفسدون.

ألا إن ابن خلدون قد جاء على فترة من العز .. بعد أن كُسر المسلمون في الأندلس ودخل النصراني عليهم في المغرب واحتلوا أطراف العالم الإسلامي وهاجموا قلبه، فراح . بقصد أو بدون قصد- يقول بسيادة الواقع. والواقع فقط يسود على الهمج ويأخذهم حيث يشاء، والواقع ذاته بيد فئة من الناس .. أولئك الذين يجرسون القيم ويستتبتونها.

محمد جلال القصاص

14 حوال 1437هـ

19 يوليو 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

مقولات ابن خلدون ذات قدرات تفسيرية محدودة ومضللة

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

قدّم ابن خلدون عددًا من المقولات التفسيرية في مقدمته للتاريخ، من أهمها: القول بأن للواقع قوانين حتمية يجب أن نتحاكم إليها. والقول بأن الدول تهرم وتشيوخ ثم تندثر في ثلاثة أجيال أو أربعة. وادعاء أن الأمة كلما كانت وحشية كان ملكها أوسع. وادعاء أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين. وادعاء أن المغلوب مولع بتقليد الغالب. وأحاول في هذا المقال مناقشة هذه المقولات وبيان أنها ذات قدرات تفسيرية محدودة جدًا وفي ذات الوقت ضللت الذين آمنوا بابن خلدون. والله أسأل توفيقًا وبركةً، إنه كريم منان.

هل للواقع قوانين حتمية؟

للواقع قوانين حتمية في المستوى القريب، وليس له قوانين حتمية على المستوى البعيد. بمعنى أن حتميات الواقع كلها مؤقتة. وكل واقع يتغير على المستوى البعيد. بمعنى أن واقع الناس دائمًا في حالة تغير مستمر، ولذا نجد المعنيين بالفكر والتنظير يتحلقون حول سؤال التغيير: كيف يكون؟ بغرس قيم ومثاليات جديدة؟ أم بتحريك الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين (ما يقال له ثورة)؟، أم بتحريك النخبة المسلحة (الانقلابات والحروب)؟

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

وعند المفكر الفرنسي المشهور ميشيل فوكو مثالان يدلان على أن الواقع في حالة تغيير مستمر، المثال الأول: الجنسية، حيث يبين في كتبه الأربعة التي تناول فيها موضوع الجنسية أن المجتمعات تحولت من تحريم التحدث عن الجنس في العلن إلى ممارسته في العلن، بمعنى أن المجتمعات تتحول حين تعالجها النخبة، سواءً النخبة السياسية والاقتصادية التي أقامت الحياة على المنفعة المادية، أو النخبة الأدبية التي أكثرت من الحديث عن الجنس حتى جعلته أمرًا شائعًا، أم النخبة الأكاديمية التي بررت الشبق الجنسي بمقولات "علمية"، أم العامة الذين حولوا أفكار الساسة والأدباء والمفكرين إلى واقع فهجروا الزواج ولجّوا في وحل الرذيلة.

والمثال الثاني من عند فوكو هو حديثه الدائم عن السلطة، وكيف أنها تسعى دائمًا إلى السيطرة [التأثير] على المجتمع، سواءً عن طريق العقاب المباشر (بالتعذيب والسجن)، أم بمنظومة العقاب الخفي التي تمارسها من خلال التحكم في مجريات الحياة في الشارع أو المؤسسات، أم عن طريق المعرفة والخطاب، وخاصة الخطاب الديني. ما يعني أننا أمام إرادة واعية من النخبة المسيطرة (التي تمتلك السلطة والنفوذ) تتجه - هذه الإرادة - نحو هندسة المجتمع.. السيطرة على المجتمع وتوجيهه وهذا يعني أن المجتمعات تتحرك في الاتجاه الذي تريده النخبة، لا أن المجتمع له قوانين حتمية يفرضها على الجميع كما يدعي ابن خلدون.

والنظرية البنائية constructivism تثبت عدم صحة مقولة ابن خلدون هذه بإطلاق، وأن مقولته هذه لا تصلح إلا لتفسير - أو تبرير - حال

المستضعفين اجتماعيًا فقط. تضللهم. وتركعهم لمن يسيطرون على الواقع. وذلك أن النظرية البنائية تتمحور حول القول بأن الواقع في حالة بناء مستمر، تتمحور حول أننا نعيش في "عالم من صنعنا" كما صرح أستاذ البنائية نكولاس أونف Nicholas Onuf.

ولك أن تأخذ نقطتين على ظهر الأيام، وليكن بينهما ثلاثين عامًا فقط، وانظر كيف حال المجتمع قبل ثلاثين عامًا وحاله الآن. لا بد أنك ستري أن حتميات أمس لم تعد حتميات مطلقًا.

الدول التي تهزم وتشيح ثم تندثر في ثلاثة أجيال أو أربعة:

آمن ابن خلدون بحتمية الواقع، وأن كل شيء ينطلق من الواقع، بما في ذلك القيم والمعايير التي نفهم بها ونتحاكم إليها، فنظر حواليه فوجد أن دولة المرابطين والموحدين، والأمويين، والعباسيين الأولى، والعباسيين الثانية عاشت ثلاثة أجيال أو أربعة فظن أن هذا هو حال كل الدول!!

هناك فرق جوهري بين السياقات الكبرى والدول الفرعية داخل هذا السياق. السياقات الكبرى، مثل: الدولة الفارسية والرومانية والإسلام، تعيش مدة أطول، وبداخل هذه السياقات تتواجد دول صغيرة، هذه هي التي تعيش أجيالاً محدودة وترحل. والخط الناظم للدول الصغيرة هو أن المنظومة الكبرى (السياقات الكبرى) تجدد نفسها، دولة بعد دولة، وذلك من خلال صراع النخب في المجتمع. نخبة جديدة تظهر من داخل السياق نفسه تنتقد أوضاع الضعف وتأخذ بأسباب التجديد فيحدث التغيير داخل السياق. فحين رحل المرابطون جاء الموحدون.. من حوالهم لا من بعيد. وجددوا السياق

الذي يعيشون فيه بعد أن ظهرت عليه علامات الترهل والضعف. وحين رحل الراشدون وقلَّ الصحابة وكثر الأعاجم وحديث العهد بالإسلام تكونت سلطة تتناسب معهم (الأمويون)، وحين ترهلت الدولة الأموية شبت واشتدت الدولة العباسية، وهكذا يُجدد السياق ذاته. وهو ما يحدث اليوم داخل الدولة القومية: فبعد مئات السنين من الحروب الداخلية بين شعوب أوروبا ساد البرتغاليون والهولنديون، ثم رحلوا وجاء الفرنسيون رفقة الإنجليز، ثم رحلوا وجاء الأمريكان والسوفييت، ثم رحل السوفييت وظهرت القطبية الأحادية المتعددة بقيادة الولايات المتحدة والتي تحاول نظم العالم في سياق واحد خلفها. تحاول تشييد تراتبية هرمية تعلوها الولايات المتحدة ويليها الأقرب فالأقرب حسب الجنس والثقافة والتعاون العسكري. فالمنظومة الغربية المعاصرة (القطبية الأحادية متعددة الأطراف بقيادة الولايات المتحدة) تقضم كل يوم قظمة وتهضمها ثم تقضم أخرى وتهضمها. فحال الحرب الثانية وبعدها استتبعوا أوروبا الغربية، ثم عامة أوروبا الشرقية ووسط آسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وانحيار المنظومة الاشتراكية، والآن تمضع العالم العربي مضغاً استعداداً لهضمه لا قدر الله، وقد قضت أقصى الشرق والجنوب الشرقي (اليابان، وكوريا الجنوبية، وماليزيا، والهند) وتغلغلت ثقافياً وتجاريًا داخل الصين وروسيا فلم تعد أيًا منهما على دين الآباء المؤسسين (بوذا، لينين وماو).

والثورات الشعبية في سياقهم هم، الثورات الشعبية من أدواتهم في التغيير. ولك أن تلاحظ أن بعد كل ثورة مرحلة جديدة من التبعية للغرب، فبعد

موجة الاضطرابات التي انتهت 1805 جاءت الدولة القومية الحديثة على يد محمد علي وأبنائه وأحفاده، وبعد موجة الثورات التي انتهت بنفي أحمد عرابي 1882 جاء الاحتلال الإنجليزي، وبعد انتهاء ثورة 1919 بدأ العهد الليبرالي، وبعد ثورة 1952 بدأ حكم العسكر، ثم بعد انتهاء اضطرابات 2011-2013 جاءنا ما نحن فيه من "إصلاح سياسي واقتصادي" .. كل ثورة تدرن مرحلة جديدة من مراحل تمكن الدولة الحديثة.. السياق يجدد نفسه.

وإن مقولة ابن خلدون تضللهم. تجعل المؤمنين بأن التغيير يحدث بعد أربعة أجيال يظنون أن الثورات أداة تغيير وليست أداة تمكين للسياق الأكبر، ويظنون أن رحيل السلطة هو رحيل لنموذج الحكم والسياس الذي جاء به، ومن ثم تكون أهدافهم قصيرة المدى، ومن ثم يقعون في فخ التوظيف، ويتعدون عن تشييد رؤية بعيدة المدى، ويركبون العجلة (الاستعجال) وهي أم الآفات في واقعنا المعاصر. وقد تعاونوا مع النظام الملكي (أو تفاودوا معه) ضد الوفديين ظناً أن النصر يأتي بعد قليل من الحراك الجماهيري، وتحالفوا مع العسكر ضد النظام الملكي ظناً أنهم يستطيعون الاستيلاء على السلطة رفقة شباب العسكر، ومع الحكومات الخليجية في السبعينات ضد النظم الثورية (الدول التقدمية)، ومع الغربيين ضد السوفييت على أرض أفغانستان.. إلخ وفي كل مرة يتبين أن السياق يستخدمهم لتحقيق أغراض شخصية.. للتغلب على بعض تحدياته ثم يطحنهم طحناً.

لم يكن النبي ﷺ وصحابته ﷺ متوحشون:

عقد ابن خلدون فصلاً بعنوان: " الفصل الحادي والعشرون: في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع". ادعى أن السبب الرئيس وراء توسع ملك العرب (الفتوحات الإسلامية) هو كون العرب أهل توحش، يقول: أصعب الأمم انقياداً، وأهل غلظة وأنفة، ومنافسة في الرئاسة، وأنهم أهل بداوة أكثر من غيرهم. والمحبون لنصوص ابن خلدون يفسرون الوحشية بالعصبية (القوة)، والمعنى الذي يقفز لذهن عامة من يقرأ أن المراد بالوحشية القوة المفرطة وخاصة أنه وصفهم بالغلظة والمنافسة في الرئاسة. وكلاهما لا يصلح لتفسير ظهور الإسلام في الجزيرة في مكة، والمدينة، والحجاز، ونجد، واليمن، وعمان، والبحرين، وشمال الجزيرة العربية، والعراق، وفارس، وآسيا الوسطى، والشام، وشمال أفريقيا في سنواتٍ معدودة. قد كان فتحاً ودعوةً واستقراراً للإيمان في نفوس هذه الشعوب حتى أصبحوا هم من سراة المسلمين بعد سنواتٍ قليلة، وقد كان تغييراً شاملاً في حياة الناس فبنات كسرى أنجبوا سادة التابعين. لم يكن هذا التوسع الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً له لطبيعة التوحش في نفس النبي ﷺ وصحابته ﷺ، فلم يقتل في حروب النبي ﷺ، من المسلمين والكافرين، الف رجل، ثلثيهم من قريظة وحدها؛ ولم يكن النبي ﷺ فظاً غليظاً صعب المراس (متوحشاً)، وإنما كان هيناً ليناً سهلاً قريباً على خلق عظيم (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4)، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (آل عمران: 159)، يوصي جيشه بأن لا يقتلوا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا عابداً

معتكفاً، ولا يجهزوا على جريح؛ وقد غلبه العفو في جهاده. فبعد بدر أخذ بأيسر رأي في الأسرى، وعفا عن أسرى طيء وكانوا "دعاراً" تخافهم الطعينة كما وصفهم سيدهم عدي بن حاتم الطائي، وعفا عن ثمامة بن أثال وكان سيدياً غنياً يعرض المال والمسلمون وقتها في حالة من العوز والضعف، وتعلل لأسرى ثقيف وكانوا أهل عناد حتى عفا عنهم ورد عليهم ما في يديه وما استطاع رده ممن أسلم حديثاً، وعفا عن أهل مكة وقد فعلوا كل ما استطاعوا في حربه وصدده عن سبيل الله. غلبه العفو في جهاده حتى عوتب فيه (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: 67)، (عفاً الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الَّذِينَ صدقوا وتعلم الكذابين) (التوبة: 43) فالقول بأن هذا التوسع وراءه وحشية وغلظة قول خاطئ.. يقيناً: خاطئ وخاصة في تفسير ظهور الإسلام على يد الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، والسؤال: من أين جاء ابن خلدون بهذه المقولة؟ ولماذا تقبلها كثير ممن جاءوا من بعده بقبول حسن؟!

كعاداته كان يأخذ قيمه وأفكاره مما حواليه.. من البيئة تحديداً، ولو أنه كان متشبعاً بحال النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم لقال بأن الناس لا تُقبل على الغالب إلا إذا كان رحيماً سهلاً ويضرب المثل بحال النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، ولكنه، ربما، نظر للتتار المعاصرين له، وكيف أنهم غلبوا من حولهم وتوغلوا في الذين يلونهم بوحشيتهم، وظن أن ذلك ضرب لازب. وإن التوحش لا ينشئ دولاً

مستقرة، فالتتار، وإن غلب التتار غيرهم وتمددوا خارج ديارهم، إلا أنهم لم يستطيعوا إقامة ملكٍ ثابت مستقر.

وقد مرر المعاصرون فهم ابن خلدون هذا لموافقته أهواءهم. وذلك أن المستضعفين يهشون ويهشون لحديث العزة والكرامة والغلبة والنصر، ويتمنى كل واحدٍ منهم ساعة يكون فيها قادرًا قاهرًا متوحشًا يعرض بأنياهم من غلبه وقهره. وعامة هؤلاء حين يأتي النصر يبحثون عن أسباب الدعة والترف، حين يأتي النصر يقعدون مع النساء والبنين ويكرهون النفير وأهله. فهي حالة من الرغبة من التخلص من وضعٍ قائم يكرهونه وليست حالة من مكابدة المشاق وصولاً لنعيمٍ أكبر وأطول عمراً في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وقد وصفهم الله بقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) (النساء: 77) بمعنى راجت مقولته مع أن فيها تعدي على النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ومع أنها محدودة القدرة على التفسير وذلك لما فيها من موافقة لهوى بعضهم.

وقد ضللتهم مقولات ابن خلدون فتوحش من ملكٍ قوةٍ منهم، فأقدم، وهو السلفي المتبع بزعمه، على سلوكٍ أرعن بعيد تماماً عن هدي النبي ﷺ، فكان أن نفر المؤمن والكافر، كما في نموذج "داعش" التي تخلت عن رحمة النبي ﷺ

ودعوته حال جهاده، فعمدت لحرقٍ وقطع رؤوس الأسرى على الملاء، بدعوى أن هذا يثير الرعب في قلوب المخالفين، ويستدعون حالات فردية كانت مع من غدر، وحالات فردية لم تتكرر ولم تلق ترحيباً من عامة الصحابة، والرعب إنما يأتي من الله تأييداً للمؤمنين الأتقياء وخذلاناً للمشركين حين يقاتلون أولياءه، (سُنَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ) (آل عمران: 151)، (وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) (الأحزاب: 26)، وقريب مما تفعله داعش يفعله الدعويون (السلفية العلمية) والسياسيون (الإخوان) ولك أن تراقب التنافس على المساجد وما حدث فيها. إن هؤلاء يتبعون مقولات ابن خلدون الخاطئة ولا يتبعون محمداً ﷺ. والأفعال أصدق من الأقوال. وقد ضللتهم ونفرت الناس منهم فالناس يرحبون بمن يخدمهم ويؤمن لهم حاجاتهم اليومية.

وأخطأ ابن خلدون حين وصف العرب بأنهم أصعب الأمم انقياداً، وأنهم أهل غلظة وأنفة، ومنافسة في الرئاسة، وأنهم أهل بداوة أكثر من غيرهم. فقد خضع عامة العرب للسلطان قبل الإسلام: في اليمن، وفي عمان، وفي البحرين وساحل الخليج العربي، وفي العراق، وفي الشام، ولم يستثن من ذلك إلا الذين في جوف الصحراء، وبعضهم نصبوا على أنفسهم ملكاً. وبالتالي لم يكن هؤلاء الخاضعين للملك أهل بداوة، بل وكان في بطن الجزيرة استقرار كما في مكة والمدينة وخيبر، وقد وصف الله مكة المكرمة بأمر القرى (وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(الأنعام:92)، وسماها "البلد" (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد:1)، ولم يكن للبدو تأثير يذكر في سير الأحداث في الجزيرة إلا من دواوين الشعر التي فاخرت بأحداث فرعية وتم تخليدها للمعاني ودلالات الألفاظ التي حملتها الأبيات في سياق تفسير معاني القرآن الكريم وتدوين العربية بعد أن نزل بها القرآن الكريم ونطق بها رسول رب العالمين ﷺ، لا لأهمية الأحداث وتأثيرها. فأين أثر امرؤ القيس إلا من استدعاء شعره لفهم اللسان العربي، وأين أثر عنتره خارج شعره!!

وشاع قول ابن خلدون بأن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، وقد راق هذا الكلام لكثير ممن يحاولون أسلمة "القومية العربية". استحضروا مقولة ابن خلدون هذه للقول بأن مجد العرب لن يتحقق إلا بتفعيل الدين كصبغة. يستحثون القوميون العرب لتبني قيم الإسلام صبغةً لقوميتهم، ولا أدري كيف، وهؤلاء (القوميون) جاءوا مع الاشتراكية الملحدة.. أمميون.. عقديون.. ثائرون.. أبعد الناس عن الدين.. أي دين. وجاءوا مرحلة وسيطة بين الخلافة والدولة القومية، وعملياً لم تظهر للقومية العربية وجود في حياة الناس، فلم تستطع دولتين أن تندمجا، بل تقاتل أبناء الحزب العربي الواحد (سوريا والعراق مثلاً) وتقاتل أبناء الجغرافيا الواحدة والجنس الواحد (الجزائر والمغرب مثلاً)، ولم يحدث أن اتحد العرب في تمثيل دولي واحد، بل تتعامل الدول العربية كل دولة بذاتها، وقوانين جامعة الدول العربية لا تلزم أحداً إلا بما يلزم به نفسه!!، فالعرب دول قومية، والشعوب

يعرفون أنفسهم بهوية الدولة الحديثة (مصري، عراقي، يمني، ليبي، سعودي،،،)، بل يتنابدون على هذه الهوية.

إن القول الصواب أن من أقام الدين في نفسه وفيمن حوله مكنه الله في الأرض، حتى لو كان حاله كحال العرب قبل الإسلام من التفرق والافتتال الداخلي والخلو من كافة الأدوات الفكرية والمادية، يقول الله تعالى: (وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَأُولَئِكَمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الأنفال: 26). (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور: 55)، (كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف)

متى يقلد المغلوب الغالب؟

واشتهرت مقولة ابن خلدون بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، وهي مقولة محدودة القدرة على التفسير، فقد غلب الصليبيون المسلمين واستولوا على أرضهم ولم يقلدهم المسلمون، وغلبهم التتار ولم يقلدوا التتار، وإنما جاء التقليد حديثًا حين كان المهزوم خاليًا من القيم المضادة للغالب، وحين أعجب بقيم غالبه، فقد غلبنا الغربيون وأخرجونا من قيادة البشرية نحو العصر الصناعي بأربعة:

أولها: تخريب التتار لحواضر المسلمين، والقضاء على كثيرٍ من قدراتهم الفاعلة والكامنة، وهو ما يفعلونهم هم الآن. يخربون ديار المسلمين بأشد مما فعل التتار، ولك أن تتدبر حال الأفغان، والعراق، والشام، واليمن، وليبيا، بل غيرهم من بلاد المسلمين.

ثانيها: نخوض أوروبا وتمكنهم من تشييد رؤية خاصة بهم تقوم على أنقاض الدين والتدين، وتمكنهم من قوة مادية لتنفيذ رؤيتهم.

ثالثها: انشغال المسلمين بأنفسهم ونشوب القتال الداخلي بينهم، وبالتالي توقفهم عن الفتوحات، فقد تحول العالم الإسلامي إلى كتل متصارعة (الصفويون، والمماليك والعثمانيين بداية ثم الدول القومية بعد ذلك) واستعان بعضهم بالغربيين على بعضهم.

ورابعها: وهو الأهم ضعف منظومة القيم الإسلامية حين جاءها الغربيون محتلين، ثم تبدها بعد ذلك، وعلى يد المصلحين من أبناء الأمة كما جمال الدين الإيراني، ومحمد عبده والذين من بعدهم، والمبتعثين للغرب، والذين تلقوا ثقافة المحتل وأعجبوا بها، ومن أعجب ما يرصد هنا أن المفكرين الذين ظهروا على أنهم مدافعون عن الإسلام كعباس العقاد وحسين هيكل حاولوا تسكين البعثة المحمدية في المذاهب الفكرية العلمانية التي اعتنقوها، فقرأ كل واحدٍ منهم الإسلام بمنظور مذهبه العلماني، وهذا الأمر شديد الوضوح في عبقریات عباس العقاد وافتراءات سيد القمني وخليل عبد الكريم، وتيارٍ كامل أفرزه المحتل.

انتشرت مقولات ابن خلدون مع قدرتها المحدودة جداً في التفسير.. مع أنها لا تفسير إلا قليلاً من الظواهر الاجتماعية والسياسية، فضلت المؤمنين به وأخذتهم بعيداً عما يريدون من إصلاح.
ألا إننا لسنا بحاجة لابن خلدون، ولا نستطيع أن نأخذ منه علماً نافعاً نبي عليه عملاً صالحاً.

محمد جلال القصاص

شعبان 1443هـ

9/ مارس / 2022م

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

مناقشة هادئة لأطروحات عبد الوهاب المسيري؛

عبد الوهاب المسيري وحمية البيئة والبعد عن النص الشرعي

د. محمد جلال القصاص⁽¹⁾

عُني الدكتور عبد الوهاب المسيري بتفسير ظهور اليهود في السياسة الدولية؛ وعُني، كذلك، بتقديم رؤية نقدية للمادية الغربية؛ وفي إطار فض الاشتباك بين العلمانية والرافضين لها اقترح العلمانية الجزئية (علمانية السلطة لا المجتمع)؛ وضمنًا عرض الدكتور المسيري رؤية لنهوض الأمة الإسلامية.

وتكاد تكون "حمية البيئة" هي الفكرة الأبرز عند المسيري، في قضاياها التي عني بها. بمعنى أن المسيري وقع تحت تأثير مقولات المستشرقين!! بمعنى أنه لم يخرج من سياق الاستشراق في فهم وتفسير الظواهر التي أخذت قدرًا من البيان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كظهور اليهود وتمكنهم، وتحكيم شرع الله، والتمكين للدين (نخضة الأمة).

أراد المسيري أن يقدم رؤية نقدية للصهيونية والحضارة الغربية من داخلهم فكانت النتيجة أن نزل بساحتهم وتحرك خلفهم. ويتضح ذلك من خلال إلقاء الضوء على المقولات التي استخدمها في قضاياها. وقد أتيت مخرجات الدكتور عبد الوهاب المسيري لأن فيها تناول لقضايا شرعية.. تناول لقضايا ذكرت باستفاضة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تم تناولها بمقولات المستشرقين. أتيت المسيري لبيان مدى تغلغل مقولات المستشرقين حتى في عقول كبار المفكرين، ليظهر لمن يتأمل مدى عمق الجب الذي وقعنا فيه.

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

أولاً: تفسير ظهور اليهود في السياسة الدولية:

حال تفسيره لظهور اليهود في السياسة الدولية استخدم الدكتور عبد الوهاب المسيري عددًا من المقولات والتي تعكس كلها تأثيره بالمقولة الرئيسية للمستشرقين، وهي "حتمية البيئة"، وأهم هذه المقولات هي (1):

- التعامل مع اليهود كجماعات تتشكل حسب الدول (البيئة) التي يتواجدون فيها.
- إنكار الهوية الدينية لليهود، بما في ذلك كبار المفكرين.
- إنكار وجود صفات عامة لليهود، ويفرق بين: اليهود واليهودية والصهيونية.
- إنكار المؤامرة أو التقليل منها.

وهذه المقولات، من ناحية تنطلق من المقولة الرئيسية للمستشرقين، وهي "حتمية البيئة"، ومن ناحية أخرى تتجاهل النص الشرعي مع أنه فصل كثيرًا فيما يتعلق باليهود والمؤامرة من الكافرين، وهذا بيان بما يناسب المقام:

في القرآن الكريم: حديث عن اليهود بصيغة العموم.. وبصيغة المضارع التي تفيد الاستمرار.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، وقول الله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وقول الله تعالى: ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾، وقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَآخِذْهُمْ

(1) هذه المقولات موجودة في موسوعته (اليهود، واليهودية، والصهيونية)، وموجودة بشكل مركز في كتابه "اليهود والحضارة الغربية"، ط. 2003. دار الهلال المصرية.

الرَبْوَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧١﴾ ،
 وقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ
 أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
 يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ، وقول الله تعالى: ﴿أَوْكَلَّمَا
 عَلَيْهِمْ وَعَهْدًا بَيْنَهُمْ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾

، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسِنُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ، وقول الله
 تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ
 وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ، وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ ،
 وقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

وفي عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، كان حالهم على ما هم عليه اليوم، وعلى
 ما كانوا عليه في أوروبا في "العصور الوسطى":

جماعات متناحرة، وهذا في تفسير قول الله تعالى: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوتَ وَالْبَغْضَاءَ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (المائدة: 64)، وقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ
 وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدَاوَةِ وَإِن يَأْتُوكُمْ
 أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥) فقد كان بعضهم (قينقاع والنضير) مع الخزرج وبعضهم (قريظة)
 مع الأوس، وحين ينشب القتال بين الأوس والخزرج يخرج كل فريق مع حليفه
 ويقتتلون، ويأسر بعضهم بعضاً، ثم حين تضع الحرب أوزارها يفدي كل واحد منهم
 أخاه اليهودي المأسور منه أو من حليفه العربي من ماله الخاص لأن الفداء من

دينهم، فأنكر الله عليهم أخذهم ببعض الكتاب (الفداء) وتركهم لبعضه (قتال بعضهم بعضاً)، والمقصود هنا أنهم كانوا متناحرين.. إلى حد الاقتتال فيما بينهم.

ولم تنتصر جماعة للثانية، فحين أخرج الله بني قينقاع لم يتحرك لنصرتهم إخوانهم من يهود النضير أو قريظة، وهم معهم على بعض أمتارٍ في المدينة المنورة، وكذلك حين أخرج الله بني النضير لم تنتصر لهم قريظة ولا يهود وادي القرى أو فدك، وحوصرت قريظة وقتلت صبراً ولم يتحرك يهود خيبر ووادي القرى وفدك لنصرتهم.

وكانوا، كما هم اليوم، منحرفين عن دينهم، ومع ذلك وصفهم الله باليهود ولم ينفصلوا عن الوصف كما يزعم المسيري⁽¹⁾، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحُرْفٍ مِّنَ الْكَلِمِ مِّنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنِ أَوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. ويقول الله تعالى: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبِهَهُمُ المَالِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (المائدة: 161). ويقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

ومن يومهم والمادية (الحسية).. والنفعية.. تسيطر عليهم. وذلك واضح في اتخاذهم العجل ومطالبتهم رسول الله موسى عليه السلام أن يجعل لهم "معبوداً" محسوساً يعبدونه من دون الله! ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٨﴾ ثم تجارهم فيما لا يحل، واستحلالهم الربا وقد نهاهوا عنه⁽²⁾، تجد أن حالهم من يومهم كحالهم اليوم، أو على الأقل وقت نزول القرآن الكريم.

(1) فكرته الأساسية أن اليهود غير اليهودية، غير الصهيونية، وذلك لعدم امتثالهم لتعاليم دينهم.. يقول:

"الدين ديباجات واعتذاريات". يخرجهم من ملتهم مع أنهم ينتسبون إليها ويدافعون عنها علانية.

(2) التفاصيل في كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي وقد سرد تاريخهم في الشام وهجرتهم للجزيرة العربية وأماكن انتشارهم ثم عقد فصلاً بعنوان: "الفصل السابع والسبعون: اليهود والإسلام"، وهو المراد الإشارة إليه هنا. ط. دار الساقى، ج 12، ص 119.

فعلم يدعي الدكتور المسيري أن اليهود يتشكلون حسب البيئة التي يتواجدون فيها، وأن صفة اليهودية ليست إلا "ديباجة واعتذارية"!!؟

ويستدل على أن اليهود يتشكلون حسب البيئة التي يتواجدون فيها باختلاف اللغة واختلاف الحالة المادية واختلاف العدد من مكان لمكان، وهذا الاستدلال عجيب، فالثابت أنهم لم ينصهروا في آتون الدولة القومية ولا تفاعلات الكنيسة والسلطة، ومن الشواهد على ذلك، ما ذكره المسيري نفسه على لسان بلفور (صاحب الوعد المشهور) حيث ذكر (بلفور) أن اليهودي دائماً ما يُقَدِّم ولاءه للدين على ولاءه للوطن الذي يعيش فيه. وفي مذكرات شمعون بيريز، وهو علماني، ما يبين أن الإطار الديني حاضر عند الجميع حتى لو كان علمانياً مثله⁽¹⁾. ومن الأمثلة كذلك المرأة التي أشعلت عزيمة المسيري لكتابة الموسعة.. تلك التي كانت تعتر بيهوديتها رغم أنها لا تلتزم بشيء من تعاليم الدين في مظهرها أو سلوكها العام.

وبدهي أن الصفات العامة لا تنطبق على جميع الأفراد، فللمجموع صفة عامة يُعرفون بها وقد يفارقهم آحاد الناس وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِيَدَيْنِ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَايْمًا ذَلِكَ بآثَمُ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥٧)، ففي الآية الكريمة أن بعضهم قد يؤدي ما عليه مهما كان، وهؤلاء هم العلماء الربانيين الذين أسلموا حين سمعوا ببعثة محمد ﷺ⁽²⁾، وفيه بيان أن عامتهم يستحلون أموال العرب كونهم من غيرهم، وأنهم يكذبون على الله في الزعم بأن سلوكهم في أكل أموال غيرهم شرع شرعه الله عليهم.

(1) أعني شمعون بيريز في مذكراته (الشرق الأوسط الجديد) مع أنه علماني إلا أن الصبغة الدينية ظاهرة جداً في مذكراته.

(2) جاء في كتب التفسير أن الذي أدى ما عليه (قنطار) هو عبد الله بن سلام ﷺ عنه، وأن غيره من الأخبار أكل أموال الناس ولم يؤدها لهم. بمعنى أن الذي أدى هو المتدين حقيقة.. هو من أسلم حين سمع بالنبي ﷺ.

كما أن الفرد يتكيف حسب الموقف (المصلحة الشخصية) في تعاملاته الفردية.. فللفرد عقل حين يكون منفردًا بنفسه أو بين خاصته وعقل آخر حين يكون مع الجموع (عقل جمعي) وقد كان آحاد قريش لا يتحدث لشخص النبي ﷺ إلا بخير، ويضعون عنده الأمانات، ولكنهم حين يجتمعون يقولون إفكًا من القول وزورًا، ولذا وعظهم الله الخلاق العليم، سبحانه وعز وجل، بوحدة أن يتفكروا وهم مثنى وفرداى يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِيًّ وَفِرَادَىً ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾، لذا طبعي جدًا أن يُظهر الفرد في تعاملاته الشخصية توافقًا مع من حوله ولكنه حين يكون منتميًا لجموع آخر فإنه ينصره سرًا وعلانية.. قدر استطاعته وقدر إيمانه⁽¹⁾.

وإن ظهور صفة غالبية في مجتمع ما يرجع بالأساس لطبيعة النخبة التي تسود في هذا المجتمع، فدائمًا هناك متبوع وتابع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلُونَا السَّيْلًا ﴾، فالمجتمع دائمًا يتغير وفقًا لحال من يمكنهم الله من الفعل. فنحن نعيش في "عالم متغير" .. نعيش فيه "عالم من صنعنا". "المجتمعات تبني" .. و"الهويات تبني" من قبل النخبة كما يبني البيت. وعامة الناس تبع لهؤلاء. بمعنى أن الناس أبناء من يعمل على تغيير البيئة. وكل بيئة (مجتمع) تتغير على المدى المتوسط والقصير. وحتميات البيئة لا تنطبق إلا على العامة فقط ولفترة قصيرة ثم تتغير هذه الحتميات في سنوات قليلة فكل جيل يشهد ثلاثة تغيرات في الغالب. وهذا مشاهد في كل مكان، فلم تكن المدينة ومكة والجزيرة العربية قبل بعثة محمد ﷺ كما كانت قبل بعثته ﷺ. وقد أشبعنا هذه المسألة نقاشًا في أماكن متفرقة من هذا البحث وفي بحث العقاد وغيرهما.

(1) وقد عالج هذا الأمر في دراسة حديثة جوستاف لبيون في كتابه "سيكولوجية الجماهير"، وأيضًا كتاب "المؤمن الصادق" لإيريك هوفر، وفيه يعرض كيف يتخلى الفرد عن عقله حين ينتمي لمجموع آخر (جماعات وتنظيمات).

ومن أعجب المقولات التفسيرية التي قدمها الدكتور المسيري لظاهرة الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي ودعمه لإنشاء كيان صهيوني مقولة "الفائض السكاني" في أوروبا، يقول: أرادت أوروبا أن تتخلص من فائض السكان لديها من اليهود فأنشت لهم الكيان الصهيوني في فلسطين، وأرادت أن تتخلص من الفائض السكاني عندها (من أبنائها) فقامت باحتلال دول الجنوب والشرق!! (الصهيونية والحضارة الغربية، ص 29-32)

وبقليل من التأمل نجد أن الدكتور المسيري تعجل في تبنيه هذه المقولة ذات القدرة المحدودة جدًا على التفسير، فقد كان أول أهداف الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي هو استعباد الناس (الأفارقة السود) ونقلهم لبلاده لسد العجز في الخدمات، ولا زالوا لليوم يستقبلون الملايين من الناس وخاصة أصحاب الحرف والكفاءات الخدمية. كما أن أكثر اليهود لا زالوا في أوروبا والولايات المتحدة ولو كان الهدف هو التخلص منهم، كما أشيع، لفعلوا بهم ما فعله هتلر، أو كما فعلوا هم بالهنود الحمر، أو كما فعلوا هم بالكنيسة والإقطاعيين فقد سلبوا هؤلاء قوتهم مع أنهم كانوا أشد بأسًا من عصابات يهود.

وتبني الدكتور المسيري مقولة د. جمال حمدان بأن الاستعمار صناعة أوربية صدرت للخارج ولم تمارس في الداخل الأوروبي باستثناء "جبل طارق"⁽¹⁾ وهذا الكلام عجيب، وذلك أن أشهر الأحداث في تاريخ أوروبا الوسيط والحديث هو محاولتهم استعمار بعضهم، وكلنا يعرف ويتحدث عن حروب نابليون. ألم تكن احتلالاً؟!، والحرب العالمية الأولى والثانية. ألم يحتل هتلر فرنسا؟! وكذلك ما يحدث الآن من الروس تجاه أوكرانيا!!

(1) ص 27 من كتاب "الصهيونية والحضارة الغربية"

بعض كبار المثقفين (كالمسيري وحمدان والعقاد) يرصدون الظواهر ويفسرونها من مقولات تبلورت بداخلهم نظرياً دون أن يتأملونها جيداً.. ربما يتبنون المقولات لغرابتها أو كونها مقولة جديدة على المتلقين، بمعنى أنهم يستمدون شرعيتهم من تبني الغريب أو الجديد، وهذا لا يفيد كثيراً وينقطع بعد قليل، وفي حقيقته تبعية للثقافة السائدة. مثال ذلك: مقولة: أن العباقرة هم الذين صنعوا التاريخ عند عبّاس العقّاد، وأن الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي تصدير للفائض السكاني هذه التي زعمها جمال حمدان، وانفصال الصهيونية واليهود واليهودية كما يزعم المسيري. وإني أعظك أن لا تعير مشهوراً عقلك. لا بد أن تتأمل جيداً فيما يقول. فليس كل ما اشتهر جيد البضاعة. فعامّة ما اشتهر إنما اشتهر بدعم الأدوات السلطوية والغربية. وهذه المقولات، رغم شهرتها، محدودة القدرة في رصد الظواهر وتفسيرها⁽¹⁾، ويأتي الإشكال من تعميمها⁽²⁾.

وفي سياق إنكار البعد الديني (الهوية الدينية) والحديث عن حتميات بيئية أوجدت اليهود في فلسطين والسياسة الدولية استدعى الدكتور المسيري أحد المقولات محدودة القدرة على التفسير، وهي مقولة أن الكيان الصهيوني كيان وظيفي (جماعة وظيفية) غرسه الغرب بينما ليمنع تكون دولة إسلامية (أو عربية) قوية تحول دون حصول الغرب للموارد اللازمة لصناعته والأسواق اللازمة لبيع بضائعه. يقول: الغرب مندفع بتحقيق مصالحه المادية فقط، ويجادل عن هذا كثيراً. وألف كتاباً كاملاً

(1) ينظر: "مقولات ابن خلدون ذات قدرات تفسيرية محدودة ومضللة"، لمحمد جلال القصاص:

<https://2u.pw/4cQX25>

(2) من المواضيع التي تستحق البحث: تبعية المثقف العربي للثقافة الغربية، وخاصة أولئك الذين يتحدثون في الظواهر الدينية، وقد قطعت شوطاً في مناقشة العقاد في كتابٍ مستقل، ومناقشة المسيري وعدد آخر من المنتسبين للثقافة الإسلامية في بحثي عن السيرة النبوية (وما محمد إلا رسول).

المستويات، على تحصيل أسباب القوة والنفوذ. فالدول تتنافس على أسباب القوة والنفوذ، وكذلك الأفراد في تفاعلاتهم اليومية، وخاصة أولئك الذين اصطبغوا بالصبغة العلمانية. وقد انتبه المفكر الفرنسي ميشل فوكو لهذا الأمر في مستوى السلطة وأكثر من الحديث عن استراتيجيات السلطة في السيطرة [التأثير] على المجتمع، سواءً عن طريق العقاب المباشر بالسجن والتعذيب، أم من خلال مؤسسات الدولة [منظومة العقاب الخفي]، أم عن طريق المعرفة [التوزيع القهري للقيم بأدوات الدولة.. المؤسسات التعليمية والإعلامية]، أو من خلال الخطاب الديني الموافق للسلطة أو المعارض لها أحياناً.

والحقيقة أن أهل السلطة وحدهم ليسوا هم الذين يبحثون عن السيطرة والنفوذ، فهذا المرض أصاب جميع من تأثر بالعلمانية.. أولئك الذين لا يؤمنون حقاً بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها كما جاء في الحديث، يقول الله تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ، وفي الحديث: "إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي ، أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا ، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلَا يَجْمَلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ".

وبدهي أن سيطرتهم على أسباب القوة والنفوذ أدى إلى فرض التبعية على غيرهم في مجالات الحياة المختلفة: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والعسكرية. بل أدى إلى دمج غيرهم فيهم.

وبعد "الحرب الثانية" سيطرت الولايات المتحدة على قيادة العالم وأحدثت شيئاً جديداً لم يعرف من قبل، وهو جعل الحفاظ على أمنها هي هدفاً لغيرها. ويظهر

هذا الهدف في السياسة الخارجية تحت مسمى "الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة".

وذكر⁽¹⁾ نشوء الدولة القومية وكيف أنها تدرجت حتى أصبحت مرجعية نهائية، ومصدر الشرعية الوحيد، والركيزة الأساسية للمجتمع ومصدر تماسكه، والإطار المرجعي لمنظومة القيم فيه، والإطار الذي يعبر الشعب من خلاله عن ذاته، ومن خلالها يتم تجسيد الفكرة المطلقة التي يؤمن بها الفرد في التاريخ وكأن هذه الدولة الحديثة جداً قائمة منذ خلق الله البشرية.

يرصد نشأة الظاهرة وتطورها واستقرارها واقعاً وكأنها أصبحت مسلّمة. بمعنى أنه يريد القول بأن كل دولة تصبغ من تحتها بصبغتها شاء أم أبى. يؤكد ما مضى من الادعاء بأن كل يهودي اصطبغ بصبغة البيئة التي وجد فيها!!

والحقيقة أن الدولة القومية أداة للعلمانية، أو: لمنظومة قيم (عقيدة) حديثة تشكلت على أنقاض التدين المسيحي وفي مواجهة الإسلام كقوة فاتحة وكتقافة سائدة. فالدولة القومية القائمة على الحدود الجغرافية مرحلة من مراحل تمكن العلمانية، أو أحد أدواتها، ومؤخراً بدأت تتطور من الحدود الجغرافية إلى الحدود الافتراضية (نفوذ الدولة). كما أن الدولة اليهودية استثناء، بمعنى أنها ليست دولة قومية لا دينية، وإنما دولة ذات أبعاد دينية مطلقة. وأحد أدوات تحقيق الحلم المشيخاني، كما يذكر هو⁽²⁾. وعلى مرّ العصور كان ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها ضعيف إذا ما قورن بولائهم لدينهم كما ذكر الدكتور المسيري على لسان "بلفور"⁽³⁾.

التقليل من المؤامرة:

(1) "الصهيونية والحضارة الغربية" ص 43، 44.

(2) ص 45 من كتابه "الصهيونية والحضارة الغربية".

(3) (ص 53) من ذات الكتاب.

سواءً من اليهود أم من غيرهم ممن كرهوا ما أنزل الله. ويشتد في هذا الأمر بدعوى أن في القول بالمؤامرة تضخيم للعدو وتحقير للذات، وبدعوى أننا لو سلمنا بوجود المؤامرة، وخاصة المؤامرات الكبرى، لوجب علينا أن نستسلم لهذا الذي يمكر مكرًا كبيرًا. وكأن القول بوجود المؤامرة يستلزم القعود والاستسلام!!

والمؤامرة من قبل الخصوم حق ذكره الله العليم الخبير في كتابه، يقول الله تعالى ذكره: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ (الطارق: 7)، و يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا وَمَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ (إبراهيم: 46). وفي سياق بيان ما يدور بين المأ (النخبة) والأتباع حين يلتقون يوم القيامة يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ لَّيْلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴿١٠﴾﴾ فالقوم يمكرون، مكرًا تزول منه الجبال، مكرًا كبيرًا، وهذا يقول: لا مكر.. لا مؤامرة.

والواقع أن المصريين هزموا يهود في الاستنزاف وفي أوائل حرب أكتوبر 1973م، وانتصر عليهم أهل الأردن وفلسطين في معركة الكرامة وانتصر عليهم من قاتلهم من السوريين في بداية حرب 1967م وحرب 1973 وانتصر عليهم من قاتلهم من لبنان، وانتصر عليهم رجال "حماس"، ولم يحجم أحد عن قتلهم بدعوى أنهم خارقون للعادة، لم تسوق البروتوكولات بهذه الدعاوى مطلقًا، فهذا الوهم فقط في صدر المسيري. وإنما انتشرت البروتوكولات في سياق الحديث عن العلو الثاني لليهود والذي هو (أي العلو الثاني) بداية زوالهم. وفي ذات السياق انتشر الحديث عن أن هزيمة اليهود على يد عباد الله يقاثلونهم حتى يختبئون خلف الشجر والحجر فينطق الشجر والحجر ويدل على من اختبأ خلفه من اليهود، وهي بشارة وليست تقاعد وسياق من المواجهة تحت مظلة الدين. ولكن الدكتور المسيري، كالعادة، يفتعل قضية وهمية ويضخمها.

ثانياً: نهضة الأمة!

كثيراً ما يردد الدكتور عبد الوهّاب المسيري بأننا لا نستطيع أن نهض كالغرب إلا إذا مررنا بمرحلة احتلال لغيرنا من الشعوب.. كما فعلوا هم. يشير إلى أن الغرب نهضَ على أكتاف غيره من الشعوب التي احتلها ونهب ما فيها من ثروات معدنية وبشرية.

وحين تدقق النظر في حال الغرب (أوروبا، ثم الولايات المتحدة تحديداً) تجد أنهم نهضوا بأربعةٍ لا بواحدةٍ:

أولها: وجود رؤية خاصة بهم. تأسست على العداة للدين. ربما لأنهم واجهوا غزاة (العثمانيين) ولم يواجهوا فاتحين كما حدث في العراق والشام وشمال أفريقيا والأندلس (من واجهوا الصحابة والتابعين).

وثانيها: حصولهم على أسباب مادية من: غزو دول أمريكا الجنوبية والحصول على الذهب والفضة، والتجارة مع الهند وغيرها من دول المشرق (العصر الميركانتي)، ثم احتلال العالم الإسلامي والسيطرة على موارده وأسواقه، وهذه التي يعينها الدكتور المسيري، وهي فقرة تابعة وجزء من منظومة صعودهم وتمكنهم، وليست وحدها، ولا تصلح لتقدمنا فنحن أمة رحمة، نقدم للناس أخلاقاً، والقتال عندنا لا يصحبه نهب بل نزع الحقوق من المستبدين ونعطيها لأهل الأرض.. يوزع المال في أهل المكان.. يمكن الإنسان مما قدره الله في الأرض من بركات دون نظر لونه أو جنسه، ولا يربط الإسلام بين الإنسان والأرض التي يسكن عليها كما تفعل الدولة القومية فالإنسان حر الحركة يستوطن ما يشاء من أرض الله.

وثالثها: انهيار منظومة القيم الإسلامية، ثم تبدها. وهذا من أهم العوامل في تخلفنا واستمرار تفوقهم، وقد كان بدء الانحدار من فقدان الإنفاق على العلم وأهله بعد تحول طريق التجارة. جاءوا إلينا ونحن معدومين مادياً وفكرياً، ثم عمدوا إلى

إحداث تحولات جذرية في منظومتنا الفكرية حتى صارت تبعاً لهم، ولذا تجد بين المنتسبين للفكر الإسلامي من يطالب بنهوض كنهوض الغرب، بل تجد من المنتسبين للصحوة الإسلامية من ينتصر للمناهج الغربية ويرى أن الديمقراطية هي نهاية التاريخ.. يرى أن البشرية تتطور منذ خلقها الله في خط مستقيم صاعد، وأن ما عليه الغرب الآن هو الرشد⁽¹⁾!!

وكان الله لم يقم السموات والأرض على الإيمان والكفر، وكان الله لم يهلك السابقين بكفرهم بالله، وكان الذين سادوا اليوم أشد قوة من الذين كانوا من قبلهم، وكأنهم سبقوا. والله يقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ۖ﴾ (مريم: 74)، (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ۚ وما كان الله ليُعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) (فاطر: 44). ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ۗ﴾ (التوبة: 69).

ورابعها: القتال الداخلي بين المسلمين، وذلك منذ ظهور الصفويين في إيران، والمماليك في مصر، والعثمانيون في آسيا الوسطى، حيث تعددت القوى الإسلامية وقاتلت بعضها، بل واستعان بعضها بالآخر على بعضها، وقد أدى ذلك إلى استنزاف طاقة المسلمين من ناحية وإلى التوقف عن الفتوحات من ناحية أخرى.

وحتى يتضح لك أكثر أن المسيري لم يخرج عن دائرة الغرب، وأن النهوض الذي يتحدث عنه هو التحديث على قواعد غربية، حتى يتضح لك هذا الأمر جلياً اطرح معي هذا السؤال: هل نسير في اتجاه استعادة نموذجنا الحضاري أم ننافسهم على ما في أيديهم!!؟

(1) من هؤلاء جاسم سلطان، ينظر محاضراته "كيف نفهم التاريخ"؟

وفتش عن إجابة من الأفعال لا من الأقوال. وسترى بوضوح أن النخبة الفكرية (المثقفة) تنافس الغرب على ما في يديه. والنتيجة أنها تسير في ركابه.. تسير إلى حيث يريد هو، وإن كانت تعارضه بلسانها!!

ثالثاً: العلمانية الجزئية:

من منطلق عقلي بحت رحب المسيري بالعلمانية الجزئية أو العلمانية في بعض مناحي الحياة (الحكم تحديداً) دون بعضها، ولا أريد مناقشة هذه الفكرة، التي طورها المسيري من مخرجات الشيخ شلتوت ومدرسة العصرين فيما يبدو لي، من منطلق الجواز وعدمه.. لا أريد القول أن العلمانية الجزئية لا تجد مسوغاً شرعياً في كتاب أو سنة، فالدين مهيمن لا يخرج عنه شيء من فعل الإنسان، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْتُهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: من الآية 12) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس: 59). فالقانون نص وسلطة تعطي النص صفة الإلزامية، ولا بد أن يكون النص وسلطته من الله سبحانه وتعالى وعز وجل. فقط أريد الإشارة إلى أن العلمانية الجزئية غير ممكنة في ظل الدولة القومية الحديثة التي تهيمن على جميع مناحي الحياة، بما في ذلك المجال الخاص (الأسرة) بل وتسيطر على المساجد سيطرة تامة. بمعنى أن انفكاك السلطة عن المجتمع غير متصور في حضور الدولة القومية التي تفرض نفسها على تفاصيل ما يحدث في المجتمع. وغالب الظن أن الفكرة تكونت بشكل نظري في داخله، أو قفزت إليه من شيوع حديث العصرانيين ابتداءً من محمد عبده ومروراً بالشيخ شلتوت⁽¹⁾، ودعا إليها كحل وسط يتوافق عليه الطرفان. ولو أنه تأمل قليلاً في هذه الفكرة ما تحدث بها. لو تأمل قليلاً لعلم أن كل نموذج (نسق عقدي) يسعى للسيطرة التامة ولا يرضى بغيره إلا تابعاً له.

(1) تتوافق أطروحة العلمانية الجزئية بشكل كبير مع أطروحات الإصلاحيين في الأزهر الشريف. وأفضل ما يمثل هذه الأطروحات كتاب الإسلام شريعة وعقيدة للشيخ محمود شلتوت.

وقد استخدمت هذه الفكرة (العلمانية الجزئية) في مد الجسور بين العلمانية والصحة الإسلامية، وذلك أن الخطاب العلماني يستهدف دفع الحالة الصحوية في اتجاه قبول العلمانية، ويسمون هذا النوع من الخطاب بالخطاب الإصلاحية؛ ومن أهم العقبات التي تواجههم: عدم التفات الصحويين لهذا الخطاب، لا بالاطلاع ولا بالنقد والتحليل فضلاً عن القبول، فالحالة الصحوية مغلقة وتمدد فكرياً وعددياً من الداخل للخارج؛ والتحويلات والتغيرات التي تحدث فيها تأتي من الداخل.. ينصتون لأبنائهم ولمن تخلى عن العلمانية والتزم درب الصحة كسيد قطب، وأما أولئك الذين لا ينتسبون إليهم فيرتابون منهم ويهاجمون أشخاصهم، ويعرضون عن بضاعتهم، ويتهمون من ينصت إليهم بالابتداع. كحال الأنساق المغلقة في كل زمانٍ ومكان.

نعم تعمل العوامل الخارجية (مثل: أسئلة العلمانية، والقمع الأمني، والفرص التي يفرضها النظام الإقليمي والدولي) كمحفز، أو كمثير، ولكنها لا تعمل أبداً كدافع أو كمتغير مستقل في التحويلات والتغيرات التي تحدث للصحة.. يظل الخطاب الداخلي هو الفاعل الأساسي.

وتتعامل الصحة مع أسئلة العلمانية (كالمواطنة، والتشريع من خلال مجالس نيابية، وتناوب السلطة... إلخ)، برجماتياً، بمعنى أنها تجيب حسب وضعها على الأرض قوةً أو ضعفاً، وحسب حاجتها لأدوات العلمانية. وتتجاوز، فقط، مع الأدوات (مثل المشاركة في المجالس النيابية، والمجالس المحلية، والنقابات... إلخ) لا القيم والفلسفات التي تقوم عليها هذه الأدوات. ولذا يظهر ازدواجية في الخطاب. فمثلاً: تتحدث عن الديمقراطية بخير في المحافل العامة وتلعنها في بيتها حال حديثها مع أبنائها. وتتحدث عن الوطن والوطنية بخير في المجال العام وبين أبنائها تقول بقول ربحا: (أمتكم أمة واحدة)، أو تبتدع دليلاً مثل القول بأن الإسلام عرّف الدولة المستقلة ضمن إطار الأمة. ومن يقل منهم بهذا يعلم قبل غيره أن الدولة القومية لا هي من الدين ولا من التاريخ وإنما أداة علمانية نشأت حديثاً، والدولة القومية لها شريعته الخاصة والتي تتحكم في كل شيء، ولها

منظومة ثواب وعقاب خاصة، ولا ترضى غيرها شريكاً لها بل تابعاً منزوياً في ركن من أركان الحياة، ويوماً بعد يوم تدخل عليه وتأخذ بعضاً مما في يديه، وتظل هكذا إلى أن يتحول مخالفها إلى كيانٍ ضعيفٍ تابعٍ يتحرك بحركتها، والدولة التي ظهرت في الإسلام لم تتجاوز حد استيلاء بعض الأشخاص على الحكم في بعض الأماكن دون إحداث تغيير جوهري في نظام الحكم.

وفي الفجوة بين الصحة والعلمانية تقف العلمانية الجزئية التي تحدث عنها الدكتور عبد الوهاب تحاول مدّ الجسور بين الخصمين اللذين اختصما في رهم. ومؤخراً ظهرت أوراق بحثية تدعو إلى تفعيل أطروحة العلمانية الجزئية من أجل تطوير الخطاب الصحوي، بمعنى جذب الحالة الصحوية للعلمانية عن طريق قنطرة "العلمانية الجزئية"، أو للمنطقة الوسط التي يقف فيها إصلاحيو الأزهر وإسلامية المعرفة (العصرانيون)، كمرحلة وسيطة لتطوير الفكر الإسلامي إلى السياق العلماني تحت مسمى "التجديد" أو "العصرنة" أو "إعادة بناء العقل العربي"، أو "حتمية الواقع". وهذا سياق يتزايد يوماً بعد يوم، وقد يتحول إلى تيار بفعل الروافد الكثيرة التي تصب فيه. وهو السياق الذي جمع بين الضدين مثل الدكتور محمد عمارة، ويوسف زيدان في الحديث عن شيخ الإسلام بن تيمية، اجتمعا على القول بأن شيخ الإسلام "لم يكن على الهيئة التي تحدث عنه بها السلفيون" وقد جاءوا ظلمًا وزورًا⁽¹⁾.

وظهر أثر التوسط بين العلمانية والإسلام في المشاركة في عدد من الموافقات الفكرية، والتي أوجدت منظومة قيم وسط بين الإسلام والغرب، بمعنى زحزحة القيم والمفاهيم لمنطقة الوسط وأستحضر ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: ادعاء أن القيمة العليا في الإسلام هي العدل. والعدل مفهوم نسبي، فكل يرى نفسه عادلاً، حتى جابرة اليوم، أولئك الذين ينشرون الخوف والجوع

(1) ظهر مدافعاً عن شيخ الإسلام بن تيمية في أحد البرامج (رفقة عمرو أديب).

والمرض بأسلحتهم وبضائعهم وثقافتهم، يرون أنفسهم أهل عدلٍ ودعاة محبة وسلام. والقيمة العليا عندنا هي عبادة الله وحده لا شريك له، وتعبيد الناس له، يقول الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: 25)، وكل آي القرآن الكريم تعرف الناس بربهم ومراد الله منهم، فاستحقاق الله العظيم الكبير المتعال للعبادة وحده لا شريك له هو محور الرسالة. وباقي القيم أثر من آثار التوحيد.. ثمرة من ثمراته. فنحن نعطي الناس حقهم لأن الله أمرنا بهذا ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٨٥)، ونفعل هذا طلباً للأجر من الله. نرجو ما أعد الله من ثواب للطائعين ونخشى ما توعد به العاصين من عذاب الجحيم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾^(١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرُونَ﴾^(١٦) (الروم: 15-16).

والمثال الثاني: القول بأهمية العمران (البناء والتشييد)، أو أن الله استخلف الإنسان في الأرض من أجل عمارتها، ويفسرون العمارة بالبنيان. ويستدلون بقول الله تعالى: "إن جاعل في الأرض خليفة"، وقول الله تعالى: "هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا". ويفسرون العمران بالبنيان، ما يشيده الإنسان من أبنية على ظهر الأرض، أو هذا ما يستقر في حس من يقرأ نصوصهم.. العمران المادي. مع أن ذات الآية تبين أن الخلافة لا تعني التعمير فقط بل الفساد وسفك الدماء (أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). وفي الآية الثانية أمرهم نبي الله صالح، عليه السلام، بعبادة الله أولاً ثم بالاستغفار والتوبة، "وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ"، وعلى لسان ذات النبي الكريم، صالح عليه السلام، ذم البنيان ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾^(١٦٩) (الشعراء: 149)، وكذا ذم البنيان على لسان هود عليه السلام ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةَ تَعْبَثُونَ﴾^(١٧٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ

لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ (الشعراء: 128-129)، وثبت مثل هذا (ذم البنيان) عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أحاديث كثيرة. فالخلافة لا تعني تعمير الأرض بإنشاء المدن والتطور في البنيان وإنما معرفة الله وعبادته، والتعمير بالبنيان يأتي ثمرة لذلك.

وإن جعل العمران هدفاً أمر حادث لم تعرفه البشرية من قبل، والذي جلبه إلى ساحتنا هو جمال الدين "الأفغاني" كما يروي ألبرت حوراني في كتابه تاريخ الفكر العربي في عصر النهضة؛ فلم تكن البشرية تهتم بالعمران كقيمة في حد ذاته إلا بعد ظهور العلمانية الرأسمالية، فكل حضارة لها ما تعظمه من قيم، وقد كان أهل الجاهلية يعظمون الكرم والمروءة والشجاعة، ثم جاء الإسلام وعظم التقوى، ثم جاءت العلمانية الملحدة وعظمت الاستهلاك، ووطنته في كل شيء، ودخلت علينا هذه القيمة بعد أن غلبونا وخالطونا.

وإن العمران ترجمة للقيم التي أنتجته. فطريقة البناء تخضع للمفاهيم والتصورات من ناحية وتدعمها من ناحية أخرى. فالمفترض أننا نشيد (نبي) على الأرض ما نستعين به على عبادة الله.. فالمساجد وشكل البيوت (مفتوحة للخارج أم للداخل) ومكان السوق بجوار المسجد أم بعيداً في الخلاء، وشكل السوق، ومحتوياته،، إلخ. وإن العمران اليوم أحد أدوات السيطرة والتوجيه، ويصعب قراءة النشاط العمراني (بمعناه الواسع) في إطار تحقيق رفاهية الإنسان.. كل الإنسان، وإنما أحد أدوات الاستحواذ على أسباب السيطرة والنفوذ من قبل النخب الحاكمة!

والمثال الثالث: القول بتقديم المقاصد على الأحكام. وهي من المحدثات في الدين، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. بدأت هذه البدعة مع "الشيخ" محمد عبده حين استخرج كتابات الإمام الشاطبي (الموافقات) ليقول بالمقاصد ويكسر الجمود

السائد في الحالة الدينية الرسمية (الأزهر) يومها⁽¹⁾ ثم تطورت الفكرة من بعده في اتجاه سلبي. وذلك أنهم ثبتوا مقاصد فضفاضة شديدة المرونة ومجملّة لا تفصيل فيها، وتتوافق مع القيم الإنسانية العلمانية التي توافق على أغلبها أهل الكفر. وراحوا يتحدثون بأن هذه المقاصد تضبط الأحكام (كأنها قواعد فقهية كلية).

وهذا قولهم. ومن يتدبر يجد أن المقاصد تُؤخذ من الأحكام وليس العكس كما يحاول هؤلاء. فمثلاً: نقرأ أحكام الشريعة في الزنا وما اتصل به (كالملاعنة، الجلد، والرجم)، ثم نقول: مقصد الشارع في حدّ الزنا هو الستر لا فضح الناس وهتك أسرارهم. ونقرأ الحدود ثم نقول: مقصد الشرع من الحدود هو زجر الناس وصرفهم عن الشر ودفعهم إلى السعي فيما ينفعهم ولا يضر غيرهم. أما ما يفعله هؤلاء فهو في حقيقته عبارة عن محاولة لجرجة الشريعة في وادي العلمانية.. إلى ساحة الدين الجديد (دين الإنسانية) الذي يتكون من أخلاطٍ شتى بعضها إسلامي!!؛ فهم يقولون: المقاصد، ثم يتحدثون عن كليات عقلية شديدة المرونة، تلتقي مع كليات العلمانية الغربية أو تكاد، ثم ينقلون إلى الأحكام ويحاولون تعديلها في ضوء هذه المقاصد الفضفاضة!!

رابعاً: البعد عن الوحي كتاباً وسنة!

لا تكاد تجد المسيري يستشهد بأية أو حديث، وعامة ما يقدمه مقولات نقدية من سياق النقد الغربي للحدائثة (المادية/ الإلحاد الصلب). وكأنه إيمان عقلي، وهنا نقطة محورية، وهي أن القرآن الكريم واضح بيّن في نفسه ومبين لغيره. يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾⁽²⁾ ، ويقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ

(1) أجهض الاحتلال الإنجليزي لمصر صحوة كانت قد سبقت مجيئهم، وكان من ثمرتها التجديد في الكتابة

والشعر (البارودي وشوقي والنديم)،،

(2) سورة الحج: آية ١٦.

أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٦﴾ (1) ، ففي القرآن الكريم بيان وتفصيل لكل شيء، يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ، ويقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (2) . ولذا فإن القرآن الكريم يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه يقول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه﴾ (3) .

والسنة وحي منزل كما القرآن الكريم، يقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣) ، ويقول الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ وكل نبي أوتي كتاباً وحكمة (سنة شارحة) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿٨١﴾ . وقد أمرنا في كتاب الله أن نتبع النبي ﷺ وصحابته ، يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ (4) ، و"معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به أي أتوا بإيمانكم كيما نؤمنكم وتوحيد كتنوحيدهم،" (5) ، "والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته" (6) . ويقول الله تعالى ذكره: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ هَجْرِينَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

(1) سورة النور: آية ٤٦ .

(2) سورة الإسراء: من الآية ١٢ .

(3) سورة البقرة: آية ٢١٣ .

(4) سورة البقرة: آية ١٣٧ .

(5) ينظر "معالم التنزيل" للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (بيروت، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م)، ج 1، ص 156 .

(6) ينظر: "الجامع لأحكام القرآن" للإمام محمد بن أحمد القرطبي، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج 2، ص 142 .

الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾⁽¹⁾، والمقصود بمن اتبعوهم بإحسان "من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة"⁽²⁾. فالنص عندنا هو هذا كله: القرآن الكريم والسنة الصحيحة وفعل الصحابة رضي الله عنهم.

ومن النص بهذا المعنى انبثقت علوم خاصة بالشريعة الإسلامية. كالتفسير، والحديث، والفقه، واللغة العربية. وكل علم له أصول وقواعد يُضبط بها وَيَسِير عليها مَنْ عُنِيَ بهذا العلم. وتم ضبط هذه الأصول والقواعد كتابةً ومدارسةً شفويةً (إجازة). فتراثنا مدون (مكتوب) وليس تراثاً شفويّاً فقط. بما في ذلك القرآن الكريم: فهو قرآن ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾﴾⁽³⁾، وهو كتاب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾⁽⁴⁾. وهذا الأمر مضطرد، بمعنى أن كل نموذج معرفي (منظومة عقدية) له منهجيته الخاصة في فهم الظواهر المتعلقة بالتدين وغيره⁽⁵⁾. والمنظومة العلمانية المعاصرة أفرزت أدوات خاصة بها في البحث العلمي، ولأن العلمانية متطورة ومتغيرة بشكل دائم حسب أهواء أهل كل زمان ومكان ﴿بَلْ أَتَّبَعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ يَغْيِرُونَ عَمْرُسُ﴾، والإسلام ليس كذلك، عندنا منهجية ثابتة نزل بها الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم. فكلما نزلت نازلة تأملناها جيداً ثم رجعنا لنموذجنا الأول نستضيء بنوره ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(1) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(2) ينظر: "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري، (بيروت، الرسالة، 1420هـ/2000م)، ج 23، ص 373.

(3) سورة البروج: آية ٢١.

(4) سورة البقرة: آية ٢.

(5) من النماذج المعرفية تخرج المنظورات، ومن المنظورات تتكون المفاهيم، ثم المقولات التفسيرية، ويتجمع عدد من المقولات المتناسقة لتكوين نظرية توصف وتفسر الظواهر الاجتماعية. ينظر: "مناهج البحث في العلوم الإنسانية: بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب" لمصطفى حلمي، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2005). وقدمتُ نموذجاً تطبيقياً لهذه المسألة بالتفصيل في الفصل الأخير من كتابي "مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد".

وَالْتُورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾. أقول، في نفسي،: لو أنه فتح المصحف وراح يتدبر ما أنزل الله من الكتاب والحكمة (السنة)، لشفي صدره في ساعاتٍ قليلة في أمر يهود وغير يهود، ولربما جلس في ظلال القرآن الكريم وراح ييث خواطرًا عطره، كما جلس سيد قطب ومصطفى محمود والشعراوي، وكل من الثلاثة كان في التيه كما قد كان هو!

خامسًا: قضايا خارج سياق الزمان والمكان.

غَرَّقُ المسيري في البيئة وما فيها⁽¹⁾، جعله يتبنى قضايا وهمية شغلتنا ولم تنفعنا بل نفعت الغرب، فقد أشعل حربًا على المادية الغربية.. الإلحاد التام، أو الإلحاد الصلب.. هذا الذي لا يؤمن بإله ولا بغيبيات عمومًا، مع أن هذا النوع من الإلحاد هُزم من عقود في الغرب. هذا النوع من الإلحاد أصبح ماضيًا، وظهر على أنقاده التيارات القيمية (النقدية) في الحضارة الغربية. كما أن هذا النوع من الإلحاد، حين كان منتشرًا، لم يستطع أن يتمكن في المجتمعات المسلمة، وظلّ في صدر عددٍ قليل من غلاة الشيوعيين.. وظلّ منبوءًا من عوام المسلمين قبل خواصهم، فلم يتفاعل المسلمون مع الشيوعية إلا في البعد الاجتماعي وسرعان ما فارقوها حين ظهرت الأبعاد الإلحادية للماركسية المادية⁽²⁾. ومع أننا لا نواجه إلحادًا صلبًا كالذي تحدثت

(1) تحول المسيري من المادية الماركسية إلى السياق الإسلامي عن طريق النقد للظواهر والأفكار العلمانية وخاصة المادية الماركسية، وتوافق، بقصد أو بدون قصد، مع المدارس النقدية الحديثة في الحضارة الغربية، وعُني بتفسير ظهوره اليهود في السياسة الدولية وتجمع عامتهم حول بيت المقدس؛ وأهم ما يمكن رصده في سياق المسيري هو

(2) امتازت الشيوعية بكثرة التفريعات فيها، حتى في عصر مؤسسها، وفي الوطن العربي ظهرت اشتراكية عربية عنيت بالجانب الاجتماعي وتجاهلت، بنسبة كبيرة، الجوانب العقيدية للشيوعية الماركسية، ثم حدثت حالة من التحول إلى الإسلام بين من تأثروا بالفكر الشيوعي كالأستاذ عادل حسين ورفاقه في صحيفة

به الماركسية وإنما نواجه إلحادًا "مؤمنًا"، فالمحدد عندنا من المنتسبين للدين، ويتجمع كثير منهم تحت شعار "مؤمنون بلا حدود". ولذا تجد هؤلاء الملحدون يستشهدون بالمسيحي ويشنون عليه خيرًا يرون أنه قريب منهم. وفي هذا السياق نقلَ المسيحي مخرجات علي عزت بيجوفيتش وأعاد توطينه عندنا، وعزت بيغوفيتش خاض معركة مستحقة في وقته مع المادية الغربية ولكنها معركة انتهت أو انزويت. ومعركة ليس لها سياق عندنا.

ونزع الصبغة الدينية عن الصراع مع اليهود وكأن الصراع معهم صراع سياسي، فمن ناحية قاوم اليهود ومن ناحية خدمهم وخدم العلمانيين بإخراج البعد الديني من الصراع!!

إن من أهم أمراض النخبة المعاصرة تبني قضايا خارج سياق الزمان والمكان، قضايا تستهلك قدرات الناس مع قليل من الفائدة. وهي حالة من الاغتراب أو الهروب تحت ضغط الواقع. وهذا الهروب يمارسه كثيرون وليس فقط المسيحي، فمثلًا: السلفيون مع "التشيع/الرفض". فحين تتأمل سياق تعاطي السلفيين مع الرفض تجد أن كثيرًا مما يقولون يمكن أن نضعه في خانة الهروب.. أو البحث عن موضوع بعيدًا عن حر السياسة والتصدي للاستبداد، أو بعيدًا عن مواجهة العوام بما هم فيه من فسق وتخلف. وإن تأثير العوام (الجماهير) كتأثير السلطة أو يكاد. وذلك أن الحرص على الوجاهة والتصدر والنفع المادي أشد من الحرص على السلامة والأمن الشخصي؛ وبعضهم لا يستطيع أن يصمت وينصرف إلى مصحفه وأذكاره والاعتناء بأهل بيته.. ولذا يتجه لما هو آمن سلطويًا وجماهيريًا بحثًا عن ذاته أو رضا

الشعب، وذلك حين درسوا الإسلام وعلموا أن تحقيق العدالة الاجتماعية من مبادئ الإسلام أفضل. (ذكر ذلك لي روية عن الأستاذ عادل حسين الدكتور محمد عباس).

بما هو أدنى. لذا فإن عامة القضايا النائرة اليوم تجدها هنا.. تحت مظلة الأمن السلطوي والجماهيري، لا تحت مظلة ما ينبغي فعله نصرة للدين وتمكيناً للمستضعفين. وتكون المحصلة إضاعة الجهد والوقت والدخول في حسابات القوي (التوظيف وخاصة من أصحاب المال وأصحاب السلطة).

ومن الأمثلة، أيضاً: اهتمام السلفيون الزائد ببعض الشعائر في الثياب ونحوه. ومن الأمثلة، أيضاً: انتشار الحديث في "التدبر" والاهتمام بالتحفيظ. فبعض ذلك هروب واغتراب، تماماً كما التعاطي مع الرفض وقضايا التبعيد الفرعية. والحمد لله أن الناس تفر لكتاب الله، وبارك الله لكل من شغل بكتاب الله تلاوة وتدبراً، وحفظاً وتحفيظاً. ولكني أرصد حركة الفكر والاهتمامات.

والمقصود أن عملية الهروب من الواقع وتضخيم بعض القضايا عن حجمها الحقيقي ومحاولة إثبات الذات أو إنفاق فائض الوقت في شيء قليل الفائدة كثير ومنتشر، وهو من مظاهر قلة البركة في الأوقات والأعمار. ومن أهم أسباب هذه الظاهرة غياب البعد التعبدي، فلو أن أحدنا علم أنه إما أن يقدم نافعاً أو يرجع لمصحفه ومسجده يناجي ربه ويصلح من شأن نفسه لارتحنا من كثير ممن لا ينفع، فالكل اليوم مشغول وحين تفتش تجد أن الخير في أن يكف عما يشغله.

الفائدة في التفاصيل:

مما يظهر لي بوضوح بعد التأمل في أطروحات نخبة المثقفين.. أولئك الذين يقدمون أطروحات فلسفية تُعنى بالتأسيس (التأطير النظري)، مثل ديورانت، وتوينبي، وابن خلدون، ويلحق بهم بعض المعاصرين من أمثال عبد الوهّاب المسيري وعباس العقاد وجمال حمدان، أنهم يقدمون فائدة في التفاصيل وانحراف في السياق العام.

فمثلاً ديورانت في السياق العام يتكئ على مقولة ابن خلدون "حتمية البيئة" أو ارتباط الوحي بالزمان والمكان الذي ظهر فيه، أو أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، ابن بيئته، وأن البعثة المحمدية مجهود ذاتي من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفي التفاصيل يمتدح النبي، صلى الله عليه وسلم، ويثني عليه. ولذا فإن من يتعامل مع تفاصيل ما قدّم ديورانت دون السياق العام يظن الرجل منصفاً يثني على الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكنه في الحقيقة يحاول نزع صفة الرسالة عنه، صلى الله عليه وسلم.

ومثله عباس العقاد: يقدم الرسول، صلى الله عليه وسلم، على أنه عبقرى لا كرسولٍ من الله، والله يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. وفي التفاصيل تجد ثناءً عطرًا على شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، كعبقرى.. لا كرسول من الله!

وكذلك المسيرى في السياق العام يخوض معركة وهمية ضد المادية الغربية الصلبة والتي انحصرت وكادت تنتهي، وما يمارسه من نقد هو سياق غربي تولد في السبعينات مع ظهور المدرسة الإنجليزية ونشاط المدرسة النقدية (الفرانكفونية). كانت معركة مستحقة يوم كان الغرب لا يعرف إلا المادية البحتة.. كانت معركة مستحقة قبل أربعين عامًا.. يوم انتصب في وجههم بيجوفيتش أما الآن فالصراع مع النسبية التي بشر هو بها. وأعتقد أنه يعي ذلك تمامًا ويأتيه من وقتٍ لآخر، وربما يحاول الانتقاص من الغرب وتغيير الناس منه بما يستطيع التحدث فيه.

وكذلك الدكتور جمال حمدان: في التفاصيل والصياغة فوائده، ولكنه في السياق يضحك الذات المصرية. وإذا سلمنا للدكتور حمدان بعبقرية المكان المصري على المكان اليمني والصومالي وآسيا الوسطى، فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن أن مصر دولة قومية، تعاني (كدولة قومية) من عددٍ من المشاكل المزمنة، مثل: التعددية الإثنية والدينية والطائفية؛ وكثرة الإنفاق على بعض المجالات دون بعضها (الأمن، الترفيه:

فن كورة،،)، والضعف وعدم القدرة على الفعل أو عدم القدرة على حل المشاكل الداخلية، وذلك بسبب التجزئة، وقلة الموارد، أو كثرتها⁽¹⁾؛ وتغول السلطة، والتماهي بين نظام الحكم ومؤسسات الدولة، حيث لا يوجد مسافة بين النخبة الحاكمة ومؤسسات الدولة، والذي أدى إلى تهميش المجتمع المدني.

من يخاطب المسيري ورفاقه؟

قدّم الدكتور علي جمعة إجابة مباشرة على هذا السؤال في أحد الندوات الثقافية التي جمعته بالدكتور المسيري فقال: "ما يقدمه المسيري نقد للمنظومة الغربية من داخل المنظومة الغربية ولصالح المنظومة الغربية"⁽²⁾. وهذا الوصف دقيق جداً، فالدكتور المسيري نبت داخل السياق الغربي ضد بعضه لصالح بعضه الآخر.. واكب فترة انحسار السلوكية (التحليل الإمبريقي) وظهور المنظورات ذات الأبعاد القيمية داخل الغرب (المدرسة الإنجليزية، والبنائية، وتمدد المدرسة النقدية [الفرانكفونية الألمانية])، وعمامة أفكار المسيري تطوير (أو إعادة تصنيع) لأفكار النقاد من الغربيين كما يذكر هو. والنقد داخل المنظومة الغربية شيء طبيعي. بل مفيد لهم. وذلك أن النقد أحد أهم أدوات تطوير الواقع والإفادة منه وليس هدمًا كما نفسره نحن. لذا يرحبون به. فالنقد أداة تطوير وليس أداة هدم، وهو كذلك طالما يعمل داخل إطار المنظومة. ولذا نجد أجيالاً من الجدالات بين المنظورات الكبرى في الغرب.. حين يتغير الواقع يتجهون لنقد المنظورات القديمة وما انبثق عنها من نظريات تفسيرية وتطبيقات عملية ويستحدثون غيرها مواكبة

(1) تشكل كثرة الموارد عائقاً حين لا يكون لدى الدولة قدرة على الحفاظ عليها: ليبيا (ساحل ممتد وعدد سكان قليل)، وقطر (عوائد البترول والغاز).

(2) ينظر: <https://www.youtube.com/watch?v=Gvj4NeOiSC8> ، والدكتور وائل حلاق، في أحد لقاءاته التلفزيونية، يفرق بين النقد والانتقاد، فالنقد عنده هدم كلي وإحلال جديد، والانتقاد تطوير عن طريق ذكر السلبيات من أجل إصلاحها.

للواقع الجديد. فهم ينقدون أنفسهم للتصحيح، أو للهدم وإعادة البناء. ولذا يندفع نفر من المعارضين لهم بما يصدر من بعض المفكرين الغربيين عن خلل في دولة ما أو عن قرب أفول الحضارة الغربية؛ وغالبًا ما تستهدف هذه الأطروحات دلالة التنفيذيين على مواطن الخلل من أجل التصحيح. ولك أن تلاحظ انتشار الكتابات التي تبشر بأفول الحضارة الغربية وفي ذات الوقت نجد أنهم يجتاحون العالم شرقًا بثقافتهم وشركاتهم وجيوشهم، وبالفعل هضموا أما بأكلمها، وحتى مجتمعاتنا المسلمة تتطور في اتجاه غربي.. في اتجاه انحلال خلقي وديني كما هو حالهم.

إن العالم كله يتحرك بعنف في اتجاه معاكس للإيمان ويدفع الذين بداخله دفعًا إلى حيث لا يعلمون، ولن يتوقف هذا التطور المنفلت إلا بحضور المؤمنين بالله وما أنزل على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

سادسًا: أدوات الانتشار.

وجد المسيحي مساحة لأنه توسط في أفكاره ومواقفه بين الصحوة الإسلامية والعلمانية. والناس بطبيعتها تميل لمن يتوسط بين متصارعين⁽¹⁾.

ووجد المسيحي مساحةً لأنه تبنى أم القضايا الثائرة (المقاومة الفلسطينية واحتلال بيت المقدس) وهي قضية جماهيرية، مثلت أحد أهم أدوات جذب الجماهير حتى عند الذين يقاثلون الداخل الإسلامي؛ ووجد مساحة لأنه استخدم لغة سهلة مليئة بالبشارة، فقد كان يبشر بزوال الكيان الصهيوني كما زال الكيان الغربي في جنوب أفريقيا، والناس يميلون لمن يبشرهم وإن كان يخالف الحقيقة، وذلك أن قلة قليلة من

(1) كتبت عدة مرات لبيان هذه الفكرة تحت عنوان: الطرح المتطرف والبعد الغائب:

العقلاء هي التي تنظر في المآلات، وأغلب الناس يتوقع ما يرجوه لا ما سيكون باعتبار السنن الربانية.

ومن أسباب الانتشار أنه وقف وسطاً بين الدولة والمعارضين لها، فمن ناحية ارتبط بمؤسسات الدولة وكتب في أشهر صحفها (الأهرام)، ومن ناحية أخرى شارك المعارضة في بعض تحركاتها ضد النظام ومن منطلق اجتماعي (فساد) لا منطلق إسلامي وقد وفر له هذا الخيار شريحة عريضة من المؤيدين.

ومن أسباب الانتشار ظهور إعلام خلط الأوراق في الساحة العربية، وهذا النوع من الإعلام أعطى مساحة للمعارضين للنظم المستبدة والكيان الصهيوني كالمسيري. ومن أهم أسباب الانتشار: أن أطروحات المسيري عن وجود ثلاثة ظواهر مختلفة (يهود، ويهودية، وصهيونية) والدعوة لفصل اليهود عن الصهيونية وعن اليهودية نفسها، والدعوة للتعامل معهم على أنهم بشر في الوقت الذي يواجهون مقاومة متدينة (حماس، وأخواتها وحزب الله في لبنان) مثلت دعماً - بشكلٍ ما - لليهود ومن يناصرهم، فقد كانت أطروحة المسيري تعني بداهة نزع الصبغة الدينية عن الصراع مع يهود. وهذا أكثر ما يزعجهم.

الباب الرابع: محاولة لفهم الواقع (مقالات في التحليل السياسي)

جمّعت في هذا الباب المقالات التي عنيت بمحاولة فهم الواقع، وفهم مَنْ يتواجدون في المشهد السياسي من المفكرين والجماعات الإسلامية خاصة. أناقش الأفكار والمواقف. وأحاول نشر عددٍ من الأفكار في ساحة الفكر المعاصر تدور حول فهم الصراع بين الأمة والعدو الخارجي (العالمي) كما في مقال: "هل نفهم ما يحدث؟"، ومقال "جني ثمار الحرب الباردة: الرؤية والأدوات". أو بين في داخل الأمة.. في داخل المجتمع أو بين المجتمع (الجماعات) والسلطة.

وقد قضيت الماجستير والدكتوراة في دراسة الجماعات الإسلامية، وتكونت مسلمة برأسي خلاصتها أن الجماعات (الأنساق المغلقة) فكرة دخيلة على الأمة الإسلامية، جاءت من سياق التنظيمات التي انتشرت بين النخبة في أوروبا والدولة العثمانية والعالم العربي؛ ومثلت بديلاً مؤقتاً (وسيطاً) هَدَّهَدَ الأمة الإسلامية حتى خرجت من نموذج الأمة إلى نموذج الدولة القومية. ولم تخرج عن نطاق التوظيف والتوجيه من قبل القوى المحلية والإقليمية والدولية. ومن ثم حاولت الإجابة على سؤال: ما البديل؟ أو ما الحل؟ وقدمته في عدد من المقالات تحت عنوان "نخبة متخصصة".

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هل نفهم ما يحدث؟

د. محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يُقَرَّرُ كثيرٌ منهم أن الوعي زاد ويزيد، وأن جيلَ اليوم لن يفعلَ به ما قد فعلَ بالذين من قبله لشدة وعيه. فهل حقًا زاد الوعي؟!، هل بات لدينا وعيٌ يمنعُهُم من أن يفعلوا بنا ما فعلوه بالذين من قبلنا؟!

أحاول الإجابة من خلال استعراض الأحداث الرئيسية التي مرت بالأمة منذ تعرضت للاحتلال الغربي، وأتحدث عن مصر، وهي، وإن كانت حالة واحدة إلا أنها، تصلح للتعميم وذلك لتشابه التجارب في الأماكن الأخرى من بلاد المسلمين.

الحملة الفرنسية على مصر والشام:

جاء الفرنسيون إلى مصر ورحلوا سريعًا، واختار الشعب من يحكمه، وبدأت مصر تبني نفسها بسواعد أبنائها، وأرسلت البعثات إلى الدول "المتقدمة"، وشيدت الطرق والكباري، وشقت الأنهار واستصلحت الأراضي، وأنشئ جيش قوي وسّع نفوذ حكام مصر حتى كاد يبتلع الدولة العثمانية. ثم ماذا؟!

بعد أن انتهت التجربة بمئة وخمسين عامًا بدأنا نفهم شيئًا آخر.. بدأنا نرى الصورة بشكلٍ آخر غير الذي قيل وقتها وبعدها لمئة وخمسين عامًا!!

بعد قرن ونصف بدأ الحديث عن أننا لم نَهْزَم الفرنسيين وإنما رجعوا لمشاكل تتعلق بتبعات الثورة في دولتهم، ورجعوا لحصار الإنجليز لهم في مصر، فقد دمّر الإنجليز أسطولهم البحري بعد دخولهم مصر في معركة (أبو قير البحرية 1798م)، وجلسوا

(1) كاتب وباحث. دكتورة علوم سياسية - جامعة القاهرة.

لهم في البحر، ثم حملوهم كالأطفال وأعادوهم إلى فرنسا؛ ورجعوا لهزيمتهم في الشام بعد أن تجمع عليهم أهل الشام ومعهم الأتراك وخلفهم الإنجليز يمدونهم من البحر، ورجعوا بعد موت كثير من جنودهم بالطاعون؛ وفهمنا أنهم جاءوا للقضاء على صحوة كانت قد بدأت لتجديد الإسلام في الأمة.. صحوة بأدوات المجتمع الطبيعية: المتمثلة في علماء الشريعة (الأزهر)، ومشاركة أهل الحل والعقد (أصحاب النفوذ) وأهل الرأي (الحكماء وأصحاب البصيرة في الأمور)، بمعنى أنهم قضوا على حركة تجديد كانت قد بدأت بالفعل؛ وفهمنا أن شباب الفرنجة (نابليون ورفاقه) وضعوا الأساس لتغيير المجتمع وتغيير نموذج الحكم؛ فتغيرت قيادة المجتمع من علماء الشريعة وأهل الحل والعقد إلى آخرين لهم اتصال بالسلطة الجديدة أو بالغرب (تجارة الغرب، وبعثات الغرب التبشيرية/ التعليمية، وسفارات الغرب) وكانوا نصارى في الغالب. حتى علماء الشريعة أنفسهم تغيروا فظهر حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوي بدل عمر مكرم، وبدأت مزاحمتهم بمن تعلموا في البعثات العلمية، أو المتعلمين على مخرجات البعثات والنقولات عن الغرب. والمحصلة أننا بدأنا السير في طريق جديد... كلنا (السلطة، والنخبة، والمجتمع) دخلنا طريقاً جديداً.. تغير مسار الأمة.

بالفعل فهمنا ما حدث.. بالفعل زاد الوعي لدينا ولكن بعد قرنٍ ونصف... جاء الوعي متأخراً.. بعد أن قضوا حاجتهم وانصرفوا.. بعد أن أخرجوا منا من أحبهم وانتسب إليهم!!

الثورة العرابية:

قامت الثورة العرابية تدافع عن ضياع مقدرات البلاد، وتنتصر للفقراء والمهمشين، وبعد أن رحل عرابي بسنين عددا فهمنا شيئاً آخر. فهمنا أن الفرنسيين لم يكونوا أعواناً لنا على الإنجليز، كما قيل عن "بلنت" وزوجته، وعن "فرديناند دي لسبس"؛ وفهمنا أنهم شجعوا عرابي على الثورة وهم يعلمون ضعفه كي يقضون عليه وعلى

من حوله .. شجعوه على الخروج قبل الاستعداد لتقتل بذرة التمرد والبناء الصحيح، تمامًا كما فعل أبو جعفر المنصور مع "محمد النفس الذكية" (علم أنه عازم على الخروج عليه فدرس إليه من حثه على الخروج قبل أن يستعد، فخرج دون استعداد ومن ثم هزم)؛ وبعد عشرات السنين فهمنا أن برقيات السفير الفرنسي (تحدث عنها محمد عبده وغيره) لتشجيع الثورة والثائرين كانت دفعًا للضعفاء الغافلين.. الحمقى.. قليلي الوعي لآتون معركة لن يصبروا فيها ساعة، ولن يرجعوا منها بعافية، ولن تُبقي لهم أثرًا صالحًا مصلحًا؛ وفهمنا أن الفرنسي فرديناند دي ليسبس (مهندس القناة) كاذب وأن أعداءه من بني ملته (الإنجليز) أقرب إليه منا. ولكن: متى فهمنا؟! وكيف أننا فهمنا شيئًا آخر غير الذي كنا نفهمه وقت الحدث؟!؟

فهمنا ما فعل بنا.. وبعد أن فعل بسنين عددا. فكان أول ما كتب عن الكتلة المحركة لعراي وعبده والأفغاني ومن حولهم بشكل مباشر أو من خلال النصائح هو كتاب الدكتور محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) وكتابات الأستاذ أنور الجندي، ورافقهما كتابات ألبرت حوراني التي بينت أن هؤلاء نقلوا أفكارهم عن الغرب وصنعوا الجسور التي عبر من عليها الغرب لحصوننا الفكرية، وجل هذه الكتابات ظهرت في نهاية القرن العشرين. فهمنا بعد قرن من الزمن أن كتيبة من الغربيين والنصارى صنعوا المشهد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين وحركوه. فهمنا بعد أن دخل الإنجليز وقضوا حاجتهم وأخرجوا منا من أحبهم وانتسب إليهم!!

الثورة العربية 1913:

هاج طلاب الحرية السياسة، ينددون بالاستبداد والمستبدين، ويثورون الأمة ضد الخلافة العثمانية بدعوى شتى، يقولون: حرية، ويقولون: وطنية، ويقولون: قومية عربية، ويقولون خلافة عربية. والمتتبع لتفاصيل الأحداث - وخاصة من خلال السير الذاتية لمن نشطوا في هذه المرحلة - يجد أنهم كانوا على يقين بأن التغيير الذي يريدون قاب قوسين أو أدنى!!

اتصل العدو بالجميع وأمدهم بأسباب ثقافية ومادية حتى اجتمعوا على الأتراك لا ليساهموا في محاولات إصلاح الخلافة الإسلامية، وكانت تحاول بكلتا يديها من أواخر القرن الثامن عشر (1).

ظنوا (2) أن باستطاعتهم امتطاء ظهر العدو وصولاً لأهدافهم.

كانوا أفراداً، وخاصة دعاة الإصلاح من المنتسبين للعلم والثقافة. وكانوا محدودي القوة (3). وكان المشهد أكبر من مساحة رؤيتهم ونفوذهم.

(1) ينظر: "الشرق الأوسط الحديث الجزء الأول: طلائع الإصلاح وتبدل العلاقات مع أوروبا 1789-1918م"، ألبرت حوراني (محرراً)، ترجمة: أسعد صقر، (دمشق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1996م)، ص 47-141.

(2) أعني هنا الإصلاحيين من الإطار الديني كمحمد عبده وباقي أعضاء "العروة الوثقى"، والإصلاحيين من الإطار العلماني القادم من البعثات العلمية كمصطفى كامل ورفاقه. والحكام كالشريف حسين.

(3) النظر في مستوى الأدوات مهم جداً، سواءً أكانت أدوات مادية، مثل: المناصب التي شغلها الثائرون (وعلى سبيل المثال: منصب المفتي الذي استحدثه المندوب السامي البريطاني اللورد كرومر لمحمد عبده، والدعم الذي تلقاه محمد عبده من كرومر عموماً)، والمحافل التعليمية التي تخرج منها هؤلاء (البعثات للدول الغربية وخاصة بعد تحول البعثات من المجال العسكري لدراسة العلوم الاجتماعية)، والأدوات التي عملت على نشر الثقافة الغربية كالصحافة والمسرح والسينما، ودور النشر. أم الأدوات المعرفية وأعني بها

انتهى الجميع إلى حيث لا يريد الجميع. فلا نالوا حرية، ولا خلافة إسلامية، ولا قومية عربية. ولا النصارى الذين عاونوا بعضهم الاحتلال بشكل مباشر تحسن حالهم، بل صار حال مجموع النصارى بعد انتهاء الخلافة أسوأ من حالهم أيام قوة الخلافة، وانتهى السلام الداخلي بينهم (فتش عن الأمة القبطية)، وهنا حديث عالٍ منتشر عن خسائر الأقليات، وعن الطائفية والمذهبية، وأنها أحد أدوات العلمانية في تفتيت المجتمعات الشرقية، وتستخدم- كما الجماعات- في صنع "الفوضى الخلاقة" والتي تستخدم (أي الفوضى الخلاقة) في تفكيك المجتمعات لإعادة بنائها من جديد على أسس علمانية، بمعنى أن الأقليات الدينية والمذهبية والإثنية استخدمت من قبل العلمانيين لإحداث ثورة اجتماعية (ما يقال له إعادة البناء الاجتماعي) ولم يحصلوا على شيء مما يريدون.

وإن أوضح مثال يبين هذا الفهم هو التأمل في سياق القومية العربية منذ نشأتها أفكارًا تدعو إلى هوية جديدة (عربية) إلى نهايتها أفرادًا موالين لعدوهم (الليبرالية الغربية كما عزمي بشاره وإبراهيم عيسى) مرورًا بمرحلة الكيانات التي تأسست بخلفيات قومية. فالملحوظ أن الفكر القومي العربي بدأ من النصارى واستمر داخلهم

المفاهيم الرئيسية التي حركت هؤلاء فقد كانت منظومة الأفكار (النسق الفكري) الذي حرك النخبة الثائرة يومها غربي كله، أو جلّه، ورصد ذلك ألبرت حوراني في كتابه "الفكر العربي في عصر النهضة". وذلك أن حوراني أرخ لكل مرحلة بمن برز فيها من الأشخاص وأتى بأفكار كل بارز وبين أنها نقل عن الغرب.. بمعنى أن الغرب صنع الرموز أو أثر فيهم. أو أن رموز المرحلة تحركت مدفوعة بثقافة غربية، أو أن آلة الدعاية والإعلام الرسمية أبقّت من أصحاب المعرفة من وافقها، أو من سهل لها التحرك نحو أهدافها (إعادة هيكلة المجتمع والسلطة وفق منظومة الغرب العقديّة). وإذا قلنا أن القوة قوة أدوات، وأن الأدوات هي الفاعل على الحقيقة وخاصة في نموذج الدولة القومية الذي تستطيع فيه السلطة التحكم في كل شيء تقريبًا. فإن حراك هذه المرحلة لا بد أن يُؤخذ في سياق الصناعة الغربية للأحداث. سواء الثقافة التي (وخاصة الذين كانوا في السلطة كالشريف حسين، فضلًا عن الذين لم يكونوا في السلطة).

وحدهم قرابة نصف قرن حتى جاءهم أهل الطوائف، وكانوا يصارعون مثلهم لإسقاط الخلافة، ثم لحق بهم السماعون لهم من أهل السنة. ويمكن تتبع ذلك من خلال الفاعليات والأسماء التي ظهرت في سياق القومية العربية، وهم: بطرس البستاني، وسليم البستاني، وناصر اليازجي، ومنيف خوري، ونجيب عازوري، ثم قسطنطين زريق، وميشيل عفلق.. وأول من التحق بهم هم أبناء الأقليات مثل: زكي الأرسوزي، بعد نصف قرن، تقريباً، من حديثهم عن القومية العربية. والنصارى القوميون هم الذين أدخلوا التحديث كشرط للنهوض (كتابات قسطنطين زريق تحديداً).

وحين نتأمل في مشهد "القومية العربية" منذ بدأ إلى أن اختفى، نجد أن أفكار القوميين العرب (المؤسسين والذين من بعدهم) لم تتحول إلى واقع مستقر. فقط عملت هذه الأفكار وما ترتب عليها من حراك في سياق الحشد ضد نموذج الخلافة، وعملت -أيضاً- في سياق فصل العالم العربي عن العالم الإسلامي. وعملياً لم تشيد قومية عربية بديلاً للخلافة العثمانية⁽¹⁾.

ففي مستوى السلطة تحول العرب - والعالم الإسلامي كله - من نموذج الخلافة إلى نموذج الدولة القومية، وفي المستوى الثقافي تحول العالم الإسلامي من السياق الإسلامي المحافظ للسياق الليبرالي فكان عصر ما بعد "الثورة العربية" هو العصر الليبرالي لا القومي العربي الذي يعظم النبي، صلى الله عليه وسلم، والعربية، كما ادعوا في كتاباتهم. وهذه منطقة تفكير ينبغي أن تأخذ حقها من المهتمين. ينبغي أن نطرح أسئلة عن السياقات الحقيقية، وعن الفاعلين الحقيقيين، وعن هامشية دور

(1) حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم الإسلامي لم تستطع أن تتواجد عملياً، كانت بدايتها من "دولة قومية" كالمغرب العربي حيث أن المغرب العربي كان يتهدد لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلساً ثورياً موحداً في مصر، ثم استقلوا "دولاً" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، حيث انشق البنجال عن باكستان.

الأفكار الثورية تلك التي تطفوا على السطح ثم تختفي مخلفة وراءها غير ما كانت تطلبه⁽¹⁾. أو بالأحرى علينا واجب دراسة كيفية استغلال المتحمسين من قبل من يملك رؤية أوسع وأدوات أقوى وأكثر، وهو هنا المحتل الغربي الذي استغل الطوائف، والثورات وما تولد عنها من مد عروبي في إنهاء الخلافة العثمانية ثم تحويل العالم الإسلامي لمذهبه هو (الليبرالي) ثم إلى نموذج في الحكم (الدولة القومية). حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم العربي والإسلامي لم تستطع أن تتواجد عملياً ككيان قومي (عربي أو غير عربي). فقد ابتدأ الجميع من "دولة قومية" لا من اتحاد عربي قومي. وعلى سبيل المثال: المغرب العربي. حيث أن المغرب (الجزائر والمغرب حالياً) كان يتهيأ لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلساً ثورياً موحدًا في مصر، ولم يحدث ما أرادوا (أو ما أعلنوا عنه) فقد استقلوا "دولاً" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، فقد استقلوا عن الهند في هيئة "دول قومية" تبعاً للنموذج الغربي، ولم يستقلوا كقومية ذات هوية إسلامية في مقابلة الهوية الهندوكية التي سيطرت على الحكم وأجأتهم للاستقلال، استقلوا في السياق الغربي الذي يستهدف تقسيم العالم - إسلامي وغير إسلامي - إلى دويلات، مع أن فكرة الاستقلال كانت ذات هوية قومية هندية إسلامية ابتداءً.

وما يهمني رصده هنا هو أن الذين في الحدث كانوا في سياق آخر من الفهم والفعل غير السياق الذي يبينه صانع الحدث (الاحتلال الغربي)، وأن الأمر تم على ظهر عشرات السنين، وفي مسارٍ اجتماعي وسياسي غير رجعي.

.Irreversible

(1) ينظر للكاتب "هل نفهم ما يحدث" موجود مقال ومحاضرة على اليوتيوب، وينظر: "ثورة تاني؟!!"

استفاق الجميع فوجدوا أنفسهم في مكانٍ بعيدٍ وفي اتجاهٍ غير الذي يريدون، وعلى ما يكرهون. وفي هذا السياق (صنع الطائفية، واستنفار الأقليات، والمذاهب) جاءت الجماعات كأحد أدوات تفكيك الموجود وإعادة البناء على هوى الغربيين!!

إن كل ثورة تتلو علينا درسًا واحدًا خلاصته: أن الثورات الشعبية أحد أدوات الغرب لتطوير المجتمعات في اتجاهه هو. وانظر إلى حال الأمة قبل بدء الثورات (في القرن الثامن عشر) وانظر إلى حالها اليوم، فالذين تجمعوا في الميادين "ثائرين" يرفعون الشعارات باللغة الإنجليزية.. يتحدثون لمن فرّق جمعهم وشتت شملهم وغلبهم على ما في أيديهم.. يستعين بعضهم بالعدو على بعضهم.. بمعنى أن الصراع داخلي. الصراع في المجتمع وليس في السلطة وحدها كما قد كان، فقد حُسم أمر السلطة للعلمانية والطحن الآن في المجتمعات.

مشاريع التنمية:

لا يتعلق أمر تأخر الوعي بما يحدث بالجانب السياسي والثوري (عسكري وغير عسكري) فقط، بل بالجانب الاجتماعي أيضًا. ونشير إشارات: سؤال النهضة بشقيه (لماذا تخلفنا؟، وكيف نهض؟)، أجب عنه ثلاثة: الإسلاميون، والعلمانيون، وقوم خلطوا صالحًا وآخر سيئًا.. أولئك الذين يتجمعون تحت مظلة "العصرانيين".

وحاول العلمانيون-باعتبار أنهم هم الذين مُكنوا من السلطة والمجتمع- النهوض مرة بعد مرة، وفي كل مرة يفشلون... في كل مرة يحاولون فيها النهوض يقعون على أعجازهم ويُتركون هامدين يصيحون من الألم، يضحك عليهم من يمر بهم.

لم ينجحوا مرة. مع أنهم في كل مرة يأتون بوصفة "التقدم" و"الرقى" من عند "المتقدمين" في الشرق أو في الغرب!!

وحين تفتش في التفاصيل تجد أنهم يفشلون بعوامل خارجية بالأساس، والمختصون يقولون: العامل الخارجي لا يعمل إلا بمعاونة عوامل داخلية موافقة له. ولكني أضيف: أن العوامل الخارجية المفسدة صنعت عوامل داخلية موافقة لها. فالمفسدون في الداخل (في السياسة، والثقافة، والمال...) جلهم صناعة خارجية. وهذه بعض محاولات التنمية الجادة التي وقعت على أعجازها تصيح وتجمّع الناس حولها يتندرون ويتعظون:

أراد محمد علي دولة حديثة له ولأبنائه، وكان جاداً حريصاً على ما يريد، وأمدوه (سليمان باشا الفرنساوي، والبعثات العلمية،..)، وأراد بعض أبنائه من بعده تطوير مصر لتكون كأوروبا، ثم ماذا؟

ال فشل. والاحتلال مرة ثانية. دورة جديدة في دهاليز الفقر وسرايب الألم والحسرة.

وصدروا للشعوب العربية فكرة الاستقلال، وبالفعل قاتل المخلصون بأيديهم وعقولهم من أجل الاستقلال، وبعد عشرات السنين تبين أن الاستقلال لا يعدوا أن يكون تفتيت وتقسيم للأمة الإسلامية. تبين أن (الاستقلال) هو مرحلة جديدة من التبعية. وكان شرط السيد الجديد (الأمريكان) أن يتم تعميم (الدولة القومية) كصيغة حكم على الجميع، وحدثت التحولات في السلطة والمجتمع بأيدينا.. بأموالنا.. ولم يفهم بعضنا إلا بعد عشرات السنين. والعجيب أن كثيراً منا دخلوا التيه جادين متعصبين للكيانات الصغيرة الجديدة...!!

وصدّروا للدول القومية الحديثة فكرة الاعتماد على الذات، وهم يعلمون جيداً أن أي دولة صغيرة لا تستطيع الاعتماد على ذاتها. وفي ذات الوقت كانوا يدشنون في بلدانهم شيئاً آخر مغايراً تماماً لما يصدروه لنا، وهو الاعتماد المتبادل المعقد، ولم نفق إلا بعد أن فشلت تجربة الاعتماد على الذات وخرجنا منها على حال أسوأ من التي كانت أيام الاحتلال القديم.

نعم حاول العلمانيون أن ينهضوا أكثر من مرة، وفي كل مرة يفشلون، وبعد كل فشل يتقدم إليهم الغربيون بوصفة جديدة للنمو، ويأتون إليها مسرعين فرحين مسرورين، ثم بعد أن "نشرها" يتبين أنها (مقلب دولي). مثل: ثورة شباب العسكر 1952م، وانفتاح السادات، وخصخصة مبارك. نقوم من الفقر لنقع فيه... وما يحدث الآن هو حلقة من سلسلة الفشل التي تُصدّر للأمة تحت مسمى الإصلاح، فالآن تسلط القائمون على النظام العالمي على الدول الصغيرة وينفذون رؤاهم التي تستهدف السيطرة على الإنسان والموارد والأسواق وجعل كل ذلك في خدمة أهدافهم هم⁽¹⁾. والسؤال: هل نفهم ما يحدث!؟

(1) من العلماء الغربيين الذين عنوا بتوضيح توغل السلطة العالم الإيطالي المعاصر جورجيو أجامبين (من مواليد 1942م، أستاذ فلسفة الجمال بكلية العمارة بفينيسيا)، ينظر: "حالة الاستثناء"، جورجيو أجامبين، ترجمة: ناصر إسماعيل، (القاهرة، مدارات للبحث والنشر، 1436هـ/2015م). والعالم البولندي زيجمونت باومان، ينظر: "الحدائث والهولوكوست" لزيجمونت باومان، ترجمة: حجاج أبو جبر و دينا رمضان، (القاهرة، مدارات للأبحاث والنشر، 1435هـ/2014م)، والعالم الفرنسي "ميشيل فوكو" (1926م-1984م)، ينظر: "المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن" لميشيل فوكو، ترجمة علي مقلد، (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990م). وهذا النوع من النقد الذي يقدمه هؤلاء يبين أن الملاء في

نفهمه بعد أن يحدث، ومن يفهم منا حال الفعل قلة قليلة لا تستطيع تغيير مسار الفعل لعدم امتلاك قدر كافٍ من الأدوات لإيجاد فعل جديد...

وأنتقل إلى نوع جديد من الأمثلة على أننا إن فهمنا فإننا نفهم متأخرًا..

على أن الذين يفهمون ما يحدث منا قلة قليلة لا تستطيع تغيير ما يحدث.

وأنتقل إلى نوع جديد من الأمثلة لبيان أننا إن فهمنا فإننا نفهم متأخرًا..

على أن الذين يفهمون ما يحدث منا قلة قليلة لا تستطيع تغيير ما يحدث.

ثانيًا: الأنساق المغلقة (الجماعات)!!

والمقصود بها الجماعات الإسلامية المنظمة كالإخوان المسلمين وحزب التحرير والحركات السلفية المسلحة، والتكتلات السلفية العلمية المنظمة وشبه المنظمة. تمثل هذه المرحلة كلها حالة من الوعي المتأخر، أو أحد مظاهر التيه الذي دخلته الأمة الإسلامية، أو أحد شهود العيان على توظيف الحركة الإسلامية من قبل خصومها...

كنا أمة فصرنا جماعة. على أمل أن تتضخم الجماعة فتصبح أمة. فكان أن أصبحت الجماعة الواحدة جماعات (أنساقًا مغلقة/ أحزابًا) وانشغل كل بأخيه. والمشهد الأكثر ووضوحًا على أن كل جماعة لن تبرح مكانها حتى تحسم مع أختها

المجتمعات الغربية يحاولون تطويع الناس والتحكم في عاداتهم وسلوكهم بأدوات شتى، كالمؤسسات المجتمعية بعمومها وليس السجن فقط (وهذا ما يذهب إليه ميشيل فوكو في كتابه المراقبة والمعاقبة)، أو من خلال تعميم حالة الاستثناء.. تلك التي يقل، أو ينعدم، فيها استخدام القانون وتجري الأحكام العرفية من أجل مزيد من السيطرة والتوجيه للناس؛ أو من خلال تعميم ظرف الاستثناء (وهذا ما يقوله جورجيو أجامبين)، أو من خلال تعميم الهولوكوست ضد الشعوب قدر المستطاع، وهذا ما يقوله "ريجمونت باومان". والمحصلة هي احتقار الإنسان واستعباده.

هو مشهد الجماعات المسلحة التي تقتتل وليس بينهم خلاف عقدي/ أيديولوجي أو منهجي .. فقط اختلاف (الأمير). ولا بد من الخروج من صيغة الجماعات/ الأنساق المغلقة. والحل- كما قدمت مراراً- في التحول إلى النخب المتخصصة، وقد شرحت هذا الحل في عددٍ من المقالات تحمل في عنوانها هذه الكلمة (النخب المتخصصة).

ثالثاً: سيد قطب والنمو العضوي !!

في حسِّ كثيرين يبدو الأستاذ سيد قطب-رحمه الله- عاليًا عطراً بهيماً، وحين تبحث عن سبب ذلك تجد عددًا من الأسباب:

منها: التصاقه بالقرآن الكريم، فقد تفيء سيد قطب ظلال القرآن فأصابه وابل من بركته. والقرآن الكريم روح من الله (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) (الشورى:52)، كل من قاربه دبت فيه الروح، والقرآن الكريم- كما وصفه الله في أربع مواضع من كتابه- مباركٌ فكل من ورد القرآن أصابته بركته.

ومنها: أنه تحدث إلى المهزومين والمستضعفين عن العزة والاستعلاء بالإيمان، وحديث العزة والاستعلاء حديث شجي يطرب من يسمعه. يأخذه من واقعه شديد المهانة إلى رياض عطرة كأحلام اليقظة للمعتقلين في الزنازين الفردية، مع أنه عملياً يتحول إلى حالة من الهروب والاعتراب خارج سياق الزمان والمكان، والعزلة الشعورية قد تتطو إلى نفاق مجتمعي وقد تتطور إلى عزلة مكانية، ما يعني الانسحاب من الواقع وتخليته للرافعين للباطل الدافعين له في وجه أهل الإيمان.

ومنها: السياق الزمني الذي خرج فيه الأستاذ سيد قطب فقد ظهر في سياق من الصراع متعدد المستويات بين الدول العربية حديثة النشوء، وكانت مصر- التي تضطهده- في صراع مع عددٍ من دول الجوار العربي والتي بدورها دعمت

الأستاذ كأحد أدوات الشجب على النظام الناصري الذي تصارعه، ومما يدل على صحة ذلك أن واحدة من هذه الدول (السعودية) كانت تطبع وتوزع بالجمان كتب الأستاذ سيد؛ بل وتدرسها في مدارسها وجامعاتها ضمن مادة الثقافة الإسلامية، وبعد أن انتهت فترة الصراع بين الدول القومية حديثة النشوء واستقرت الحدود الجغرافية واستقرت الحدود الافتراضية نسبياً غيروا رأيهم وأحضروا من تناول على الأستاذ وأساء الأدب في حقه. وهو السياسي المعاصر لا يمكن أن يكون متديناً ولا يثق في متدين، بل يرى المتدين مصارعاً على السلطة بأداة الدين، وهي السياسة المعاصرة لا تعرف التدين إلا أحد أدوات الصراع على السلطة والنفوذ الاجتماعي وإلى الآن لم يخرج التدين عن هذا المجال إلا قليلاً.

ومنها: أن الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- تحدث بخطاب عام يصلح للجميع ولم يتحدث عن قضية تفصيلية تختص بنطاق جغرافي ضيق أو موضوع فرعي. والتميز -كما يبدو لي- يحدده أمران: منطقة العمل والإمكانات الشخصية لمن يعمل. فمن يعالج قضية تفصيلية تتعلق بمساحة ضيقة جغرافياً ليس كمن يتحدث للأمة كلها في قضايا تهم الجميع، ومن يتحدث من على منبر مصر في الستينات ليس كمن يتحدث عن منبر في دولة أفريقية نائية في ذات الفترة.

ومنها اتباع الأسلوب الأدبي شديد الرقي لا الأسلوب الأكاديمي المتعالي المعقد، والأدب يطرب ويحمل المعاني إلى الأعماق بهدوء ويسر، بخلاف العبوس المتغترسة (اللغة الأكاديمية) التي تستفز من يقرأ وتنفره.

ومنها: حالة التغيير التي كانت تمر بها المجتمعات المسلمة في مرحلة ما بعد الخلافة.. مرحلة تكون الدولة القومية ومحاولة عرقلتها لاستعادة الخلافة مرة

أخرى، وفي مراحل التغيير يحتشد الناس وتسود حالة من الحماسة، بمعنى أن الكل حضور حول خطاب التغيير ويتجهون أكثر لمن يحدثهم عن العزة والكرام وقرب النصر.

ومنها: **صمود الأستاذ سيد** في وجه سلطةٍ جائرة، فنصف الناس أعداء من يحكمهم كما قال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، والناس تعظم من يعاند وتتخذة مثلاً وإن كان كافرًا كجيفارا مثلاً. وشرك العوام شركٌ حسي.. يريدون قائدهم وكبيرهم ومتبوعهم (إلههم) ماثلاً بين أيديهم.. قريباً مكاناً منهم، ولذا يميلون إلى تمثيل الإله في (طوطم) أو صنم أو بيت أو قبرٍ أو شخص، وجلهم يأتي الشرك فمقل ومكثر. وترميز بعض الأفراد وجعلهم متبوعين في كل حال.. وجعل كلامهم صواب كله نوع شرك. ويلجأ سدنة الأنساق المغلقة وقادة المجتمعات في واقعنا المعاصر إلى الترميز كوسيلة سهلة لقيادة الناس، فالترميز (التصنيف) أحد أهم الأدوات التي يتبعها الجميع بوعي أو بدون وعي لقيادة الناس وتوجيههم، وقد أشار سيد قطب نفسه إلى هذا المعنى في الظلال أكثر من مرة. وهذه الوسيلة حاضرة بقوة في الأنساق المغلقة (الجماعات الإسلامية) ولك أن تتدبر حال صغار السن والعقل مع شيوخهم والقيادات التاريخية وحال الشيوخ معهم وهم لا ينهونهم!!

وأهم ما يمكن أن يفسر ظاهرة سيد قطب التي انتشرت في الفترة الماضية هو وجود جماعات منظمة أو شبه منظمة (أنساق مغلقة) تدعمه؛ فقد كان ثمة من ينتظر كلماته ليحملها هنا وهناك بين آلاف من الذين أوقفوا أنفسهم على نشر وعي ديني وسياسي في المجتمعات المسلمة. بمعنى أنه حدث تبادل ضمني للمنفعة بين سيد قطب وهذه المجموعات الدعوية التي تأخذ شكل أنساق مغلقة (تنظيمات وشبه تنظيمات): هو زوّد القائمين على الأنساق المغلقة بوقود

فكري يناسب شهيتهم في تجنيد الأعضاء وحثهم على البذل والتضحية من أجل الأفكار التي يتبناها النسق المغلق (الجماعة) الذي ينتمون إليه وزودهم-أيضاً- بنموذج عملي للصلمود في وجه السلطة الجائرة؛ وهم وفروا لكلماته انتشاراً. ولذا حين انتشر كتاب معالم في الطريق بعد طباعته بأيام استدل عبد الناصر بسرعة الانتشار على وجود تنظيم بجوار سيد قطب عمل على نشر الكتاب بهذه السرعة؛ نعم الجماعات الداعمة لها دور كبير في صناعة الرموز وخاصة في هذه الأيام، فكل مشهورٍ منتشر بين الناس يتركب من شيئين: إمكاناته الشخصية والأدوات الإعلامية التي حملت أفكاره إلى الناس، وفي الجملة القوة قوة أدوات وقد أتيت هذا المعنى كثيراً ولا أريد أن أكرر. فقط أريد أن أقف قليلاً حول العلاقة بين سيد قطب والتنظيمات الإسلامية التي عاصرتة ولحقتة وأدور حول هذه العلاقة وأعيد النظر فيها مرة بعد مرة، ونلقي عليها الأسئلة نحاول أن نستوضح أهم ما فيها ومساراتها بحثاً عن إجابة على سؤال رئيسي: هل كان سيد قطب مجدداً؟

سيد قطب والأنساق المغلقة:

ظهرت الأنساق المغلقة (الجماعات الإسلامية)، كوسيلة لتكوين كتلة تسعى إلى استعادة الحياة الإسلامية من جديد، وأجهضت التجربة الأولى (الإخوان المسلمين نسخة الأستاذ حسن البنا) مع أول صدام لها مع السلطة، وظلت الجماعة مبعثرة بعد البنا على خلفية اختيار مرشد!! ولم تتجمع إلا بعد انهيار السلطة الحاكمة، ثم اجهضت بأيدي السلطة مرة ثانية (الصدام مع عبد الناصر) وتوارى ذكرها خلف جدران الإهانة والحرمان (السجون)، ولم يثمر إلا الذين لم يخرجوا عن النسق المغلق وعملوا منفردين كالشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق ومحب الدين الخطيب وعلماء السلفية، حتى جاء الأستاذ سيد قطب

وبلور نظرية جديدة أعادت النسق المغلق فتياً مرةً ثانية، وهي نظرية الفئة المؤمنة. يقول: مجتمع مسلم في وجه الجاهلية المعاصرة التي تحكم العالم، وأن المجتمع المسلم يبدأ من فئة مؤمنة حق الإيمان، وأن النصر لا يحتاج لأكثر من تصحيح العقيدة، فإن وجدت الفئة المؤمنة حقًا نزل النصر!!

ولا أريد هنا مناقشة الفكرة، ولكن أريد أن أشير إلى أن فكرة النواة الصلبة مثلت منطلقاً لعامة الإسلاميين بعدها. استعذبوها ودخلوا فيها دون أن يتأملوها: من أين جاءت.. كيف تكونت؟، وما مآلاتها؟، مع أنهم يدعون التدبر ويدعون إليه!!

تحرك بعضهم إلى تكوين (فئة مؤمنة/ نواة صلبة/ جماعة) تأخذ بأسباب النصر التي شخصها وقتها بالاستيلاء على السلطة بالسلاح أو الثورة الشعبية (الجماعات المسلحة)؛ وتحرك بعضهم إلى تطوير الفئة المؤمنة إلى مجتمع مؤمن بعيد عن الجاهلية فدعى إلى تكفير العوام وهجرانهم لتكوين مجتمع مؤمن خارج الواقع المعاصر يزاحمه ويناطحه ثم يبتلعه!! (التكفير والهجرة والسماويون)؛ وتحرك بعضهم إلى تصحيح العقيدة كضرورة من ضروريات تكوين الفئة المؤمنة فتحدث عن التصفية والتخلية ثم غرق في التفاصيل وخرج من سياق الزمان والمكان (السلفية العلمية). وهكذا مثلت نظرية سيد قطب متركزاً للذين من بعده..

لماذا راجت فكرة النواة الصلبة؟

لأنها تتفق مع الحالة النفسية التي سيطرت - ولا زالت تسيطر - على الإسلاميين، كان - ولا زال - الكل يتعجل استعادة الحياة الإسلامية/ الخلافة الإسلامية سريعاً، ينظرون للواقع المنحرف ويريدون التخلص منه سريعاً. فتكوين فئة مؤمنة لا يحتاج لكلفة من وقت أو جهد، فيستطيع من ينشط أن يكون فئة مؤمنة في سنوات قليلة وخاصة أنه لا يشترط غير تصحيح الاعتقاد كما يراه الداعي إلى الفئة

المؤمنة، ويمكن تصحيح الاعتقاد من خلال عدد قليل من جلسات النقاش المعرفي ما يقال له "الدعوة الفردية".

وقد بسطت هذه النظرية الأمور وسهلتها على الجميع فنشط من شاء وكون (فئة مؤمنة) ثم تضخم الأمر وتحولت إلى كتل متصارعة في مستويات شتى: فكرية (اختلاف عقدي)، وعملية (الصراع على المساجد مثلاً). ولك أن تتأمل في رؤوس التكتلات الصحوية التي ظهرت بعد سيد قطب ستجد أنهم جميعاً سادوا قبل أن يتعلموا.. جلهم صنف وأسس كياناً وهو طالب جامعي، ويفخر بذلك!

التقيت مرةً أحدهم، وحين عرفني كأنه ظفر بغنيمة.. يريد أن يصحح لي عقيدتي، وراح يتحدث عن ما لا يسع المسلم جهله من أمور الاعتقاد حسب ما يرى، وبعد أن فرغ حديثه باثنتين: الأولى: أن ما يراه هو مسلمات عقدية يختلف معه فيها أقرب الناس إليه من الصحوة عموماً أو السلفية على وجه الخصوص، ما يعني أنها حالة من التمدب وليست حالة من (صححة الاعتقاد). والثانية: أن أغلب المنتسبين للصحوة لا يمتلكون شرعية التحدث باسم الدين للعوام ولذا ينحصر خطابهم ضمن فئة قليلة من الناس وينتهي الأمر بحالة من التحزب/ التشيع ثم الصراع بين المتحزبين، ولك أن تستحضر الخلاف بين السلفيين أنفسهم على المساجد وغير المساجد، فضلاً عن الخلاف مع غيرهم.. !!

سيد قطب والسؤال الأصوب!!

خدمت التجربة الأولى للصحوة الإسلامية في مصر (نسخة الأستاذ حسن البنا) بعد أن قمعها النظام الملكي، وخدمت الثانية (نسخة يوليو 1952) بعد أن قمعها النظام الناصري. وانتهى الأمر بالجيل الأول من الصحوة الإسلامية في

مصر خلف جدران الإهانة والحرمان (السجون). وفي ظلمات السجن تساءل المعدَّبون- حسب رواية الأستاذ محمد قطب في بعض محاضراته- عن سبب تحول الجماهير من الحماسة والتأييد للحركة الإسلامية إلى الحماسة والتأييد لعبد الناصر وهو يجارهم ويقتلهم؟! وكانت الإجابة يومها- حسب رواية الأستاذ محمد قطب أيضًا- هو الخلل العقدي.. أن الإيمان لم يتمكن من قلوب هؤلاء. ومن هنا اتجه فصيل من الحركة الإسلامية، عرف بالقطبيين بعد ذلك، إلى تصحيح العقيدة، وتبني فكرة مفادها أن شرط النصر هو تحقيق الإيمان بالله واليوم الآخر وأن الشرك- أيًا كانت نسبته- يقف حائلًا دون تحقيق النصر والتمكين في الأرض، وأن الذين لم يصححوا عقيدتهم جاهليون لم يهتدوا بهدى الله.

مثلت هذه المقولة إطارًا نظريًا لفهم السيرة النبوية وفهم الواقع والعمل على تغييره، ومن ثم تحرك أصحاب هذه المقولة للبحث عن أدوات لتنفيذ الفكرة، فكانت أداة التنفيذ التي اهتموا إليها هي البدء في تكوين (النواة الصلبة/ الفئة المؤمنة)، التي تترى على العقيدة الصحيحة وتنمو كالزرع حتى تكوّن مجتمعًا مسلمًا يراحم المجتمع الجاهلي ويبتلعه. ومن خلال منظور (الفئة المؤمنة) قرأ الأستاذ وأحبائه السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، فنظر إلى جيل الصحابة- رضوان الله عليهم- وسماه (جيل قرآني فريد)، يقول: تفوقوا لأنهم تلقوا فقط من الوحي، وتفوقوا لأنهم تلقوا الوحي للتنفيذ، وأن من فعل مثلهم صار حاله كحالهم. وأكمل أخوه (الأستاذ محمد) فذكر أن لا فرق بيننا وبين الصحابة فإن كان شخص الرسول قائمًا بينهم فإن السنة النبوية بيننا كما هي ونص القرآن بيننا كما هو، فلا شيء يمنعنا- حسب قوله- من أن نكون مثلهم!!

ولا أدري كيف ومعلوم أن الصحابة أنفسهم - رضوان الله عليهم - اقتتلوا بعد وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم!!؟؟

وجد سيد قطب ضالته في كتابات عبد الأعلى المودودي التي تتحدث عن ضرورة تصحيح المصطلحات الأربعة (الإله والرب والدين والعبادة) فراح يشرح ويفصل، هو والأستاذ محمد قطب، المفاهيم التي ينبغي أن تصحح؛ ووجد القطبيون ضالته في السلفية النجدية (أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله)، تلك التي لا تكاد تتحدث عن شيءٍ آخر غير التوحيد (تصحيح الاعتقاد)، وأضافت الدعوة السلفية النجدية بُعدًا آخر وهو الاهتمام بالتفاصيل، باعتبار أن البدعة بدرجاتها المختلفة مرفوضة كلها، وباعتبار أن النكير على المبتدعين مقدم على كل شيء؛ وحدث تحالف ضمني بين الرؤية القطبية والرؤية السلفية النجدية بعد الطفرة البترولية وتأييد السياسي الخليجي للقطبيين كمتمردين على خصمه السياسي (النظام الناصري)، فاستخدموا في سياق كشف ظلم النظام الناصري وتعديه على الدين والحريات الخاصة، بمعنى أن الحالة القطبية تحولت من فاعل يستهدف التغيير في اتجاه استئناف الحياة على قواعد الشريعة إلى موظفٍ في سياق الصراع السياسي بين النظم العربية التقدمية والرجعية. (شرحت هذا في مقالين بعنوان: التوظيف السياسي للدعوة السلفية).

ورافت فكرة الأستاذ سيد قطب لبقايا الإخوان، فقد كانت الفئة المؤمنة هي هي بأم عينها النسق المغلق (الجماعة المنظمة) التي بدأت بها تجربة الإخوان الأولى. ورافت الفكرة لطليعة الجهاديين في مصر فقد اشتدوا إلى محاولة الانقلاب العسكري بخلايا صغيرة في العدد (فئة مؤمنة). ورافت فكرة قطب للذين صبا غضبهم على عوام الناس مع السلطة فكفروا الجميع وطالبوا بالهجرة والخروج على المجتمع والسلطة.

كانت فكرة الفئة المؤمنة شديدة الإغراء للجميع، كل نظر إليها وأعجب بشيء منها. منهم من استحسّن أنه من (الفئة المؤمنة) ذات العقيدة الصافية، وهو معنى ينطوي على عزة واستعلاء وشعور بالتميز؛ ومنهم من استحسّن أن النصر لا يحتاج لأكثر من عددٍ من الجلسات الفردية وتصحيح المفاهيم لدى قلة قليلة كسببٍ وحيدٍ-أو رئيسي- للنصر؛ ومنهم من استحسن العكوف ونقد المخالفين وتمزيقهم بدعوى تصفية المناهج التي سترى عليها الفئة المؤمنة، ومنهم من استحسّن الاجتماع في البيوت سرًا والتحدث مع الخلان والأصفياء كأسرةٍ واحدة تفعل ما لا يفعله غيرها، ومنهم... وقد قدمت في المقال السابق أن كل الذين بعد قطب خرجوا منه حتى الذين يرفضونه ويتناولون عليه!!

حين تضع تاريخ الصحوة الإسلامية الحديثة بين يديك وتعيد النظر فيه مرة بعد مرة تجد أن ثمة **عجالة فيما يتعلق بالنظرية والفكر**. تظهر فكرة من شخص له احترامه وتقديره فيندفع لها الناس؛ وتصبح مسلمة ونظرية كلية لا يناقشها أحد؛ وينحصر التنظير-بعد ذلك- في التفاصيل والدفاع عن الفكرة الكلية.

عدم دقة السؤال البحثي الذي ذكره الأستاذ محمد قطب أوجد خللاً في النظرية وخللاً في التطبيق!!

لم تكن الجماهير خلف الإسلاميين ثم تخلت عنهم. غير صحيح. من حيث الكم ومن حيث المحتوى. فما قبل يوليو 1952 هو العصر الليبرالي الاشتراكي في مصر وما حولها، وعامة الجماهير كانت حول الوفد وغيره، أو على الأقل لم يكن الناس كلهم خلف الرؤية الإسلامية؛ وحتى أولئك الذين احتشدوا خلف الإسلاميين يومها وإلى اليوم لم يحتشدوا طلباً لتطبيق الشريعة وإنما بحثاً عن أغراض خاصة بهم تتعلق بالمأكل والمشرب، فالجماهير مستقلة تماماً في حركتها، دوافعها وأهدافها لا علاقة لها بالمشروع الصحوي، واحترامها للإسلاميين وتأيدها لهم

بعض الوقت يكون لأهداف أخرى لا علاقة لها بالمشروع الصحوي. وليتنا وقفنا على حركة الجماهير ندرسها ونستخلص منها الدروس كما فعل (جوستاف ليون) في كتابه سيكلوجية الجماهير. ولكننا - مع كثرة الصفحات التي تلقيناها من الجماهير وغيرها - لم نقف نتأمل ونستخلص الدروس والعبر، ولذا يتكرر ذات الدرس على ذات الجيل مرة بعد مرة ولا يفقهون!!

صلاح حال الناس بتدابير عملية، والمجتمعات تتحول بفعلٍ ممتد على ظهر سنين طوالٍ من نخبة متخصصة في شتى المجالات، ولذا فإن الحركة العلمية التي تكونت في عهد التابعين لم تضعف حين ضعفت الخلافة العباسية، بل ظلت تتطور مستقلة عن السلطة نظرًا لوفرة رأس المال النخبوي في المجتمع في مجالات شتى. وكذلك: ظلت المجتمعات متمسكة بقيمها وأخلاقها لقرون من الزمان بعد أن ضعف السلطان، فكان ينبغي أن يفهم أن الطريق طويل وأن نقطة البدء في المعالجة الصحيحة لواقع الناس من خلال نخبة متخصصة تباشر حياتهم الخاصة وتحاول أن تعالجها في سياق مجتمعي، لا من خلال قلة قليلة تستعلي على المجتمع وتصفه بالجاهلي؛ وتظن أن تصحيحها لعقيدتها يكفي لأن تستلم السلطة والمجتمع معًا!!

وكان الخلل في الجهل بالتحويلات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، وأن الأمة تتشظى جغرافيًا بعد أن تشظت ثقافيًا تحت مسمى (الاستقلال). فقد قُسمنا إلى دويلات صغيرة بدعوى التحرر من الاحتلال الغربي. وتغيرت صيغة الحكم إلى (الدولة القومية) وهي عقيدة جديدة شديدة الإحكام والقسوة على كل شيء، وأنها هي التي تصارع الصحوه وصرعتها مرتين (النظام الملكي والنظام الناصري)، وأن علينا أن نقف ونعيد النظر فيما نواجه.

كان علينا أن نسأل: كيف انتصر الخصوم على الصحوة؟
 كيف أجهض الغرب حركة التجديد في الأمة وحوّل مسارها لتسير خلفه
 وهي تدعي الرشد والاهتداء بنور النبوة؟!
 وكان الأحرى بالذين جاءوا بعد سيد قطب أن يتساءلوا: كيف انتصر
 الخصوم مرة بعد مرة على (الفئة المؤمنة) التي لا يشك في إخلاصها؟!
 ولكن سؤالاً هكذا لم يطرح. بل ظل القوم يعاندون ويستخفون بالتحديات
 الخارجية: النظم السياسية للدولة القومية والنظام الدولي. ويتحدثون عن انهيار
 الغرب. وقد كان الغرب يومها يمر بأفضل مراحلها على مر التاريخ: جمع الله له
 أسباب القوة المادية واتحاد الكلمة تحت قيادة فتية (الولايات المتحدة)؛ وظل
 القوم يستحضرون صورة النموذج المثالي للدعوة: قلة قليلة من المؤمنين يجتاحون
 العالم شرقاً وغرباً، ويحاولون استعادة هذا المشهد من جديد. والذي أفهمه أن
 السيرة النبوية نموذج مثالي يجد فيه كل أحد أسوة (نموذج عملي للتشبه به)
 فالفقير يجد في حال النبي -صلى الله عليه وسلم- أسوة، وكذا الغني، والمنتصر،
 والمهزوم، ومن وفقد ولده، ومن حضر ولده... والذي أفهمه أن مراحل البعث
 والتجديد في الأمة لم يكن شرطها صفاء الاعتقاد فكثير ممن نهضوا يندرجون
 تحت وصف (مبتدع) بمقاييس القطبيين والنجديين!!
 انتهت الكلمات المخصصة للمقال، وأعود مرة ثانية - إن شاء الله وبحوله وقوته -
 لبث أشجاني حول فساد "النواة الصلبة" كمنظور للرصد والتفسير، وحول
 التطبيقات العملية للنواة. اللهم رشدًا وعزيمة على الرشد.

السلفيون والوعي بعد يناير 2011

بعد رحلة على ظهر الأيام كشفتُ فيها عن سياقٍ متصل خلاصته أننا منذ قدم الاحتلال الغربي ونحن لا نفهم ما يحدث. فقط نفهم ما قد حدث. وجاءت بعض الردود من كرام أفاضل فيها: أن هذا ينطبق على الذين من قبلنا أما نحن فنفهم جيداً ما يحدث. فهل حقاً ما يقول هؤلاء الأفاضل؟، هل حقاً يفهم الحضور ما يفعل بهم، أم كالذين من قبلهم!؟

ولا داعي للمقدمات، دعني أعرض مشهداً من عشرات المشاهد التي تتزاحم في خاطري تريد أن تمثل بين يديك شاهدةً على أن الحضور كالذين من قبلهم، يفهمون ما حدث بعد أن يحدث وينتهي أثره.. على أن الحضور لا يمتلكون إلا الرفض والنية الحسنة في التغيير للأحسن، وأتحدث عن المجموع لا عن الجميع، فدائماً ثمة من يفهم ويؤسس لواقع جديد.

السلفيون في المشهد الثوري. وهم يهتمون بطلب العلم ونشره، ولا ينفكون من الحديث عن "فهم الواقع". دعنا نتفحص مشهدهم كحالة على أن لا وعي إلا بما قد كان.. على أن مكر الخصوم يمر مرّ السحاب ونحن تحتته فرحين مسرورين نظنه غيث ورضوان ثم هو ريح تدمر كل شيء بأمر ربها...!!

أجمع السلفيون قبل يناير على رفض المشاركة السياسية. بعضهم أحجم عنها تحريماً لها وبعضهم أحجم لعدم جدواها؛ وحين بدأت نذر الثورة تتجمع في الأفق لم يشاركوا ولم يعلنوا تأييدهم باستثناء الشباب. وشارك الشباب لأنهم شباب مندفعون. ينطلقون من حماسة لا من تنظير وعقلانية في الغالب. وبعد رحيل مبارك أقبل السلفيون وشاركوا في العملية السياسية: أسسوا الأحزاب على قواعد الديمقراطية! وتنافسوا مع بعضهم منافسة حقيقية!! وتحالف بعضهم مع "عدوهم" ضد "إخوانهم"!! ودخلوا مجلس الشعب الذي كانوا يكفرونه!!!،

وساروعوا لبرامج "التوك شو" وأصبحوا نجوم شاشات وواجهات اجتماعية،
وتقدموا صفوف المرشحين للرئاسة فهل كانت هذه القفزة المفاجئة بين
الضدين عن وعي وبصيرة؟!
تأمل معي في هذه المشاهد:

لم تشارك سلفية الإسكندرية في أحداث "يناير"؛ وفي أول ظهور لها بعد أن رحل
مبارك رفعت لواء "الهوية". ثم تبين أن الهدف من إعلان الهوية هو تقسيم صفوف
"الثورة" إلى إسلاميين وعلمانيين، بل وتقسيم صفوف الإسلاميين أنفسهم إلى
مدافعين عن الهوية ومساندين لأعداء الدين.. أولئك الذين قدّموا الحريات على
المطالب الدينية. ولم تكذب تبرح الأيام مكانها حتى بدّلوا وغيروا وتحالفوا هم مع
المخالفين هوياتياً (جبهة الانقاذ). فهل كان هؤلاء، وهم عراض غلاظ في حس
من يشاهد، يفهمون ما يحدث؟، أم دُفعوا إلى ما لا يفهمونه إلا بعد حدوثه.
أو يفهمونه ولهم فيه مآرب أخرى؟!

وفي القاهرة كان عامة السلفيين يميلون إلى المنهج القطبي، بمعنى تجريم الديمقراطية
على مستوى المبادئ وعلى مستوى الأدوات، ويسخرون من الديمقراطية ومن
يمارسها، وذات مساء طُلب منهم المشاركة في العملية السياسية، فأقبلوا مسرعين،
وأسسوا الأحزاب. حزباً، ثم حزبين، ثم ثلاثة وأربعة وبدأ التكاثر المبتوزي (متتابعة
حسابية: 2، 4، 8، 16،،،) للأحزاب، وأعرف أحدهم من فئة "عصبي المزاج/
سريع الاشتعال"، لم يجد حزباً يترأسه، فجلس مع نفسه واختار اسماً لحزب متوهم
ليس له وجود إلا في صدره، ثم أعلن نفسه رئيساً لهذا الحزب (حزب تحت
التأسيس)؛ وراه آخر مثله (عصبي المزاج.. سريع الاشتعال) فأعجب بصنيعه
فقلده، ولو طال بهم المقام في ساحة الديمقراطية فلربما رأينا عشرات من هؤلاء،
كما هو حال الأحزاب الشيوعية مثلاً.

واسأل معي:

ما الفرق بين الأحزاب السلفية؟!.. على أي خلفية تمايزوا!!

ولم لم يشكل التيار الإسلامي كله كياناً واحداً؟!!

ضع المشهد بين يديك وأعدّ النظر فيه مرة بعد مرة، وسل معي: هل هؤلاء

أهل وعي؟!؛ أم مزيج من الجهل بالواقع وحب الذات؟!!

لن تجد غير هذه الإجابة التي توصلت إليها بعد النظر أكثر من مرة في حالهم من فوقهم ومن بينهم: بحثٌ عن الذات في إطار تدين، وهو سياق مضطرد في ساحة المتدينين، فما حدث من منافسة في ساحة الديمقراطية امتداداً للمنافسة في المساجد.

وإذا تركنا السلفيين وذهبنا للشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل، وهو حال وسط بين السلفية التقليدية والإخوان، هل مثل حالة من الوعي بالخصوم ومكرهم؟!!

إذا نظرت للدائرة الداخلية (داخل مصر) فقد كان يعي جيداً أن ثمة من يمكرون، وأشار إليهم، وانتصب في وجههم، ولكن: غاب سؤال: هل يقدر الشيخ على قفز المفازة بالفقراء والمساكين؟!، هل يقدر على خوض غمار المواجهة بالمبعدين عن كل أسباب القوة؟!، هل كان من العقل أن يواجه الجماهير دون أدنى أدوات القوة؟!، هل كان من العقل أن تحسب الحسابات على مستوى قطر واحد في عالم متماسك ومتربط ويدار برأس واحدة؟

أجابت الأيام بأفعالها المؤلمة المرة. وتبين بوضوح أن الجماهير إحدى أدوات الفعل، وتستدعي للمشهد مؤقتاً ثم تُخرج رغماً عنها وإلى حيث لا تريد. وقد أسهبت في هذا أكثر من مرة (انظر للكاتب: ثورة.. تاني؟!).

إن مشهد الشيخ حازم يحتاج لدراسة من عدة نواحي، أهمها:
 أولاً: موقف السلفيين منه، وكيف أن التكتلات السلفية نفرت ونفرت عنه، ولم يتبعه إلا عوام السلفيين وقلة من خواصهم، وكثير من هذه القلة كان طامحاً في مغنم يحققه من الاكتساح الجماهيري للشيخ، وقد اختلفوا عليه واستنداروا له واستعدوا لمنازعته قبيل الانتخابات البرلمانية، وبدأ الحديث عن تسفيه رأيه وصنعه من داخل الدائرة القريبة جداً منه، وإن كذبوني تحدثت بالأسماء، وأرجو أن لا أضطر لذلك.

ثانياً: أين مؤيدو أبو اسماعيل، مع كثرتهم؟، وبالتالي ما السبب الرئيسي في التأييد؟ ما الذي جمع الناس سريعاً ثم انصرفوا كأن شيئاً لم يكن؟!.

وقد تكون الإجابة على هذا السؤال في مثالية الخطاب الذي تبناه الشيخ حازم، وهذا يأخذ البسطاء من الرجال وعامة النساء بعيداً، فالبسطاء (مهما كان رقيهم التعليمي) لهم عقلان: عقل جمعي وعقل فردي، ويتحركون سريعاً للعقل الجمعي أو للخيال. وجرب أن تحدث زوجتك، أو طفلك - بأنك حين تمتلك مالا ستشترى لها سيارة فارهة، وتسكنها فيلا واسعة، وتذهب بها لمكة والمدينة تتسوق وتسكن الفنادق وترى فخامة البناء في المسجدين في كل عامه مرة أو مرتين، ستصدقك وتنتشي وتدعو لك وإن كانت تعلم فقرك وقلة وفائك. وحين يواجهون الواقع يهربون للماضي يتحدثون عنه بحنين العشاق. وللأسف هؤلاء أكثر من في المشهد. وصوتهم عالٍ. والعقلاء تائهون بين الأقدام. هذا ما حدث مع أبي إسماعيل: طرّح حالم (يوتوبيا)، فنصرةً كلامية من الحالمين الطامحين، فواقع شديد الألم. ولا زال يستحضر من باب أحلام اليقظة، ولا أحد يريد أن يدرس الظاهرة ويستخلص منها العبر. وقفوا عند اللحظة التي استعذبوها ويريدون الرجوع إليها، والله يقول: (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَاكَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِ) (محمد:4).

ويضاف إلى العقل الجمعي الذي يسيطر على الغالبية في وقت الأزمة أن أغلب المتدينين يعظمُ الموقف الرافض دون أن ينظر لتبعاته، يعظم المقاومة وإن كانت ذات أثر سلبي، ولا يمتلكون رؤية لفعل ممتد.

ثالثًا: مسؤولية أبو اسماعيل عن دفع الحالة الإسلامية للمواجهة الصريحة مع العلمانية بأذرعها المختلفة فكان ما كان. إذ لم يكن الإخوان (وهم رأس الإسلاميين يومها) ينتون الترشح للرئاسة أو حيازة أغلبية في البرلمان.

رابعًا: طبيعة الشخصيات التي قربها أبو اسماعيل منه، وهو شيء يتحدث عنه الجميع في مجالسهم الخاصة.

وإن الذين يقولون بزيادة الوعي عند أبناء الجيل يتكئون على ما يرونه من زيادة في تدفق المعلومات، وكأن كثرت المعلومات يؤدي إلى إرتفاع الوعي، وغير صحيح. فعليًا نُزعت البركة من أدوات المعرفة، بفساد القائمين عليها. فالتطور في الأدوات التقنية أدى إلى ربكة معلوماتية، وأدى إلى شغلٍ بما قلَّ- أو انعدم- نفعه، ولذا فقدنا العمق والسكينة، وكثر اللهو والعبث.. بعدنا عن الجد.. إلا قليل.

شيء مهم في التفسير والتحليل:

المعنيون بتفسير الظواهر السياسية في الأكاديميات لا يعطون العوامل النفسية كبير اهتمام، والسبب- في الغالب- حضور المدرسة السلوكية التي تبحث عما يقاس رقميًا (التحليل الإمبريقي)، والسبب هيمنة المناهج العلمانية الوضعية التي لا تؤمن بغير الماديات (ما تراه بعينها) وتكاد تجحد الضمائر وما انطوت عليه الصدور. تقول الوضعية: الكل خلف مصلحته. وهذا صحيح، ولكن: المصلحة يحددها بُعد نفسي.. شهواني أو عقدي، ما يعني أن البعد النفسي هو الأساس في تحليل الظواهر السياسية والاجتماعية، فالاختلاف والشقاق سببه في الأساس

أمراض نفسية لا غياب الحقيقة أو التباسها، يقول الله تعالى: (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ) (الشورى: 14)، فالفرقة جاءت بعد العلم والسبب هو البغي. وفي قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران: 105) قدّم الله الفرقة على الاختلاف مع أن الذي نراه بأعيننا في الواقع غير ذلك ليبين لنا أن أمراض النفوس هي السبب. يقرر أحدهم أن يفترق ويعزم على ذلك، ثم يظهر خلافاً يبرر به فرقه. فالخلاف أداة في الغالب والمرض الحقيقي هو مرض النفس، ولذا اتجه القرآن الكريم للقلوب يداويها بترهيبٍ وترغيبٍ وربط كل شيء بالله وما أعده في الآخرة للمتقين والعاصين. فإلى القرآن.. مآدبة الله. إذ لا بد من سلامة القلب مع سلامة العقل كي نحصل على وعي صحيح، (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَاللَّهُ وَالْأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (الزمر: 18).

محمد جلال القصاص

مساء الأربعاء 23 ربيع أول 1441هـ

2019 / 11 / 20

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

جني ثمار الحرب الباردة: الرؤية والأدوات

بعد الحروب الكبرى يُعاد تشكيل الغالب ويُعاد تشكيل المغلوب!!

كلاهما يعاد هيكلته من جديد!!

المغلوب ينكمش ويضعف ويدخل في نمطٍ جديد من الفعل السلطوي والاجتماعي، فغالبًا ما يعاد هيكله السلطة والنخبة ومؤسسات المجتمع، ومن ثم يُفرض على الناس أنماط جديدة من الفعل الاجتماعي من قبل السلطة المهزومة ذاتها أو من قبل المنتصرين.

والمنتصر يجني ثمار انتصاره وذلك بإعادة تشكيل نفسه من جديد. فبعد الانتصار يزداد قوة فيتمدد نفوذه (الحدود الافتراضية)، ويتمدد جغرافيًا بضم أراضٍ من المغلوب إليه، أو دخول آخرين معه في أحلاف.

وهذا ما حدث بعد الحربين الأولى والثانية. فبعد هزيمة الإمبراطوريات في الحرب العالمية الأولى، أعاد الغالب هيكله السلطة (نظام الحكم) والنخبة ومؤسسات المجتمع ونمط الفعل الاجتماعي لدى المغلوب!

أنهى الغالب نموذج الحكم القديم (الملكية/ الحكم الوراثي)، وأجبر النخبة على إعادة هيكله نفسها من جديد. وإنَّ النخبة في كل مجتمع تتكيف مع الجديد وإن حدث تغير ففي طبيعة الشخص [يعدّل وضعه حسب التغيرات التي حدثت بعد الحرب] أو يذهب شخص ويأتي شخص آخر من ذات الطبقة، أما الطبقة فتبقى كما هي في الغالب، وذلك أن خيار الناس قبل الحرب هم خيار الناس بعده، وفي الحديث: " تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا

فَقَهُوا". بمعنى أن المنتصر ينتج نخبة مجتمعية توافقه وتساعد في إعادة هيكلة المؤسسات والمجتمع ومن ثم إدارتهما وبناء هوية مجتمعية جديدة تتوافق معه.

وكذلك فَرَضَ المنتصرون في الحربين نموذجهم المعرفي (عقيدتهم) على الجغرافيا فقسّموا العالم لأجزاء صغيرة سميت دولاً، وبدأت تفتت الإمبراطوريات تحت مسمى بَرّاق وهو "الاستقلال". أو بدأت مرحلة جديدة من الهيمنة والسيطرة تحت نموذج حكم عالمي جديد هو "نموذج الدولة القومية الحديثة". وكان هذا الشكل الجديد للجغرافيا (الدول المستقلة) هو أحد أهم أدوات المنتصرين في الحرب لفرض عقيدتهم على غيرهم، فكما يذكر الدكتور المسيري: جُعِلت الدولة الصغيرة الناشئة هذه هي القيمة المطلقة، أو المرجعية النهائية، والركيزة الأساسية للمجتمع، ومصدر تماسكه الوحيد، فأصبحت الدولة هي المقدس، وأصبحت مصلحة الدولة هي الإطار المرجعي لمنظومة القيم، والإطار الذي يعبر الشعب من خلاله عن ذاته. بل وأعيد قراءة التاريخ ضمن إطار الدولة الحديثة وكأنها كانت حاضرة منذ كان الإنسان على وجه البسيطة [الصهيونية والحضارة الغربية ص 43]. وانحصرت مهمة السلطة الحديثة.. سلطة الدولة القومية في بناء هوية جديدة على الجغرافيا الحديثة.. جغرافيا "الدولة".

نعم تفتت المنهزمون إلى كيانات صغيرة ضعيفة وتزداد تفتتاً يوماً بعد يوم، وتحول المنتصرون إلى كيانات كبيرة (ولايات متحدة) (اتحاد السوفيت)، وأحلاف عسكرية كبيرة مكونة من عدة دول هامة (الناو، وارسو)، وتكتلات اقتصادية وسياسية وثقافية. والمحصلة أن بدأت أنماط جديدة من التفاعل السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري تتوافق مع هوية الغالب، ودخل فيها المغلوب بعد أن فُرضت عليه بالقوة، وشيئاً فشيئاً نسي المغلوب ما كان عليه وبدأ يُنافس الغالب المحتل في هويته.. شيئاً فشيئاً بدأ المغلوب يتعصب للجديد الذي كان ينكره ويحاربه من قبل.. دخل المغلوب في دين الغالب بدعوى أنه مقتنع ومحب لدين الغالب وبدعوى أنه يبحث عن أسباب القوة والنفوذ ليسترد ما أخذ منه!!

وبعد انتهاء "الحرب الباردة" حدثت الهزيمة للاتحاد السوفيتي بدون حرب عسكرية مباشرة... حدثت الهزيمة دون أن يقف المنتصر على رأس المهزوم ويملي عليه ما يريد كي يتوقف عن القتل والتخريب. وهنا حدثت معضلة، وهي: كيف يجني الغالب ثمار الحرب التي غلب فيها في هذه الحالة النادرة من الانتصار؟

تحللت الكتلة الشرقية (المغلوبة) من تلقاء نفسها.. أو بالفساد الداخلي والضغط الخارجي، وأعيد تشكيلها، وراح الغالب في الحرب الباردة (الكتلة الغربية الليبرالية الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة) يبحث عن وسيلة يجني بها ثمار انتصاره، فتم ابتداء مبدأ "التدخل الإنساني" والذي يقضي بالتدخل في شئون الدول من أجل "الدفاع" عن "حقوق الإنسان". واستخدموا هذه الحيلة (التدخل الإنساني) من أجل مزيد من النفوذ بداخل الدول وخاصة التي كانت ضمن الكتلة الشرقية المغلوبة في الحرب الباردة.. ومن أجل إعادة صياغة الجغرافيا ونظام الحكم والنخبة ومؤسسات المجتمع في تلك الدول، وكانت أول خطواتهم في أوروبا الشرقية الموالية للاتحاد السوفيتي فكان أن فككوا الكيانات الكبيرة (يوغسلافيا) وغيروا نظم الحكم لتكون على ما هم عليه، واضطروا الأوربيين إلى "دايتون الثانية" كما اضطروهم من قبل إلى "دايتون الأولى" بعد الحرب العالمية الثانية. واستخدمت هذه البدعة (التدخل الإنساني) وسيلة من أجل تحقيق مزيد من السيطرة والنفوذ في اتجاه الشرق حيث كان المغلوب وأولياء المغلوب...!!

وفي الجانب الثقافي فرض الغالب رؤيته على المغلوب، وظهرت هذه التغيرات في انتشار ثقافة الفرد (ما يتعلق بمفردات حياته في مأكله ومشربه وملبسه، وما يسمع ويشاهد، وما يقرأ، ونحو ذلك)، ورويدا رويدا أصبح النموذج الثقافي الغربي هو النموذج السائد ويزداد تمكنا يوما بعد يوم.. يحاولون فرض نموذجهم كله على غيرهم مهما كانت الفجوة بين ثقافتهم وثقافة غيرهم، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك إصرارهم على أن يختفي التدين من المجال العام وينتشر اللواط والزنا بدعوى "الحرية

الإنسانية"، وأن يتم التعامل على البعد الإنساني لا على البعد الديني، وأن يجتمع الناس على دينهم هم.. دين الإنسانية لا على ما أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب!!

فما يحدث الآن هو دمج للجميع في النموذج الغربي بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.. وهذا ما يسمونه بـ "نهاية التاريخ".. كأن البشرية تطورت ثم استقرت في نموذجهم الذي يزعمون أنه أفضل نموذج للحكم (نموذج المنتصر.. صاحب القوة. وإن القوة لله جميعاً. وإن العزة لله جميعاً).

والأهم في المشهد ليس الرؤية فقط (دمج العالم كله في النموذج الغربي)، وإنما مهم أيضاً أن نرقب أدوات الفعل، والاستراتيجيات المتبعة في التنفيذ، ثم كيفية التنفيذ. وهذه أهم الملاحظات بما يناسب مقال:

أدوات الفعل:

لم تعد الحرب بالسلاح هي أداة الفعل الوحيدة للتغيير، وإن كانت لا تزال أداة رئيسية وحاسمة، ومرحلة لا بد منها في كل تغيير. دخلت أدوات أخرى.. أصبح القوي يفرض إرادته على الضعيف بأدوات شتى، منها: العولمة، أو توحيد العالم تحت قواعد قانونية ملزمة للجميع (قواعد عرفية.. أو إيجاد عرف دولي في جميع المجالات، هذا العرف منبثق من قيمهم هم.. مما يفرضونه في الاتفاقيات الدولية.. ثم يحولونه إلى قواعد عرفية ملزمة للجميع) من خلال الاتفاقيات الدولية (مصدر التشريع الدولي الرئيس) والتي دخل فيها الجميع تقريباً، وهذا السياق يتطور ويتوحش وكاد أن يشمل جميع مناحي الحياة.

ومن أهم الأدوات: نشر الفوضى (التخريب). أو إيجاد مناطق بلا سلطة مركزية فاعلة (مناطق يسود فيها التوحش) كما حدث ويحدث في أفغانستان، والعراق، وسوريا، وليبيا، واليمن، والسودان، وغيرهم.... ويستخدمون تخريب الموجود وإشاعة

الفوضى فيه من أجل إعادة هيكلة (بناء) المجتمع مرة ثانية على قواعدهم هم. ويتم "البناء" بشركاتهم ونخبتهم وقوانينهم وثقافتهم.

ويتم صناعة (الفوضى) بأدوات محلية في الغالب، مثل: حركات الاحتجاج الشعبي، و"الثورات"، والجماعات الإسلامية، وخاصة المسلحة منها، حيث يرحب هؤلاء بالفوضى ظناً منهم أن البدء من مجتمع بلا سلطة مركزية (التوحش) هو الخيار الأفضل، وذلك أن الحركات المسلحة تم اجهاضها في كل مكان من خلال النظم المحلية المستقرة، حتى في الصومال تم إسقاطهم من خلال النظم المجاورة (كينيا وأوغندا)، ولذا تخيلوا أن نقطة البدء من الفوضى (التوحش) حيث لا نظام. ولهم تنظير في هذا تحت مسمى "إدارة التوحش" [ينظر للكاتب: "صناعة الفوضى بين الجهاديين والأمريكان" و "ثورة.. تاني؟!"].

ومهم هنا أن نرصد أن كل منظومة عقدية تفرز أدوات خاصة بها في مستوى المؤسسات (سلطوية واجتماعية)، وفي مستوى النخبة التي تدير هذه المؤسسات. وكلما استقرت المنظومة كلما كثرت أدوات الفعل وتطورت. فمع الإسلام ظهر المسجد، وبيت المال، والأوقاف، وأهل الحل والعقد، وأهل المروءات (الغارمين)، وتم تمكين الناس من الموارد ومن فعل ما يروونه صالحاً لعمران الأرض وتحقيق المصلحة الدينية والدينيوية للناس، فمن أحيا أرضاً أو أخرج كنزاً، وفقاً للضوابط التي وضعها فقهاء الأمة في عصور التمكين فهي له، وأعفت الشريعة الأفراد من الحصول على موافقات للدولة.. أو نزعت تسلط الدولة على الأفراد، وتبرأ الإسلام من براءة الاختراع، كما يذكر الدكتور جميل أكبر في كتبه الثلاثة "قص الحق" و "عمار الأرض في الإسلام"، "براءة الإسلام من براءة الاختراع: ديمقراطية أم تمكين؟".

ومع العلمانية ظهر ما تراه بين عينيك من مؤسسات ونخبة في المجال السياسي والاقتصادي والثقافي (فن، ورواية... إلخ).

القوي يوظف الضعيف ويفيد منه شاء أم أبى. بمعنى أن الضعيف يدخل في القوي ويصبح أحد أدواته وخاصة حين يكون هذا الضعيف بلا رؤية سياسية أو استراتيجية؛ وهذا بين في عامة ما نشاهد من تفاصيل، فعلى مستوى الحركات الإسلامية استخدمت الحركات المسلحة من قبل الولايات المتحدة كأحد وسائل التصدي للاتحاد السوفيتي، وكأداة ضغط وإفشال للأوروبيين حين أرادوا حل مشاكلهم (البوسنة والمهرسك) بمعزل عن الولايات المتحدة. وقبل ذلك: استخدمت حركات المقاومة ضد المحتل الغربي في تفتيت العالم الإسلامي إلى كيانات صغيرة (دول)، واستخدمت الحدود الجغرافية المصطنعة بين الدول الناشئة في تأجيج الصراع لإنهاك الدول الناشئة بالخلافات والصراعات المسلحة بينها، والتدخل بدعوى تحقيق "الأمن الإنساني"، ثم لا يكون إلا نهب الموارد وفرض إرادة الكتلة الغربية المنتصرة في الحرب الباردة.

د. محمد هلال القصاص

شعبان 1436 / يونيو 2015

إعادة صياغة سؤال 1444هـ / مايو 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

اختلاف الإسلاميين

محمد جلال القصاص (1)

يكثر الحديث عن اختلاف الإسلاميين، وغالب الكتابات تتجه لرصد مظاهر الخلاف وأثره على الحالة الإسلامية والمجتمع، وأريد أن أدخل لظاهرة الاختلاف من باب آخر وهو إلقاء الضوء، بشكل مختصر يتناسب مع مقال، على ما أراه مهمًا من أسباب الخلاف، وبيان بعض إيجابيات الخلاف في هذا التوقيت!! ؛ وأعرض ما عندي في نقاط محددة، على النحو التالي:

أولاً: الإسلاميون أقل اختلافًا من غيرهم، سواءً في فهم النص التأسيسي (الكتاب والسنة)، أو في مظاهر التواجد في أرض الواقع. وإن كنت في شك من هذا فارقب عدد الاشتراكيين -مثلاً- في أي دولة، وإن كانت دولة صغيرة كلبنان، وانظر كيف أنهم مفتتون إلى تكتلات شديدة الصغر، مع اعتبار قلة عددهم (حيث أن قلة العدد تستلزم التوحد والتآلف) وقرب عهدهم بالنص المؤسس (كتابات ماركس وإنجلز)، وأنهم لا يتعرضون لما يتعرض له الإسلاميون من تحديات خارجية طاحنة. والليبراليون مثلهم لا يتجمعون إلا حول مغنم أو بعامل خارجي يرغبهم ويرهبهم، ولا تكاد تجد اثنين منهم على رأي واحد. حتى الفلاسفة، الذين يدعون العقلانية والتفكير وينتسبون للحقيقة لا تجد منهم اثنين على رأي واحد!! كلهم مختلفون.. حالة من التيه والتخبط. والذين ينتسبون للظواهر الطبيعية (الملحدون تحديداً)، التي يصفونها بالوضوح والصرامة. لا يثبتون على رأي في تخصصهم هم. تتبدل نظرياتهم تبعاً لتطور أدوات البحث في العلوم الطبيعية؛ ناهيك عن اختلاف النصارى فيما بينهم إلى مئات الملل التي يكفر بعضها بعضاً!!

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

وشيء آخر لصالح الإسلاميين هو أن إطار الاختلاف عند الإسلاميين ضيق بمعنى أنهم كتلة واحدة وبينهم بعض الاختلافات، ومن شواهد ذلك اشتباه أمرهم على غيرهم، حيث أن غير الإسلاميين يضعونهم في بوتقة واحدة.. كأنهم فصيل واحد ولا يعرف التفاصيل إلا المختصون أو المهتمون.

ثانياً: براءة الجهل من الاختلاف:

يقول الله تعالى ذكره: (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ) (البقرة: 213). في الآية الكريمة جملتان: الأولى خبرية تبين أن الخلاف جاء بعد أن علموا، والثانية تعليلية تبين أن سبب الخلاف هو البغي.. الإحن التي في الصدور لا الجهل الذي في العقول.

وتكرر هذا المعنى في كتاب الله أكثر من مرة، ومما يؤيده أن الله - سبحانه وتعالى ذكره - قدم الفرقة على الاختلاف في قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) (آل عمران: 105). ولعل السر في ذلك هو التنبيه على أن النية مبيته للفرقة بدايةً وأن الاختلاف جاء مسوعاً لذلك.

ثالثاً: الإمكانيات الخاصة، والنظرة الأحادية، والإصرار على الحسم.

هذه ثلاثية مترابطة، فبالنظر في مظاهر تواجد الإسلاميين نجد أن المحدد الأساسي لهذه المظاهر هو إمكانيات الأفراد، هذا محب للعلم فينتجه للسلفية العلمية، وهذا محب للعمل المسلح فينتجه للقتال، وهذا محب للعمل الخيري فينتجه للعمل الاجتماعي... وهكذا. وتؤدي الإمكانيات الخاصة في الغالب إلى أحادية النظرة، فكل واحد يرى ما يقدر عليه - أو ما يحبه، أو ما فيه مصلحته الشخصية - هو المناسب لنصرة الدين.

نعم: من أهم أسباب تعدد مظاهر التواجد في المجتمع الإمكانيات الخاصة للأفراد؛ وفائدة رصد هذا السبب الرئيسي هو الانتباه إلى أنه يمكن للتكتلات الإسلامية الموجودة حالياً في هيئة أنساق مغلقة أن تتجه لنوع تخصص، بحيث إن تخلت عن الأنساق المغلقة (التحزب/ الجماعات) تتجه بسهولة للتخصصية أو الظواهر الاجتماعية المتخصصة، والتي أرى أنها المخرج من هذا كله، تخصصية ضمن إطار

المجتمع. وقد شرحت ذلك في مقالات أخرى (مثل: من النسق المغلق إلى النخبة المتخصصة).

يتولد من النظرة الأحادية، والتي سببها الإمكانيات الخاصة وضيق الأفق، الدخول في النسق المغلق (الجماعات/ الأحزاب/ تكتلات حول الشيخ أو المسجد)، ويرى كل نسق أن نصرته الدين تبدأ من تمكن نسقه هو، أو فكرته هو. وليس هذا فقط بل يجتهد في الاستيلاء على الذين من حوله؛ فالأنساق المغلقة لا ترى إلا اللذين يجاورونها في الغالب، ربما لقرب المكان وقرب الاهتمامات، وتظن أن سبب العرقلة هم إخوانها الذين من حولها، بخلاف الظواهر المتخصصة فإنها تتعاون فيما بينها، ولا يدفع بعضها بعضاً، بل يدل بعضها على بعض ويتعاون معه ويستدعيه في كثير من الحالات، والخلاف داخل الظواهر يرشدها في الغالب.

رابعاً: يحمل وزر الخلاف بدرجة كبيرة المنظومة العلمانية التي تسيطر على المجتمعات المسلمة. حيث أن هذه المنظومة تقوم على مبدأ الصراع (وقد تناولت هذا من قبل عدة مرات)، فالعلمانية بطبيعتها تصنع مجتمعاً متصارعاً.. تقسم المجتمع عمداً إلى كتل متصارعة، تقسم الناس إلى شيع (مجموعات صغيرة متشايعة/ مترابطة)، فهي من ناحية ترعى الأنساق المغلقة، ومن ناحية أخرى تقاوم من يتضخم منها حتى ترجعه إلى كتلة صغيرة تنافس من حولها من إخوانها.

تبقى شيء وهو أن في اختلاف الإسلاميين فائدة، هي أنها تعطيهم فرصة للتمدد أفقياً، فلو أنهم نسيج واحد منذ بدأت الصحوة لسار إليها المخالف واشتد البلاء على الطليعة، ولكن تفرقها أعطاهم مساحة للتمدد كونها أنساق مغلقة، والسؤال الذي يجب على الجميع البحث عن إجابة له كيف يمكن تحويل الأنساق المغلقة إلى شيء يفيد الأمة.. إلى شيء يرحم الله به الناس!؟

وقد اقترحت الذهاب النخب المتخصصة ثم الظواهر الاجتماعية من قبل.

محمد جلال القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

التقلبات الفكرية في الصحوة الإسلامية:

سيد قطب وعبد الله عزام نموذجا

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بثلاثة مفاهيم أضافها الأستاذ سيد قطب، وهي "جاهلية المجتمع"، و"العزلة الشعورية"، و"الفئة المؤمنة"، حدث تحول في مسار الصحوة الإسلامية، من العداء للأجنبي المحتل والسلطة السياسية الموافقة له إلى العداء للمجتمع. دخل الأستاذ سيد قطب في صورة ذهنية متوهمة. ظنّ أنه يعيش العهد المكي حيث المجتمع جاهلي. وظن أن علاج هذا الظلام يبدأ من إيجاد عددٍ قليل من الناس يحققون الإيمان في أنفسهم فيتنزل عليهم النصر ويمكن لهم في الأرض.

واستقر في حس الذين أنصتوا له أنهم قلة مؤمنة تواجه الجميع، ومن هنا جاءت فكرة العزلة في مكان والتمدد منه لغيره، وذلك في محاولة لاستنساخ نموذج الفتوحات الإسلامية. ولاقت هذه الفكرة رواجًا عند "الأنساق المغلقة/ الجماعات" كما بينت من قبل [انظر للكاتب: "هل كان سيد قطب مجددًا"، و "سيد قطب والسؤال الأصوب"].

وبدأت التطبيقات العملية لأفكار سيد قطب، وكانت البداية منه هو نفسه فيما عرف بتنظيم 1965م، ولم يستطع شيئًا، فقد قضى على محاولته قبل أن يخرج من بيته؛ ثم حاول شكري مصطفى (مؤسس جماعات التكفير الحديثة في مصر)، وكان شابًا في العشرينات، ظن شكري مصطفى أن المطلوب هو تقليد السيرة النبوية

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

بخطواتها. كأنه قد بعث في الكافرين كما بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، في أم القرى ومن حولها، فدعا سرًّا، ثم علانية، ثم هاجر بمن أطاعه إلى مغارات في جبال محافظة المنيا، وذلك لبناء مجتمع مسلم ينمو ويتمدد على غيره، وفي التفاصيل أنهم (شكري ومن أطاعه) كانوا يتعاملون مع أنفسهم فقط كأهم مجتمع مستقل، وبعد هجرته وإقامته رفقة من حوله جلس ينتظر النصر والتمكين، وحدث من حوله في السجن بأنه إن قتل (أعدم) فهو على غير الصواب. وقتل.

نسي شكري مصطفى أنه بدأ الدعوة صغير السن (بدأ في العشرينات وأعدم في السادسة والثلاثين) وأن الله أوحى إلى نبيه، صلى الله عليه وسلم، بعد أن تجاوز الأربعين، ولربما لو انتظر حتى تجاوز الأربعين لما أقدم على شيء مما فعل، فبلوغ الأربعين نضوج (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) (الأحقاف: 15).

وكان من رفقاء شكري مصطفى طه السماوي، بدأ صغيراً كما بدأ شكري، متكئاً على لباقتة ونشاطه الحركي، وحاول مثل الذي حاول: دعا وكوّن أتباعاً، ثم اعتزل في مكانٍ (الخطاطبة) وحاول بناء "الفئة المؤمنة" و "المجتمع المسلم" ثم انفضوا بعد قليل وعادوا من حيث جاءوا.

وظهرت محاولات أخرى في إمبابة ونحوها كانت، بشكلٍ ما، امتداداً لذات التجارب التي خرجت من كتابات الأستاذ سيد قطب: فئة قليلة تحاول إقامة "المجتمع المسلم" وتواجه الجميع اتكاءً على أنها حققت الإيمان بالله.

وفي الحالة الجزائرية مثل ذلك، وذلك حين اجتمع أغلبهم على القتال بعد فشل التغيير من خلال المشاركة السياسية. كان أول ما فعلوه هو البحث عن جغرافيا يقيمون عليها "المجتمع المسلم"، فاتجهوا إلى العزلة في المناطق الجبلية وحاولوا تطبيق الشريعة الإسلامية في المناطق الخاضعة لهم والتمدد منها إلى غيرها، وذلك ابتداءً من فترة شريف القوسي (أبي عبد الله) وهي الفترة التي اجتمعوا فيها على قيادة واحدة.

وذاث الشيء حدث في جماعات "الساحل والصحراء" حين أتهم قوة، وذلك بعد هلاك القذافي وانتشار السلاح، حيث حاولوا الاستيلاء على منطقة جغرافية وأنشأوا ما عرف بـ "إمارة تمبكتو" وسارعوا إلى تطبيق الشريعة وإنشاء مجتمع يدار وفقاً لرؤيتهم ويحاول التمدد على غيره.

وذاث الشيء فعلته الجماعات المسلحة الصغيرة في سوريا بعد ثورة 2011، وفي اليمن عدة مرات، والتجربة الأشهر هي تجربة تنظيم الدولة (داعش)، والذي استطاع الاستيلاء على مساحة جغرافية وحاول التمدد منها لغيرها.

وهذا التيار من الإسلاميين هو الذي خلا خياله من تصورٍ للدولة.. لم ير القائمون، والمنتسبون، لهذا التيار حاجة لمعرفة التحديات الخارجية والتعامل معها، فكل المطلوب عندهم هو تحقيق الإيمان وتكوين الفئة المؤمنة ثم العزلة وإقامة مجتمع يتمدد على غيره. وبعد إجهاض النظم المحلية لمحاولات هذا التيار المتكررة تراجعت الفكرة إلى العزلة داخل "بيت الدعوة"، كأن البيت هو "الفئة المؤمنة" التي ستواجه المجتمع وتتمدد عليه!!

والحقيقة أن ما يقال عن جماعات "شكري مصطفى" و "طه السماوي" و "داعش" يقال عن "بيت الدعوة" فالأسرة لا تستطيع أن تعزل المجتمع وتواجهه، ولا تستطيع، أيضاً، أن تعزل المجتمع دون أن تواجهه، والمجتمع له أنياب حادة تمزق الأسرة، فمؤسسات التعليم التي تقوم بتغيير مفاهيم الأسرة من خلال المعرفة التي تبثها ومن خلال الاختلاط، ووسائل التواصل الاجتماعي التي جعلت الكل يتكلم فتاهت الحقيقة، وتم تقديم رموز جديدة بلا تأهيل حقيقي، وجعلت الوصول لكل أحد متاح... وغير ذلك مما حرّك المجتمعات في اتجاه النموذج الغربي، أو في اتجاه تبديد "بيت الدعوة"، كما فعلَ بالحركات والتنظيمات التي حاولت الاعتزال والتمدد...

لم تصمد واحدة من هذه التجارب في مواجهة نظم الحكم المحلية؛ إلى أن جاء الشيخ عبد الله عزام ودشن تجربةً جديدةً على النقيض تمامًا من أطروحة الأستاذ سيد قطب. تجربةٌ تتصالح مع المجتمع (الجماهير) لا أنها تكفره وتصفه بأنه جاهلي.. فمن القول بجاهلية المجتمعات واستبطان تكفير العوام إلى الاصطفاف معهم ومحاولة قيادتهم إلى هدفٍ "مشترك"، ومن القول بالعدو القريب (التمدد من خلال الفئة المؤمنة للذين يلونهم من الجاهليين وأنظمة الحكم المحلية) إلى قتال القوى "العظمى" وذلك بعد تجربة الجهاد ضد السوفيت على أرض أفغانستان. حيث دعا عبد الله عزام إلى قيادة الجماهير (الأمة) لمواجهة (قتال) القوى العظمى (أمريكا وحلفائها) وإنهاء الوجود الأجنبي على أراضي المسلمين وخاصة الجزيرة العربية وبيت المقدس. والسؤال: كيف نشأت الفكرة في رأس الشيخ عبد الله عزام؟، كيف تحرك عبد الله عزام للاتجاه المعاكس الذي يسير فيه سيد قطب؟

يبدو لي بوضوح تام أن هذه الأفكار نبتت في رأس الشيخ عزام من قراءة للتفاعلات الدولية والإقليمية حال الحرب ضد السوفيت والحزب الشيوعي على أرض أفغانستان. ظنوا (هو والذين جاءوا من بعده.. تحديداً أسامة بن لادن ومن شاركوا في تأسيس تنظيم القاعدة) أنهم هم الذين هزموا الاتحاد السوفيتي، برغم تأخر، وبرغم محدودية، مشاركتهم في الحرب ضد الحزب الشيوعي والسوفيت؛ وظنوا أن بإمكانهم هزيمة الولايات المتحدة وحلفائها.. وانتشر حديث عن ضعف قدرات المقاتل الأمريكي مقارنة بالمقاتل السوفيتي.. كأن الحرب ستكون وجهًا لوجه (رجلٌ لرجل بذات السلاح). وظنوا أن الجماهير تقف خلفهم وتؤيدهم، كما أيدوا المقاتلين الأفغان؛ وبالتالي يمكنهم قيادة الأمة لإنهاء سيطرة الولايات المتحدة وحلفائها والقضاء على أنظمة الحكم المحلية واستبدالها بنظم حكم خاصة!!

وهذا التفكير في غاية العجب، فلم يتجمع المقاتلون العرب في أفغانستان إلا بإذن ومعونة من النظم المحلية والقوى الإقليمية والدولية، ولم يخاطبوا الجماهير إلا من خلال

الأدوات الإعلامية للنظم وفي المساحات التي أُتحت لهم، ولم تتجاوب معهم الجماهير إلا بعد أن أفسحت السلطات المحلية الطريق لذلك، ومشهور جداً الدعم السعودي لمن شاء الذهاب لأفغانستان ثم البوسنة والهرسك والشيشان، وأهم من ذلك أنهم لم يشاركوا في القتال ضد السوفيت إلا قليلاً، فقد تم تأسيس "مأسدة الأنصار" مع نهاية الحرب ضد السوفيت؛ بمعنى أن مشاركة العرب في القتال كانت محدودة جداً، ولم تكن ذات أثر يذكر. ويظهر قلة عددهم وضعف قوتهم من هزيمتهم في معركة جلال آباد، حيث استأنس المقاتلون العرب من أنفسهم قوةً فحاولوا الهجوم على مدينة جلال آباد وحدهم.. دون القوات الأفغانية الصديقة، فتعرضوا لهزيمة مدوية، حيث كانت المدينة محصنة بمقاتلين يمتلكون تسليحاً يفوق ما عند العرب. وبعد الهزيمة في جلال آباد، لم يتجه عبد الله عزام وأسامة بن لادن للبحث عن الأخطاء ومعالجتها والوقوف على قوتهم الحقيقية في أرض الواقع، وإنما اتجها للتنديد بالولايات المتحدة الأمريكية والحديث عن أن هذه مؤامرة دبرت لهم من الخارج بالتعاون مع الباكستانيين.

وبدأ التنظير لهذا الإطار الفكري الجديد المتولد من قراءة عجولة للواقع، فخرجت أطروحة أبو مصعب السوري التي تنادي بعوامة الجهاد.. تنادي بأن يكون الجهاد فريضة على كل مستطيع في مكانه؛ والعجيب أن هؤلاء تصالحوا مع الجماهير وتخاصموا مع علماء الأمة فلم ينفك أبو مصعب السوري أن يعلن في كل مناسبة تكفيره لعلماء الأمة ودعاتها سواءً أكانوا سلفيين أم رسميين.

وبدأ التطبيق لرؤية عبد الله عزام في اتجاهين: أولهما: استنساخ التجربة الأفغانية على أرض اليمن الجنوبي.. ضد بقايا الشيوعية. وفشلت التجربة.. أو بالأحرى لم تستطع أن تبدأ. مع أن اليمن أقل الدول العربية من حيث سيطرة السلطة المحلية على الأرض والشعب (عامل القبيلة، والجغرافيا الجبلية، وضعف إمكانات النظام المادية)، والثاني: هو إصدار فتوى تبيح قتل الأمريكان وحلفاءهم في كل مكان، وهو ما أطلق عليه

"الجهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين" [انظر: أيمن الظواهري: فرسان تحت راية النبي، ص 185-187]، وبدأت مجموعة منظمة (القاعدة لاحقاً) تتحرك في اتجاه قيادة الجماهير لقتال القوى العالمية في كل مكان، فكانت أحداث 11 سبتمبر 2001م، ثم كان احتلال أفغانستان وانتهت تجربة تنظيم القاعدة سريعاً دون أن تحقق شيئاً من أهدافها، فلم تستطع توحيد المسلمين، ولا توحيد الحركات الإسلامية على مستوى الرؤية أو على مستوى الفعل، ولم تستطع هزيمة القوى الكبرى ولا النظم المحلية والإقليمية، ولم تستطع حشد الجماهير خلفها. وفقد التنظيم رموزه ونقاط ارتكازه وكثيراً من المناطق التي حقق فيها انتشاراً. ومن المفارقة أنّ الذي استفاد من فترة صعود التنظيم وحضوره إقليمياً ودولياً كان قوى أخرى معادية له مثل إيران والنظم السلطوية التي انقضت على أنشطة الحركات الإسلامية المسالمة وقضمتها ثم هضمتها وتغذت عليها وسمنت بها، وكذلك القوى الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وجدت مبرراً للقدوم إلى وسط آسيا ومحاصرة الصين ومزيد من التأمين لمصادر الطاقة في الخليج والتي تتحكم بها في الصين وغيرها، فقد وفرت رعونة الحركات الإسلامية فرصاً عديدة لخصومهم.

ثم اختفت فكرة قيادة الجماهير بعد أن فشلت، وظهرت من جديد فكرة الفئة المؤمنة التي تتمركز في مكانٍ ثم تنمو وتمدد منه لغيره، وفي هذا السياق بدأ الحديث عن "إدارة التوحش"، بمعنى البحث عن منطقة فوضى (توحش).. منطقة بلا سلطة مركزية كي يستطيعوا بناء كيانٍ فيها وينطلقون منه لغيره، فكانت العراق هي هذه المنطقة، ومعلوم أن التنظير لفكرة "إدارة التوحش" جاء متأخراً بعد أن بدأ التمركز في العراق، وأصل الفكرة هو "الفئة المؤمنة" / "النسق المغلق" الذي يتمركز ثم يتمدد، عادوا إلى تطبيقه بعد فشل القاعدة في تجربة نظريتها الجديدة (قيادة الجماهير ضد العدو القريب).

وتعثرت تجربة "الفئة المؤمنة" التي تكون مجتمعاً يتمدد على غيره مرةً أخرى، فقد

قضي عليها بأيدي سنية محلية (الصحوات). ثم عادت فكرة الالتصاق بالجماهير بعد الانتفاضات الشعبية في 2010، 2011، تخلوا عن فكرة تكفير الجماهير وأصدر أيمن الظواهري سلسلة طويلة من الأحاديث للجماهير الثائرة، وبدأت مفردات جديدة تظهر على السطح من جديد، تعبر (هذه المفردات) عن اصطفاي مع الجماهير في صحوتها ضد النظم المستبدة. ثم لم تلبث أن فارقت الخيار الشعبي مرة ثانية بعد عشر ثورات "الربيع العربي"

ماذا يحدث؟!

لماذا هذا التردد بين الأضداد؟!

ما يعني هنا هو أن الحالة الإسلامية في ورطة حقيقية، وتتحرك بين خياراتٍ محدودة كلها تكرر فشلها، ولا بد من التفكير في إنتاج إطار فكري جديد، ونقطة البدء من التخلي عن أن الحركات الإسلامية كيان مستقل يواجه الجميع، إلى إطار مجتمعي، يعملون من خلاله في تخصصات المجتمع الطبيعية: المجال الديني بتفريعاته، والمجال السياسي بقوانينه المجتمعية، والمجال الاقتصادي... إلخ. ويكون الإصلاح لتخصصات المجتمع لا بإنتاج "فئة" تواجه الجميع...

سأعود مرةً أخرى إن شاء الله، لمناقشة ظاهرة الحركات الإسلامية من زاوية أخرى، أحاول في كل مرة الكشف عن حالة التخبط والعشوائية، وفقدان التراكمية في الخبرات من التجارب، وأن كل جيل يكرر أخطاء الجيل السابق... والله أسأل أن تجد كلماتي هذه من يفكر ويتأمل ويصحح..

د. محمد جلال القصاص

2021 /8 /3

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

في فهم الظواهر الاجتماعية

بقلم / محمد جلال القصاص⁽¹⁾

تتكون الظاهرة الاجتماعية، الجادة أو المنحرفة، من خمسة أشياء: مرجعية علمية، ونخبة متخصصة، وعوام، وأبنية، وأدوات، على النحو التالي:

المرجعية: شخصية (أو شخصيات) علمية ضابطة للفن الذي تقوم عليه الظاهرة، ويرجع إليها الناس حين تشبه عليهم الأمور ويجدون عندها إجابة على أسئلتهم. وتتكون المرجعية من شخص أو مجموعة أشخاص (مركز أبحاث مثلاً).

النخبة المتخصصة: مختصون في الفن الذي تقوم عليه الظاهرة ولكن بمستوى أقل من المرجعية. وهؤلاء يُعنون بإنتاج نخبة متخصصة مثلهم، وبتثقيف عامة الناس.

العوام: وهم الذين يلتفون حول الظاهرة دون أن يتعمقوا فيها. وليس المقصود هنا جهلة من الناس. هم المريدون أو المبتدئون. وكلٌّ منّا عامي في شيء ومتخصص في شيء آخر، وربما يكون مرجعية إن أمده الله بعزيمة وتوفيق في طلب العلم وتعليمه.

وعلى أرض الواقع يتواجد هؤلاء الثلاثة (المرجعية، والنخبة المتخصصة، والعوام) في هيئة هرم، يشكّل قاعدته العوام، بمعنى أنهم يكوّنون الكتلة كما قاعدة الهرم؛ وذلك لأن أغلب الناس لا يصبر على مرارة طلب العلم، والدرس، وإعمال الفكر طلباً للتخصص والرقي العلمي لمستوى المرجعية في تخصص بعينه. فالتمييز لا يتوقف فقط على الإمكانيات الذهنية الكامنة في الشخص وإنما لا بد من عزم وجد وصبر على مكابدة التفاصيل حتى تتضح الصورة تمامًا ويتم نقلها للغير بما يناسب. وهي منح

(1) دكتوراة في العلوم السياسية. جامعة القاهرة.

وأعطيات من الكريم المنان سبحانه وتعالى وعز وجل، والله عنده خزائن كل شيء وحبي كريم لا يرد سائلاً بل يعطي السائل فوق حاجته وبعض عطائه منع.. عليم خبير سبحانه وعز وجل. وفي وسط الهرم (أقل عددًا) تتواجد النخبة المتخصصة، وأعلاه: المرجعية، وهم قلة قليلة من الناس، ويتفاضلون حتى يكون هناك شخص أو شخصين على رأس الهرم وبه تعرف الحقبة الزمنية، وبه يؤرخ للتخصص في هذه الفترة غالبًا. ويصعدون من تحت، فالكل يبدأ عامي، ثم يرتقي حين يمن الله عليه بعزم وفهم وصبرٍ على التدريب. ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (آل عمران: 73-74).

وعملياً تسود حالة من الادعاء. فالعوام الذين لم يتعلموا إلا قليلاً يدعون التخصص، والمختصون يدعون المرجعية، وينتهي هذا الادعاء حال حضور الثلاثة متجاورين في نفس المجتمع، فحضور شخصية- أو مؤسسة- مرجعية في مجتمع ما يحدد بوضوح مكان الآخرين. ببساطة لأن المقارنة تعقد بين من يدعي ومن مكنه الله حقيقة من العلم والعمل.

الأدوات: ويقصد بها كل ما يساعد على تكوين المستويات الثلاثة الفاتئة (المرجعية، والنخبة، والعوام)، مثل: الكتاب، والسبورة، وأجهزة الحاسوب، والدورات التعليمية، والمسابقات التشجيعية... إلخ.

وتتمدد الأدوات لتطال الأشخاص والمؤسسات، وتنكمش لتدل على أبسط شيء يستخدم في إنتاج فرد متخصص أو ظاهرة إجتماعية، فكل أداة تكون هدف وقتاً، وأداة وقتاً آخر.

الأبنية (المباني): وأرصد ملاحظتين فيما يتعلق بالأبنية:

الأولى: أن الأبنية تحتوي الثلاثة السابقين لها (النخبة، والعوام، والأدوات). بخلاف الشخصية المرجعية، فإنها في الغالب تكون حرة، لا تتقيد ولا تقبل التقيد، ويؤتى إليها ولا تذهب للمبنى إلا مؤقتاً. ويصبح المبنى بالثلاثة مؤسسة وتتكون له شخصية اعتبارية خاصة به. فحين نقول مثلاً: الكتابات تأتي صورة ذهنية لشخصية اعتبارية تكونت من طبيعة القائمين على الكتاب، وهم النخبة المتخصصة التي تدير العمل في الكتاب: الشيخ الفقي (الفقيه) والعريف؛ ومن حال الذين يأتون إليهم ويتعلمون منهم، وطبيعة الأدوات المستخدمة فيها (الفلكة، والعصا الغليظة، والغلظة في القول، والجلوس على الأرض، والراتب الزهيد الذي يدفع للمعلم... إلخ) فالكتاب كمنى له صورة ذهنية تكونت من مفرداته مجتمعة.

وحين نقول حضانات منتسوري *Montessori nurseries* فهي مؤسسة لها شخصية اعتبارية تففز للذهن حال ذكر الاسم: "رقي" في التعامل، وتعليم من خلال التفاعل البدني، ومدرسون أكفاء على أعلى مستوى، ومناهج غريبة، وتكاليف باهظة الثمن، ربما لتحديد مستوى من يتلقى هذا النوع من التعليم؛ وهكذا: حين نقول: مسجد، ومسرح... إلخ.

المؤسسة شخصية اعتبارية مستقلة وإن تكونت من مفردات بداخلها. مع الأخذ في الاعتبار أن بعض المؤسسات يتحكم فيها- أو بالأحرى يحافظ على وجودها ونشاطها- النخبة لارتباط مصالحهم بوجودها. وفي الغالب فإن المؤسسة تقوم بصنع من يلتحق بها من الأفراد، بمعنى أن الشخصية الاعتبارية للمؤسسة تكون أقوى من الأفراد الذين يلتحقون بها في الغالب، بل لا يفتن الأشخاص للشخصية الاعتبارية للمؤسسة وما أن يبدأ النقد ومحاولة التغيير حتى يتم التخلص منه أو ترويضه.

والملاحظة الثانية: أن المؤسسات (مبنى به نخبة وأدوات معرفية وتدريبية، ومن ثم له وظيفة خاصة) تتكاثر بعد ذلك دون وعي من الناس بأهدافها الكلية التي أسست من أجلها. وتدبر في شأن الكتابات مثلاً: من أسسها له أهداف خاصة تتمحور حول نشر تعليم القرآن والتعليم الأساسي، أو معالجة قصور التعليم النظامي، وهي وظيفة تقوم بها الكتابات (مراكز التحفيظ حالياً) بالفعل، ولكن من ينشئ كتاباً (مركزاً للتحفيظ) ربما يغيب عنه هذا الهدف.. ربما يكون هدفه مادي بحت. الأول أراد الأجر من نشر الخير بهذه الوسيلة، والذي يقلد ربما أراد الخير مثله وربما يبحث عن رزقه محتسباً أو غير محتسبٍ، وربما يضيع وقتاً بطرد الملل والسامة في شيء ينفع. بمعنى أن ثقل الأمر في إنشاء أول مؤسسة فقط ثم تعاد التجربة بعد ذلك، ولذا كان للرائد أجر من يأتي بعده، وفي الحديث: (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها...).

يبدأ استفادة العوام من التجربة بعد تكوّن المؤسسة، بمعنى أن استفادتهم حال تكون النخبة والمرجعية تكون قليلة، ثم يقبلون بعد ذلك بفعل دعوة النخبة وانتشار المؤسسات. وإن كانت المؤسسة مما يضطلع بشيء يحتاجه الجميع، كتعلم القرآن الكريم، فإنهم يُقبلون عليها ويأتون إليها بأنفسهم وأبنائهم.

ملاحظات ختامية:

الملاحظة الأولى: أن الحالة الإسلامية لا تملك مرجعيات حقيقية، في مستوى الأشخاص وفي مستوى المؤسسات. والعجلة وغياب الوعي، هما الأسباب الرئيسية في تأخر صناعة المرجعيات العلمية، فكثير من فصائل الصحوة وأفراد الصحوة يستطيع أن ينفق على نفسه ويتخصص ويصبح مرجعية، وكثير من فصائل الصحوة مُكن من إمكانات مالية فلم ينصرف لصناعة النخبة والمرجعيات وذلك لغياب الوعي بأهمية رأس المال النخبوي. قلّ من يجبسه عن الفعل الفقّر وضعفُ الإمكانات.

حين تتكون نخبة بعددٍ كافٍ فإنها تنغلب على أكثر الصعاب، تعمل بأقل الأدوات، وتحل مشكلة الأبنية بطرق كثيرة، مثل الالتحاق بالأبنية المرخصة في المجتمع وإن لم تكن تحقق كليةً أهدافها؛ أو تتخذ بيئتها مبنًى للتعليم والتعلم؛ أو ما دون ذلك من أدوات إلكترونية، أو تكمن تترقب فرصة، وهي واعية لا تفوت فرصةً حين تأتي. فالنخبة متى صنعت لا تتوقف، وتستطيع تكييف وضعها تبعاً للمتاح، وخاصة إن كانت مرنة، وهو الغالب على حال النخبة. تمامًا كماء السيل ينهمر ويعم خيره، وإن صادف ما يوقفه ظل يضغط حتى يُفتح له الطريق، وإن قابله سد وقف مكانه حتى يأتيه من يستخدمه، أو تبخر وعاد من جديد. ولذا فإن كثرة النخبة يوفر أماناً للظاهرة من نفسها ومن غيرها.

ولعل ما مضى يبين أحد أهم أسباب تعثر المشاريع التربوية التي حاولتها الحالة الإسلامية، وذلك أنه تم توفير أحد المتغيرات، وهو المباني. ولكن وجد خلل في باقي المنظومة. فلم يتوفر النخبة المتخصصة التي تتقن فنًا من الفنون وتحاول تدريسه.. تلك التي تُعنى بصياغة مناهج؛ ولم تتوفر المرجعية الضابطة. ولذا درّسوا مناهج غيرهم مع قليل من النكهة الإسلامية.

وغياب الوعي بضرورة صناعة نخبة متخصصة، وضرورة إيجاد مرجعية ضابطة جعل الكل يبحث عن حل دون إعدادٍ له. بل يرى بعضهم أن مراحل الإعداد عبث وتضيع للوقت. يريد إزاحة الشر في ساعة، وأنى؟!!!

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

خالد بن الوليد من زاوية أخرى

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

ترددت على السيرة النبوية أكثر من عشرين مرة. أراها رياضاً عطرة، ومنهلاً عذباً، وأخيةً أشد إليها أوصالي. لا يكاد يفارق خاطري شخص الرسول-صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام-رضوان الله عليهم-. وهم في المسجد، وهم في الشارع، وهم في بيوتهم بين أهليهم، وهم في وجه عدوهم دعاةً وأسوداً تزار، وهم بين يدي ربهم ركعاً سجداً يتلون آيات الله.

وكغيري تمسك بي المواقف وتمسك بي بعض الشخصيات، وكم وقفت ملياً أحاول أن أتخيل ما كان يحدث كأني أشاهده مشاهدةً حيةً: الصلاة، مجالس الذكر بعد صلاة الفجر والمغرب، القيلولة في المسجد، أهل الصفة، السوق، طرقات المدينة وبعضهم يلتقي بعضهم. الحبيب-صلى الله عليه وسلم-مبتسماً، منصتاً، متحدثاً. كنت أتردد دائماً على خالد بن الوليد. ورأيت فيه ما لم يره غيري- فيما قرأت-. تحدثوا عن شجاعته، عن بطولته، وفتوحاته، ولكني رأيت لهذه الشخصية الكريمة النبيلة الحسينية النسبية أبعاداً أخرى!!

كان أول ما برز لي في شخص خالد بن الوليد تحول الشخصية وتطورها. تحوّل من الكفر للإيمان بالكرم وبجئاً عن الريادة. فبعد الحديبية، وكان على رأس جيش المشركين يومها، استقر في خاطره أن الأمر قد آل إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وصحابته-رضوان الله عليهم- فهم بالخروج إلى قوم آخرين يعرفون نسبه وإمكاناته

(1) دكتوراه في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

الشخصية ويضعونه حيث يليق به. وفكر يمنة ويسره، وكلما جاءت فكرة لا يرى رشدًا، وبينما هو على هذا الحال جاءه كتاب من أخيه الوليد-وكان قد أسلم- يخبره أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- يسأل عنه ويقول: (إن جاءنا أكرمناه وقدمناه على غيره). لا يعرف الكريم إلا الكريم. أخلاق عالية تتلاقى في عنان السماء. أخذ الحبيب-صلى الله عليه وسلم- خالدًا، بحسن خلقه ودرايته بكرم أصلة وكثرة إمكاناته فأقبل خالدٌ مهلاً فرحاً واستقر حيث يليق به.. في مقدمة المقاتلين، وكسب المسلمون رمزًا.. قيمةً...

تحولت الشخصية بالكرم وحسن الخلق، وربما لو قولت بالسيف والغلظة لعانددت وأفسدت ثم كانت من حطب جهنم. فأين فينا من يعرف معدن الرجال، وإمكانات الرجال، ويخاطب الناس بم يليق بهم؟

دخل خالد مجتمع المسلمين هادئًا. سكنته سكينه الإيمان. ثم ترقى.

قبل عقد ونصف كتبت تحت عنوان: (أثر العقيدة في بناء الشخصية: خالد بن الوليد نموذجًا) أرصد أثر الإيمان في تطور الشخصية من خلال تتبع شخص خالد بن الوليد في عدد من المواقف: قبل الإسلام (أحد والأحزاب) وبعد الإسلام في مؤتة، وسرية دومة الجندل، وحروب الردة، والفتوحات. وهو مقال منشور على الشبكة، واليوم أريد رصد بُعد آخر في شخصية خالد بن الوليد، وهو حرية التفكير والجرأة على أخذ القرار المناسب وإن خالف ما قد يُظن أنه ثابت مستقر أحاول الإضاءة على فكرة كلية نقف طرفين حولها في هذه الأيام. ولأن المقام مقال أكتفي بثلاثة مشاهد أشير إليها إشارت وأحاول عرض فكري بعدها. وأبدأ بما اشتهر منها:

أسلم خالد في الشهر الثاني من العام الثامن للهجرة (شهر صفر)، وكانت غزوة مؤتة في الشهر الخامس (جمادى الأولى) أي بعد إسلام خالد بثلاثة أشهر فقط، ولم يُعين

في القيادة، ذهب في الغزوة جنديًا كباقي الجنود من سادتنا الصحابة، وأسند إليه الراية من يعرفه، ولم يتردد في أخذ التدابير اللازمة للانسحاب. وهو البطل الشجاع، وهو مقدمة الفرسان وأحدهم، وهو خالد، وهو حديث عهد بالإيمان. والمقام يستدعي الثبات والإقدام، وخاصة أنه على بعد شهر من المدينة وفي أرض العدو فأين سيفر؟! ومع كل هذا أعمل عقله وأخذ قرارًا يخالف ما استقر. انسحب ولم يتردد. خرجت الشخصية بعكس ما يتوقع من سياق حال الصحابة وسياق حال خالد نفسه. ومع غرابة الفعل وحدثه التامة إلا أن أحدًا من الصحابة لم يعترض. لم يظهر بينهم متشجّع غلق يقول: بل هنا حتى نقتل. كانت مرونة من كل من حضر، أيدها الوحي حال حدوثها وتوجّها بأعلى الأوصاف وأحبّها (الفتح)، سمى الوحي الانسحاب والحفاظ على القوة فتحًا كما في صحيح البخاري... بارك هذا الاجتهاد والحزم، ولم يُطرح للنقاش، ولو بجملة واحدة، خروج خالد عن المألوف.

وكان أبو بكر الصديق يحب خالدًا، ويقدمه على غيره في القتال، ولم يؤخره من الموضع الذي وضعه فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي الفتوحات ابتدع خالد في قسمة الغنائم، فكان يعطي المميزين في القتال أكثر مما قُدِّر لهم شرعًا، واعترض عليه أبو بكر وعمر أكثر من مرة، ولم يرجع، كان رده حازمًا: إما هكذا وإلا خذوا إمارتكم. ولم يعزله أبو بكر. وازن الصديق بين مخالفة خالد في توزيع الغنائم وقدرته على قيادة الجند في المعارك فأبقى عليه. وكان هذا أكبر ما ينغص عمر على خالد. وقد ذكر ابن القيم وغيره من أهل العلم أن كل ما خالف فيه عمر أبا بكر كان الصواب مع أبي بكر. والمقصود هنا هو إظهار هذه المرونة العالية من الصحابة الكرام والتي ظهرت هنا في جرأة خالد وتفهم أبي بكر، وسكوت عمر زمن أبي بكر، رضي الله عن الجميع.

والمشهد الثالث في يوم اليرموك. حيث اجتمع خيرة الأمة في وجه الروم ولم يستطيعوا الحسم، فأرسل أبو بكر خالدًا إليهم، ودار خالد بفرسه يتأمل المشهد. وكان الجزء الأهم في الخطة هو التحول من القتال في هيئة صفوف إلى القتال في هيئة كراديس (كتل على هيئة مربع أو مستطيل)، مع أن النص صريح (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ) (الصف:4)، ولم يعترض أحد!!

بقيت على هذا: كلما تعلمت جديدًا عدت لمجتمع الرسول-صلى الله عليه وسلم- وصحابته أتأمله. لم تكن حالة من الجمود، بل حالة من اليقظة والسكينة. هدوء حاد. رقة وصلابة. عقلية متوقدة تفكر وتناقش. والثابت هو نصره الدين والسعي لبذر الخير ونفع الناس. أذابوا غيرهم فيهم، بل ووظفوا غيرهم مع قلة عددهم.

واجتهادات عمر بعد تأملاته في المستجدات كثيرة، وفي المكتبة البحثية ثلاثة مجلدات تحت عنوان (أوليات الفاروق) ترصد ما أحدثه عمر، رضي الله عنه، وكذا فعل عثمان، وكذا فعل علي. وكذا فعل الفقهاء من بعدهم. والذي أعتقد أنه سيرة الراشدين متممة للدين لقول الرسول-صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي) فسيرة الراشدين هي تمام النموذج التطبيقي للدعوة، وأن المرونة مرتبطة بتحقيق المصلحة الشرعية لا المصلحة الشخصية. والمصلحة تعرف من الأحكام. أما الذين يقدمون المصلحة اليوم... أولئك الذين يتجمعون تحت مظلة المقاصد فهم في اتجاه معاكس. وضعوا مقاصد كلية.. هي في الحقيقة مقاصد الملحددين، تلك التي يقال لها ثوابت إنسانية، وحاولوا جرَّ أحكام الشريعة إليها، أو: إن مصالحهم مصالح شخصية وحزبية، ظنًا منهم أن نصره شخصهم أو حزهم هي الطريق لنصرة الدين!!

حين تضع يقظةً ومرونةً أبي بكر وعمر وخالد وعمامة الصحابة - رضوان الله عليهم، وكيف أنها ساهمت في التمكين للدين، ومرونةً الحاضرين الآن وهي تساهم في توطين المخالفين، حين تضع هذه وتلك بين يديك وتعيد التفكير فيها مرة بعد مرة وتساءل عن السبب، قد توافقي بأن السبب يكمن في التكوين الإيماني للفرد: كم يجلس على مائدة الرحمن كل يوم؟ هل يسكنه الله؟ أم يسكنه شيء من إيمان وكثير مما يضر ولا ينفع؟

لم تكن تأولات خالد والصحابة ترخصًا وإنما جثومًا ووثبًا على الباطل وأهله طلبًا للتمكين للدين، وترخص اليوم حرث وتجهيز للأرض ليغرس فيها المحادون لله ورسوله.

محمد جلال القصاص

صباح الجمعة

2019 /4 /1

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
من النسق المغلق إلى النخبة المتخصصة

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يمكننا الجزم بأن من أكبر التحديات التي تواجهها الحالة الإسلامية في مرحلة الصحوة (آخر مئة عام) هي الوقوع في فخ الأنساق المغلقة (الجماعات المنظمة، وشبه المنظمة).

تاريخياً ظهرت الجماعة كخطوة مرحلية للرجوع إلى الخلافة، والذي يحدث فعلاً هو أن عددًا قليلاً يتعلق بفكرة لم يستوعبها بشكل جيد في الغالب، ثم يندفعون بحماسة للتنفيذ دون وعي كاملٍ بالسياقات الخارجية، وتتدخل عوامل خارجية: ثقافية وسلطوية وإقليمية ودولية تجاهلهم.. تأخذهم.. تدفعهم بعيداً عن أهدافهم، بل ربما أدخلتهم في مسارٍ آخر. ولا تصحيح. فقط تكرار للتجارب الفاشلة!!

ومما يبين تمكن النسق المغلق من الحالة الإسلامية، سواءً التعصب للنسق (التنظيم أو الكيان نفسه) أو التعصب للأفكار التي يقوم عليها النسق (فلسفات النسق: دعوي، سياسي، مسلح... إلخ)، استمرار تحزب الإسلاميين مع وجود تحدي خارجي قوي، فمن المسلمات أن التحدي الخارجي يوحد المختلفين ويخصصهم، إلا في حالة الإسلاميين فإن التحدي الخارجي لم يوحدهم ولم يخصصهم. ولك أن تستدعي ما يحدث في المعتقلات والسجون وحال المعتقلين وهم أحزاب متناحرة، لا يصلون خلف بعضهم، وحين توفرت فسحة داخل السجن (فتح الزنازين، وإطالة مدة التريض) اقتتلوا بأيديهم، وقد حدث هذا الاقتتال في أكثر من معتقل

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

في الظرف الراهن شديد القسوة. بمعنى أن الانصراف للعداء الداخلي (بين الأنساق) أكبر من الانشغال بالتحدي الخارجي الذي يمارس ضغطاً على الجميع، وهذا بسبب فكرة الأنساق أصلاً.. بسبب الولاء لأطر ضيقة!!

يتلى علينا منذ مئة عام درساً خلاصته: أن الأنساق المغلقة لا تتمدد. بل تتفتت وتنشغل ببعضها.

ومن سلبيات النسق المغلق إهدار الإمكانيات المادية والبشرية، فلم يثمر النسق المغلق مبدعون، ولا مختصون في فن من الفنون، فلا تكاد تجد مبدعاً في الفكر أو في مجال حرفي إلا منفرداً بعيداً عن الأنساق المغلقة، وذلك لأن النسق المغلق يعتمد على أهل الثقة، وتأخذ الأقدمية أولوية مطلقة في الغالب، ولا ينشغلون بتوطين تخصصات تنفع الناس وإنما بما ينفع تعميق النسق وتوسيعه، ولا يهتمهم رأس المال النخبوي. بل عملياً يحاربون صناعة النخبة لأنها تقلق من يسيطر على النسق، ويتحول في الأخير إلى حالة من التنافس على الرئاسة أو إيجاد حالة من الأمان الاجتماعي لأفراد النسق يأوون إليه من جحيم الحياة التي يعيشونها.

ومن سلبيات الأنساق المغلقة أنها أهدرت القدرات المادية فاستخدمت الأموال فيما يمكن تسميته نفاق مجتمعي.. نعم نفاق مجتمعي لتسويق النسق المغلق (الجماعة) لا لدعوة الناس إلى الدين فكل قوم يرفعون شعار نسقهم (جماعة.. ، حزب..) على رأس من يأخدمونه، ظناً منهم أنه حين يؤمن بهم فقد آمن بالله وما أنزل على رسوله؛ أو خدمة للأنظمة السلطوية المستبدة بإعالة ملايين الفقراء نيابة عن الدولة، ما يعني تبديد أموال الدعوة في دعم المستبدين، وحتى المجالات التي حاولوا الجد فيها لم تكن بالمستوى المطلوب، وتابع إن شئت ما سمي مراكز دعوية: خدمية أو علمية. العلمية تفوقت على خدمة فرد (الشيخ)، والخدمية لم تنهض بأكثر من الحد الأدنى من الخدمات لتسويق النسق المغلق. وفي الجملة لم ينجح هؤلاء في إنتاج ظاهرة متخصصة في أي من مجالات الحياة، وكانت النتيجة تراجع

وانكفاء وصراع داخل الأنساق وبين الأنساق وبعضها، وبين الأنساق والمشاركين لها في نفس التخصص من عامة المسلمين. وإن التخصصية هي الحل للقضاء على سلبيات الأنساق المغلقة. فالتخصصية هي الفطرة الإنسانية وهي النموذج الإسلامي الأول، فأبرز ما يمكن أن تلاحظه في النموذج العملي للإسلام (الصحابة والتابعين) هو ظهور التخصصية بين الصحابة والتابعين. وذلك أن الإسلام أطلق سراح الناس إلى ما يحبون.. إلى ما يحسنون. حين يشب المرء يشتد إلى ما يحب أو إلى ما يحسن، إن كان محباً للقتال التحق بالثغور: يتدرب ويتسلح ويجاهد مع المجاهدين دفاعاً عن الدين واعتاقاً لرقاب المستضعفين في الأرض بغير الحق؛ وإن كان من أهل التجارة ذهب إلى السوق يتاجر؛ وإن كان حرفياً فإلى ما يحسن من حرفة؛ وإن كان ممن يحبون العلم، تربع بين يدي العلماء.

ولم تكن الحرية في التوجه العام فقط. بل كان التوجه العام الواحد (جهاد، تجارة، زراعة، تعلم، حرفية...) به عديد من التخصصات؛ فهذا الذي يم وجهه شطر حلق العلم -مثلاً- يجد نفسه أمام ثمار شهية، بعضها قرآن كريم (تلاوة.. قراءات)، وبعضها تفسير، وبعضها حديث، وبعضها فقه، وبعضها شعر، وبعضها مما ابتدع في الدين (كالاعتزال وعلم الكلام)...

وليس فقط تعدد أفقي للتخصصات. بل وتعمق في كل تخصص، ففي كل تخصص عديد من الطبقات، فأهل الفقه ليسوا سواء، وأهل التفسير ليسوا سواء، والقراء ليسوا سواء... طبقات بعضها فوق بعض. كل حسب ما يوفقه الله إليه، حتى ينتهي الأمر بأن يكون الفرد علامةً على نفسه، يقف حيث هو وحده مميزاً بما من الله به عليه من صفات.

والدولة لا دخل لها بحركة الأفراد، لا تأمر أحدهم بأن يتخصص في هذا أو ذاك. بل تكفل للفرد الحد الأدنى من المعيشة من بيت المال. وفي كل تجمع سكاني حاكم وبيت مال، يأخذ الحاكم من الغني ما فرضه الله عليه من زكاة ويوضع في بيت

المال ويوزع بعد ذلك على الفقراء والمساكين ويوزع في التمكين للدين، فلا فقر ولا مهانة. لا يمنُّ الغني على الفقير، ولا يمد الفقير يده للغني. حرية وأمان مادي، وتفعيل تام للإنسان حيث يجب أو حيث يحسن.

وهكذا كان الصحابة، رضوان الله عليهم، كل حيث يحسن، بعضهم لا تكاد تسمع به إلا في التجارة، وبعضهم في القتال، وبعضهم في الرأي والمشورة... كلُّ نجمٍ ساطعٌ في مكانه.. والجميع يحضر المواقف العامة، ويبرز في كل موقف من يناسبه، فقبل القتال يبرز من له رأي في تحديد موضع القتال، وحال القتال يبرز أهل الاختصاص: مبارزة، رمي.. ومواقف الرأي يتحدث أهل الرأي فقط— كما حدث في الموقف من أسرى بدر - ، وهكذا..

ولا يظنن أحدٌ أن الناس إن تركوا فإنهم يسيرون في اتجاه واحد، أو يتجمعون في تخصص بعينه؛ أبداً، لا يحدث هذا، الخمسة:

أولها: أن التفاضل في المجتمع الإسلامي بالتقوى لا بالوظيفة كما هو حاصل اليوم، ففي الإسلام أكرم الناس أتقاهم، وأحسنهم خلقاً. (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات : 13).

وثانيها: أن الناس بطبعهم محتصون، كلُّ له ما يحسنه أو ما يحبه؛ وحين يترك لهم العنان لا يتجمعون في نقطة واحدة. يحدث هذا في النموذج الغربي الذي نعيشه، وذلك بسبب ارتباط الدخل المادي والنفوذ الاجتماعي مرتبط بالوظائف في الغالب. **وثالثها:** أن في الشريعة ما يعرف بفروض الكفايات، وهي فروض إن تركت يأثم الجميع. فأحوال الناس كلها بين فروضٍ واجبة وفروضٍ كفاياتٍ، وبالتالي تُسد كل حاجاتهم، ويستقيم المجتمع مترئناً بلا خلل، كما قد كان لقرون طوال.

ورابعها: أن الفرد كان يتحرك في مساحة كبيرة من الأرض دون أدنى عائق سلطوي أو اجتماعي. حيث شاء يحط رحاله كأنه قد ولد في ذات البلد، فمن الصين (تركستان الآن) إلى جنوب فرنسا يتحرك من شاء متى شاء حيث شاء آمنًا مطمئنًا.

وخامسها: في نموذجنا الحضاري تكون الرتب بالأفعال لا بالدعاوى، والمهام تسند ولا تطلب، فالناس لا يستفتون جاهلاً لأنهم أتقياء، أو متدينون في الجملة، والعالم يعيش بينهم ويعرفونه، ولا يدعي أحد الجندية ثم هو يجلس بينهم بعيداً عن الثغور.. يعربد تجارةً وإرهاباً للآمنين؛ ولا يؤمن المجتمع الخائن على ما أوقفوه لفروض الكفريات، فهي أموالهم، دفعوها من قوتهم أو ينتظرون الإفادة منها..

والنموذج العلماني الذي يطبق في بلاد المسلمين لا يسوق الناس كلهم في مسارٍ واحدٍ، لا ينظرون للفروق الفردية: الذكور والإناث، الأذكياء والأغبياء، محبي الحرفة ومحبوا التعلم والمطالعة؛ ولذا يتسرب الناس من التعليم، ولذا يكون الفرد مزدوج الشخصية، يتأرجح بين تخصصين أو أكثر، ما يحسنه وما هو مضطر إليه كسبًا لقوت يومه، فتجده صيدلي وسياسي، مهندس وشاعر، محامي وتاجر، فلا يحسن الهندسة ولا يحسن الشعر. والنسق المغلق ماذا يفعل؟ هل يعالج هذا الخلل في واقع الناس؟ هل يسير بهم للعودة إلى نموذجهم الأول؟

أبدًا، بل يزيد الأمور تعقيدًا: ينتج كتلة جديدة تصارع من حولها من أجل البقاء والتوسع.. كتلة صراعية. بينما التخصصية تخدم الناس وتوظف طاقاتهم الحقيقية وتقضي على الشغب الذي أوجدته العلمانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الجل يبدأ من صناعة نخبة متخصصة

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بعد كل مقال أو أطروحة نقدية يثور سؤال يبحث عن الحل. كل من يقرأ نقدًا يعقب عليه بحالة من الغضب والاشتمزاز، وربما يصيح بصوت عال: ما الحل؟!.. نريد حلًا.

يكرهون النقد وهو الأب الشرعي للإبداع. وأم الإبداع هي الحرية. فإن اجتمعت القدرة على النقد والحرية خرج الإبداع، ولا بد.

والنقد، في هذه الأيام، سيء السمعة وذلك لأن جل المعروض على صفحات الحاضر والماضي القريب لا يصلح، وإلا ما فسد حالنا هكذا.

والنقد ضرورة في هذه الأيام لأنه يزيح كمية كبيرة من سيل المعلومات التافهة والضارة التي تتدفق علينا ليل نهار من كل مكان، فهو يؤطر المخالف، وبالتالي يريحنا من التفاصيل الشاقة التي لا نملك المنافسة فيها.

والنقد منهج الأقوياء، وقد حث القرآن الكريم الناس على ممارسة التأمل والتفكير وطرح الأسئلة والبحث عن إجابات صحيحة، وعرض شبهات المخالفين وردّ عليها؛ وجوهر المناهج الاجتماعية للمنظومة السائدة اليوم (المنظومة الغربية) هو تعليم النقد.

ولكن قومنا لا يصبرون على النقد، يسألون دائمًا: ما الحل؟!.

ومع إيماني التام بأن فرز (نقد) القديم ضرورة، وذلك لأن أسهل الطرق لإيجاد حل سريع هو البحث في المعروض واستبعاد ما لا يصح ثم انتقاء الأقرب وتعديله أو تهيئة

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

المناخ له. إلا أنني حاولت البحث عن حل. حاولت أن أجيب على هذا السؤال الذي لا يغادر المكان، ما الحل!؟

في برنامج بلا حدود سأل الأستاذ أحمد منصور الدكتور رشدي راشد عن طريقة لإصلاح البحث العلمي في الدول المتخلفة، فقدم إجابة فعّالة وشديدة البساطة وهي تدريب من يصلح من المنتسبين للبحث العلم، يقول: إعادة تأهيل من يصلح من المنتسبين للبحث العلمي (المدرسين والأساتذة في الجامعات)، وبعد عامين فقط يصبح عندنا باحثين حقيقيين بالفعل، والمؤسسات البحثية (الجامعات ومراكز الأبحاث) موجودة، ومن ثم يبدأ تطوير العلوم بعد التأهيل مباشرة.. كل في مجاله. سمعت هذه الحلقة في 2010، ولا زالت أفكر في كلمات الدكتور رشدي راشد: أدور حولها وأعيد النظر فيها مرة بعد مرة، وأردد مقولاتها: إعادة التأهيل.. بناء الذات. ثم انضم إليها فكرة أخرى وهي أن عامة الموجودين بالأكاديميات ليسوا من أهل البحث وإنما متفوقون ذهنياً ويبحثون عن أرزاقهم وعن احترام اجتماعي في الغالب، والأفضل هو مراعاة التخصصية الفطرية التي فطر الله الناس عليها، فالتناس مختصون بطبعهم. فالأنسب أن ينادى في الناس بإعادة التأهيل وكل إلى ما يجب أو إلى ما يحسن. هذه هي الخطوة الأولى والأهم في الحل. فالحل ببساطة شديدة: إعادة تأهيل الموجود وكل فيما يجب أو يحسن.

جوهر المشكلة في أننا نتنظر حلاً من الخارج، نتنظر أن يأتي من يأخذ الشر وأهله وينثر الرخاء ويحولنا إلى سادة. تمكنت فكرة المخلص (المهدي المنتظر) منا. مع أننا نقرأ قول ربنا: (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) (محمد:4)، وقول ربنا: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) (الفرقان:20). وتمكن فكرة المخلص أقعد كثيرين مكانهم حتى يأتيهم من يخلصهم. ولذا كثر الحديث هذه الأيام عن أن الحل في ظهور قائد يأخذ الأمة للرياض العطرة والنور الوضيء. وإن موسى بن عمران وأخاه هارون، عليهما السلام، لم يستطيعا أن يدخلوا بيت المقدس ببني إسرائيل. وتفلت الأمر من علي بن أبي طالب مع أنه من الراشدين

المهدين، ومع أنه علي بن أبي طالب، ومع أنه كان الممثل الحقيقي لمطالب الجماهير.. ومع ذلك وقفت ضده الجماهير وهو ممثل العدالة الاجتماعية التي تطلبها، وذلك لجهلهم أو لفساد وعيهم. وتفلت الأمر من آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد وكان سيدًا شجاعًا. وحين تفكر أكثر في المشهد الحالي تجد أن حصر الخلل في القيادة أوحى لعدد من الطامحين بلا إمكانات ادعاء القيادة. وتبعهم الناس لكسلهم، أو لقلة علمهم فكل يريد الخلاص دون أن يشارك أو بأقل جهد.

إن التسلسل الطبيعي للتغيير هو: إعادة تأهيل من تعرض لعملية إعداد منقوصة، وذلك بعد إنتاج نخبة متخصصة، تعالج هي الواقع الذي تعيشه، وتفرز قيادة واعية تلتف حولها عامة النخبة والأمة دعمًا وضبطًا.

وهكذا بدأ النموذج الغربي التخريب في منظومتنا. بالنخبة المتخصصة. التي تأثرت به من خلال البعثات العلمية وغيرها؛ ثم عاجلت- هذه النخبة- الأمة على مهل حتى مكنت لمنظومة جديدة من الأفكار، لا هي غربية كلية ولا هي إسلامية. فكانت البداية من نخبة البعثات ونخبة السياسة الذين تربوا في الغرب (الأمراء الذين ساروا ملوكًا ومتنفذين في الدولة)، وأهم من هؤلاء نخبة النصارى الذين تم إعادة تأهيلهم في الأديرة من خلال الإرساليات الغربية وظهروا في المجالات العلمية والتجارية والسياسية وخاصة بعد قدوم الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي. سيطرت هذه النخبة على المؤسسات الموجودة وأعادت هيكلتها، وأسست جديدًا يتناسب مع ما تم إعادة تأهيلها عليه. كما حدث في منظومة التعليم ومنظومة القضاء، ومنظومة الإعلام والتثقيف (الصحف والرواية والمسرح...).

وفي كتاب (الشرق الأوسط الحديث) عدد من الأبحاث العلمية كتبها مستشرقون مختصون وأشرف على تحريرها المستشرق الشهير (ألبرت حوراني)، تبين هذه الدراسات كيف أن نقطة الهدم في منظومتنا القيمية وحضارتنا كانت من تمكن نخبة فاسدة، أو قل نخبة جديدة، من السلطة والنفوذ الاجتماعي. هذه النخبة عاجلت المجتمع والسلطة حتى غيرت.

والفرد النخبوي لا يحتاج لإرشاد.. يعرف طريقه، وبرجماتي بطبعه يتحرك في المتاح وصولاً لهدفه، وفي أسوأ الظروف يكمن حتى يجد مساحة للحركة. وتتجمع النخبة تلقائياً حسب التخصص وتكوّن مجتمعاً - أو ظواهر - اجتماعية حسب التخصص، تتحاور، تتنافس، يرشد بعضها بعضاً.

إن كل تغيير يبدأ من فرد له رؤية مختلفة، والأفراد يتحولون لمؤسسة، أو يسيطرون على مؤسسة، ومن ثم يحدثون تحولاً جذرياً. والذين يشترطون وجود رؤية للتغيير قبل البدء (خريطة عمل) لا يفكرون جيداً في تفاصيل التغيير، فخريطة التغيير نفسها تحتاج إلى نخبة متخصصة لصياغتها.

نعم التغيير ممكن، بل سهل، ولا يحتاج لكثير وقت كي يبدأ في الاتجاه الصحيح: اتجاه إنتاج نخبة متخصصة لا تتأطر بأطر حزبية بل تعمل من أجل هدف عام هو التمكين للدين وخدمة الناس. والأمر في غاية السهولة كل يتجه لنفسه ويحاول إعادة تأهيلها، تمامًا كما يحدث في تنظيم صفوف الصلاة في المسجد، ينتظم الجميع في لحظات مهما كان كثرة عدد المصلين (كالمسجد الحرام والمسجد النبوي) وذلك بأن يهتم كل واحدٍ بنفسه فقط. كل يهتم بنفسه تجاه هدف واحد: إعادة استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

نعم الحل لا بد أن يبدأ فردي، وفي إطار الأمة والمجتمع. وكل فيما يحسن أو فيما يجب، ومن لا يستطيع إعادة تأهيل نفسه فليدعم من أعاد تأهيل نفسه بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فليدع له.

محمد جلال القصاص

5 جمادى الأولى 1440

مساء الجمعة 11 يناير 2019

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الخطوة الأولى لنهضتنا

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

مخرجات العقول ترجمة لما تراه العيون، وترجمة لما استقر في القلوب، وكشف عما يدور في العقل من أفكار. فزاوية الرؤية والمخزون الفكري وطبيعة النفس عوامل تشكل الرؤية الكلية للإنسان. لذا حين ينطق أحدهم، وخاصة في الأمور العظام، فلا تسلم له قبل أن تفتش عن زاوية الرؤيا، وعن نفسيته: مطمئنة تطلب الأجر بالنصح لله ورسوله وعباده المؤمنين؟ أم أمانة بالسوء تردي ثوب الناصحين وهي من المنافقين؟، وعن عقله: كيف يربط بين الأفكار؟.

ومن حينٍ لحين، يبرز بعض العقلاء يرتدي ثوب الناصحين. والعقل كثير، وكل عند نفسه ناصح أمين، فلا تكاد تشك في عقل من يتكلم أو إرادته الخير وإنما في مخزونه الفكري.. في "زاوية الرؤيا" التي ينظر منها.. في درايته بمآلات الأمور..

الأمر يتعلق بحلّ جماعة الإخوان المسلمين، تحديداً بأطروحتين قديمتين يعاد طرحهما أو الحديث عنهما من حينٍ لحين. ظهرت أولاً في الثمانينات من قطر ومن الكويت، كلتاهما تنادي بحل جماعة الإخوان المسلمين، وكل الجماعات، بمعنى القضاء على صيغة الجماعة. والتي خرجت من قطر قدمت فعلاً بأن أقدمت على حل الجماعة فعلاً. وكلما تأزم العمل الإسلامي استعادوا هاتين الأطروحتين وتنادوا لحل جماعة الإخوان المسلمين وكل الجماعات الإسلامية؛ والسؤال: هل حل جماعة الإخوان المسلمين، وكل الجماعات والكيانات الأخرى يمثل حلاً لمشاكل العمل الإسلامي المعاصر؟

(1) دكتوراة في العلوم السياسية

الإجابة عند كثيرين: نعم. يمثل حل الجماعات حلاً. وحين تدور حول هذه الأطروحات التي تنادي بحل الجماعات وتدقق النظر فيها وفي المؤيدين لها مرة بعد مرة، تجد أنهم لا يقدمون حلاً بل يحفرون حفرةً جديدةً للعمل الإسلامي، وهذه ثلاثة تأملات:

الأولى: الأطروحة التي خرجت من قطر بقلم ولسان الدكتور جاسم سلطان تطالب بالقضاء على جماعة الإخوان وكل الأجماعات تطورت في اتجاه الدمج المعرفي مع الغرب. بمعنى أن صاحب هذه الأطروحة تبني النظرية الغربية التي تقول بالتطور المعرفي، وأن ما وصل إليه الغرب الآن هو "نهاية التاريخ". بمعنى أن التاريخ يسير في خط مستقيم!! والله يقول: "وتلك الأيام نداؤها بين الناس". ومن يقرأ في كتاب الله ساعة يعلم أن الأمم سادت ثم بادت، قال الله: (وعادًا وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا، وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تنبيرًا). ومن قرأ في التاريخ ساعة يعلم أن الأمم تستبدل، وأن دوام الحال من المحال، وهذا الأمر مشاهد للعيان فقد كان السوفيت نراهم بأعيننا، وكان الإنجليز والفرنسيين في كل مكان، ولا بد أن الحاضر ذاهب.

العجيب أن صاحب هذا الطرح حين يحكي تاريخ البشرية (في محاضرات السودان) لا يحكي إلا التاريخ الأوروبي، وبالرواية الظالمة التي تبنيها هم. يقول: كان الإنسان بدائيًا همجيًا، ثم راعيًا للماشية، فزارعًا للأرض، ثم تاجرًا، ثم صانعًا، ثم تكنولوجياً "متحضرًا".. بالضبط كما يقولون. وعندنا في كتاب ربنا وسنة نبينا أن أول البشر كان نبيًا معلمًا، قال الله: "وعلم آدم الأسماء كلها".

وليت هذه الأطروحة توقفت عند هذا الحد فقط؛ بل انقلبت على التاريخ الإسلامي تنكره وتحاول إثارة الغبار حوله، تقول لم يقيم إلا عشرين عامًا (إلى أن بدأ الخلاف بين الصحابة)، وتنكر آلاف السنين من الحضور النظري والعملي للمسلمين. فهذه المطالبة بحل الجماعة - كطريقة من طرق العمل الصحوي - لا يقدم حلاً. بل

يأتي في سياق القضاء على المشروع الصحوي الذي يرمي إلى دورة تاريخية جديدة تنهي سيطرة العلمانية وتستهدف إعادة استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

الثانية: والأطروحة الثانية التي طالبت وتطالب بحل جماعة الإخوان المسلمين خرجت من الكويت من شخص الدكتور عبد الله النفيسي قديماً وتتجدد، وهي في مسارٍ آخر، ترفض أداة العمل (الجماعة) وتطالب بأداة جديدة للعمل الإسلامي وهي أداة التيار الضاغط. وهذا الرأي رؤية جيدة للترشيد والتصحيح، فالصحوة الإسلامية بحاجة للتواجد في صيغ أخرى غير الجماعة وهي صيغة التيار، ولكن هذا لا يستدعي حل الجماعة كصيغة، أو بالأحرى التجمع حول حل الجماعة كهدف أولي، بل قد تدخل الجماعة برمتها في التيار، أليس كذلك؟! وقد كان هذا هو الأولى بها في المرحلة السابقة والحالية. وأعتقد -من خلال متابعة أطروحات الدكتور النفيسي- أن ما يقصده لا يبعد عن تعقيبي هذا على قوله.

الثالثة: جيل الوسط في الحركة الإسلامية وخاصة مصر ومن يظهرون في الإعلام. يظن هؤلاء أن فساد النخبة.. أو فشلها يستوجب التخلص منهم ومن الأدوات التي يعملون بها (الجماعة). وليسوا مخطئين جملةً، ولكن ثمة تفاصيل لا بد من الوقوف عليها، من أهمها:

- فساد النخبة أو فشلها لا يكفي في التعامل معه تغيير الأشخاص فقط، وإنما يستوجب التوجه لإعداد جديد للنخبة الإسلامية، وليس فقط -تبدلاً للأشخاص المسؤولين بانتخابات ونحوه، فالواقع أن جيل الوسط لا يختلف كثيراً عن جيل "الشيوخ". بل حين تقرأ حال من يتصدرون العمل الصحوي الآن وهم في شبابهم ستجد أنهم كانوا أكثر حماسة وتضحية من الشباب اليوم. وقد لا يستدعي الأمر تغيير الأشخاص. بل فقط برامج إعادة تأهيل وكل في مكانه. ولن نحتاج أكثر من عامين إعادة تأهيل حتى تظهر نتيجة جيدة، والخط العام لإعادة التأهيل هو إيجاد تخصصية في العمل الإسلامي، تخصصية دقيقة وعميقة. فالفرد الوظيفي.. المحترف هو الذي سيحدث نقلة نوعية في صحوتنا.

- أن تعثر الحركة الإسلامية لابد أن نستحضر حال قراءته وتشخيصه العامل الخارجي (الإقليمي والدولي، والعالمي)، فالصحوة الإسلامية نشأت كرد فعل على سيطرة الغرب على الخلافة الإسلامية، ونشأت الأمة ممزقة وبلا إمكانات وفي يد عدوها، ونشأت والغرب كما لم يرى نفسه قط في التاريخ: كلمته مجتمعة.. متحدة.. يملك السلاح والمال والسيطرة التامة على بلاد المسلمين. كل أدوات السيطرة بيديه. والأنظمة التي تحكم المسلمين إلى اليوم جزء لا يتجزأ من المنظومة الغربية. هكذا حجم التحدي. وهو تحدي فعال، ومتطور، ويقظ، ويخوض حرباً عالمية منذ عشرات السنين يستهدف بها الصحوة الإسلامية، ما يسميه "الحرب على الإرهاب". ومع كل هذا فإن الصحوة الإسلامية لا تتجه إليه بالقراءة والفهم فضلاً عن تطوير أدوات للتصدي!!

- والعدد مهم، فكثافة النخبة المتخصصة مطلب ضروري، وذلك أنه أمان للتحويلات المفاجئة من الخارج أو الداخل.

وبعد: هل صيغة الجماعة تصلح؟

تصلح ولا تصلح. تصلح لأشياء ولا تصلح لأشياء، وعامة المنتسبين للحركة الإسلامية ليسوا منظمين في جماعة، وإنما أفراد، والمطلب الآن هو إيجاد فرد وظيفي. يتقن حرفة، معرفية أو يدوية.. يتطور هذا الفرد لجماعات وظيفية.. تتطور هذه الجماعات لظواهر اجتماعية، ثم يأتيها التنسيق الحركي لمواجهة التحديات ومن ثم السيطرة. في جملة واحدة: الواجب الآن هو إعادة تأهيل من بالحركة الإسلامية في اتجاه إيجاد تخصصية دقيقة، أو في اتجاه إيجاد فرد وظيفي يتقن حرفة معرفية أو يدوية، وكل يعمل بما يقدر عليه، أو كل إلى ما يحسن أو إلى ما يجب.

محمد جلال القصاص

رجب 1438

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الإسلاميون والجماهير: توافق أم تعارض؟

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يعد الحراك الجماهيري أحد أهم الأدوات التي حاول الإسلاميون استخدامها في تحقيق هدفهم الأكبر، وهو استئناف الحياة الإسلامية من جديد. أو: "التجديد". أو "الإحياء". حيث ظهر استخدام تلك الأداة (الجماهير) في فترات مختلفة، وعلى سبيل المثال: في نهاية الستينات على يد "يحيى هاشم"، واستوحى الفكرة من تظاهرات الطلاب 1968⁽²⁾؛ ثم حاولت الجماعة الإسلامية في نهاية حكم السادات، إذ أن اغتيال السادات لم يكن هدفهم ابتداءً وإنما أرادوا إشعال ثورة جماهيرية⁽³⁾، وفي ذات التوقيت ظهرت الفكرة في الجزائر على يد مصطفى بويعلي (ت 1987م) ومن بعده "جبهة الإنقاذ"؛ ثم ظهرت الفكرة أكثر بعد انتصار الأفغان على السوفيت وذلك على يد الشيخ عبد الله عزام⁽⁴⁾؛ وبعد "الربيع العربي" عادت الحركات الإسلامية تتبنى فكرة "الثورة الجماهيرية" مرة أخرى، فالتحق عامتهم بالانتفاضات الشعبية، وحاولوا قيادة

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

(2) انظر: أيمن الظواهري، فرسان تحت راية النبي، نسخة الكترونية، الطبعة الثانية، ص 15، 16.

(3) انظر: طارق الزمر: "أسرار وكواليس اغتبيالات السادات"، :

<https://www.youtube.com/watch?v=bcSU9FvM1IMhttps://2u.pw/3Ta1L>

(4) انظر: محمد جلال القصاص، "التقلبات الفكرية في الصحوة الإسلامية: سيد قطب وعبد الله عزام

نموذجًا" موقع طريق الإسلام، قسم المقالات، أخذ بتاريخ، 2021/9/4

<https://2u.pw/Ejy6Z>

الجماهير وصولاً لأهدافهم. فنحن أمام سياق من التواصل بين الإسلاميين والجماهير، ويمكن تسجيل عدد من الملاحظات على هذه الظاهرة، على النحو التالي:

الملاحظة الأولى: أن الإسلاميين يلجؤون للجماهير حال حدوث نشاط جماهيري، كما حدث بعد ثورة 1919م وظهور الجماهير كفاعل في المشهد السياسي، حيث شاركت الجماهير في صناعة الثورة، ودعمت الزعامة التي أفرزتها الثورة.. سعد زغلول ومن بعده دعمت الاتجاه المعارض للسلطة (الحزب الليبرالي بقيادة مصطفى النحاس)؛ وحين عادت الجماهير مرة ثانية للمشهد بعد هزيمة 1967، وبعد نجاح الثورة الإيرانية 1979، وبعد ظهور الجماهير في المشهد الأفغاني بالدعم المادي للمجاهدين الأفغان ضد السوفيت، بمعنى أن الإسلاميين يأخذون أدواتهم من الرائج على الساحة، وهو أمر مضطرب فكلما اشتهرت أداة من أدوات الفعل أخذوا بها دون النظر في عواقبها، فأخذوا بالنسق المغلق والتنظيمات السرية (الجماعات) بعد انتشارها في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وخاصة بعد نجاح الثورة البلشفية 1917-1921م، ثم أخذوا بأداة الانقلاب العسكري (حزب التحرير، وحادث الفنية العسكرية، واغتيال السادات)، ثم أخذوا بحرب العصابات بعد نجاحها في كوبا والصين وفيتنام، والثورات الجماهيرية، وأشرح هذا في مقالٍ آخر إن شاء الله.

والملاحظة الثانية: حدوث حالة من التوافق بين الإسلاميين والجماهير، ويحدث هذا التوافق سريعاً، ويرجع ذلك لعددٍ من الأسباب من أهمها:

1. التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات. وظهر أثر ذلك في الاستجابة الانفعالية الجماعية السريعة للحدث في مختلف دول العالم بسبب

- التدفق العالمي للمعلومات، مما أفاد الإسلاميين في تسويق هويتهم والحشد حول بعض المواقف.
2. تضخم دور الفرد، فأصبح بعض الوعاظ، ومن يتبنون يواجهون الغرب والنظم المحلية من المؤثرين في الحدث.
3. تراجع دور المؤسسات الدينية الرسمية، وتبعيتها للنظم الحاكمة من حيث العموم، وذلك أن الإسلاميين زاحموا المؤسسات الدينية الرسمية في المجال العام، فخطبوا الجماهير من خارج المنابر الرسمية وأوجدوا رموزاً جماهيرية من خارج رموز المؤسسة الرسمية، وتبع ذلك إيجاد قضايا جديدة تدعم بشكل مباشر أو غير مباشر خطابهم، مثل "تطبيق الشريعة" و "فرضية الحجاب" ونحو ذلك، مما أدى إلى فقد المؤسسة الدينية الرسمية قدرتها على الحشد والتجنيد.
4. غلبة الجانب الوعظي على خطاب الإسلاميين وخاصة التيارات السلفية. ولكونه خطاباً وعظيًّا ينادي بحسن الخلق، ويذكر الناس بما ينتظرهم في الدار الآخرة من نعيم مقيم وعذاب أليم فيسلي المصابين ويبشر المجتهدين، فإن ذلك يعطيه قبولاً أكثر بين المتلقين خاصة الطبقات الفقيرة المثقلة بمتاعب الحياة وهؤلاء هم عامة المؤيدين للإسلاميين.
5. كما أنّ خطاب الإسلاميين يتسم بكونه خطاباً مباشراً لا غموض فيه، ويقطع الوساطة بالمرجعية التقليدية أو المذهبية؛ فيعطي الإنسان شيئاً من الحرية، على الأقل في التعامل مع النص الشرعي. وقد لاقى هذا قبولاً وخاصة مع تزايد ثقافة الفردية والاستقلالية.
6. تجنب الخطاب الصحوي تراكمات الآراء المذهبية خلال قرون عديدة، وقدم خطاباً سهلاً يناسب جميع طوائف المجتمع، فتحدث للمهمشين سياسياً

يعدهم وبمئتهم، وتحدث للفقراء، وللطامحين في السلطة وخاصة مع حدوث تحولات اجتماعية. وحديثه حديث الاستعلاء والتمكين والتبشير بالدولة الإسلامية الخالية من الآلام وهذا خطاب يطرب المستضعفين فيجتمعون حوله ويرددونه وربما يتبعون قائله وخاصة حين لا تكثر التكاليف.

7. ومن الأسباب أن الصحوة نشأت، في جملتها، كرد فعل للأزمة التي مرت بها الأمة الإسلامية بعد تخلفها حضارياً، حيث أن هذه الحركات نشأت كإجابة على أسئلة منهجية عن الحكام الذين هم مسلمون من ناحية ويحكمون بغير ما أنزل الله ويضطهدون الذين يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية في حياة الناس من ناحية أخرى؛ وأسئلة عن تبعية هذه الحكومات للغرب، وما صحب ذلك من انتشار المذاهب العلمانية والتيارات القومية والوطنية والمدارس السياسية والفكرية ذات المنشأ الغربي كالديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية؛ وضياع جهود مدارس الصحوة الإسلامية التي بدأت في نهايات القرن التاسع عشر بعد تمكن الدولة القومية، واحتلال فلسطين. وتفرق الإسلاميون، بناء على موقفهم من هذه المسائل، إلى أربع مدارس رئيسية: تيار اكتفى بالعمل الدعوي التربوي (السلفية العلمية غالباً)، وتيار اتجه إلى العمل السياسي (الإخوان المسلمون ومن وافقهم)، وتيار اتخذ العمل المسلح وسيلة وحيدة للتغيير (الحركات الجهادية)، وتيار كَفَّر الجميع واعتزلهم وراح يكون مجتمعاً من "الفئة المؤمنة" لينمو ويتمدد على غيره (التكفير والهجرة)، فكانوا انعكاساً للتوجهات الرئيسية بين الجماهير ولذا وجد كثير من الناس ما يناسبهم في خطاب الحركات الإسلامية.

8. أو بكلمات أخرى: تعددت أوجه الأزمة التي نزلت بالمجتمعات الإسلامية، وقد أدى ذلك إلى تنوع الاستجابة لها. وبالتالي، التفاعل مع مساحة عريضة

من الجماهير، في المجالات السياسية والاجتماعية والخدمية والثقافية.

9. انتشار الصحويين في المجتمع وكثرتهم العددية مقارنةً بغيرهم من أصحاب المذاهب العلمانية، مما مكنتهم من التحدث للجماهير بشكل مباشر.

الملاحظة الثالثة: أنه على عكس ما تحاول الحركات الإسلامية تسويقه من أنّ الجماهير تبنت كثيراً من أفكارهم، فإنّ حضور الجماهير لم يكن في صالح الإسلاميين من حيث العموم، وذلك لأن عموم الحركات الإسلامية يتصرفون بتأثير مباشر لفهمهم للنص الشرعي، والفرد من الجماهير يفكر ويتصرف بدافع من حساباته الشخصية وخبراته الذاتية، بمعنى أن تأييد عوام الناس (الجماهير) للإسلاميين لم يأت لخيارات عقديّة وإنما بحثاً عن مصلحة مادية بحتة. ولذا نستطيع أن نقول: أن الجماهير لم تكن عنصر دعم دائم للإسلاميين، وإنما مالت للمخالفين كما مالت لهم بحثاً عن أهدافٍ خاصة، ويلاحظ أن التجاوب بين الإسلاميين والجماهير يحدث بشكل مؤقت، تحديداً في وقت الأحداث الكبرى، ثم تحدث النفرة سريعاً، وذلك لتأخر استجابة الجماهير للخطاب العقدي. فالجماهير تتأثر، أكثر، بمن يتبنى مطالبهم الغريزية، المتعلقة بمتطلبات الحياة اليومية (المسكن والمأكل والمشرب، وتوفير دخل ثابت [التوظيف])، ولذا خرجوا يهتفون، "عيش، حرية، عدالة اجتماعية". ولأن هناك فرق بين الوعي والتعبئة، فقد حاول الإسلاميون نشر وعي بعددٍ من القضايا العقدية التي تتعلق بالإيمان والكفر من وجهة نظرهم، ولم يستطيعوا تعبئة الجماهير لصالح قضاياهم السياسية، وربما يرجع ذلك لعدم امتلاك حواضن شعبية ثابتة تتمثل في أدوات تحريك الجماهير من خلال مؤسسات مجتمعية أو روابط اجتماعية ثابتة، والذي يحدث هو حالة من الانفعال المؤقت، أو التوافق المؤقت

بين الإسلاميين والجماهير سرعان ما تنفض، بل وتنقلب ضد الإسلاميين. إن الجماهير القائمة صنعة العلمانية التي تعمل في المجتمعات منذ قرون، ولذا فإن أهدافهم لا تخرج عن متطلبات الحياة الضرورية ولا علاقة لهم بمطالب الإسلاميين العقديّة، ولذا يلتقيان قليلاً ويتفرقان سريعاً.

محمد جلال القصاص

صفر 1443

سبتمبر 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ثورة... ثاني؟؟!!

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

تفسير الحدث يُغير النظرة إليه، كلياً أو جزئياً. فأنت تفهم (تفسّر) ما تراه أو تسمع به بناءً على منظومة العقائد والتصورات التي بداخلك. وعلى سبيل المثال: داعش كيف تراها أنت وكيف يراها غيرك؟! وأحداث رابعة (الاعتصام والفض): كيف تراها أنت وكيف يراها غيرك؟!، وخير خلق الله، صلى الله عليه وسلم، كيف تراه وكيف يراه غيرك من الكافرين والمنافقين.. أتباع الشياطين؟!!

ولذا فإن الصواب أن تفتش عن الرؤية التي ترى بها الحدث أو الرؤية التي يُقدم لك من خلالها الحدث، أو على الأقل تتحرك حول الحدث وتنظر إليه من أكثر من زاوية.. بأكثر من رؤية.

ظهرت الثورات مع الدولة القومية، وذلك من أجل تغيير السلطة الحاكمة. وتقوم على تحريك الشعوب من أجل إزاحة سلطة والإتيان بسلطة جديدة، وفي كل مرة نخبة ما هي التي تحرك الجماهير من أجل مصحتها الخاصة لا مصلحة الجماهير، ففي كل ثورة يكون حصاد الحراك الجماهيري (الثورة) هو تحقيق مصالح النخبة الصاعدة. فبعد كل ثورة يحدث تغيير في طبقات المجتمع، تذهب نخبة وتأتي أخرى ولا يتغير حال الجماهير من حيث العموم.. يصعد منها جزء للنفوذ والسلطة ويهبط إليها جزء آخر ممن كانوا من ذوي النفوذ والسلطة ويبقى حالها على ما هي عليه إلا قليلاً، مع الأخذ في الاعتبار أن غالبية النخبة تحترف التكيف مع التغيرات، وإن

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

سقط بعض أفرادها يستدير البعض الآخر ويعاود الالتحاق، فالمال والنفوذ لهما أهل وخلاّن يعرفون طريقهما جيداً.

ماذا تفعل النخبة؟

تفسر المشهد للجماهير على أنه ظلم واقع عليها، وتربط بين زوال الظلم وزوال النخبة الحاكمة، وكأن السبب هو أشخاص من يحكمون لا المنظومة العقدية السائدة وما نجم عنها من مؤسسات. وتتحرك الجماهير في مشهد مؤقت ولحظي لمساندة النخبة الثائرة ذات الأهداف الخاصة؛ وبعد أن ينتهي المشهد وتحصل النخبة المحركة للجماهير على ما تريد من سلطة ونفوذ تقدم للجماهير تفسيراً آخر يجعلها تقبل الواقع راضية أو راغمة...!!

ويهدأ الوضع وتمر الأيام. ثم تتكون نخبة من داخل السلطة في الغالب، وتموج بالمجتمع موجة جديدة وتستخدم الجماهير من أجل الحصول على السلطة والنفوذ من خلال (ثورة جديدة).

وحين ندقق في المشهد أكثر نجد أن الثورات لها وظيفة أخرى وهي أنها قد تستخدم أداة لغسل فترة زمنية؛ بمعنى: أن الثورة تجب ما قبلها. يذهب الذين تمت الثورة عليهم بما كسبوا دون أن ترد منهم الحقوق حتى وإن حوكموا، وإن قُتل بعضهم. ثم تبدأ نخبة أخرى في الجمع من أقوات الناس ومدخراتهم...!!

والثورة بهذا المعنى ضرورة من ضروريات تطوير مجتمع الدولة القومية وحلّ أزمات النخبة فيه، فهي آلية تدويل النخبة داخل الدولة القومية.. وآلية طحن النخبة الصاعدة المعارضة والقديمة المهترئة.. هي أداة لإزاحة قومٍ والإتيان بآخرين. وإذا أخذنا في الاعتبار تبعية مجتمعات الجنوب (وهي الدول النامية، وهي التي يحدث فيها الثورات في العقود الأخيرة) لدول الشمال (الدول المتقدمة) التي تتحكم في النظام الدولي؛ وإذا تدبرنا في المشهد قبل كل ثورة وبعدها، فسنجد أن كل ثورة تدفع

المجتمعات إلى مزيدٍ من التبعية للنظام الغربي، بمعنى أن الثورات تطوير لمنظومة القيم وما انبثق عنها من مؤسسات في اتجاه التبعية للغرب. وأرجو أن تدبر حال مصر قبل ثورة 1805 حيث كانت تحاول النهوض بأدوات منظومة القيم الإسلامية القائمة على تمكين المجتمع من تسعة أعشار مناحي الحياة وبقيادة أهل الحل والعقد وأهل الرأي والمروءات، وحالها بعد الثورة وقد تحولت لدولة قومية تجمعت كل السلطة وكل الثروة في يد النخبة الحاكمة. وتدبر، أيضاً، حال مصر قبل ثورة 1982 وقد كانت تحاول النهوض والاستقلال بذاتها وحالها بعد الثورة وقد غرقت في مستنقع الاحتلال الغربي سياسياً وعسكرياً وثقافياً فتراجع الأزهر وتراجع التجديد الأدبي ودبت واشتدت المنظومة الغربية في كل المجالات. وبعد ثورة 1919 تعرض المجتمع لدفعة أخرى باتجاههم، فانتشرت الشيوعية والليبرالية حتى عرفت الفترة التي تلت هذه الثورة بالعصر الليبرالي، ثم جاءت ثورة يونيو 1952 لتقضي على بقايا المجتمع الإسلامي التعاوني وتدشن مرحلة تحول كلي في اتجاه النموذج الغربي، وتقضي على بقايا السياق الأممي (أمة إسلامية) لصالح سياق (دولة). ثم كانت يناير 2011 ويوليو 2013 وما بعدها إنهاك شديد للمجتمع من خلال صراع ينهك الجميع، فأصبح المجتمع بلا طاقة للمقاومة بل بلا مقومات للفعال.. أي فعل. هذا نتاج الثورات يا سادة.

أين الإسلاميون من كل هذا؟

يملك الإسلاميون كثرة عديدة تصل إلى ثلثي المجتمع (نتائج الانتخابات مؤشراً)؛ ويتعرضون للمظلومية، ولذا يتلقون خطاب النخبة (الثائرة) ويرحبون به، ويدعمونه؛ ولذا- أيضاً- يُنكَل بهم من في السلطة كي لا يدعمون النخبة الجديدة الثائرة؛ وإن حدث التغيير يبدأ بهم الوافد الجديد (الذي أعانوه) خوفاً من أن ينازعه السلطة أو يعاونون من ينازعه، وكذلك ينكل بهم إرضاءً للخارج الراض لهم جملة!!

بكلماتٍ أخرى: يستدعون كأداة لتمرير "الثورة/ تغيير النخبة/ تركيع المجتمع" ويتم إقصاؤهم والتنكيل بهم بعد الانتهاء من التحولات السلطوية والمجتمعية، وقد كانوا عماد ثورة 1805 (الأزهر) ، وثورة 1919 (الأزهر)، ثم ثورة 1952 (الإخوان المسلمون) بعد أن تخلت الأمة عن واجبها في القيام بالدين وتحول الأمر إلى جماعة من الناس، ثم ثورة يناير (الإخوان والسلفيين)، والآن تم طحنهم وإرجاعهم. وسيتم استدعاؤهم حين تقرر نخبة سلطوية ذات نفوذ تغيير المشهد.. أو حين يقرر النظام الدولي تطوير المشهد في اتجاه غربي مرة أخرى بـ "ثورة".

إن ما يطلق عليه الآن (ثورة) أداة لتطوير المجتمعات في اتجاه غربي، وهو ما يناقض تمامًا ما يسعى إليه الإسلاميون. ولذا فإن المشاركين في كل (ثورة) يتحدثون أولاً عن "شكل الدولة" وأنها لا بد أن تكون "دولة مدنية"، بمعنى علمانية دور الدين فيها غائب أو محدود.

وفي الواقع المعاصر نموذج عملي، تحديداً في المجتمعات التي تسبقنا بخطوة (ما يقال له الدولة المتوسطة في أمريكا الجنوبية مثلاً) ظلت تثور وتثور حتى استقرت في ركاب الغرب: دولة اقتصادية رأسمالية ديمقراطية يزداد فيها الغني غناً والفقير فقراً، وتعتمد على الغرب في مواردها وأسواقها، بمعنى أنها لا تستطيع التمرد عليه، بل تسير خلفه طوعاً أو كرهاً. والمنطقة الإسلامية العربية يتم طحنها وغرس قيم الرأسمالية وأدواتها فيها، لإعادة بناء المنظومة العقدية والواقع الاجتماعي للشعوب على قواعد الغرب، ومن أهم الأدوات لفعل ذلك هو "الثورة".

الثورة لا تقضي على الظلم، بل تستبدل ظلمًا بظلمٍ أشد منه، وإن الصراع في جوهره صراع بين النخب، وما الجماهير إلا وقود..دواب. وإن للتغيير مسار آخر لم نهند إليه بعد.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

مذبحة رابعة أنقذت الإسلاميين!!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بعد ثورة يناير اتخذ الإخوان المسلمون من ميدان رابعة العدوية مرتكزاً لهم أكثر من مرة، وتردد أن سبب ذلك هو قرب رابعة من القصر الجمهوري (مقارنة بميدان التحرير)، بمعنى أنهم يحتشدون في مكان قريبٍ من صانع القرار يضغطون عليه - كما في حالة المجلس العسكري- أو يدعمونه- كما في حالة الدكتور مرسي-. وفي هذا السياق بدأت الدعوة للتجمع في ميدان رابعة قبل الانقلاب بأسبوع تقريباً.

وكنت خارج مصر لسنوات طوال قبل ثورة يناير 2011 وعدت بعدها، وحين خالطت الإسلاميين امتلأت يقيناً بأنهم يتحركون لبلاء لا لتمكين؛ واتجهت لدراسة السياسة أملاً في أن أفهم وأنصح نفسي وغيري بعلم؛ وجاءت رابعة وأنا أجمع المادة العلمية لرسالة الماجستير!

كنت في الميدان قبل الانقلاب (حضرت الجمعة التي تجمعوا فيها وانصرفوا، ثم الجمعة التي تجمعوا فيها وبقوا إلى أن حدث الانقلاب يوم الأربعاء 3 يوليو 2013)، وكنت في ميدان رابعة ليلة الانقلاب، وكنت فيه بعدها. ولم أكن أجلس. كنت أتحرك بين الجموع أرى بعيني وأسجل ما أراه من ملاحظات، ونثرت ذلك في رسالة الماجستير، وهي مطبوعة (أثر المشاركة السلفية على الفكر السلفي في مصر).

حين أعلن العسكر انقلابهم قلت: الآن تتحرك الجموع إلى القصر الجمهوري نصرةً للرئيس. ولكن حدث شيء آخر!!

(1) دكتوراه في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

أطبق عدد قليل من العسكر (كانوا من الحرس الجمهوري) على المعتصمين في رابعة، جاءوا من الجهة الشمالية إلى محازاة طيبة مول، ولم تكن قد دخلت في الاعتصام وقتها، وشغلوا المعتصمين بالميدان عن التحرك لنصرة الرئيس، ومع الصباح تراجع العسكر إلى بداية شارع عباس العقاد ثم انسحبوا بعد ذلك، وبعد رحيل العسكر لم يتحرك الذين في الميدان.. ظلوا مكأنهم يهتفون!!

وقتها لم يكن في الميدان سوى الإخوان وعدد قليل من عوام الناس، تحديداً من الصعيد (جنوب مصر، ووجود الصعايدة بجوار الإخوان مما لم أجد له مبرراً إلى اليوم ولم أجد من التفت إليه وحاول تفسيره)، ويوماً بعد يوم بدأ الناس يتجمعون وتضاعف عدد المعتصمين، وبدأ التحرك من الميدان، وبالفعل تحركوا إلى دار الحرس الجمهوري، وكنت يومها بين الحضور، كانت الأعداد كثيفة جداً، وكان العسكر قلة، وكانت الحماسة مرتفعة، وقلت: سيدخلون دار الحرس الجمهوري ويجرون الرئيس (كانت تتردد إشاعة قوية بأن الرئيس بداخل دار الحرس الجمهوري)، ولم يفعلوا. انفض المشهد الملتهب فجأة بعد خطابٍ من أحد (صقور) الإخوان فك الله أسره!!

حين انتهى هذا (الرمز الصقر) من كلمته قلت: لن يجدوا فرصة كهذه، وأن العد التنازلي قد بدأ، وأخذت بعضي واتجهت لرابعة أكمل تسجيل الملاحظات على الصحوة الإسلامية، فقد كانت رابعة فرصة ذهبية لرؤية أكبر عدد ممكن من المنتسبين للصحوة الإسلامية يتحدثون بشكل طبعي. بل في أزمة، كانت غنيمة شهية لمن يريد أن يعرف ويفهم أفراد الصحوة عن قرب؛ وبذلت جهداً ووقتاً للسمع والحديث. ووقتها استيقنت من أن الإخوان لن يحسموا. ثم جاءت مذبحه الحرس ومذبحه المنصة والرمي على السائرين في المسيرات من أقسام الشرطة، والهجوم على المعتصمين في النهضة، وكثر القتل في المعتصمين، واحتشد الناس بالملايين في رابعة والنهضة وفي المسيرات المليونية في المدن الكبرى وأحياء القاهرة المكتظة بالسكان (كالعمرانية

والهرم)، حتى كانت الشوارع تملج بالبشر موجًا، وظهر أمران متناقضان: حدة في الخطاب، وتراجع واضح في الفعل على الأرض.

ظهر بوضوح أن قادة الموقف يومها ينتظرون الحسم من الخارج. كأنهم يعتقدون أن الخارج هو الذي يفصل في الخصومة وأنه يميل لمن هم أكثر عددًا.. يظنون أن الخارج مع الأغلبية حسب مبادئ الديمقراطية.. يظنون أنه مؤمن بكفره. وظني أن ثمة من يتواصل معهم في الخفاء ويقنعهم بعدم الحسم وأن الأمور ستكون على ما يرام، ظني أن ثمة من هددهم وأضعف عزمهم إلى أن نقضي الأمر وفرض عليهم واقع جديد؛ ومن شواهد ذلك ظهور اليافتات المكتوبة بالإنجليزية والأحاديث باللغة الإنجليزية على المنصة، بل وفي داخل الميدان في المناطق البعيدة عن الكاميرات، علمًا بأن تردد الصحفيين الأجانب كان مؤقتًا.. جاءوا بشكل كثيف في يومٍ أو يومين مع بداية الاعتصام ثم رحلوا. كأن قد جاءوا في سيارة واحدة!!

ومما يدعم فكرة أن القيادات الإسلامية وقفت مكانها تنتظر حلًا من الخارج وأن غايتهم انحسرت في إظهار كثرة عددهم ليميل الخارج إليهم أن الاعتصام تحول لما يشبه السكن الدائم (مساكن اللاجئيين)، وعرف أهل الخيام بعضهم، وظهرت أنشطة اجتماعية مختلفة في الاعتصام غلب عليها البعد الدعوي وخاصة من السلفيين الذين ملؤوا الميدان نصرة للإخوان، وأصبحت المسيرات روتينية، وبدأ الحديث عن إنشاء مدارس في رابعة، ما يعني أن الاعتصام مستمر للابد!!

في ذات الوقت كان الفريق الآخر يطور واقعًا، بكل ما يستطيع من أدوات: الإعلام والأمن، والخطاب الديني الموافق له، وبناء السجون والمعتقلات، والتجريب العملي (مذبحة الحرس والمنصة والاشتباك مع المتظاهرين في المحافظات).

أصبح المشهد بين فريقين: فريق كل أدواته الرفض وإظهار كثرة العدد ويفتقد أي رؤية لتطوير الواقع بل يشعر أنه في ورطة؛ وفريق يمتلك رؤية شديدة الوضوح تستهدف فرض واقع جديد خلي من الحركات الإسلامية كفاعلٍ، وبيده أدوات كثيرة يستخدمها ويطورها ويضيف إليها.

كان لا بد من الفض انقاداً للإسلاميين قبل غيرهم، فلم يكن لديهم حلاً ولا تطويراً للمشهد كأن قد أقسموا على أن لا يتحركوا من تلقاء أنفسهم...!!

تضخم سؤال لم يفارقي: ماذا يريد الإسلاميون في مصر؟؟

الهدف المجل حاضر بقوة، وهو تحكيم شرع الله، أو: استئناف الحياة الإسلامية من جديد. وحين تسأل عن التفاصيل لا تجد. بضاعتنا في مصر - وغير مصر في الغالب- هي الرفض.. هي الممانعة، ولا نملك حلاً ولا أدوات لفرض حل في حال وجوده، ولذا ننتظر الحسم من خارجنا، وكشفتنا رابعة وأخواتها، ولكننا لم نعِ الدرس بشكل جيد، والسبب: أننا نفسر كل ما يقع علينا بأنه ابتلاء يرفع الله به درجاتنا؟، علمًا بأن طرح السؤال الذي يبحث عن سبب الفشل هو أول ما فعله الصحابة يوم أحد، فقبل أن ينصرفوا من المعركة تساءلوا عن سبب الهزيمة: (أنى هذا؟)، ونحن لا نفعل مثلهم.. لا نطرح أسئلة على التجارب المتعثرة، بل نمضي قدمًا!!

ومع مرارة رابعة.. وآلمها.. وما أعقبها من مطاردة واعتقال وإهانة لنا ولأهلنا إلا أنها انقذت الإسلاميين من ورطة قيادة المشهد، وأجلستهم حيث يحبون.. أو حيث يحسنون: في السجون.. يشتكون الظلم والظالمين، ويتنادون بأن البلاء سنة الله في المرسلين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهو حق يسترون به باطل!!

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هدم وبناء في واقعنا المعاصر

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

دائمًا توجد حالة بناء وحالة هدم...

قوم يأتون وقوم يغادرون... نمو ومحقق،،،

وهذا ما قر في قلب خالد بن الوليد، رضي الله عنه بعد كل مواجهة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، يقول: (فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أي موضوع في غير شيء، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم سيظهر)

وفي المشهد المعاصر:

اليهود في فلسطين في حالة هدم فقد فشلت الحالة اليهودية في بيت المقدس وأجوار بيت المقدس في إنشاء كيان متجانس في مساحة جغرافية مناسبة تضمن له الاستقرار (مهم الاتساع الجغرافي من أجل الاستقرار)، وفشلت في الاندماج مع المحيط البشري المتأخم لها كما كانوا في المدينة المنورة قبل الإسلام، ولم يعد الغرب في حاجة للكيان الصهيوني كما قد كان، وذلك بعد أن اجتاحت العالم الإسلامي عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا، وثقافيًا فاستقر بجنوده وشركاته ونخبته بينهم فبدل دينهم (عاداتهم وتقاليدهم) وتبعوه.

وفي المقابل: المقاومة في حالة بناء مستمر. وإن كل صعود إنما يكون في منحى متدرج لا خطأ عموديًا مستقيمًا. "إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَّ بِكَ" [صحيح مسلم]، فمن أفراد قوميين تابعين للدول حديثة النشوء المنهزمة إلى مقاومة شعبية منظمة وقوية، ثم

(1) دكتورة في العلوم السياسية.

إلى صحوة جماهيرية في كل مكانٍ حتى تلك الأماكن التي يسيطر عليها يهود (الداخل الفلسطيني). وإن أخشى ما أخشاه أن تتشيع المقاومة، فكرًا ومشروعًا.. بمعنى تؤمن بما يؤمنون وتدخل فيما يفعلون.

والروافض في حالة بناء.. لديهم مشروع ودولة، وجغرافيا ممتدة (العراق واليمن وسوريا ولبنان)، وجماعات موالية وشبه موالية (الصوفية) في جميع الدول تقريبًا. وأهل السنة في حالة هدم يراد لهم الدخول في غيرهم (العلمانية).. بل يدفعون للدخول في العلمانية الغربية.

والدولة القومية في حالة بناء.. تجدد نفسها.. تتحول من الحدود الجغرافية إلى الحدود الافتراضية (النفوذ)، وتتمكن من سحق الهويات الدينية والإثنية التي سبقتها. وقد شرحت هذا وما قاربه من مفاهيم في محاضرة ومقال بعنوان "مقولات ابن خلدون ذات قدرات تفسيرية محدودة ومضللة". والمعارضون لها (الحركات الإسلامية تحديدًا) في حالة هدم وتوظيف وعليهم أن يرحلوا.. عليهم أن يجددوا أنفسهم.. أن يفهموا أن مواجهة الدولة القومية من خارجها غير ممكن على الأقل حاليًا، وقد فشلت كل المحاولات، سواءً من "الجماعات المسلحة" أم "الدعوية" وحتى التي تسللت للحكم وسيطرت عليه، مثل: "سودان الترابي والبشير"، و"ماليزيا مهاتير"، و"طالبان أفغانستان"، و"داعش سوريا والعراق" و"أزواد الساحل والصحراء"، و"نهضة تونس" و"إخوان مصر"، فشلت أو أفضلت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والعامل الرئيسي في فشل هذه النماذج هو قوة الدولة القومية، وقوتها من قوة المنظومة الغربية التي أنجبتها. ولن تضعف الدولة القومية في العالم الإسلامي قبل انهيار نموذجها في الغرب. وانهيائه بسنن ربانية. والله أعلم. وهو الذي يدبر الأمر سبحانه وعز وجل "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ" (الرعد: الآية 2).

والغرب في حالة بناء.. نموذج القوة المهيمنة الذي استقر عليه الغربيون بعد الحرب الثانية يتجذر يوماً بعد يوم. وقد نجحوا في تكوين قطبية أحادية متعددة، وهذا هو النظام العالمي الجديد بعد الحرب الباردة.. قطبية أحادية بقيادة الولايات المتحدة وشراكة الجميع في تراتبية هرمية وظيفية. وقد تمددوا بنموذجهم الليبرالي الرأسمالي شرقاً وأعادوا بناء المنظومة الاشتراكية لتكون رأسمالية ليبرالية كما هم أو يكاد.. وطوّروا الاشتراكية وأخرجوا منها شقياً يسير على درهم.. وإن ثار على "أبيه" فلن يغير مبادئه.. بمعنى أنه خلاف داخل المنظومة الرأسمالية الغربية في نسخة جديدة (بعد انتهاء الحرب الباردة).. أو منظومة جديدة.. لا هي رأسمالية ولا اشتراكية، "الموت بالزهر مثل الموت بالفحم". إن العالم اليوم يتوحد على الليبرالية الرأسمالية الغربية وهذا ما يجب أن يزعجنا نحن المسلمين، وإن حدث تراجع فسيكون لدولة أو تحالف دول (وهذا بعيد في المستوى القريب) لا للمنظومة العقديّة التي تدير المشهد (الرأسمالية الليبرالية).

ونموذج الأسرة يتراجع لصالح الفردانية. والصراع الآن بين ذكور وإناث لا بين نموذج الأسرة في الإسلام والفردانية الغربية التي تجعل الذكر كالأنثى. وإن الصراع على خلفية ذكر وأنثى كله لصالح النموذج الغربي. الإسلام شيء آخر.. تعاون.. تجميع.. سكن.. أدوار تتناسب مع الإمكانيات. "وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" (النساء: من الآية 32).

ونموذج الدعاة الجدد، وكذلك الوعظ، في حالة بناء.. تطور كثيراً فأصبح سلفياً، ومتخصصاً، وله عمق معرفي،.. يُعلّم من خلال الدورات والبرامج، ويتحدث من المسجد ويلتزم بالسمت الظاهر، ويقوم به شخصيات ذات وعي. فأصبح الوعظ علمياً وسلفياً وبعُد كثيراً عن القصص المكذوبة والأحاديث الموضوعة، وأقرب أكثر وأكثر من القرآن الكريم، واقترّب من الوعي بالواقع المعاصر.

وكاد هذا الإصدار الجديد من "الدعاة الجدد"، والذي ظهر بقوة بعد يوليو 2013م، أن يُخفي نموذج الدعاة الجدد القديم الذي تدرج منحدرًا من الشيخ ياسين رشدي والشيخ الدكتور عمر عبد الكافي إلى معز مسعود مرورًا بعمرو خالد ومصطفى حسني. ولكن هذا البناء هدمٌ في الحقيقة!!

حين ترتفع قليلاً وتنظر للمشهد من أعلى فستجد بوضوح أن هذه الظاهرة وإن كانت قد طوّرت ظاهرة الدعاة الجدد وطوّرت الوعظ فإنها كادت أن تخفي ظاهرة التأسيس الشرعي للعلوم وفرض واقع جديد يتطابق مع واقع الصحابة والتابعين.. هذا الذي حاوله السلفيون من مساجدهم ونشاطهم الاجتماعي (الخدمي) والبحثي (محاولة إنشاء مراكز أبحاث). وهي بهذا المعنى هدم.. وخطوة في سياق منحدر لحضور النموذج الإسلامي الحقيقي.

ويتأكد هذا الفهم حين تنظر للمشهد الأكبر المتعلق بظاهرة التدين عمومًا، سنجد أن هؤلاء يُزاحمون بأزهريين (التدين الرسمي) وصوفيين، وملاحدة.. نعم وملاحدة فالإلحاد المعاصر "مؤمن".. إبراهيمي.. يقدم تفسيرًا خاصًا للدين ولم يعد كما قد كان إلحادًا كليًا لا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومن شعاراتهم "مؤمنون بلا حدود".

إن نقطة القوة عند الدعاة الجدد تكمن في البرامج العملية... فصلاح حال الناس بتدابير عملية والوعظ وحده لا يكفي. ونقطة الضعف في تقديم الدعاة أشخاصهم وما هم فيه من زينة الحياة الدنيا كنموذج لمن آمن بالله ودعا إليه. وإن الإسلام.. وإن الرسل.. وإن الكتب لتعريف الناس برهم ليعبدو.. يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" (النحل: من الآية 37)، "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: 56).

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

لماذا لا يعلن الإخوان ومن وافقهم المراجعة والتراجع؟؟؟!

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

كان الفرد من كفار قريش يلقي النبي -صلى الله عليه وسلم- بوجهٍ طلق ويناديه بأفضل الأسماء (الصادق، الأمين)، أما حين يجتمع عددٌ من الكفار تنعكس الصورة تمامًا. يتناولون ويسبون الأدب. والسبب أن الفرد من عامة الناس يكون له عقلان: عقل فردي.. حين يكون وحده وعقل جمعي.. وهو بين الجموع من الناس. ولذا نصحهم الله بقوله: (قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًّى ثُمَّ اتَّفَكِرُوا). وفي وقت الأزمات يتحول النخبة المثقفة إلى عامة ويدخلون في العقل الجمعي. ولا ينجو من العقل الجمعي وقت الأزمات إلا خاصة المفكرين وقادة الرأي في المجتمع، أولئك الذين يصنعون الأزمة أو يفيدون منها.

بهذا المقولة النظرية- أو من خلال هذا المنظور-: (العقل الفردي والعقل الجمعي) نحاول قراءة الحالة الإسلامية في المشهد المصري بعد ثمان سنوات من المشاركة السياسية. ودعنا نشخص الحالة من خلال البحث عن إجابة لهذا السؤال: لماذا لا يعلن الإخوان ومن وافقهم المراجعة والتراجع؟!

بدايةً لماذا السؤال؟ ما هي المشكلة التي أفرزت هذا السؤال؟!

تكررت المراجعة والتراجع كثيرًا في الحالة الإسلامية. بشكل علني أو من خلال تحولات جذرية في المواقف والأفكار أو بدعوى تطور الفكرة. على مستوى الأفراد والجماعات. وفي جميع الاتجاهات: المسلحة، والسياسية، والدعوية الوعظية. بمعنى

(1) دكتورة في العلوم السياسية.

أنا نستطيع أن نقرر أن التحول وتغيير الأفكار والمواقف من أبرز ما يشاهده متأمل للحالة الإسلامية، في مصر وغير مصر. وعلى سبيل المثال: أعلن الأستاذ حسن البنا قبل وفاته - حسب رواية رفيقه الأستاذ فريد عبد الخالق في برنامج شاهد على العصر بقناة الجزيرة - أنه ينوي التحول إلى المسار التربوي وترك - أو تقليل - النهج السياسي، وحاول إخراج النظام الخاص؛ وسيد قطب حالة من التحول داخل سياق الإخوان (وليس تنظيم الإخوان)؛ وكذلك رفض الإخوان لنهج سيد قطب (مشهور نقد الشيخ القرضاوي والهضبي لسيد قطب) حالة من التحول أيضاً؛ والعمل المسلح الذي بدأ في الستينات يعد حالة من المراجعة والتراجع مقارنة بما سبقه؛ ورموز من طليعة الحالة الجهادية تخلوا بشكل فردي عن العمل المسلح والتزموا الجانب التربوي فانحصر خطابهم (مؤلفاتهم) في التربية والأسرة والرد على شبهات النصارى؛ وكذلك الجماعة الإسلامية تحولت من الحالة الدعوية للحالة القتالية ثم تحولت عن الحالة القتالية وانكفأت على نفسها ثم خرجت للمشاركة السياسية ثم تراجعت عن المشاركة والتزم عامتها الحياد في الصراع الحادث بعد 2013؛ والسلفية العلمية تروج موجاً وتتحرك من اليمين إلى اليسار، بداية من ظهور سلفية الاسكندرية وسلفية القاهرة في نهاية السبعينات كتطور داخل أنصار السنة، والقطبيون (الشيخ عبد المجيد الشاذلي وبعض الإخوان)، والجمامية بتشعباتها وغلبياتها [مراجعتها] الداخلي، وشيوخ الفضائيات وتقلباتهم في المواقف، ثم جيل المنتديات والإنترنت. وهذه كلها صور لتحولات أو استجابات لتحديات خارجية على مستوى الدولة أو الإقليم (وخاصة التمويل الخليجي) أو المستوى الدولي. وللأسف لم تلق هذه الظاهرة ما يناسبها من اهتمام بحثي رغم انتشارها ومحوريتها، ورغم أنها تُظهر طبيعة وأثر التحديات الخارجية والداخلية على الحالة الإسلامية، وتظهر واقع ومآلات الحالة الصحوية والتجديد في الأمة. ومع كثرة التحولات في الأفكار والمواقف ومع فداحة الثمن

الذي تدفعه الحالة الإسلامية بعد يوليو 2013، ومع اتعاظ الإسلاميين في تونس واليمن مما حدث في مصر ومبادرتهم للانسحاب مبكرًا إلا أن الإخوان المسلمين ومن وافقهم في مصر وقفوا مكانهم ولم يحدثوا تحولًا، فلماذا لا يتراجع الإخوان كما غيرهم، وكما فعلوا هم من قبل؟!!

يصعب تفسير الظواهر الاجتماعية (سياسية وغير سياسية) بمتغير واحد، فغالبًا ما يوجد متغير أساسي وعدد آخر من المتغيرات الداعمة له في إحداث الظاهرة محل البحث، ومنذ أربعة أعوام وأنا أحاول ترتيب أسباب صلابة قيادات الإخوان ورفاقهم على موقفهم بعد يوليو 2013 مع ما عرف عنهم من برجمانية. وكلما ظهر لي سبب أعدت النظر فيه مرة بعد مرة وقارنته بغيره حتى اهتديت إلى أن السبب الرئيسي لصلابة الموقف هو وجود من يتصل بهم ويثبتهم على موقفهم، فهي حالة من الثبات في المكان انتظارًا للحل من الخارج، وليست حالة من المقاومة الإيجابية التي تراعي السياق والإمكانات.

نعم هو ذا... أراه بوضوح كمتغير مستقل للظاهرة، وغيره من المتغيرات يتبعه ويخدمه!!

يظهر بوضوح أن في الخلفية من يؤثر في قرار الجماعة ويثبتها على البقاء في دائرة الصراع، بمعنى يوجد مستفيد من حالة الصراع المحدود الذي ينهك الجميع ويؤدي إلى إحداث تحولات جذرية.. داخل المجتمع وداخل الحالة الإسلامية نفسها في اتجاه العلمانية، على المدى القريب والمتوسط. وقد طبقت هذا المتغير في تفسير اعتصام رابعة العدوية في مقال سابق بعنوان (مذبحة رابعة أنقذت الإسلاميين) وأعتقد أنني وُفقت للتشخيص الصحيح. ويمكن دعم هذا الاستنتاج بحديثٍ عن سياق دولي وإقليمي يتعلق بإحداث تحولات في الأنظمة ومن ثم خريطة التفاهات أو التحالفات بين الدول في الإقليم والقوى العظمى من أجل السيطرة على مصادر الطاقة الجديدة

وخاصة الغاز وتحويل أوروبا من الاعتماد على الغاز الأوروبي للاعتماد على غاز جنوب المتوسط والخليج. ولولا أن المقام مقال لفصلت القول لتستين سبيل الغافلين. لو بقيت الحالة الإسلامية ضمن الإطار الدعوي الخدمي بعد يناير وظلت في الخلفية تدعم من يتبنى مطالبها من السياسة لتغير عمقها الاجتماعي (رأس المال الاجتماعي) واستطاعت تحريك المشهد من الخلفية ولو جزئياً وخاصة لو نبت في ساحتها نخبة تفيد من المتاح ضمن إطار الدولة القومية وتعالجها من داخلها (منهج إصلاحية). وكان هذا الخيار متاحاً جداً لو نشطوا لدراسة الحالة الجزائرية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وهي شديدة التشابه مع الحالة المصرية. وملخصها: حاولوا السيطرة كليةً ففُضِّروا، وأنكحوا، ثم أخرجوا من المشهد كليةً. حتى أنك لا ترى لهم حضوراً اليوم في الجيل الجديد الذي "يثور" على الظلم، وأعتقد أن من يهدد الإخوان ورفاقهم ويشتتهم على الصمود يهدف إلى أن يعطل حركة التجديد داخل جماعة الإخوان ذاتها... يفوت فرصة التصحيح من قريب كما فعل الأتراك بعد عشر أربكان.

وثمة أسباب أخرى تعزز هذا السبب وتدعمه، تجتمع - هذه الأسباب الفرعية - تحت مظلة العقل الجمعي الرافض للمراجعة والتراجع. ويساهم في تكوين العقل الجمعي أشياء منها: الذين بالخارج. فهؤلاء ضمن سياق إنهاك المجتمع وإنهاك الحالة الإسلامية بما يُقدم لهم من دعم محدود من الدول المستضيفة وبما يحصلون عليه من مصالح شخصية مالية وإعلامية. و، أيضاً، يفهم حضور هؤلاء في سياق التفاوض/التنافس بين الدول في الإقليم سواءً على الطاقة أو غير الطاقة (السوق الاستهلاكية، تجنّب الثورات...،) فهم يتلقون دعماً محدوداً لا يمكنهم من إحداث تغيير حقيقي وفي ذات الوقت لا يُهمَلون كليةً فينصرفون عن المعارضة. ويُزاحَمون بغيرهم من العلمانيين وحين تحين ساعة الصفر لإحداث تغيير جديد (ثورة) يتقدم العلمانيون الصف أو يدعون

أنهم كانوا مع الإسلاميين.. مُبعدين مشردين خارج الأوطان وندخل في دورة (ثورية) جديدة كالتى كانت في 2011، و1952، 1919، 1982، 1805، وغيرها من الدورات المكررة في عامة بلاد المسلمين. وتكون هذه الثورة الجديدة خصم جديد.. النحدر جديد، وقد شرحت هذا في مقالٍ آخر بعنوان (ثورة ... ثاني؟!)(1).

وبعض الذين بالخارج قد حيل بينه وبين الرجوع لمصر بما صدر ضده من أحكام قضائية، وفي ذات الوقت يخشى تغير الحال في الدولة التي يعيش فيها، ولذا أصبح خيار "الثورة" لا بديل عنه بالنسبة له. وبعضهم عاش لحظة تاريخية وجد فيها حضوراً ونفوذاً.. أو وضعاً يشتهيهِ ولم يحصل عليه من قبل (الحرية والأمان)، ولا يريد أن يرحل عن هذه اللحظة أو يريد أن يعود إليها ثانية، ولذا تجد كثيراً منهم يحتفظ بالألقاب التي حصل عليها في هذه الفترة مع أنها ألقاب علمانية يصفها هو في أدبياته بالكفر مثل: (نائب برلماني سابق، رئيس حزب...)، أو كيانات وهمية لم يعد لها حضور في أرض الواقع (جبهة، جماعة، حزب..). وبعضهم حدثت له مكاسب شخصية من المقاومة كوظيفة أو حضور إعلامي ويحافظ عليها. فهؤلاء في الحقيقة يدافعون عن قضية شخصية بالأساس تتعلق بتحصيل منافع أو دفع مضار. وللأسف لا أحد يفرق بين الصالح العام والمصلحة الشخصية، أو يحاول التوفيق بينهما فيجعل المصلحة الشخصية ضمن إطار المصلحة العامة ثم هو يقدم المصلحة الشخصية. وهذا حال المعارضة قديماً وحديثاً وقرأ عن تجربة عرابي ورفاقه في المنفى، وتجربة المعارضة الليبية في زمن القذافي (موجودة مفصلة في شهادة محمد المقريف في برنامج شاهد على العصر). وحين يتعارض قول وفعل فلا عبرة بأقوال كذبتها الأفعال. (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (البقرة: 8).

(1) نشر هذا المقال بعنوان: "ثورة ... ثاني؟!"، ونشر بعنوان: "من يثور ولصالح من؟"، ونشر بعنوان "ثورة

وأيضًا طبيعة التواصل اليوم تساعد على تشكيل العقل الجمعي، فالناس يلتقون في مواقع التواصل الاجتماعي بأسماء مستعارة ومن يبوّتهم ويحضر النساء بعواطفهم الثائرة وثنائهم الذي يبحث عنه كثيرون، ولذا تجد حالة من الهيجان رغبة في العودة ضمن لحظة تاريخية فارقتها الواقع.

لم آت على كل ما عندي، وإن شاء الله أرجع لأضيء على المشهد من زاوية أخرى.

د. محمد جلال القصاص

2019

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

معركة الرموز: ماذا يحدث؟! ١

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

قبل سنوات قليلة لم يكن أحد يثني على شيخ الإسلام ابن تيمية إلا السلفيون، وفي السنوات القليلة الماضية أصبح شيخ الإسلام محل ثناء العلمانيين والمتصوفة المعروفين برفضهم الشديد للتيار السلفي ورموزه وخاصة شيخ الإسلام (مثل يوسف زيدان في مصر)؛ وكذلك أصبح شيخ الإسلام ابن تيمية محل ثناء من يتوسطون الساحة الفكرية كالدكتور محمد عمارة. هل آمن هؤلاء بما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية؟!، أم ماذا يفعلون؟! يتلخص الموضوع - كما يبدو لي - في ثلاثة مشاهد: مشهد صغير، ومشهد وسط، ومشهد كبير، ودعنا نبدأ بالصغير نعرضه ثم نصعد منه لما هو أكبر، ثم نعود للصغير ثانية وننزل منه لواقعنا المعاصر ونحن نللم ما نثرناه من أفكار في هذا المقال:

المشهد الصغير: إعادة بناء العقل الإسلامي!!

يتمثل هذا المشهد في موجة فكرية بدأت من أعوام قليلة تحت شعار: إعادة بناء العقل العربي، وبدأت - فيما أعلم - من المغرب، من د. محمد عابد الجابري. وفي هذا السياق تصاعد حديث مفاده أن المشاهير في تراثنا الإسلامي تم قراءتهم بطريقة خاطئة. يقولون: الخلل يكمن في المعاصرين

(1) دكتورة في العلوم السياسية.

الذين يدعون الانتساب للسلف ويعلنون الاحتفاء بالرموز التاريخية الشهيرة كابن تيمية والناصر صلاح الدين؛ يقولون: لم يكن هؤلاء الرموز على الحال التي يراها من يحفلون بالتراث من المعاصرين. ولا أريد هنا مناقشة القراءة التي قدموها، وكيف أنها ظهرت كرمي الصبية الصغار للقطار السريع بأحجارٍ ترد عليهم ولا تؤذيه إلا قليلاً. فيوسف زيدان مثلاً يشكك في نسبة المجلدات الكبيرة الشهيرة لشيخ الإسلام مع أن نسبتها إليه منضبطة ومحققة بدقة عالية ومن علماء مختصين ومثبت ذلك في مقدمة كتبه، وقد عني الإسلاميون بعلم المخطوطات مثل غيرهم.

المشهد الوسط: السياسة والزمان:

يعكس هذا المشهد محاولة تأطير التراث الإسلامي بإطارين: سياسي وزماني. يدعون أن الفقهاء خضعوا للسلطان وتحدثوا بما يريد، مع أن الأئمة الأربعة كانوا أبعد ما يكون عن مولاة السلطان، فأبو حنيفة توفي في السجن، ومالك جلد وضرب لأنه لم يطاوع السلطان، والشافعي لم يقف بباب أحد، ومعارضة أحمد بن حنبل للسلطة تنير الأفق. وأشهر ما يتناقل عن الفقهاء هو البعد عن باب السلطان. وأشهر ما نفاخر به في نموذجنا الحضاري هو أن المجتمع كان مستقلاً بوظائفه ولا دخل للسلطان فيه فقد مكن الإسلام الناس من الأشياء كلية. واعترف بهذا أحد ألد أعداء الملة وهو برنارد لويس (في حوارٍ تلفزيوني منشور)، يقول: : أصغر ديكتاتور في الشرق الآن يتمتع بأضعاف أضعاف ما تمتع به أكبر خليفة في تاريخ المسلمين من سلطة.

وفكرة نسبة النص للزمن مضحكة، وذلك لأن النص كليات (نموذج معرفي/ مجموعة من القواعد الكلية المترابطة) تم صياغتها بناءً على فهم العالم المشاهد وما قبله وما بعده وما ينبغي فعله في الحياة. وهذه الكليات عندنا تشكلت بالوحي (القرآن والسنة)، وتشكلت عند غيرنا من تراكمات بشرية وتتطور لأن مصدرها بشري. ومن الكليات يتم استنباط الأحكام الفرعية، وهذه هي التي تتغير حسب الزمان والمكان. بمعنى تغير محدود. وهم يفعلون هذا في منظوراتهم السياسية والاجتماعية؛ فكل رموزهم ونظرياتهم-أو جلها- من الخلف.. من زمان غير الزمان ومكان غير المكان، فأرسطو وسقراط..؛ ونيتشه وديكارت وكانط.. ثم يطالبوننا بتطوير قواعدها تبعاً لفروعهم!!

المشهد الكبير: تفعيل المنافقين:

بعد أن يئس النصارى من استعادة الشام وشمال أفريقيا من المسلمين، غيروا استراتيجية المواجهة، وكان مما فعلوا أنهم أعادوا قراءة ما يتعلق بالإسلام (التراث الإسلامي): الشريعة الإسلامية والتاريخ ابتداءً من الجاهلية إلى التاريخ المعاصر والفقهاء، وكل ما يتعلق بالإسلام. وقدموا قراءة مغلوطة للإسلام على مستوى القواعد (النص كتاباً وسنة وسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، والراشدين) وعلى مستوى التطبيق (التاريخ والفقهاء). بدأ هذا الجهد من قرون طويلة ومستمر للآن.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ تسريب نصوص هذه الكتابات والمفاهيم الكلية التي تحتويها قراءتهم إلى نفرٍ من المنتسبين للإسلام، فظهرت أفكار الكافرين على ألسنة مسلمين، ومن أمثلة ذلك: كتابي قاسم

أمين (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)، وكتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم)، وعمامة كتابات طه حسين، وفكرة مدرسة الديوان والمدارس الأدبية التي جاءت بعدها كأبوللو، وفكرة العبقريات. كل ذلك كان قادمًا من النصارى العرب ومن المستشرقين بأشخاصهم أو كتاباتهم أو أفكارهم الرئيسية.

وفي مرحلة تالية عمد المستشرقون للنقل عن المتأثرين بهم من المسلمين. بمعنى يستدل الكافر ببضاعته هو التي نقلها عنه مسلمون، ويقدمها لعوام الكافرين في بلدانهم على أن هذا هو الإسلام بلسان المنتسبين إليه، ومن ثم استطاع أن يوصل لعوام الناس في بلدانهم أن الإسلام لا يخالف غيره من الأديان في شيء كبير، وبالتالي لا حاجة للانتقال من الكفر للإيمان، ثم في مرحلة تالية (نعيشها الآن) بدأ الحديث عن دين موحد للجميع!!

وثلاث ملاحظات تزيد هذا الاستنباط وضوحًا:

أولها: أن قضايانا بعد الاحتلال الغربي حادثة ومن جنس قضاياهم، فلم تناقش الأمة من قبل ما يعرف بـ (قضايا المرأة)، ولم يجادل أحد في (تحكيم الشريعة).. بل لم تظهر هذه القضايا أصلًا.

ثانيها: أننا لم نعد نؤثر في غير المسلمين، فالخطاب الذي ينقل للكافرين يسوي بين الكفر والإيمان في كثيرٍ من القضايا الرئيسية، كالموقف من الدولة القومية، والموقف مما يطلقون عليه (الحريات العامة)...

ثالثها: أن أي باحثٍ في شأن إسلامي لا يستطيع أن يتم بحثه بشكل جيد دون أن يستقي من مصادرهم.

إننا في ورطة حقيقية، ولا أجد نفسي مبالغاً حين أقول بأن تكوين الصحة الإسلامية ذاتها علماني: ومن أمارات ذلك أنهم يطالبون الدولة القومية بتطبيق الشريعة!!، وأنهم لا يمتلكون مشروعاً إسلامياً متكاملًا على مستوى النظريات الكلية (المنظورات) (المفاهيم الكلية).

وهكذا تبدو المشاهد الثلاثة: المشاهد الكبير (إعادة قراءة الشريعة كلها) يغذي الوسط (تأطير التراث بالسياسة والزمن)، وكلاهما يغذي الصغير الذي يستهدف إعادة قراءة الرموز والأحداث المعاصرة والتاريخية وصولاً لإعادة بناء العقل الإسلامي أو العربي كما يدعونه.

وأعود للمشهد الصغير لأشير إلى عدة أمور تشكل ميداناً للصراع الفكري يستطيع أن يشارك فيه كثيرون:

- ما يفعله الملحدون من إعادة قراءة التاريخ الإسلامي وتقديم رموز الزندقة على أنهم أعلام، مثل: ابن الرواندي، وابن الطفيل، وابن سينا...
- ما يفعله الملحدون من إعادة قراءة رموز العلمانية وتقديمها للناس في قالبٍ يحبه عوام المثقفين، فالآن بيننا من يدافع عن المعتوه نيتشه، واسبنوزا، وديكارت، وكانط. إي والله، ويحسب أنه ممن يحسنون صنعا!!
- محاولة ساذجة بالسير في الاتجاه العكسي وذلك بإعادة قراءة رموز العلمانية والادعاء أنهم لم يكونوا علمانيين، مثل سعد زغلول وطه حسين.. إلخ. وهذا الجهد ينتهي، في الغالب، بتلميع الرموز لا رفضهم. وهو تضييع للوقت والجهد، ومن شواهد التبعية في الأطر فخير منه عرض

بضاعتنا (الوحي كتابًا وسنة) غَضًّا طَرِيًّا، يَقُو اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ
 فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (النمل: 91-92).

أردت أن أبين مدى عمق واتساع المشهد الفكري في واقعنا المعاصر وعلى
 مدى القرون الماضية التي تأخرنا فيها عن ريادة البشرية، وأنا في غربة حقيقية
 عن قيمنا وأفكارنا، وأنهم الآن بعد أن أعادوا قراءة الشريعة الإسلامية وصدروا
 لنا قراءتهم هم بأدوات السلطة والمعرفة التي يتحكمون فيها بشكل مباشر أو
 غير مباشر، يحاولون محو الذاكرة التاريخية لهذه الأمة، وأخيرًا أدخلونا في
 معركة حول خاصة رموزنا، يقولون: لم يكونوا على الحال التي تعرفونها، وهم
 كاذبون، وفي ذات الوقت يخرجون من تحت ركام الأيام رموز الإلحاد
 وينشرون سيرتها وكفرها على الناس، فنحن أمام ساحة واسعة للمنازلة
 الفكرية في مستويات مختلفة.

محمد جلال القصاص

رمضان 1439

1 يونيو 2018

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وقفة مع المطالبين بثورة المسلحة

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يحتشد عدد من الأفكار حول الثورة المسلحة، بعضها يطل على المشهد بثوبٍ نقيٍّ عطرٍ هادئًا يحدثك بأنه لا بد من القتال لتغيير المشهد، وينثر على الحضور بعضًا من آيات الذكر الحكيم تدعو لقتال الظالمين ونصرة الله للمقاتلين في سبيله.

ويصعب النظر للقول دون قائله، ويصعب النظر للقول وقائله دون السياق الذي يقال فيه؛ فثلاثةٌ لا بد أن يحضروا سويًا: القول، والقائل، والسياق.

وفي هذا المقام (الدعوة للثورة المسلحة) لا أحسب أن أحدًا يعترض على أصل الفكرة، وهي قتال الظالمين حال القدرة على القتال، وذلك أن كل أمة تجادل وتقاتل. كل أمة تدعو إلى ما تعتقده وتحاول إزالة من يقف في وجهها بالقوة. قال الله تعالى ذكره: "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ" (غافر:5)؛ ولكن الخلاف في التطبيق.. في توصيف المناط واستدعاء ما يناسبه من أحكام.

في المشهد الثوري العربي لم يتبدئ الإسلاميون الثورة على الاستبداد؛ قد كانوا بين سلفين منعزلين لا يرون حلّ المشاركة السياسية أو لا يرون جدواها، أو جهاديين تراجعوا عن المواجهة، وإخوان يتحركون ضمن المتاح؛ فقط التحقوا بالثورة ودعموها حين بدأت واستقرت. والمشهد العام أن الإسلاميين يستدعون للمشهد، وخاصة حال الأزمات، ويكونون ضمن استراتيجيات أخرى تستهدف تنفيذ سياسات

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

خاصة بغيرهم. ولا يفهمها الإسلاميون إلا بعد أن تنتهي وتُفرض واقعًا [ينظر للكاتب مقال: هل نفهم ما يحدث؟]؛ وتكرر هذا الأمر في موجات الصحوة الخمسة في مصر: موجة الأفغاني وعبد، وموجة طنطاوي جوهرى ورشيد رضا ثم البناء، وموجة سيد قطب، وموجة شباب السبعينات، وموجة يناير 2011. وفي كل مرة: تكون أزمة اجتماعية أو سياسية خاصة بالدولة القومية، ويؤتى بالإسلاميين كحل للمشهد. يظنون أنهم يقدمون حلًا ثم تنكشف الأيام ويتضح أن غيرهم حلٌّ أزمته هو بهم.

فنحن أمام إرادة واعية. هي إرادة الآخر. وإرادة أخرى طيبة تريد الخير ولكنها منغمسة في التفاصيل ولا تحيط نخبتها علمًا بمشهد الصراع ككل (والكلام على المجموع لا على الجميع)، في هذا الإطار تأتي الدعوة للثورة المسلحة. يتم الدعوة للثورة المسلحة، مع أن التجارب المجاورة أوضحت أن الثورة المسلحة كالثورة السلمية تدخل في سياق آخر يفيد منه الآخر. وأن الحرب الداخلية يتحكم فيها من يمولها، وأنهم يستطيعون ملمة المشهد وفرض خيارهم السياسي في أيام معدودة. والواقع يشهد. وتجربة أفغانستان تشهد. وتجربة البوسنة والهرسك تشهد. وتجربة الجزائر تشهد. والتجارب الحالية في سوريا وليبيا والعراق واليمن. وتجارب القتال داخل المجتمعات الإسلامية والتي أعلنت كلها-أو جلها- المراجعة والتراجع تشهد!!

لماذا يطالبون إداً بالثورة المسلحة؟

يتضح الأمر أكثر حين ننظر لحال المطالبين بالثورة المسلحة، ومن خلال بعض المعالم في أشخاص هؤلاء الأفاضل نستطيع أن نقف على سبب المطالبة بالثورة المسلحة، ونضع أيدينا على تحولات غير محسوبة يصنعها هؤلاء الأفاضل من حيث لا يشعرون.

المعلم الأول: أن هؤلاء بالخارج، وليس فقط بالخارج. بل من أول من خرج من المشهد المصري بعد الانقلاب. حين تغير الحال بادروا بالخروج من مصر سريعاً مع أن إقصاء الإسلاميين أخذ وقتاً!!

المعلم الثاني، وهو الأهم: أنهم قبلُ لم يكونوا من المقاتلين ولا من المؤيدين لمن قاتل. بل كانوا ممن أقبل على العمل السياسي كلية!!

ومعلم ثالث: أن جلهم تعرض للاضطهاد والتعذيب فيما قبل يناير 2011 وحين قامت الثورة لم يتجه للقصاص ممن عذبه وعذب إخوانه، بل اندفع للسياسة وهو لا يعلم قواعد العمل السياسي جيداً ولا شيئاً عن مآلاته، ولم يجتهد في أن يتعلم أو يستنطق من تعلم؛ بل راح يمارس السياسة على القواعد التي وضعها العسكر (المجلس العسكري). اندفع للعمل السياسي تماماً كما يندفع الآن للمطالبة بالثورة المسلحة، ولم ينتبه إلى عديد من التجارب حوله فيها توظيف للثورة المسلحة سواء في الجزائر أو غير الجزائر.

لماذا يطالب هؤلاء غيرهم، وهم بالخارج، وهم ليسوا مقاتلين، ولا يستعدون للقتال؟

الإجابة - كما تبدو لي - لا تعدوا أن تكون تخلص من حالة لا يصبرون عليها، كالذين طالبوا بفرض القتال في مكة ثم حين فرض في المدينة لم يتحمسوا له (ألم تر إلى الذين قيل لهم كففوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أحزنتنا إلى أجل قريب) (النساء: 77). لم يتحملوا الصبر على الأذى وآلام القهر والاستضعاف وأرادوا دفع ذلك ولو بالقتال، ثم حين فرض عليهم القتال بعد أن ذهب الاستضعاف والقهر قعدوا.

المحزن في الأمر أن هذه النداءات تنطلق في ثوب تصحيح للمسار، حيث أن هؤلاء يشخصون الفشل في إدارة المشهد بعد يناير من قبل الإسلاميين في عدم تبني الخيار المسلح، يقولون حالة من الضعف في أخذ القرار، يقولون: حالة من الضعف في المواقف. وتظهر كتاباتهم في هيئة تسفيه للقيادات الدعوية؛ ولأن الكلام يرتدي ثوب الحماسة ويبدو شجاعاً، وليس شجاعاً حقيقة لأنه ينطلق من الخارج.

هكذا بكل بساطة وسطحية يشخص الخلل في ضعف شخصية القيادات مع أن هذه القيادات قدمت في تاريخها من الصمود والتحدي أكثر مما قدم عامة من ينتقدهم، ولا يمكن لمنصف أن يصفهم بضعف الشخصية، وإنما الخلل في أمور:

أولها: الوعي المنقوص عند من فشل وعند من يطالب بالثورة المسلحة كوسيلة لتصحيح المسار. أو بتعبير أدق: فقدان التخصصية.. فقدان الفرد الوظيفي، فنحن نمتلك أفراد يتحركون في التخصصات كلها، حيناً يعطون، وحيناً يفتون، وحيناً ساسة، وحيناً مصلحون اجتماعيون... الفرد الصحوي بلا تخصصية، ولذا يتحرك حسب المطلوب ويحاط به ثم يساق حيث لا يريد.

ثانيها: إهمال التحديات الخارجية والداخلية، وهذه التحديات الخارجية هي التي تجهض موجات الصحوة وتفيد منها في كل مرة. ويتضح حجم وشراسة الخارج من الدراسة التفصيلية المتعمقة للنظام الدولي وما فيه من فواعل وقضايا وهياكل، والنظم الداخلية بمؤسساتها ونخبها. وما يطرح عبارة عن عموميات لا ترقى لمستوى فهم ما يُفعل بنا، كمجتمعات وليس فقط حركات، فضلاً عن اتقائه والتغلب عليه. وخاصة أن هذه التحديات الدولية تتطور يوماً بعد يوم، وتفرغت لنا وأعلنت الحرب علينا فيما يسمى بالحرب العالمية على الإرهاب.

والسبب في إهمال التحديات الخارجية هو الانطلاق من مسلمة مفادها أن الإيمان وحده يكفي لنزول النصر، وأن وجود فئة مؤمنة ولو قليلة يكفي لغلبة الكفر ولو ملئ الأرض كلها، وإهمال أن ما يدعو إليه هؤلاء قد جُرب مرات وانكسر.

ثالثها: الاتجاه لتخطيء الأشخاص لا إعادة النظر في أدوات الفعل، كالجماعة والقتال المسلح والعمل السياسي على قواعد الديمقراطية، ومن ثم السعي للتعديل أو الابتكار.

إن المطالبين بثورة مسلحة لتصحيح المسار في مصر لا يقدمون حلاً، ولا يقدمون كشفًا لأسباب الانكسار الحقيقية. وإن الخلل يمكن حله بشيء واحد: إيجاد فرد متخصص.. إيجاد نخبة متخصصة في جميع المجالات.

محمد جلال القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

السلفيون بين النظرية والتطبيق: الموقف من عاصفة الحزم نموذجاً.

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

عند أنفسهم يظن السلفيون أنهم يمتلكون الحقيقة كاملةً، وأن السلفية، هي التصور الصحيح للإسلام، وإن سلمنا جدلاً بما يزعمون. إن قلنا أن السلفية هي الإسلام في مراحلها الأولى مع أن الاختلاف في الاسم يدل على الاختلاف في المسمى، فقد سمى الله عباده المسلمين ﴿هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾. فإن في التطبيق انحرافات قد تخرج المنتسبين للسلفية عن مظللتها النظرية الشاملة الكاملة المطابقة للإسلام؛ ودعنا نأخذ موقف السلفيين في السعودية من عاصفة الحزم نموذجاً.

يصطف السلفيون في السعودية مع "عاصفة الحزم"، والخطاب السلفي في جملته مشجع للنظام الحاكم، يرى أنه يجاهد في سبيل الله، يرى أن النظام يعلي راية السنة على راية البدعة والردة (الحوثيين في اليمن). مع أن خطاب الدولة لم يتعامل مع الشيعة (في إيران أو اليمن) من منظور طائفي، ولا يكاد يوجد مستوى "أمة" في الخطاب أو الفعل الصادر من أي نظام عربي؛ لا "أمة" عربية ولا أمة إسلامية، فقط دول قومية تبحث عن مصالحها. بل أنظمة تبحث عن مصالحها.

وإن النظرة الأعمق تبين أن الدول القومية جزء لا يتجزأ من المنظومة الغربية التي تحكم العالم، فهي الصيغة التي فرضها المنتصرون في الحرب العالمية الثانية على العالم أجمع، وتعمل هذه الدول كمجموعات وظيفية عند الكتلة الغربية الليبرالية الرأسمالية بقيادة أمريكا. بمعنى أن الخطاب السلفي في طريق والدولة من طريقٍ آخر وإلى طريقٍ آخر.

(1) دكتورة في العلوم السياسية

ويتأكد هذا الأمر بطرح سؤال الصراع بأبعاده الستة (قضاياها، أطرافه، مساحة انتشاره، شدته، أدواته، وطرق تسويته إن ثمة تسوية)، وخاصة قضايا الصراع: ما هي قضايا صراع؟، هل الأنظمة الحاكمة التي يصطف خلفها السلفيون تحارب نصرة للدين؟، أو دفاعاً عن السنة النبوية المطهرة؟، ودعنا نخصص بمثال حتى يتضح المقال: ما طبيعة عداوة الأنظمة الحاكمة لإيران!؟

القضية عند إيران قومية وتستخدم الدين (الرفض / التشيع) أداة لإقامة مشروع قومي فارسي، والقضية عند النظام في السعودية وباقي الدول القومية تتعلق بالبقاء في الحكم مدة أطول، ويستخدمون الدين وسيلة للدفاع عن أنظمتهم، فالدين عند إيران والأنظمة العربية تابع، وأداة في الفعل وليس فاعلاً أو مفعولاً لأجله. وفي كل مكان من أرض المسلمين شاهد على ذلك، وهذه إشارات لبعض الشواهد:

في العراق: توافقت الأنظمة العربية وإيران مع الغرب على تخريب العراق وتمكين الروافض منه، والتخريب اتجه بالأساس إلى مقدرات الأمة.. لا إلى الأنظمة المستبدة فقط. فقد كانت الأنظمة المستبدة تدعم وهي تتعدى على العباد والبلاد (أذكر محاضرة سمعتها للشيخ سفر الحوالي في التسعينات ذكر فيها هذا الأمر، ونبه على أن علينا أن نشترط على من نعاونهم بالمال في الدول المجاورة أن ينصروا السنة وأهلها ثمناً لمعونتهم، ولكن النظام لم يهتم .. ولم يقدم على مجرد المطالبة مع شيوع الاضطهاد لأهل السنة في السجون والحياة العامة).

وفي اليمن أمارات أخرى على أن الدين تابع وليس أصلاً عند الأنظمة العربية التي يصطف خلفها جزء كبير من السلفيين وخاصة في السعودية؛ بل على أن خوفهم من الإسلاميين أشد من خوفهم من غيرهم، من هذه الإمارات:

- تصدي الأنظمة الملكية الخليجية لثورة الشباب والتي كانت إسلامية الهوى أو تفسح المجال للإسلاميين بما تقدمه من حريات، تصدوا لها وصادروها ومكنوا للقديم في شكلٍ جديد.

- دعمهم للحوثيين، أو سكوتهم عنهم مع أن الحوثيين جاهروهم بالعداء وقتلواهم من قبل، كل ذلك خوفاً من سيطرة الإسلاميين على الحكم في اليمن. ولا ترحل من هنا قبل أن تدقق النظر في أن العداء لبعض طوائف أهل السنة - وليسوا هنا جماعات مقاتلة بل جماعات إصلاحية سلمية ظاهراً وباطناً - أشد من العداء للروافض. وستعود عليك ذات الملاحظة في كل دولة مسلمة: العداء لبعض أهل السنة أشد من العداء للروافض والعلمانيين.

- تجاهلهم التام لتجمع الإصلاح في اليمن (تحالف وطني بقيادة الإخوان)، وأيضاً رفضهم تسليح أهل السنة في اليمن وتدريبهم، وهو الحل الأنجع والأدوم، وهو ما فعلته وتفعله إيران مع أوليائها في اليمن والشام والعراق، مما يشي بأن المراد تكسير اليمن كدولة كما فعلوا بالعراق والشام من قبل، حتى لا يخرج منه سني ولا شيعي يزعج ملكهم.

وفي مصر ساعدوا المستبدين في التصدي للنفرة الشعبية، وكالعراق واليمن اتجه الفعل لإضعاف الأمة. وليس فقط من خرج من بينها يطالب بشيء من الحرية.

ماذا يريد السلفيون؟

الأنظمة في غاية الوضوح، تبحث عن الحكم وتقاتل عليه، والسلفيون ماذا يريدون؟!

ذات الشيء، قصدوا ذلك أم لم يقصدوه، يريدون الحكم، أو ما يسمى في أدبياتهم: تطبيق الشريعة، فالمنافسة في حقيقتها بينهم وبين الأنظمة القائمة على

من يحكم، الأنظمة بأهوائها، أم الله - سبحانه وتعالى وعز وجل - بما أنزل من أحكام في كتابه وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم -؟ فهل يلتقيان؟! الأمر أبعد من هذا وأعمق!!

الأنظمة العربية لا تقف وحدها تبحث عن الحكم، وإنما لها سياق دولي هو الذي أفرزها، وهو الذي يضبط حركتها، ويوظفها، فهي كالأجير عنده، والنظام العالمي الحالي حضارة ترفضنا إلا تابعين لها، إلا جزءاً منها.

وعلى مستوى الحدث فإن النظام العالمي يعيد ترتيب أوراقه في إطار تطور طبعي يحدث في العالم بعد صعود قوى عالمية في الشرق. إنهم يدمرون المنطقة ويسلمونها لشرطي جديد، لتدخل في دورة تاريخية جديدة، ويتفرغون للتصدي للقوى الصاعدة في الشرق (الصين). وقيادة النظام العالمي القائم في هذا كله "راجون": يبيعون السلاح ويأخذون المواد الخام بثمن بخس دراهم معدوات، ويغرسون ثقافتهم، ويبيعون بضائعهم، ويستعد لقتال الصين على أرض المسلمين وبأموال المسلمين، وأجساد المسلمين (جنود وغير جنود ممن يتأذون من الحرب وما بعدها)؛ ومقدرات الأجيال القادمة من أبناء المسلمين. والقوم أصحاب رؤية بعيدة وبدائلهم كثيرة، وأدواتهم أكثر. والخطة: تخريب ثم إعادة "بناء" وفق نموذجهم الحضاري. وفي التفاصيل يسعون إلى تقسيم الدول الإسلامية وغير الإسلامية إلى دويلات صغيرة. يحاولون إضعاف الجميع ليقوا هم "سادة". وفي هذا السياق تستخدم ورقة "نصرة الدين والمتدينين" لعلمهم بأنها تخيف الغرب، وضمناً يقال: "إما نحن وإما الإرهاب". فهذا مكان الإسلاميين في الحدث. أحد أدوات الفعل، وليسوا فاعلاً حقيقياً.

هل يضحك السلفيون على الأنظمة الحاكمة؟

التيارات السلفية تمتلك تصورات مثالية ويريدون فرضها على الواقع بدون الأدوات اللازمة لذلك، وأول هذه الأدوات الرؤية المعرفية المتناسكة لما يواجهون من تحديات

تحول بينهم وبين مشروعهم، بل تؤثر في فكرهم هم، وصناعة نخبة تتمثل هذه الرؤية في نفسها وتعالج المجتمع لتشييد واقع يتوافق وقيمهم.

يظن السلفيون أن بتقربهم للأنظمة الحاكمة في الملمات سيحققون تطبيق الشريعة، أو سترضى الأنظمة الحاكمة بهم وبمذهبهم وتعطيهم ما في يدها... وتعطيهم ما تقاتل عليه. والأنظمة تفهمهم جيداً، وترحف عليهم، تأكل من جسدكم كل يوم قسمة، تخادعهم وتستعملهم، وتتحرك بالمجتمع بعيداً عن أهداف السلفيين. وقد خلت من قبلهم المثالات في مصر حين تقرب شيوخ الفضائيات ثم شيوخ الانقلاب ولم ينفعهم. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾.

قد تكون البرجماتية مرحلة.. وقد تكون المهادنة ودعم أقرب الخصمين مرحلة، على أن نعي جيداً أننا غيرهم، وأنهم لا يريدوننا، وأنهم يخربون بيوت المسلمين، ولا بد للعقل من حزم.

محمد جلال القصاص

15 / رجب / 1436 . 2015 / 5 / 3

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
صناعة الفوضى بين الجهاديين والأمريكان

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

في مشهد السياسة الدولية فريقان متقابلان. يرفض كل واحدٍ منهما الآخر. بل يحاول كل واحدٍ منهما إزاحة الآخر. هما الحركات الجهادية والغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وحين تضع واقع هذين المختلفين المتصارعين أمامك وتتأمل فيه تجد أنهما يلتقيان على أشياء أهمها صناعة الفوضى.. كلاهما يحرص على صناعة الفوضى.. كلاهما يبدأ تطبيق نموذج المعرفي من الخراب، فكيف شكّلت الفوضى مشتركًا بين المختلفين!؟

خرجت الحركات الجهادية- من رحم الحركات الدعوية الإحيائية، خرجت تتعجل التغيير عن طريق الانقلاب العسكري على الأنظمة السياسية. حُيل إلى الشباب الذين أسسوا هذا النمط من الحركات الإسلامية أن الانقلاب العسكري هو أسرع الطرق لاستئناف الحياة الإسلامية من جديد. قفزت إليهم الفكرة من الواقع الذي نبثوا فيه، فقد كانت الانقلابات العسكرية كثيرة وفي كل مكان وأحدثت تغيرات جذرية بالفعل (التحول من الملكية إلى الجمهورية)، ولكنهم لم يفتنوا إلى أنها كانت أدوات بيد المخالف لتغيير مجتمعاتنا لتتوافق مع (السيد) الجديد للعالم بعد الحرب الثانية؛ ثم قفزت إليهم فكرة التغيير عن طريق الثورات الشعبية، وذلك بعد المظاهرات الشعبية والطلابية في السودان ومصر (بعد هزيمة 1967م) والمغرب وغيرهم، فحدث جدال داخلي بينهم حول تبني الثورة الشعبية كأداة للوصول للحكم. مع أنه لم يكن لهم حضور جماهيري، ولم تكن الحركات الجماهيرية قد قامت بتغيير من قبل في مجتمعات الدول الإسلامية، ولكن أحدهم (يحي هاشم) أعجبته الفكرة فتبناها سريعًا

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

ونزل يشارك الطلاب والعمال، وجلهم (أي الثائرين من العمال والطلاب) يومها اشتراكيون، يظن أن مجرد مشاركته هو وأفراد على نفس مبدئه يكفي لتحريك الجماهير تجاه هدفه هو!!

وبعد تبني هذه الوسيلة الجديدة دبَّ خلاف فقهي بين طليعة الجهاديين فخطأً-أو كُفّر- بعضهم بعضاً وتشتتوا على خلفية: يجوز أو لا يجوز.. تشتتوا على فتوى فقهية من شبابٍ مثلهم!!

ثم ظهرت فكرة أخرى هي حرب العصابات، قادمةً من الصين (ماو) وفيتنام (ضد الفرنسيين وضد الأمريكان) ومن قبلهم المغرب العربي (محمد محمد عبد الكريم خطابي ضد الأسبان)، وتبناها أحد الشباب الذين نادوا بالثورة الجماهيرية قبل أيام. جَمَعَ عشراً أو عشرين من أقرانه، واعتزلوا في جبال الصعيد لبيدؤوا الزحف على "الجاهلية"، وانتهوا قبل أن يتحركوا من مكانهم.. قَضَى عليهم أول من عرف بهم.

ثم قفزت فكرة العزلة وبناء مجتمع في الخلاء (الخطاطبة أو جبال أبي قرقاص بالصعيد أو جبل الحلال بسيناء) من "جماعة المؤمنين"، والنمو ومن ثم الزحف على المجتمع "الجاهلي" ومناطقته وقضمه ثم هضمه!!

وفي التجارب كلها تفرقوا بعد أيام. عادوا أدراجهم إلى القرى والحواري مرةً ثانية.. كلها كانت أفكار شباب حدثاء الأسنان.. من وحي الواقع. وكلها- في اللاوعي- كانت تحاكي الدولة القومية.. ظنوا أن بإمكانهم استخدام أدوات الدولة القومية (الانقلابات العسكرية، الثورة الشعبية، حرب العصابات...). وكل فكرة خرجت من رأس شاب حدث السن لم يدرس ولم يتدرب ولم يمارس، وإنما هكذا: يمتلئ حماسة ويجد نفسه بين متحمسين ثم يندفع بمن وافقه للتطبيق، ولا يفיק إلا هناك بعد خسارة جيل. والعجيب أن الذين جاءوا من بعدهم ظنوا أن الخلل في الأشخاص.. ظنوا أن الخلل في عدم القدرة على التطبيق لا في ذات الفكرة فيحاولون مرة بعد مرة ، وكل من يحاول يهزم.. كأنما يقدمون أنفسهم لآتون الغرب المستعمر!!

كل التجارب تعثرت.. وكل التجارب فشلت، وكل التجارب لم تتعرض للدراسة النقدية؛ بل وقف على باب كل تجربة من يجرسها من النقد، من يرفع لافتة التضحية والبذل في وجه من يحاول دراسة التجربة والبحث عن أسباب تعثرها وفشلها. مع أن أول ما فعل بعد هزيمة أحد كان طرح سؤال يبحث عن أسباب الفشل: {أَوْلَمَّا أَصَابْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أِنِّي هَذَا} [آل عمران:165]. وإن إرادة الخير قد تدفع العقوبة أو تقللها. بل قد يؤدي المرء على الخطأ إن أراد صواباً وتحري ثم أخطأ. إلا أن حسن النية لا يصحح الخطأ. وكلنا يحفظ ويردد قول ابن مسعود-رضي الله عنه-: (كم من مریدٍ للخير لا يبلغه). وما يحدث الآن هو أن الخطأ يمرر بدعوى إخلاص من أخطأ!!

كل التجارب في الموجة الأولى قمعت من الأنظمة، فنبت في عقل الجهاديين أن البيئة الأصحح لإقامة الخلافة هي تلك التي بلا نظام سياسي.. تلك التي يسود فيها الفوضى، أو التوحش كما يُعبرون في أدبياتهم. ودعم هذا الفهم أن النماذج الجهادية التي تمددت هي تلك التي اعشوشبت في ظل فوضى سياسية.. حيث لا نظام سياسي، وأن يداً واحدة هي التي قلعت شجرتهم في كل مكان.. هي يد الأنظمة المستبدة، سواءً من ذات الدولة أو من دول الجوار (أثيوبيا وكينيا).

بدأ العقل الجهادي يقفز إلى فكرة جديدة من وحي الواقع لا من بنات التأمل والتدبر والدراسة النقدية، ولا من نماذج الفعل النبوي، وهي فكرة إدارة الفوضى (التوحش)، وخرجت التنظيرات الجهادية للحديث عن وجوب الوصول إلى (الفوضى/التوحش) كنقطة انطلاق للخلافة الراشدة. وربما كان هذا هو سبب مسارعتهم للمشاركة في "الربيع العربي" ظنوها الفوضى. وفي حب الفوضى والسعي لإحداثها.. التقى المتصارعان.. الجهاديون والغرب بقيادة الأمريكان!!

النظام الغربي أيضاً يسعى للفوضى في مجتمعات الجنوب (المجتمعات الجديدة التي يحاول إعادة هيكلتها لتوافقه). فالفوضى عنده ضرورة لإعادة البناء). وذلك أن الأنظمة السياسية كي يتم تغييرها تغييراً جذرياً لا بد من هدم القديم وإعادة البناء،

التطوير من الداخل لا بد أن يمر بمرحلة تكسير القديم بما يسمى (ثورة) أو بانقلاب عسكري أو تدخل خارجي مسلح. فالقديم يمسك بيديه في الحكم ولا بد من نزع الحكم، أو نزع الحكم منه بقوة ما. وهذا النزاع يُحدث فوضى مؤقتة، كما حدث بعد الربيع العربي. فلو وجد ناهيون بعددٍ كافٍ لاستطاعوا الحيلولة دون تمكن الجديد. ولكن القوة قوة أدوات، وفي مقدمة الأدوات الوعي الصحيح.

كيف التقى المتصارعان في ساحة الفوضى؟!

باختصار صنع الثاني (الأمريكان ومن خلفهم) بالأول (الجهاديين ومن تحمس معهم) الفوضى، في العراق والشام واليمن وليبيا والجزائر والصومال، ثم جاءوا خلفهم يعيدون هيكله المجتمعات من جديد، وانتهى مشهد الفوضى بتحويلات جذرية لصالح الأمريكان ومن خلفهم. فهل يتعظ "الجهاديون" وغير "الجهاديين"؟ هل يخرجون من المشهد ويقفون على سلاسل الفشل التي مروا بها جيلاً بعد جيل ويقولون بقول الأول: أنى هذا؟! أم يندفعون مرة أخرى لتجربة فاشلة من وحي الواقع.. أو بالأحرى من وحي عدوهم!!؟

الإحساس بالظلم والقهر والغيرة على حرمة الله لا يكفي وحده لتصويب الفعل، وفي تراثنا فصل للصالحين عن المصلحين، فبعض ساداتنا من السلف كان يُستسقى بوجهه الغمام ويرجى بدعائه مدد الله من فوق سبع سماوات ولكنهم لم يكونوا يقبلون حديثه ولا يقدمونه لقيادة أو قضاء. والتكليف الشرعي يقع على القصد للفعل لا على ما وراء القصد من إرادة الثواب. فمن قصد فعل شيء وفعله أتاه الوصف الشرعي علم بالعقوبة أم لم يعلم. ومناطق الحكم في الدنيا غير مناط الانتفاع في الآخرة.

محمد جلال القصاص

5 جمادى الآخرة 1440

الأحد 10 فبراير 2019

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هل انتصر الطالبان على الأمريكان؟!!

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

حالة من الاحتفاء بالمفاوضات بين الطالبان والأمريكان. يقولون: انهزم الأمريكان أمام الأفغان كما انهزم الإنجليز وكما انهزم السوفيت، فهل حقًا انتصر الطالبان على الغرب بقيادة الولايات المتحدة؟!، وهل حقًا انتصر الأفغان من قبل على الإنجليز والسوفيت؟!!

مَنْ يُقِيمُ الصراع على مستوى معركة عسكرية.. مَنْ يجعل الصراع هو القتال المسلح في فترة زمنية محددة.. مَنْ يرى أن الثبات على المبادئ في وجه المخالف وخاصة حين يكون قويًا شديد البأس كالغرب بقيادة الولايات المتحدة نصرًا، حتمًا سيقول: انتصر الطالبان. وأنا مع هؤلاء أفاخر بأيام الأفغان في وجه الإنجليز والسوفيت والأمريكان، وأرى أن الموت على المبدء نصر مبين. ولكن: هل يجوز لنا أن نقيم الصراع على مستوى معركة؟!، هل يصح لنا أن نصور مشهد الانتصار في القتال المسلح ثم لا نتحدث عما بعد المعركة؟!، ثم: لماذا يحدث هذا الخلل في التقييم؟!، لماذا لا نطرح سؤال التمكين وهو هدفنا الذي نتحدث عنه ليل نهار؟!!

لم يكن الصراع مع المخالف يومًا صراعًا مسلحًا فقط، فكل أمة تجادل وتقاتل، بمعنى أن الحق والباطل يلتقيان في ساحة الجدل وساحة القتال. كما أخبر العليم الخبير، سبحانه وتعالى: (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ)، والذين يجادلون هم الذين يقاتلون، والأصل هو الجدل ويأتي القتال كفعل

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

مؤقت لإزاحة من لا يجدي معه بيان.. من يضل الناس بغير حق. وللأسف هذا ما يفعله المخالف بنا، يطور المجتمعات الإسلامية بأدواته الثقافية لتتبني قيم العلمانية منهجًا للحياة، ويأتي القتال في سياق إزاحة الذين يعارضون العلمنة وأهلها. بمعنى أننا فقط نقاوم، ومقاومتنا لا تجدي أكثر من تأخير التطوير، والواقع أن تطوير الغرب لواقع الدول الإسلامية يتمكن منا يومًا بعد يوم، وأمانة ذلك في حال المجتمعات الإسلامية والتي تتبنى قيم العلمانية منهجًا للحياة يومًا بعد يوم: في السلطة (الحكم) في الشارع، في البيوت...

حين انهزم الإنجليز في مطلع القرن العشرين من الأفغان لم يحدث تمكين للدين بعدها، وكذا حين انهزم السوفيت، بل عاد الكفر من طريق آخر وتمكن من رقاب العباد والبلاد، أو على الأقل حال دون تمكن القيم الإسلامية من واقع الناس، بل استطاع أن يعرقل الذين رفضوا قيم العلمانية من صناعة واقع جديد.. حال بينهم وبين حضور قيمهم واقعًا. كما حدث بين المجاهدين الأفغان بعد رحيل السوفيت، وكما حدث في التجربة السودانية.

بوضوح تام: الخلل عند من يقيم الصراع بمعركة. الخلل عند من يقف عند المستوى التكتيكي ولا يرقى للمستوى الاستراتيجي (استراتيجية أو سياسات عليا). الخلل عند من يغفل عن أبعاد الصراع المتشعبة وقيمه على بعدٍ واحدٍ فقط، ولا يريد أن يجهد نفسه في التعلم، ثم هو يخدّر الناس بحديثٍ عن انتصارات جزئية والمحصلة هزيمة نكراء للأمة وسير بها في ركاب عدوها.

وفي المشهد الذي نراه الآن قراءة أخرى لعقلية الذين يبشرون بالنصر المبين من خلال المفاوضات مع الطالبان. هذه العقلية- إن أحسنّا الظن بها- تبحث عن أي شيء تبث به الحماسة في صدور الناس، وتحاول رفع حالة الاكتئاب التي حلت بالجميع بعد أن غلبوا، وهذا لا ينفع، فالناس تفهم بعد حين ويصابون بمزيدٍ من الإحباط. فالأمريكان لا ينسحبون، وإنما يسلمون أجندهم لمن يقدر على تنفيذها حتى وإن

كان "مجاهدًا"، يقاتلون بيد غيرهم، ويبحثون الآن عن أمان على الأرض لمد خطوط الغاز، ولا يمانعون من ترك بعض التنزلات للحلفاء مؤقتًا، وإن كانت تنازلات دينية، كما حدث في نموذج التحالف السعودي الوهابي من قبل، ثم يستخدم هذا التدين في صنع صراع والاستثمار فيه داخل الحالة الإسلامية. ولك أن تلاحظ حضورهم في المشهد الأفغاني من خلال حضور الدواعش على أطراف طالبان، ومطالبة الطالبان بالتزام موقف وطني (أفغاني) والتبرؤ من الجهاد العالمي (القاعدة)، بمعنى أن يكتفي الطالبان بدولة قومية.. وهو نوع دخول تحت مظلة العلمانية العالمية، ولن يرحلوا سيبقوا في المشهد يديرون صراعًا بين حلفاء وأعداء محليين لإنهاك الجميع ثم يظهرون ويفرضون رؤيتهم على الجميع، تمامًا كما فعلوا في العراق فقد أعلنوا الانسحاب من قبل، وحقيقة لم ينسحبوا ولم ينتصر غيرهم، وكما يفعلون في الشام واليمن...

الدرس يتلى من كل مكان ولا نريد أن نتعلم...!!

لست متشائمًا، وليس لي أن أكون متشائمًا، فقد قضى الله أن الغلبة للمؤمنين في الدنيا قبل الآخرة (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر: 81)، (كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (المجادلة: 21). ولكننا أمرنا بإحسان العمل، وما يحدث هو نوع هروب وتسطيح للأمر، ولذا لا نتعلم الدرس، ولذا نعيش حالة من الوهم. ولا نريد أن نفيق.

المعركة في صلبها حول تحويل المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات علمانية.. حول استعباد الناس لنخبة المال والسلطة (الأوليغارشية)، والقتال المسلح مرحلة مؤقتة، وهم يستخدمون أسلوب الكر والفر، والسياق العام لصالحهم، وليس بيننا من يمتلك رؤية لصراع ممتد مع الغرب.. أو بيننا ولا أراه.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الذين حول الطيب رجب أردوغان

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

كل ذي بال من الناس، أو من الأحداث، تتضارب حوله الآراء. فريق يؤيد وفريق يعارض. وليس لك أن تصطف مع المؤيدين أو المعارضين دون أن تتدبر حالهم. قد يكون الوقوف بجانب المؤيدين أو المعارضين مضيعة لوقتك وجهدك. قد يكون الخير في أن تدور حولهم وتتعلم من حالهم ثم تنصرف عن المشهد لا تأخذ منه غير عبرة وعظة.

الطيب رجب أردوغان من هؤلاء الذين احتشد الناس حولهم مؤيدين ومعارضين، وأنا ممن يدور حول المشهد يتعلم منه.. لا حظ لي فيه إلا التعلم من حال الطيب رجب والذين حوله مؤيدين ومعارضين، وهأنذا أتلو عليك بعض ما فهمت مما شاهدت:

بعض الواقفين حول الطيب رجب يستنكرون بقوة ما يقول ويفعل، ويرون أنه نموذج وظيفي كما غيره من زعماء العالم الإسلامي فيما بعد (سايكس-بيكو)، فهو - عند هؤلاء - علماني وموظف عند الغرب أعطوه أجندة ينفذها، ولم يخدم الدين بل فعل ما يفعله الكافرون (التنمية الاقتصادية)!!

ودعك من التفاصيل.. تعالى معي نقف خلف الذي يتحدث وننظر من أين أتى بكلامه هذا؟ فكل يغرف من وعاءٍ داخلي.. كل له منظور يتحكم في أفكاره ومعتقداته ومن ثم سلوكه وتصرفاته.

(1) دكتورة في العلوم السياسية.

يبدو لي بوضوح تام أن الخلل في طريقة الاقتراب من الظاهرة السياسية (أداة التحليل)، هؤلاء يستخدمون أداتين (اقترايين) من أدوات التحليل-بقصد أو بدون قصد-: أداة المدخلات والمخرجات، وأداة النموذج.

المدخلات (الدعم والطلبات)، والمخرجات (القرارات والسياسات)، والبيئة (الداخلية والمحيطية والخارجية)، والتعذية الاسترجاعية هي مقولات أحد أشهر نماذج التحليل في علم السياسة، ويسمى التحليل النظمي أو اقتراب ديفيد إيستون، والتحليل بهذه الطريقة لها عيب خطير، هو أنه يحلل شيئاً ثابتاً، أو يثبت مشهداً ويحلله، ولا يراعي عملية التطور التي تحدث في الواقع (واقع النظم أو النخبة أو المؤسسات أو المجتمع). وهو ما يحدث مع الطيب رجب، فحين يطفو ذكره على مسرح الأحداث يأتيون إليه مسرعين ويأخذون "لقطة" لتحليلها، ويستدعون لقطات أخرى ثابتة من الماضي بشكل انتقائي يدعمون بها فهمهم. يقولون: صديق لإسرائيل، وشارك في احتلال العراق، ويقمع الحريات، ويؤقى على بيوت الدعارة.. إلخ!!

ويقولون: النجاح الاقتصادي ليس أمانة صحة في الإيمان فالكل يفعله: المؤمن والكافر. وأمانة الصحة عندهم تحقيق التوحيد كليةً حسب رؤيتهم هم. النجاح عندهم أن يحول أوردغان المشهد كليةً، ومرةً واحدة، إلى حال النبي-صلى الله عليه وسلم- وأصحابه-رضوان الله عليهم- يوم حجة الوداع!!

ويتوطن هذا الخلل من استخدام أداة ثانية في التحليل، هي أداة النموذج. فيستدعون بشكل انتقائي نموذجاً يناسب فهمهم ويفسرون به اللقطة التي أخذوها. وفي الغالب يكون هذا النموذج مقتضب ولا يصلح لتفسير الظاهرة التي أمامهم كليةً. فيقولون: سبق أوردغان رئيساً آخر أظهر الإيمان ثم تبين أنه عميل-حسب قولهم-، فيستدعون حال السادات لتفسير حال أوردغان، وشتان شتان. ويقولون: إن كان قد نجح في إصلاح حال الناس (الاقتصاد والتعليم) فقد نجح قوم آخرون

من غير المسلمين، وكأن خدمة الناس ليست من مقاصد الدين آمنوا أم كفروا، وكأن الأنبياء لم يأمرؤا الكافرين من قومهم بأن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ولا ينقصوا المكيال والميزان، وكأن النبي-صلى الله عليه وسلم- لم يسع في مساعدة مَنْ أخذ أبو جهل ماله بغير حق دون أن يعرض عليه الدعوة أو يعرّفه بنفسه. وكأن مال الزكاة لم يبذل بسخاء لمن لم يؤمن من سادة القوم، وهو مهزوم مكسور في حكم الأسير، تأليفاً لقلبه!!

هذا الانتقاء في أدوات التحليل يخدم-بقصد أو بدون قصد- رؤية مسبقة لدى الذي يحلل، بمعنى أنه يريد الوصول إلى شيء معين ويستخدم أدوات محددة من أجل الوصول إليه، فماذا يريدون!!؟

في جملة واحدة: يريدون صفاء المشهد كلبيةً، يريدون زوال الشر وأهله دفعةً واحدة. وهي حالة من قلة الوعي بالنموذج الإسلامي فالترج سمة الجماعة المؤمنة، يقول الله- تعالى ذكره- في وصف المؤمنين: (كَزَرَ عَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) (محمد:29). وهكذا كان النموذج الأول: دعوة سرية فردية، ثم تدرج قبل الهجرة، وبعدها تدرج في توسيع دائرة الصراع إلى مرحلة الحديبية، ثم ما بعد الحديبية للفتح، ثم ما بعد الفتح. وبقي النموذج الأول معروضاً على صفحات الأيام كنموذج عملي يرجع أحدنا إليه فيما يناسبه، فإن كان مستضعفاً استحضر حال المسلمين في مكة، وإن كان ممكناً تحدث عما بعد حروب الردة، بمعنى أن مراحل البعثة لم ينسخ بعضها بعضاً، بمعنى أن تمام الدين (نظرياً وعملياً) تمثل في الجيل الأول كنموذج كامل نرجع إليه.. نحقق المناط ثم نستدعي له من حال النبي، صلى الله عليه وسلم، والراشدين من بعده ما يناسبه. لا أننا نطالب من يملك شيئاً من القوة بالقفز لمرحلة الكمال مرةً واحدة.

وهي حالة من الغفلة عن أن الدنيا لا تصفو، وإنما الراحة في الجنة، والدنيا تدافع وصلاح الدنيا بالمدافعة، يقول الله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (البقرة: 251)، ومن سلم من عدو خارجي لا يسلم من عوارض أخرى قضى الله بحدوثها (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: 155)، هذه إرادة الله، والله يفعل ما يريد، ولا يظلم ربك أحد، فثمة آخرة يُجزى الناس بأعمالهم فجنة أو نار. في يوم القيامة يعاقب الظالم أو يعفى عنه، ويرضى المظلوم.

وهي حالة من الجهل بمنظومة الباطل. تحديداً حالة من الجهل بطبيعة الدولة القومية الحديثة، وكيف أنها: متغلغلة في جميع مناحي الحياة، ومتحكمة في كل شيء، ومرتبطة بمصدرها الغربي، فالدول في عالم اليوم شبكة من الاعتماد المتبادل المعقد. شبكة من الترابط الثقافي والإعلامي قبل العسكري والأمني، والقوي يخترق ويصل إلى ما يريد بسهولة بأفكاره ويده من خلال أدوات العولمة. والذي أفهمه أن أردوغان يصنع رأس مال نجبوي من أهل العلم والدين، عن طريق دعم قطاع التعليم المدني، ويُمكن نخبة المتدينين والمدنيين من مؤسسات الدولة، فثمة معركة هدفها استبدال نخبة المجتمع، وتنجح بوضوح في المجال الاجتماعي ولكن أهل المال متلونون ويقظون ويفيدون من التحولات كما غيرهم وربما أكثر. ويحاول صناعة محور إقليمي يتمرد على النظام الدولي أو يستقل بداخله عن النظام الدولي، وهي الآلية الوحيدة التي يمكن بها التخلص من الهيمنة الشاملة التي تمارسها الولايات المتحدة وحلفائها.. أعني خروج كتلة متماسكة جغرافياً عن طوع الأمريكان وحلفائهم، ولكن تركيا بين ذئاب سياسة (إيران) ومن لا يريدتها (روسيا) وآخرون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم (الخليج)، وجهلة مغرر بهم (الأكراد)...

السؤال: هؤلاء الذين وقفوا على حافة المشهد يشجبون وينكرون ويتساءلون: لماذا لا يرحل الباطل في لحظة؟، وكأن تولي الرئاسة بأدوات الديمقراطية يعني القدرة على فعل كل شيء، هل هؤلاء عملاء؟

لا أعتقد، ولكن حالة نفسية توظف، أو يُفاد منها، كما يفاد من غيرها، فالقوي يوظف غيره أو يفيد منه وافق أم لم يوافق. وحالة من مطالبة الغير بدون الحق في المطالبة، وحالة من الظلم البين بتحميل الفرد ما لا يقدر عليه.

تبقى شيء أريد أن أعرج عليه، وهو دعم الطيب رجب للمعارضة المصرية؛ فالذي أفهمه أنه لا يدعم المعارضة، ولم يقطع الجسور بينه وبين مصر (كدولة وشعب)، وأكثر من هذا أرى بوضوح أنه قد يمد الجسور مع النظام الحالي في مصر إن ترجحت المصلحة. الإثم يقع على المعارضة. خرجت من ديارها ثم تحزبت في الخارج ولم تنهض بقضية ومن بقي منهم في المشهد ففي إطار البحث عن ذاته، ولذا لم يجدوا عند الجادين إلا ما تقتضيه المروءة، وهو السماح بالجلوس دون دعم حقيقي. فهل يفهمون؟، هل يفهمون أنهم يضيعون وقتهم، وأن الخير في أن يتعلموا في أن ينتهوا من التعليق على الأحداث، في أن يصنعوا حدثاً، في أن يستفيدوا من النهضة التعليمية في تركيا وأوروبا ويتعلموا فيها.

في ظني أن الأمر يحتاج لجيل جديد يشارك وإن بتنازلات، أما هؤلاء الذين رأس ما لهم الاعتراض فسيتقون حول كل ذي بال، فدعهم يتهامسون.. يتحدثون.. يشجبون. للجد موطن آخر.

محمد جلال القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

في تطبيق الشريعة

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

عددٌ من الانحرافات الفكرية في الحالة الإسلامية سببها الرئيسي أسئلةُ العلمانيين؛ وأحد أشهر هذه الأسئلة سؤالٌ يفتش عن كيفية تطبيق الشريعة الإسلامية. وقد اندفع بعضهم في اتجاه أسلمة الدولة القومية وذلك بحديثٍ عن أن الانتخابات هي الشورى، وأن رئيس الدولة هو ولي الأمر، وأن تعطيل الحدود في هذه الأيام مشروع كما في عام الرمادة، وأن بعض الحدود لا أساس لها (كحد الردة)، وأن كثيراً من الأحكام لم نعد بحاجة إليها (كأحكام أهل الذمة)، وهكذا، وانتهى هؤلاء إلى أن الدولة الحديثة هي صورة الحكم الإسلامي المعاصر!!

وهذا الخط يسمى نفسه إصلاحيون. وهي ذات التسمية التي أطلقها المنافقون على أنفسهم في عصر النبوة (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (البقرة: 11)، وقد كان المنافقون يحاولون التوفيق بين المختلفين (ثم جَاءُواكَ يَخْلَقُونَ بِاللَّهِ إِنَّ آرْدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) (النساء: 62)، وهذا الخط نفسه يفاخر بأنه عقلاني، تماماً كما كان المنافقون يوم الأحزاب (يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط)، وكما كانوا يوم الحديبية (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبَّنَا ذُلُّكَ فِي قُلُوبِكُمْ) (الفتح: 12).

وفي كتاب التصور السياسي للحركة الإسلامية أننا لا نستطيع تقديم إجابة قبل أن نمتلك واقعاً، مع أن التخيل لحالات افتراضية وصياغة الأحكام لها كان حاضراً في

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

أول المذاهب الأربعة (مذهب أبي حنيفة رحمه الله)، وأشهر ما صنف في السياسة الشرعية كان خيالاً افترضه إمام الحرمين الجويني، وهو كتاب الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم)!!

وسيد قطب-رحمه الله- حلقَ عاليًا، كحلّم أو كأنشودةٍ تطير بالأرواح في عالم الأفراح بعيداً عن واقعها شديد المرارة. يقول- في فصل المجتمع الإسلامي في كتاب معالم في الطريق-: دعوة فردية تتكاثر حتى تصل إلى اثنا عشر أحمًا يكونون المجتمع المسلم؛ ويستدعي ما جاء في الحديث من أن الاثنا عشر ألفًا لا يهزمون من قلة. وهذا صحيح في حق المقاتلين إن كانوا مستعصمين بإيمانهم صادقين في لجوئهم لربهم، ولكننا نتحدث عن مجتمع لا عن غزوة عسكرية، وبناء المجتمع غير بناء جيش يقاتل. والحقيقة أن الأستاذ سيد قطب لم يجب على سؤال تطبيق الشريعة، بل أوحى للذين أنصتوا إليه أنهم جماعة من دون الناس وعليهم أن يتحاكموا فيما بينهم، ودعم ذلك بحديثٍ عن العزلة والاستعلاء، فكان ثمرة هذا التفكير تكفير الناس من بعض الإسلاميين لا دعوتهم، وكان من ثمرة ظهور النفاق الاجتماعي والذي تمثل في خدمة العوام من أجل الحصول على دعمهم اجتماعيًا وسياسيًا لا من أجل دعوتهم وهدايتهم إلى سبيل الله، وكانت العزلة من أجل التصفية قبل التحلية والتي تزاوجت مع السلفية النجدية وأخرجت الجامية المدخلية، وكان من ثمرة هذا التفكير البحث عن كيان موازي للدولة في مجتمع تسيطر الدولة على جميع تفاصيله، وكانت المحصلة الكلية أن انقسم مجتمع الصحوة إلى جماعات يرى كل منها أن نصره الدين تبدأ بتمكين جماعته أولاً!!

بالتأمل نجد ثلاثة مستويات: أولها: قواعد كلية للدين: مثل التوحيد كقيمة مطلقة تمثل البداية والضابط لغيرها، وباقي كليات الدين الخمس، وثانيها: قواعد فقهية وهذه تستخرج من الجزئيات (اقتناص القطعي من الظني)، وثالثها: مستوى التفاصيل (الفقه.. الأحكام الجزئية، تلك التي تتعلق بنشاط الفرد اليومي). والمستوى الأول والثاني حاضر لا يغيب، وثابت لا يكاد يتغير؛ والمستوى الثالث المتعلق بالتفاصيل

تصاغ تبعاً للواقع، هذه هي التي لا نستطيع التحدث عنها قبل مجيء واقعها، ولا تحتاج وقتاً لضبطها، فقط تحتاج إلى نخبة متخصصة تعرف كليات الدين والقواعد الكلية وكيفية الاستنباط منها، وهذه النخبة-إن وجدت بعددٍ كافٍ- تستطيع أن تصيغ الأحكام الفرعية.. والخطط الجزئية للواقع حال مواجهته.

والحالة الإسلامية- بتجلياتها المختلفة- امتلكت واقعاً وحاولت بالفعل تطبيق الشريعة الإسلامية، وذلك في أكثر من مكان: في السودان (الشيخ حسن الترابي ورفاقه)، والطالبان في أفغانستان، والجزائر ابتداءً من فترة شريف القوسمي (أبي عبد الله أحمد ت1994م) وقد بويغ بالإمارة من عامة الإسلاميين في الجزائر وبعض الجماعات في الخارج ودُعي (أمير المؤمنين)، وتركيا (الطيب رجب ورفاقه)، وفي حزام الصحراء وخاصة شمال مالي (إمارة تمبكتو وغيرها)؛ وجماعة الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، وجماعة النصرة في مساحة واسعة من أرض سورية، ومن قبل الروافض في إيران (وهم منتسبون للإسلام ويدعون تطبيق الشريعة)، فماذا فعلت الحالة الإسلامية؟! كيف أجابت نظرياً وعملياً على سؤال كيفية تطبيق الشريعة الإسلامية؟ [يصلح هذا موضوع لرسالة دكتوراة]

يمكننا رصد مسارين: مسار التصالح مع الدولة القومية كلياً أو جزئياً.. مسار الإصلاحيين.. العقلانيين ودعاة (النهضة)، ويأتيهم- كما يأتي غيرهم- الإخوان على عاداتهم في التحرك في المساحة المتاحة.

هذا المسار أراح نفسه، وراح يتحدث عن أن الشريعة مطبقة بالفعل، وأن الواقع يحتاج بعض التعديلات لينهض المسلمون مادياً ويشاركوا في ريادة العالم أو لينفردوا بها، يطلبون النهوض والريادة بأدوات العلمانية. ويرى أهل هذا المسار الديمقراطية الغربية هي الحل، ومنهم من يؤمن بالديمقراطية إيماناً حقيقياً، ومنهم من يرى الغرب هو النموذج البشري الأمثل (يؤمنون بالمسار الخطي للتاريخ) الذي يجب أن ندوب فيه أو نسعى لتقليده. ومنهم من يتحدث بمرحلية الإيمان بالديمقراطية أو استخدامها كأداة من أدوات التمكين!!

وعملياً حين تمكن هذا المسار صُدِمَ بالتحديات الداخلية والخارجية، فتعرض لانشقاقات وخلافات داخلية- كما في الحالة السودانية- وقهرته التحديات الخارجية كما في حالة مصر وتونس بعد الربيع العربي والحالة السودانية في سنواتها الأخيرة. عملياً لم يستطع فعل شيء حين تمكن من واقع، والناجح منهم هو الذي استطاع إدارة دولاب العلمانية بنكهة إسلامية كما في الحالة التركية.

المسار الثاني: الحركات المسلحة، وهؤلاء في المستوى النظري اشتروا لتطبيق الشريعة حالة توحش (فوضى)، فبداية تطبيق الشريعة عندهم انهيار النظام السياسي القائم والدولة، وظهور حالة من الفوضى (التوحش) يبدؤون منها في تطبيق الشريعة أو إدارة التوحش، وهذا بعد أن أملت عليهم التجارب في أكثر من مكان درساً مفاده: لا سبيل لإقامة "المجتمع المسلم" مع وجود سلطة قوية، فقد هزمتهم سلطة الدول القومية في كل مكان ظهوراً فيه: في سوريا، ومصر، والجزائر، وليبيا، والسعودية، واليمن، والساحل، حتى في الصومال انتهى وجودهم، أو تراجع كثيراً بعد أن تدخلت سلطة الدول المجاورة (كينيا وأوغندا)، هذا مع الضعف الشديد لهذه الدول مقارنة بالدول الكبرى. والعجيب أنهم حين فشلوا في مواجهة الدولة القومية اتجهوا لمواجهة القوى العالمية الكبرى (الحملة الصليبية العالمية 1998م).

ونلاحظ، في التجارب العملية لهذا المسار، بشكل مضطرب أنهم حين تمكنوا سارعوا إلى فرض أحكام الشريعة على الناس، نصبوا المحاكم الشرعية وأقاموا الحدود.

وضعتُ مشهد الحالة الجزائرية في التسعينات، والطالبان، والإمارة الإسلامية في الأزواد، وجماعة الدولة الإسلامية (داعش)، وجماعة النصرة في سوريا، وكيف أنها كلها سارعت لفرض أحكام الشريعة على الواقع الذي ظهوراً فيه. وظهر سؤال: هل تفرض أحكام الشريعة على الواقع "الجاهلي"؟!، هل ما فعلوه صواب؟!!

بعد إعادة النظر مرة بعد مرة في تفاصيل وكليات هذه التجارب ظهرت إجابة أطمئن إليها وهي: أن الشريعة تحتاج واقع معين لتطبق فيه كليةً، وأن تمكن فئة من الناس من السلطة تعني أنهم لابد أن يسارعوا إلى تطوير الواقع كي يناسب أحكام الشريعة لا المسارعة في التطبيق مباشرة، ولعل حديث عائشة-رضي الله عنها، دليل على هذا: " حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، [صحيح البخاري].

أدت تجارب هؤلاء المسلحين- مع اختلاف الزمان والمكان- إلى نتيجة واحدة، خلاصتها: أن فرض الأحكام على الواقع المعاصر دون تدرج، ودون إعادة تأهيل تسبب في نفرة الناس وانصرافهم بل معاونتهم للمخالف، والترحيب كان مؤقتًا من أجل فرض الأمن في حالة التوحش (الفوضى). ودعك من طالبان فهم ممثلون للمجتمع، وعندهم مرونة ليست في غيرهم.

سؤال تطبيق الشريعة الذي أطلقه علينا العلمانيون لم يتعرض للقدر الكافي من الدراسة والبحث من الناحية النظرية، وتكرر الفشل من الجميع في التطبيق العملي، وتكرار الفشل يعكس هشاشة الدراسات النظرية!!
ولم تدرس التجارب الفاشلة!!

لم تطرح الأسئلة عليها للبحث عن أسباب الفشل وكيف يمكن تفاديها؟! والأطروحات التي وقفت عليها نقاشات من أشخاص أشبه ما تكون بالتاريخ الشفهي لا بالدراسات العلمية المتخصصة.. ويحتاج الأمر لمزيد من سرد الأحداث ومزيد من الدراسة متعددة التخصصات وخاصة أن التجارب تتشابه فداعش لم تبعد كثيرًا عن الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا)، وتجارب الإخوان متقاربة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أيام ولا نرى يهوداً في فلسطين:

مناقشة لتحليلات المسيري وقصري حفي

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

إحدى أهم الأفكار التي راهن اليهود، ومن خلفهم، عليها في بناء مجتمع صهيوني مستقر على أرض فلسطين هي الاعتقاد بأن التحدي الخارجي يوحد المختلفين ويخصصهم. ولذا حافظ ساسة يهود على بث المخاوف حول الكيان الصهيوني، سواءً من دول الجوار، مع يقينهم بأن هذه الدول لا تشكل خطرًا حقيقيًا يهدد وجودهم، أم من المقاومة الفلسطينية، أم من المد الإسلامي المتصاعد في العالم العربي وغير العربي وخاصة أن جلهم يرفض احتلال اليهود لفلسطين. والسؤال: بعد مضي هذه السنين الطويلة وظهور أجيال من اليهود تحت "التحدي الخارجي": هل استطاع ساسة يهود، ومن خلفهم، صهر الداخل الصهيوني في كيان واحد؟

في مرحلة الماجستير حضرتُ أستاذ الاجتماع السياسي الدكتور قصري حفي - رحمه الله - وهو يُنظرُ لإمكانية إنتاج مجتمع جديد من الصهاينة على أرض فلسطين إن طال التحدي الخارجي. وضمنًا يحدثنا بأن علينا أن لا نشكل تحديًا خارجيًا. وأنا لو تركناهم لذابوا وحدهم في ثقافتنا!!

وراهن الدكتور عبد الوهاب المسيري على أن اليهود جماعة وظيفية جاءت بها الإمبريالية الغربية من أجل تنفيذ وظائف محددة وسوف يتم التخلص منهم بعد انقضاء وظيفتهم، ولذا بشر بنهاية اليهود لأنهم جماعة وظيفية. واستمات في نفي الإطار الديني عن اليهود في أكناف بيت المقدس وخارج أكناف بيت المقدس. وقد

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

قدمت مناقشة لأفكاره في بحث مستقل منشور (ينظر: مناقشة هادئة لأفكار المسيري: حتمية البيئة والبعد عن النص الشرعي).

أين الخلل؟

الخلل في علم الاجتماع الغربي الذي يستقي منه قدري حفني وعبد الوهاب المسيري نظراتهم "العلمية"!!

ينطلق الاجتماع الغربي من الواقع.. يأخذ من تفاصيل الواقع بعض الملاحظات المضطربة (المقولات/ المفاهيم) ويحاول ربط بعضها ببعض ويصوغ "نظرية" يعود بها على الظواهر الاجتماعية (سياسية وغير سياسية) لوصفها وتفسيرها ومحاولة التعرف على مستقبلها. وينبهر الناس بالهالة الإعلامية التي تحيط بالمشاهير من علماء الاجتماع الغربي، وينبهرون، كذلك، بمنطق الفلسفة والألفاظ المعقدة، ويظنون أن هؤلاء يأتون بما لا يقدر عليه غيرهم.

والحقيقة أن نظريات علم الاجتماع الحديث تعمل، فقط، في البيئة التي خرجت منها والزمان الذي خرجت فيه، وحين تتغير البيئة والزمان يتوقف عملها، ولذا فإن النظرية في علم الاجتماع السياسي محدودة القدرة على التفسير ودائمة التغير، ولذا، أيضاً، يعاني العلم من فوضى في النظرية، واسترجاع دائم للقديم، ولا ضابط وإنما تحرك مع الواقع.

ولو أن الدكتور "قدري حفني" تأمل قليلاً في حال اليهود لعلم أنهم يتعرضون لتحدي خارجي منذ كانوا، يقول الله تعالى ذكره: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ" (الأعراف: من الآية 167)، وهذا التحدي الخارجي، المستمر من آلاف السنين، لم يثمر توحيداً للمختلفين كما تقول "النظرية" فقد ظلوا مختلفين، يقول الله تعالى: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (المائدة: 64). بل إن استمرار التحدي الخارجي أدى إلى التكيف مع الضغط. بمعنى أن الضغط أثمر تعديلاً في الصفات (الأخلاق) الشخصية لليهود كأفراد وجماعات

فتحولوا من "وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (الجمانية: 16)، إلى "ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ" (ال عمران: من الآية 112)، "، وهكذا كل ضغط خارجي حين يطول، يحدث تشوهات داخلية.. ينقلب المحاصرون على أنفسهم وتحدث بداخلهم تحولات جذرية في مستوى السلطة، والنخبة، وبالتالي المؤسسات التي تدير المجتمع، وفي مستوى الفرد العادي، تعيد، هذه التحولات، هيكلتهم من جديد بما يتلاءم مع المساحات المتاحة، بمعنى أن الضغط المستمر يعيد التشكل وخاصة إن كان قويا محكما ذا رؤية يسعى لتحقيقها، فليس كل تحدي يعمل محفزا لاستجابة في اتجاه معاكس كما يزعم "تويني" في "نظريته" "التحدي والاستجابة"؛ ربما يحدث هذا في التفاصيل وفي حالات دون حالات (ناقشت نظرية تويني في طرح مستقل في بحثٍ عن السيرة النبوية .. أو نشأة الأمة الإسلامية)، ولا كل تحدي يوحد المختلفين ويخصصهم كما ادعى قدرتي حفني. ربما يحدث هذا مؤقتا وفي حالاتٍ دون حالات.

ونعم الصهيونية جماعة وظيفية للغرب الإمبريالي كما يذكر الدكتور عبد الوهاب المسيري، ولكنها جماعة واعية تتحرك لأهداف خاصة بها، وليست جماعة وظيفية تتحرك ضمن مهام من أتى بها كما كانت الجماعات الوظيفية من قبل. ولك أن تراقب نشاطهم في أوروبا قبل مجيء بعضهم لبيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ونشاطهم في أفريقيا، وفي غير أفريقيا.. يعملون لحسابهم الشخصي أكثر مما يعملون لحساب السيد الذي يراعاهم.

وشيء آخر أهم، وهو أنه لو تأمل الدكتور عبد الوهاب قليلاً لعلم أن انتهاء وظيفة (دور) الصهيونية يعني تطور واقع المجتمعات المسلمة لما تستهدفه الإمبريالية الغربية بالكيان الوظيفي.. وهو الدمج في الحضارة الغربية كتابع لها، أو بالأحرى كمصدر للمواد الخام وسوف لا استهلاك البضائع. بمعنى أن الحديث عن أنهم جماعة وظيفية

ينبغي أن يكون مقدمة للحديث عن تطوير المنطقة لدمجها في الحضارة الغربية، بمعنى أن زوال اليهود، مثل الجماعات الوظيفية التي انتهت من قبل، لن يحدث قبل دمج المجتمعات المسلمة في الغرب وهو ما يحدث الآن بقوة. (ينظر للكاتب: جني ثمار الحرب الباردة: الرؤية والأدوات).

وثمة نظرة ثالثة تبين بوضوح أن اليهود على وشك الرحيل، وأن أيامهم باتت معدودة. وهي نظرة تجمعت بخاطري من رافدين من روافد علم الاجتماع السياسي الحديث: رافد نقدي لنظرية التحليل النظمي (نظرية ديفيد استون/ المدخلات والمخرجات)، ورافد آخر تأملي من سنن الله في الغالب والمغلوب. والرافد الأول مقدمة للثاني. وهذا بيان بما يناسب مقالٍ وحديثٍ للجميع.

النظم السياسية تهرم وتشيوخ وتحاول أن تجدد نفسها. ولا يحدث هذا التجديد طواعية وإنما ينزع الملك انتزاعاً. وذلك من خلال الخروج على الحاكم كما حدث في النموذج الإسلامي، أو من خلال الثورات كما يحدث في النموذج العلماني المعاصر. والنخبة المستعدة (الجاهزة كيفاً وكماً) هي التي تجدد السلطة، سواءً نخبة من داخل النظام الهرم، أم نخبة معارضة له (ممن هم مرتبطون به، أو قريبون منه في الغالب). فالذي يملك أسباب القوة أو يعرف كيف يدير القدرات الكامنة حال الوصول إليها، هو الذي يبدأ دورة جديدة بعد أن تشيخ الأنظمة وتهرم وغالبًا ما يكون من محيط السلطة (إدارة المجتمع بالمعنى العام).

والفكرة هنا أن المقاومة تضغط على النظام وترهقه، وحين يشيخ، بشكلٍ طبعي، لا يتحمل ضغطها فينفجر من داخله وينهار وتكون نخبتها (أي المعارضة) هي البديل إن كانت ذات رؤية ولديها وفرة من النخبة المختصة. وهذا ما يحدث في فلسطين الآن.

لم يتحد اليهود بعد هذه السنين الطويلة، ولن يتحدوا بما أخبرنا الله به عن حالهم (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ) (المائدة: 64)، والمقاومة في حالة

بناء مستمر، عددياً، وجغرافياً (الآن في كل فلسطين وليس غزة والضفة فقط)، وعسكرياً (من الحجارة للصاروخ، ومن القتال في بعض أزقة غزة ومخيمات الضفة لامتلاك جبهات [غزة] والقتال في الداخل الفلسطيني [عمليات الطعن والدهس]). والرافد الثاني هو الحالة النفسية للمتصارعين، فالغلبة تكون للأكثر جرأة على صاحبه، والجرأة في الفلسطينيين وليس العكس. ولعل هذا هو المعنى الكامن في قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، "نصرت بالرعب مسيرة شهر" (مسلم).

وثمة نظرة رابعة، وهي أن مفاهيم القرآن الكريم والسنة النبوية ثابتة وتعمل في كل زمانٍ ومكان، لا كما مقولات علم الاجتماع الحديث المؤقتة التي تعمل بمحدودية مكانية وزمانية؛ وفي القرآن الكريم: يقول العليم الخبير سبحانه: "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا* فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا* إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا* (الإسراء: 4-7).

د. محمد جلال القصاص

الهرم 1445. سبتمبر 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

فخ الاعتراض

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

لو تجلس في ناحية من نواحيها وتتابع بعينك ما يجري فيها، ستلاحظ بوضوح بعضاً من الناس يشكلون ظاهرة في الحالة الإسلامية-وغير الإسلامية، ولكننا معنيون الآن بالصحة الإسلامية- تبدو غريبة وتستحق الرصد والتحليل ومن ثم البحث عن المآلات. حفنة من الناشطين شغلهم في إثارة الغبار تحت أقدام من ينجح من أقرانهم. من هؤلاء؟، ولم يثيرون الغبار على أقرانهم؟!

نبدأ ببعض المشاهد لتوضيح الظاهرة:

بعد ثورة يناير 2011 شارك الإسلاميون في العملية السياسية بأدوات الديمقراطية، لم يكذب يتخلف منهم أحد (الجهاد، والجماعة الإسلامية، والقطيبيون، والسلفيون، فضلاً عن الإخوان، والجزء السائل الذي لا ينتمي لجماعة..). إلا هؤلاء: أخذوا جانباً وراحوا يثيرون الغبار على الجميع، وعلا صوتهم (مشركون في سبيل الله) (نصرهم الله فانتكسوا) (الهوية قضية كلية لا يمكن التنازل عنها).

وحين صعد الإسلاميون للسلطة، وتولى شخص متدين عادوا ثانية يثيرون الغبار عن طريق المطالبة بالتطبيق الكامل للشريعة الإسلامية، وكأنهم في عهد الراشدين لا في دولة قومية؛ ويتهمون من يحكم (حزب أو فرد) في دينه بأحداثٍ فردية دافعها الأساسي سياسي وتخضع لقاعدة: دفع شر الشرين واختيار خير الخيرين، مثل التعامل مع إيران، أو تحديد تراخيص الملاهي الليلية!!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية

وفي المشهد الإقليمي يتجمع مثيري الشغب الذين لا يعجبهم شيء حول حماس المحاصرة.. التي اجتمع من بأقطارها على حربها، ويتهمونها في دينها وأنها مفرطة في تطبيق الشريعة!!

هل نحن أمام ظاهرة حقيقية؟

نعم نحن أمام ظاهرة حقيقية، تتواجد في أغلب مسارح الأحداث، ولكننا لسنا أمام فئة محددة من الناس تشكل ظاهرة بعينها، فالذين أنكروا على من استخدموا أدوات الديمقراطية بعد يناير 2011 ليسوا هم الذين أنكروا على الدكتور مرسي واصطفوا مع العلمانيين (جبهة الإنقاذ)، وليسوا هم الذين يتحلقون حول حماس مستنكرين. فكل حدث يفرز نوعية معينة تشكل هذه الظاهرة. بمعنى أن الظاهرة ثابتة والأفراد مختلفون.

ويصعب تحليل هذه الظاهرة باستخدام نموذج تفسيري محدد، ففكرة النموذج (القلب)- كعادتها- تقف قاصرة أمام كثيرٍ من الظواهر السياسية؛ والأفضل هو البحث عن المتغيرات التي تشكل الظاهرة، سواءً المتغيرات المستقلة (المدخلات) أو الوسيطة (التي يمر من خلالها التفاعل الاجتماعي دون أن تؤثر فيه أو تتأثر به. تمامًا كالحافز في التفاعلات الكيميائية)، أو المتغيرات التابعة (المتأثرة). ودعنا نفتش في التفاصيل عن أنماطٍ نعرف من خلالها على المتغيرات بما يسمح به مقال.

ما السبب في هذه الظاهرة؟

السبب في نظري يكمن في ثلاثة مجتمعة أو منفردة: أولها: الغرق في التفاصيل، وثانيها: الجهل بالسياق العام، وثالثها: الاعتقاد بأن المعركة مع المخالف صفرية. تجتمع الثلاثة أو بعضها فيثار الغبار في المشهد ممن يتلى بوحدة من هذه الثلاث أو بهن جميعًا.

فأحياناً يتم تضخيم قضية جزئية ويتم تجاهل السياق العام بدافع المصلحة شخصية أو المصلحة الجزئية (مثل: الشجب على التعامل مع إيران، ومثل: رفع قضية الهوية بعد الثورة مباشرة)، أو لأن هذه القضية الجزئية متضخمة في حس الأفراد بالفعل (مثل: قضية الحاكمة حسب ما يفهمون). ومع أن الأول (الذي يضخم القضية الجزئية ويتجاهل السياق العام عمداً) والثاني (المتشجع الغلق الذي يقف عند قضية بعينها ويراهها كل شيء ولا يلتفت للسياق العام للأحداث) قادمان من طرق مختلفة إلا أن كلاهما يقف بجوار الآخر ويثير الغبار في المشهد السياسي.

وعدد ممن يتواجدون في هذه الحالة الإسلامية يتكثرون على مبدأ مغلوط، هو: أن المعركة مع المخالف صفرية، ويغيب عنهم أن الشريعة جمعت بين الحدية والنسبية في الأحكام والمواقف العملية، يقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) (آل عمران: 7)، وفي الحديث: (الحلال بين والحرام بين وبينهم أمور مشتبهات). والخطاب والمواقف حال الاستضعاف في مكة غير الخطاب والمواقف بعد تكوين الدولة وفتح مكة في المدينة؛ ومشهور عند الجميع أن التشريع مرّ بمراحل، أو استخدم التدرج في الإيجاب أو التحريم، وقد نقل ابن القيم حال النبي -صلى الله عليه وسلم- مع مخالفيه في مقدمة باب الجهاد في زاد الميعاد ونقلها عنه سيد قطب في المعالم؛ وفي تعليقات العلماء على الناسخ والمنسوخ أن الأحكام لا ينسخ بعضها بعضاً وإنما يناسب كل منها مناط بعينه تنزل عليه؛ فالأحكام التكليفية الخمسة تأتي الشيء الواحد في حالات مختلفة. وجملة: توجد دائماً منطقة رخوة.. رمادية، تتحرك مع المناطق الصلبة الواضحة. حتى في ذروة التمكين تتواجد هذه المنطقة الوسط في الداخل (مع المنافقين والذين في قلوبهم مرض من أهل الشهوات) وفي الخارج (المعاهدين من الكافرين والمبتدعة في الدين بدرجاتهم المختلفة)، ولكن المعاصرين هؤلاء يريدون إنهاء الصراع واستقرار المشهد واضحاً جلياً، هادئاً. ولا يكون أبداً. فالحياة مدافعة بين مختلفين، ولا تستقر إلا

بالمدافعة، أو: لا تستقر .. بل دائماً المشهد متحرك بعنف.. يدفع بعضنا بعضاً حتى نلقى الله ويحاسب كل منا على ما قدم وأخر فجنة أو نار؛ يقول الله تعالى: (وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) (البقرة: 251).

كيف تحول هؤلاء إلى ظاهرة؟

الطبيعي أن يوجد معترضين، ولكن تحول الاعتراض لظاهرة له سببان فيما يبدو لي: أولهما: الأدوات الإعلامية، ويشارك من هذا الباب المخالف الذي يمتلك أغلب الأدوات الإعلامية. والأدوات ذات أهداف خاصة ولها عينان تنتقي بعناية من تقدمه للجماهير.. لا توجد أدوات مستقلة أو محايدة.

ثانيهما: الجمهور. دائماً ما يجد المعترض تأييداً من عامة الناس، وخاصة حين يتبنى مواقف إقصائية. وتنطلق الجماهير لا من صواب الفكرة وإنما من حقدتها على من يسود ورغبتها في استقرار المشهد والتخلص من الخلاف. تبحث عن الاستقرار والهدوء. ويستخفهم الهتاف (الصوت العالي) ويميلون للإقصائيين الذين يبحثون- مثل الجماهير- عن نقطة الاستقرار، ويحسبونها في أقصى ما في المشهد، ولذا يتطرفون. وحين يتطرفون يجدون أنفسهم في مواجهة الجميع.. يجدون أنفسهم قد وقعوا فيما فروا منه!!

مآلات الظاهرة:

المعترضون موجودون في كل زمان ومكان، ولكنهم تحولوا لظاهرة بسبب الأدوات التي تمكن الجميع من التحدث للجماهير، وبسبب إفادة صاحب الأدوات من اعتراض هؤلاء، سواءً كان الاعتراض في مستوى القول فقط أم تطور لاعتراض بالأفعال (شغب أو عمل مسلح)، ولولا الأدوات ما تحول هؤلاء لظاهرة ولا سمع بهم أحد، فالظاهرة في حقيقتها مفعلة من قبل أصحاب النفوذ، فهل يعقل هؤلاء!؟

يكون الاعتراض بناءً حين يمارس النقد، لا مجرد الاعتراض، حين يمارس النقد العلمي القائم على الدراسة التفصيلية وتقديم رؤية تفكيكية للمخالف ومن ثم رؤية تفصيلية بنائه لما يجب فعله، ولكن الغالبية تتحدث بعموميات وتعبر عن موقف ولا تقدم نقدًا علميًا، فقليل من يصبر على مكابدة التفاصيل.

وحين نترك هذه الظاهرة الجزئية ونصعد لأعلى نجد أن الاعتراض فخر نصب للحالة الإسلامية ككل، ذلك أنها حصرت نفسها في دائرة المعارضة دون أن تبذل جهداً في فهم طبيعة المخالف وماذا يجب فعله لإزاحته أو لخلافته حال إزاحته. ولذا حين خرجوا من دائرة المعارضة وجاءتهم الفرصة واستلموا القيادة وتبعتهم الجماهير لم يستطيعوا فعل شيء!! وعادوا ثانية لفخر الاعتراض.. للمظلومية والشكوى، وكأنهم ألفوا الشكوى والشجب.. وكأنهم ألفوا سُكنى (فخر الاعتراض).

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
العبوس المنغطسة!!

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

تلزمت الأكاديمية بوحدة الموضوع، وصلابة العبارة. فلا بد حين تكتب بطريقة أكاديمية أن تتصلب وتقفهر وتقمص دور الصلب الحاد ثم تكتب. ويغلي الدم في عروق أستاذ أكاديمي إن استرسلت ولو بعبارة واحدة، ويمسك قلمه الأحمر ويثور على الكلمات بدوائرٍ وشخبطاتٍ وتعليقاتٍ نارية. وربما يصيح: ما شأن هذه الجملة هنا؟؟، وقد ينقصك بعض الدرجات، أو يخرج عن حسن خلقه ببعض العبارات!! على النقيض من ذلك تمامًا أعظم الكتب، كتاب الله القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. في صفحة واحدة أو أقل يتطرق لعددٍ من المواضيع: يخاطب من يقرأ ويتتبع شطحات عقله، ويجب على الأسئلة التي تتولد بداخله، وي طرح عليه أسئلة أخرى في الدروب التي يتيه فيها بعقله حين يقرأ؛ وكثيراً ما يستحث التفكير بطرح أسئلةٍ حول الموضوع، كأنك في حوارٍ مع الله الكبير المتعال: يخبرك، ويذكرك، ويسألك لتفكر، ويعرض عليك ويطلب منك؛ ويسمي السورة بجزءٍ من قضاياها لا بتسميةٍ عامةٍ شاملةٍ تغطي جميع التفاصيل.. يسمي بجزءٍ يمثل التفاصيل أو اختزلت فيه التفاصيل؛ فحين تقرأ القرآن الكريم كأنك في تريض ذهني.. متعة فكرية وحسية فضلاً عن الثواب المضاعف الذي تُحصله، والبركة التي تأتيك.

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

وحدة الموضوع و(الصلابة) في الطرح جاءت مع الغرب.. مع الأدب بداية. فكانت هذه الخشنة الصلبة ذات الوجه العابس هي كل ما في يد الثائرين في المجال الأدبي في مطلع القرن العشرين. يقولون: وحدة الموضوع، ويقولون: التعبير عن الذات. ولم يأتوا بجديد وإنما انبهروا بما في يد الغرب فقلدوه. كانوا صبية في مقتبل العمر وكان حراس القديم كالجبال الشم الرواسي فبدل أن يتعلموا منهم ويبحثوا عن ذاتهم في إحياء تراثنا وخاصة أن اللغة تحمل الدين وتحميه، بدل أن يتفحصوا الوافد وينقدوه، أعجبوا به وحملوه على أكتافهم وثاروا على المجددين في الأدب؛ وانتهى أمرهم إلى نقل بضاعة الغرب وتوطيئها في بيئتنا على أنقاض لغتنا الجميلة، فكان تجديدهم المزعوم تبعية للعدو!!

النموذج القرآني يراعي حال من يتلقى.. يمارس خطاباً متشعباً.. متطوراً.. مقارناً، كأنها جلسة مباشرة مع من يقرأ، يجب له عن أسئلة تدور في صدره هو، ربما لا يستطيع أن يتحدث بها لغيره، أو يحس بها ولا يستطيع التعبير عنها؛ ويجبره بما يشناق لمعرفته، ويحرك التفكير والوجدان، بلغة البشير النذير؛ بمعنى أن النموذج الإسلامي يراعي طبيعة العقل الإنساني وأنه توليدي، كما يصفه الدكتور المسيري نقلاً عن أساتذته. فحين تأتيه المعرفة يتفاعل معها ويتحرك يميناً وشمالاً خلف المعاني، أو تأخذه المعاني يميناً وشمالاً فيتبعه النص كأنما يروضه أو يريضه.

والنموذج العلماني ينطلق من الذاتية.. ذاتية المتحدث.. الكاتب، الذي ينتفخ سحره ويقفهر وجهه ثم يتحدث!!، ففي النموذج العلماني للمتحدث (أو الكاتب) هدف واحد هو: إرسال رسالة تهمه هو. بمعنى أن المتحدث (أو الكاتب) ينطلق من معنى داخلي.. من الذاتية، ولذا يتحدث بحديث واحد فقط، ما يسمونه وحدة الموضوع.. يتحدث بما امتلأت به ذاته.

وإذا أخذنا ما نسب للمسيح مؤشراً (من ثمارهم تعرفونهم) في الحكم على الأشياء فلنا أن نسأل: ماذا فعلت الأكاديمية ومدارس الشعر والأدب الحديث؟! هل استطاعت التعبير عن الذات حقاً؟! هل أطربت الجماهير؟

الطرب جاء بالموسيقى والرقص ولم يستطيعوا الاكتفاء بالكلمات، ولذا فإن المنظومة العلمانية اتكأت كلياً على الموسيقى والرقص لتحريك المشاعر إيجاباً وسلباً لا على الكلمات، وساعد ذلك في غرقها في الانحلال والتفسخ؛ ولذا اشتقوا للتفعية العروضية مسمى foot من حركة القدم أثناء الرقص.

بعكس اللغة العربية- وخاصة في القرآن الكريم- التي تطربك بحروفها، وصفات حروفها الكثيرة (همس وجهر، شدة ورخاوة، استعلاء واستيفال، إطباق وانفتاح، صفير، وقلقلة، ولين، وتفشي، وانحراف وتكرار، وغنة، ومد، وإخفاء، وإقلاب...)، فضلاً عن محتواها الغني المغني في كل مجال.

والشعر العربي قريب من هذا.. على ذات القاعدة: مراعاة حال من يسمع ومن يتحدث والسياق الزماني والمكاني، ولذا يكتفى به طرباً، دون موسيقى وما صاحبها. الأكاديمية كالعجوز الكالحة التي تخفت في ثيابٍ فاخرٍ ونظارةٍ ثمينة وطبقاتٍ من المكياج ووقفت على مكانٍ مرتفع تتحدث من أنفها. ولا تستحق شيئاً من هذا، ولا تكبر إلا في حس من له مصلحة معها أو من يغريه البهرج الخداع دون أن يتأمل التفاصيل والمآلات. وهي إحدى الأدوات لتمير القيمة العليا للعلمانية الملحدة: الذاتية. وقد أصابت منا مقتلاً!!

وثمة ملاحظة أخرى تتعلق بشمار هذه العبوس المتغترسة، وهي أنها لم تستطع أن تخاطب الجماهير مباشرةً. احتاجت لواسطتين كي تنقل محتوى خطابها لعامة الناس.

فالعامي من الناس حين يفتح كتابًا أكاديميًا أو ينصت لمحاضرة من أكاديمي تدور رأسه وربما يحتنق، فيبتعد مشمئزًا نافرًا. ولذا يتواجد في المنظومة العلمانية ثلاثة مستويات من الخطاب: الأول: مستوى إنتاج المعرفة، هذا الذي تستقل به الأكاديميات (الرسائل العلمية، والأبحاث المحكمة، وليس كل ما يتحدث به أكاديمي فكثير من كلامهم عبث)، والثاني: نخبة مختصة تبسط المنتج الفكري لعامة النخبة أو ممن ليسوا من أهل الاختصاص في المسألة. وهو خطاب نصف نُخبوي، كالذي في مقالات الرأي والندوات العلمية والمحاضرات العامة؛ والثالث: وهو الذي يعنى بالتحديث لعامة الناس، وهذه رسالة الفن في الغالب. ولذا يتعقد المشهد الثقافي. ولذا يُكرف الكلم عن موضعه، فهؤلاء الوسطاء يتحدثون بما يفهمون أو بما يشتهون، يدخلون بين المعرفة ومن يفيد منها، فيكون الانتاج المعرفي المنضبط شيء وما يصل للعوام شيء آخر.

وبهذا فإن الأكاديمية تساهم في تقسيم المجتمع.. فمن خلال هذا التعقيد أصبح في المجتمع ثلاثة مستويات ثقافية: أكاديميون.. متغطرسون في الغالب كأن بهم ما ليس بغيرهم.. كأن الحصول على شهادة أكاديمية تصريح للحديث في كل شيء وأمارة على فهم كل شيء!!؛ وعامة الناس، وبينهما نخبة مثقفة تبحث عن رزقها من هؤلاء وهؤلاء يقومون بدور تسويق ما يشتهون من معرفة؛ ما يعنى أن الأكاديمية تعمل كأداة تفتيت في المجتمع، كما هو حال منظومتها العقدية التي جاءت منها: تفتيت المجتمعات.. تحويله إلى شيع.. تكتلات ثقافية وغير ثقافية.. أحزاب.

بخلاف النموذج الإسلامي فأعلى خطاب عندنا (القرآن الكريم)، مع عمقه وحمولته بالمعاني والبيان إلا أنه لا يحتاج لمن يترجم له أو عنه. يفهمه الجميع. ويقراه الجميع. بل ويتردد على لسان الجميع كأمثلة وعبر تستحضر في المواقف.

وما حول القرآن الكريم (الأدب والشعر) في لغتنا الجميلة، يفهمه الجميع ويستحضره الجميع، والشاعر قديماً-على عظم مكانته- كان يخاطب الجميع بلغة سهلة؛ وإلى اليوم الخطاب العربي يصل الجميع اللهم إلا أن يتعاطى المتحدث شيئاً من عند هذه العبوس المتغترسة!!

نعم الأكاديمية تخدم أهلها، فهي أداة لنقل القيمة العليا عندهم (الذاتية) (الفردية) (الأنا)، وأداة لتقسيم المجتمع وتعقيد الحياة الثقافية، ولا تكبر إلا في حس من يستفيد منها أو من لا يعرفها.

محمد جلال القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

صنایعی بحث أم مفکر؟!؛ عباس العقاد وعزمي بشارة نموذجا

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

رغمًا عني اضطررت لدراسة مخرجات عباس العقاد، فيما يتعلق بالإسلاميات تحديداً، وأخرجت كتاباً ناقشت فيه أفكار العقاد (طبع في 2009)، ورغمًا عني أقرأ لعزمي بشارة ورفاقه، أولئك الذين ارتدوا معه من الاشتراكية إلى الديمقراطية أو الذين صاحبهم بعد كفره بالاشتراكية وإيمانه بالديمقراطيين. وكثيراً ما أمعن النظر في شخص عباس وعزمي، ويثور سؤال: أحقًا كلاهما مفكر؟!!

والمقصود هو إطلالة على حالة تتكرر في الساحة، وليس المقصود، أبداً، معالجة هذين بعينهما. المقصود هو الوصول لمقولة نظرية تصلح لفهم وتفسير بعضاً مما يحدث على الساحة. المقصود هو إظهار نمط سائد.. المقصود هو الدلالة على جسر يعبر عليه عدونا لحصوننا الفكرية.

ظلَّ عباسُ العقادُ يبحث عن الزعامة والنفوذ السياسي حتى انقضت خمسون عاماً من عمره، وبعد عقود من مناطق الأقران والفرقاء انهدَّ عزمه وخرج من ساحة السياسة مهزوماً يفكر جدياً- كما يقول هو- في الانتحار. ثم اتجه إلى ما هو رائج في زمانه، وهو الكتابة في الإسلاميات والمحافظة على الحضور في الصحافة، وسبقه- من خِلاله وأقرانه- طه حسين ومحمد حسين هيكل وآخرون. ولأنَّ عباس كان يتمحور حول ذاته، ودائماً ما يبحث عن غريب ينفرد به عن أقرانه، ولأنَّه صنعي بحث وليس مبدعاً ينتج الجديد والفريد من الأفكار ولا نصف مبدعٍ يطور ما أبدعه غيره، استورد فكرةً غريبةً وراح يطبقها في ساحتنا. استورد العبقريات من

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

"جيل"، فعل ما فعله عامة أقرانه (النقل عن الغرب). نقل فكرة العبقرية، تلك التي تقول بأن التاريخ يصنعه نوعية معينة من الأفراد (العباقرة)، وقدم قراءة للشريعة الإسلامية من خلال منظور (العبقرية) المستودر هذا، يقول: أن الذي صنع الإسلام وكتب تاريخه أفراد (عباقرة): محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، وعمر وأبو بكر وعلي وخالد، رضي الله عنهم أجمعين، وأن الذي صنع حاضر الهند هو نبيهم "غاندي"، وأن الذي يصنع الواقع في كل زمان ومكان هم أفراد.. عباقرة. وفي كل عبقرية يسند ما أظهره الله على يديه لذات العبقرية والبيئة التي نشأ فيها، وقد تداخلت مطولاً مع هذه الفكرة في كتابي عن العقاد (مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد)، والمقصود هنا أن عباس لم يكن مفكراً بل كان صناعياً بحث. أخذ فكرة من غيره وطبقها. وللأسف فكرة ضارة تضاد الشريعة وتعيد قراءتها في سياق نفي الوحي وجعلها كلها أرضية من صنع البشر (العباقرة)، وليست سماوية بوحى من الله!

وعندنا.. في كتاب ربنا أن الوحي هو الذي صاغ محمداً، صلى الله عليه وسلم، (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، (قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّن الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ﴿١٠١﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿١٠٢﴾. والذي أفهمه أن الناس فريقان، فريق يتبع الرسل وفريق يتبع الشيطان، والتاريخ صراع بين الفريقين. يتدافعون. كل يريد أن تحضر قيمه واقعاً في حياة الناس.

وعزمي بشارة مثل عباس العقاد؛ صناعياً بحث وليس مفكراً. استورد عدداً من الأفكار يكمل بها مسيرة النصارى في الثقافة الإسلامية المعاصرة. وأهم معالم الفعل النصراني في الثقافة الإسلامية المعاصرة هو: محاولة التأسيس لقاعدة معرفية بحثية

تتكئ عليها المعرفة الإسلامية العربية الحديثة بدلاً عن الاتكاء على تراثنا في القرون الأولى؛ وكذا محاولة السيطرة على الأدوات المعرفية، وخاصة التي تخاطب الجماهير وتؤثر فيهم بشكل مباشر. بمعنى أنهم تحركوا على محورين: محور تكوين عقل النخبة ومحور تكوين عقل الجماهير. ونخبتهم تفهم هذا جيداً وتمسك به. وبدؤوا، في القرن التاسع عشر، بكتابة القواميس وتأسيس الصحف.

وحين تصعد إلى أعلى وتحاول الحصول على صورة أكبر تبين لك السياق الذي يتحرك فيه النصارى تجد أنهم وكلاء للغرب في نقل ثقافته إلينا. عملوا كسماسرة أفكار للغرب، وظهروا في مجال الأدب (المدارس الأدبية الحديثة) وفي الصحافة (الصحف التي أسست في القرن التاسع عشر في مصر والشام)، وغيرهما؛ وقد تتبعنا فعلهم في بحث مطول بعنوان (تفعيل المناقنين انتهت منه في 2009 ولم ينشر للآن)، والمقصود أن عزمي بشارة يُكمل المشروع النصراني، يحاول تأسيس نخبة سياسية معاصرة ويحاول التأثير على الجماهير من خلال منصات إعلامية عابرة للقوميات. ويعينني هنا بيان أنه صناعي بحث.. مروج أفكار وليس مفكراً. ولأن المقام مقال أكتفي بضرِبٍ مثالي واحد بأهم ما يدندن حوله عزمي ومركزه وهو الطائفية.

بدأ برنارد لويس حديثاً عن التعامل مع المنطقة العربية على أنها منطقة لشعوب همجية لا تصلح لأن تكون دولاً، وطالب الغرب بأن يتعامل مع الشعوب الإسلامية على أنها مجموعات من الملل والطوائف والمذاهب والإثنيات. وبرنارد يطور شيئاً بدأه المحتل الغربي في القرن التاسع عشر وهو الاعتماد على الأقليات كوسيط مع المجتمعات المسلمة في شتى المجالات؛ فقد مدَّ المحتل يداً للأقليات واستخدمهم في توطيد نفوذه. وشكلت فكرة برنارد هذه إطاراً نظرياً للفاعل السياسي الغربي فأقبل على مزيدٍ من دعم الطائفية في مرحلة ما بعد الحرب الثانية (ما بعد الكولونيالية)، ثم اشتد هذا

الدعم بعد انتهاء الحرب الباردة، واستخدمت الأقليات في صناعة الفوضى الخلاقة، بهدف هدم المجتمعات القائمة لإعادة بنائها من جديد.

ركب عزمي بمن جمّعهم فكرة الطائفية (وأفكاراً أخرى، مثل كون الحركات الإسلامية إفراراً للحدثاة ولكنني أضرب مثلاً لا أنني أستقصي)، وراح يبدي قليلاً ويخفي كثيراً كعادة قومه، يحذر من الطائفية ويدعو للدخول في الديمقراطية، ما يسميه "التحول الديمقراطي"؛ والسؤال: ما الذي يبديه وما الذي يخفيه عزمي؟!

يحذر من الطائفية والمذهبية، وأنها كانت سبباً في تفتيت الأمة العربية، وأنها ظهرت مع المحتل. وإلى هنا والكلام جيد إلا أنه يقدم حلاً غير عقلاني، وهو الهروب إلى الديمقراطية، مع أنه يعي جيداً أن الدول التي تمثل النموذج الأمثل للديمقراطية (غرب أوروبا والولايات المتحدة) هي التي أخرجت الطائفية في بلادنا حال الاحتلال وبعده، وهي التي تستعملها اليوم من أجل تخريب العمران في الدول الإسلامية لإعادة هيكلة المجتمع مرة ثانية على قواعدهم هم. بمعنى أنه يدفعنا معهم للخروج من هويتنا الإسلامية والعربية على أمل أن نكون ديمقراطيين كالغربيين، وهو يعلم أن هذا لن يكون وأن الأمر لن يزيد على الخروج من هويتنا الإسلامية والعربية والوقوف، لا قدر الله، وسطاً لا إلى غربٍ ولا إلى شرق، في نموذج جديد (هوية جديدة) لا هي إسلامية ولا هي عربية ولا هي شرقية. بمعنى مشروع صناعة هوية جديدة للمجتمعات العربية. وعزمي يعي جيداً ما يحدث، فكثيراً ما يردد: أن الهوية تصنع.. وهو ما يحاول فعله: المشاركة في صناعة هوية جديدة للمجتمعات المسلمة.

محمد جلال القصاص

شعبان 1441هـ

مارس 2020

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

المتوسطون الجدد

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

حين يشتد الخلاف بين فريقين ويمتد يتحرك فصيل من المهتمين إلى منطقة الوسط. ربما هروباً من متاعب المنازلة الفكرية؛ وربما حرصاً على مودة الجميع...! والتوسط بين حقٍ صريح وباطلٍ صريح باطلٌ جديد.

وغالبًا ما يستقر المتوسطون بأشخاصهم وأطروحاتهم نظرًا لأن الناس تميل في الغالب لمن يبدو وسطًا... أو بالأحرى لمن يتوسط.

يتواجد المتوسطون بين الحق والباطل في كل زمانٍ ومكان، فمثلاً: حين اشتد الخلاف حول الإيمان بين صاحبة والتابعين من ناحية والخوارج والمرجئة من ناحية أخرى، خرجت المعتزلة، وخرج أهل الكلام في المنتصف ووجدوا من يسمع لهم. بل واستقروا إلى يومنا هذا.

وحين اشتد الخلاف بين المؤمنين بالله من أتباع المسيح -عليه السلام- والوثنيين. تم استدعاء "بولس..شاؤول" ومن قاربه من تحت ركام الأيام لتوسطه بين الكفر والإيمان فهو من ناحية يعظم شخص المسيح ومن ناحية وثني يؤله إنساناً وينقض الناموس، وفي ذات السياق تم انتقاء بعض الملاحظات والرسائل التي كتبها بعضهم لأصدقائه أو لنفسه وقيل عنها أنها كتب مقدسة، مع أنها كتابات شخصية لم يزعم من كتبها أن وحياً نزل عليه من السماء حال كتابتها.

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

وفي واقعنا المعاصر: خرج أهل "كفر دون كفر" في الحاكمية متوسطين المسافة بين المطالبين بالشريعة الإسلامية واقعًا في المجال العام والخاص والرافضين للشريعة تمامًا متأولين الرفض أو كافرين بها. وكذا انتشر القول بجواز كشف الوجه واليدين حين طال الصراع بين دعاة الرذيلة وحراس الفضيلة. وقبل لم يكن يخطر ببال أحد أن مسلمة تكشف وجهها.

المتوسطون كأداة في الصراع:

من قبل كان الأمر عفويًا، فقد كان ظهور المتوسطين وانجذاب الناس نحوهم يحدث بشكل تلقائي، إلا أن الأمر تطور في واقعنا المعاصر، فقد أصبح المتوسطون بين الحق والباطل أداة في الصراع يستخدمها المبطلون. يفسحون لهم المجال وربما يشجعونهم ويفيدون منهم. وتكون الإفادة في مستويين: مستوى قريب ومستوى بعيد.

في القريب: يكون الإطار العام الذي يُفَعَّلُ فيه "المتوسطون الجدد" من قبل الباطل وأهله هو التشويش على الجماهير، بحيث لا يصلحهم خطاب الجادين نقيًا، بمعنى أنهم يزاحمون الجادون بالمتوسطين، وعامة الناس يميلون بطبعهم لمن هو أسهل في الطرح، وأدوات الباطل الإعلامية والسلطوية كثيرة تحمل المتوسطين ومن دونهم إلى كل أحد فلا تستطيع صم أذنك.. تسمعهم أو تسمع بهم، شئت أم أبيت.

في المستوى البعيد: يكون الهدف هو إحداث زحزحة فكرية باتجاه الباطل وأهله، وذلك أن الطرح الفكري يكون ثلاثي دائمًا، ودعني أضرب الأمثال ليتضح المقال:

من الثمانينات إلى منتصف التسعينات في مصر، كانت ساحة المطالبين بتطبيق الشريعة ثلاثة: فريق يريد الوصول لأهدافه بالقتال (جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية)، وفريق يتبنى ذات الأفكار عن الحاكم والمبدلين للشريعة ولكنه لا يرى السلاح وسيلة للوصول إلى هدفه ويجاهر بتكفير الحكام على المنابر (سلفية القاهرة

كالشيخ عبد المقصود والشيخ فوزي السعيد، وعامة المستقلين)، وفريق لا يقول بقولهم ولا يفكر في وسائلهم (سلفية الأسكندرية).

انفردت السلطة بمن يقاتلون، وسمحوا لمن دونهم من سلفيين وغير سلفيين. وبعد أن حُضبت شوكة المقاتلين وأخرجوا من ساحة الصراع عملياً أصبح من يقول بقولهم ولا يحمل السلاح هو الطرف المتشدد، ومرجئة الفقهاء هم المتوسطون. وافتعل المبتطلون فريقتاً وسطاً تمثل في "شيوخ الفضائيات" وفي "الدعاة الجدد". واستخدمت الأدوات السلطوية (الإعلام وغيره...) في تمكين هؤلاء من منطقة الوسط؛ فمال الناس إليهم والتفوا حولهم لأنهم يتوسطون المشهد.

وفي مرحلة الثالثة تم قضم "سلفية القاهرة" وإخراجهم من المشهد، على الأقل من دعوة العوام. وأصبح الدعاة الجدد وسطاً بين الفضائيين وسلفية الأسكندرية. فاستقر الدعاة الجدد وتكاثروا؛ وكانت الأمور ترتب - كما يبدو لي - لأن يدخل سلفية المنصورة على الخط لولا قيام الثورة.

المتغير (العامل) المؤثر في الحدث هو: أدوات الإعلام وأدوات السلطة، فما ظهر من ظهر وانتشرت كلمته إلا لأنه وجد منبراً عالياً يأتيه الناس جميعهم (قناة فضائية)، ودعماً أمنياً إذ قد سمح له من النظام ومنع غيره.

والآن تحدث زحزحة أخرى يحاولون جعل من أيدهم من السلفيين طرفاً متطرفاً، والأزهر معتدلاً، والمفردون من أمثال "البحيري". ويتم إلغاء البقية جملةً وتفصيلاً، فقد أحضر البحيري للحدث في الدين، وأحضر الأزهريون "الرد" عليه، وأبعد السلفيون.. كل السلفيين.

تجليات جديدة للمتوسطين الجدد:

شهدت الساحة الفكرية في الأمة العربية عموماً ومصر خصوصاً ظهوراً آخر للمتوسطين لا يقل خطورة عن ظهورهم في المشهد السلفي الإخواني العلماني. بعض

مظاهر ذلك في استدعاء "مالك بن نبي" وسطاً بين "سيد قطب" والعلمانيين، فقد كثر الحديث عن مالك بن نبي، وتم استدعاؤه من تحت ركام الأيام لينصب وثناً تأوي إليه جموع من المتوسطين الجدد الراضين للصحويين والعلمانيين معاً، أو العاجزين عن مواجهة الباطل وأهله مواجهةً صريحةً يأخذون بفقهِ المراحل.

لست هنا لمناقشة مالك بن نبي ولكني هنا: للقول بأن استدعاؤه اليوم في الإجابة على سؤال النهضة بشقية: لماذا تخلفنا؟، وكيف نتقدم؟، هي حالة من التوسط بين الحق والباطل، تُستخدم هذه الحالة في فتح طرق جانبية للجادين وجماهيرهم، ومع الضغط السلطوي من قبل المستبدين في السلطة تتفرق الجموع في تلك السبل. فالمتوسطون مفعول بهم وليسوا فاعلين . . أداة صراع في الحدث، والفاعل هو منظومة الاستبداد بأدواتها الإعلامية والأمنية.

محمد جلال القصاص

غرة رجب 1436

2015 /4 /20

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ما لم يفهمه الليبرالي! (1)

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

حال حديثه عما سماه بـ "الأزمة الدستورية" تعجب من اهتمام المسلمين بالقيم دون الاهتمام بالمؤسسات. يقول: شهد التاريخ الإسلامي حالة من الضعف المؤسسي في مقابل الاهتمام الكبير بالقيم.

كيف استنبط هذه الملاحظة؟

ولماذا لم يحاول تفسيرها؟

يبحث المتحدث عن "دولة إسلامية معاصرة"، أو عن أسلمة الدولة القومية الحديثة. ويرى أن هذا الواقع شديد التعقيد، والذي يدار بمؤسسات بيروقراطية معقدة، أصبح حتمًا لازمًا، ولا يمكن الفكاك منه. ومن خلال موقفه هذا راح ينظر للموروث الثقافي في الأمة فوجده خليًا من الأشياء التي تناسب الواقع الذي نعيشه حسب فهمه.. وجده مليئًا بالقيم والمثل العليا، ولم يجد فيه إلا قليلًا من المؤسسات فظن أن نموذجنا الحضاري هناك... بعيد.. في الظلام.. أو في قاع. ولا يستحق أكثر من السخرية منه وصدّ الناس عنه. ولذا صرّح بأن ما كتبه الأئمة الأعلام في السياسة الشرعية أصبح عبئًا على الحضور لا موردًا عذبًا!!

التعقيد من سمات العلمانية، والنموذج الإسلامي ليس بحاجة للمؤسسات المعقدة، ونضرب مثالًا بالتجارة (الاستثمار). في نموذجنا الحضاري قامت التجارة على الثقة بين البائع والمشتري، فكانت الصفقات تتم بالكلمة، وإن اشتدا الطرفان في طلب

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

التوثيق للعقد استحضرا شاهدين ممن حولهم، وإن اشتدا أكثر فورقة تكتب في دقائق معدودة. هذا كل ما كان يستلزمه البيع والشراء في مجتمع تسوده القيم والمثل الإسلامية. وظل هذا سائداً إلى وقت قريب. وحتى الوقف، وهو المؤسسة الأكثر انتشاراً في النموذج الإسلامي، لم يكن يحتاج لمؤسسات معقدة لإدارته، فقد كان كل وقف يدار على حده بشكل منفرد تحت مظلة الأحكام الفقهية الخاصة بالوقف. والمجتمع بقيادته الحقيقية (أهل الرأي وأهل الحل والعقد وأهل المروءات) حاضر يراقب ويصوب. لم يكن ثمة حضور للسلطة في شئون الناس كما يحدث اليوم، فالسلطة هي التي تحدد شروط البيع والشراء وهي التي تشرف على عمليات التجارة من خلال مؤسساتها (المحليات والقضاء).

والآن.. بعد أن ظهر الكافر والمنافق ومن لا خلاق له احتاج البيع والشراء لأيام من التفاوض بين البائع والمشتري، يتخللها جلسات بما أيمان فاجرة وأحاديث غيبة ونميمة، وتدابير، وضياع للمال والوقت، ثم عشرات الإجراءات في المحاكم، وقد لا يسلم التاجر بعد ذلك. حين تسود قيماً فإن مركزية الدولة وتحكمها في كل شيء يتراجع، ويرتفع منسوب الثقة بين الناس ويقل الصراع بينهم، فلا يحتاجون لعشر معشار ما هو موجود من مؤسسات.

وقل مثل هذا في التعليم، فقد أخرجت القيم والمثل الإسلامية نموذجاً في غاية البساطة وغاية الفاعلية وقليل الكلفة (من حيث الوقت والجهد والمال)، وهو نموذج "الإجازات". وفيه: شخص بارز في علم من العلوم يذهب إليه راغب في تعلم هذا العلم ويصحبه (يلازمه) إلى أن يتقن هذا الطالب ما يتقنه الشيخ ومن ثم يجيزه (يعطيه إجازة بأنه قد أتقن هذا العلم)، وفي هذه الطريقة كثير من الخير، مثل: أن المتعلم راغب فيما يتعلمه وبالتالي يكون حريصاً وصاحب مهارة غالباً، إذ لا يُقدم أحد على تعلم ما يبغضه، وخاصة أن التفاضل في المجتمع الإسلامي بالتقوى لا بالحرفة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: 13)؛ وفيه من الخير أن العالم-

أو الشيخ، أو الأستاذ- يُخَدَّمُ من طالب علمٍ وهي خدمة عالية.. يخدمه كأنه مولاه، كحال يوشع بن نون مع موسى عليهما السلام (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ) (الكهف: 60)- ولم يكن يوشع عبدًا لموسى، وإنما كان يلزمه ويخدمه لزوم العبد لسيدته كي يتعلم منه، ثم ورثه بعد ذلك وفتح الله به بيت المقدس- وفيه من الخير أن العملية التعليمية تكون بين متمكن (الشيخ) وراغب (الطالب)، وبعيد عنها تمامًا من لا حظَّ لهم ولا رغبة لديهم في العلم وأهله. هكذا ببساطة تتم العملية التعليمية، أما الآن فهذا الكم الغفير من المؤسسات شديدة التعقيد ثم ماذا؟

كل خريج في تخصص معين يحتاج إلى إعادة تأهيل كي يمارس ما قد تخصص في تعليمه، وكثير من مجالات الحياة بلا أكفاء فالتعليم في وادٍ وحاجة المجتمع في وادٍ آخر، وقد شرحت هذا مفصلاً في مقال بعنوان (حيث يحسن وحيث يجب).

نمذجنا.. قيمنا ومثلنا العليا تعيد صياغة الإنسان فتنتج فردًا آخر، صادقاً في تعاملاته ممتثلًا لما أمر الله مجتنبًا لما نهى الله عنه، فلا يقبل حرامًا ولا يظلم إنسانًا أو حيوانًا؛ وفوق ذلك مكّنت الإنسان من الخيرات التي أودعها الله في الأرض وفوق الأرض، فصار حرًا يتحرك كيف يشاء ويعمل فيما يشاء، ويتملك ما استطاع أن يصلحه (الإحياء)، ويقدم على ما يرى فيه الخير دون إذن من السلطة ما دام لم يضر غيره.. أصبح حرًا في شتى المجالات وليس في جزء من المجال السياسي كما هو اليوم . نمذجنا عالج أمة كانت في زيل الأمم.. يعبدون الأصنام ويأتون الفواحش ويقطعون الأرحام ويسبيون الجوار ويأكل قويُّهم ضعيفهم فأخرجت منهم خير أمة أخرجت للناس.

النموذج الإسلامي مختلف تمامًا، والإنسان المعاصر منتوج علماني كلية أو في تعاملاته، وفي أحسن الأحوال هجين. وأتحدث عن المجموع لا عن الجميع. ولذا خرج فينا من يتعجب من النموذج الإسلامي الأول ويراه بعيدًا.. ولا يصلح.. يراه ماضيًا قد انتهى. مع أن إعادة صياغة إنسان لا تحتاج للكثير من الوقت والجهد إن سلمت نوايا ذوي الأيدي والأبصار.

إن السؤال الذي ينبغي علينا طرحه هو: كيف نتخلص من هذه المركزية الشديدة التي غيّبت دور المجتمع وجعلته مستعبداً من سلطة مركزية.. وجعلته قلقاً مضطرباً ينفق كل ما يجد من وقته وجهده وراحة باله وماله؟.. كيف نعود إلى الحياة الهادئة المطمئنة التي تسير بأقل نفقة من راحة البال والوقت والجهد والمال؟

والبحث عن إجابة نظرية ثم عملية لهذا السؤال فريضة على كل عاقل، فالعلمانية بأنبيائها (مؤسساتها) مزّقت الدين وأرهقت الإنسان وطاردته في دروب الحياة حيران لا يكاد يهدأ داخلياً ولا يستقر خارجياً. وفوق هذا فإن العلمانية تتوحش يوماً بعد يوم وتصر على هضم القيم الإسلامية أو تلقيحها لإخراج شيئاً آخر لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يُعظّم ماضية ولا يريد واقعاً، وإن العلمانية تتطور في اتجاه تمكين الإلحاد، والصراع الشامل، والعيش القلق المضطرب فلسنا أمام حالة تريد أن تأخذ وتترك (تتعاش)، وإنما أمام من لا يريدنا، وهو نفسه متقلب يتحول يوماً بعد يوم.

ولماذا لم يحاول التفسير!؟

من أجدديات تحليل الظواهر الاجتماعية (سياسية وغير سياسية) أن ترصدها وتبحث عن المتغيرات الفاعلة فيها، سواءً أكانت متغيرات وسيطة أم متغيرات مستقلة أو متغيرات تابعة، ثم - في خطوةٍ ثالثة - تحاول التعرف على مستقبل الظاهرة، فلماذا لم يحاول الليبرالي تفسير الظاهرة. لماذا بعد أن رصد الظاهرة راح يستشهد بها على خفته الفكرية دون أن يتأملها ويحاول فهمها. لو كان يعظم نموذجه ويثق بأنه من آثار الوحي (مع الأخذ في الاعتبار تشويهاً البشر بموجب نقصهم الطبيعي، ومع الأخذ في الاعتبار أن المسافة بين النص والتطبيق في النموذج الإسلامي أقل بكثير منها في النماذج الأخرى كالشيوعية والليبرالية والنصرانية واليهودية... إلخ) لوقف وقوف المنتمي يبحث عن تفسير مستيقناً بأن في الأمر خير لا بد من البحث عنه؛ ولكنه أشرب العلمانية ولم يعد يرى للخروج من هيمنتها سبيلاً، والله يقول: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (غافر: 51)، والله يقول: " كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ " (المجادلة: 21).

وإذا تنازلنا وفكرنا بالمنظور "العقلاني/ الواقعي" فإن "دوام الحال من المحال"، فالأيام دول كما قال الله: "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِهُنَّ بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ" (آل عمران: 140)، وحركة التاريخ دائرية أمة تصعد ثم تهبط ولا يسير التاريخ في خط مستقيم صاعد قد وصل لنهايته واستقر عند علمانيتهم الملحدة كما يحاول الغرب إيها منا.

إن زوال القوى الكبرى أمر مشاهد في كل جيل. فكل جيل يشهد زوال دولة ومجيء دولة أخرى، وقد سمع جيلنا عن بريطانيا وشاهد السوفيت وهم يرحلون وقريباً- إن شاء الله وبحوله وقوته- يشاهد الأمريكان وهم يجزمون حقائقهم ونخلفهم من بعدهم بحول الله وقوته؛ وإن من يأخذ بأسباب النصر يحصل عليه، أما التصالح مع من يهدم دينك ويملكك (بالحال أو بالمآل) إلى الكفر والإلحاد فأقل ما فيه أنها حالة من قلة عقل وقلة مروءة. فعلى الرواد أن يفكروا في تمكين منظومتهم لا في تطويعها لصالح عدوها. ومن يعبث بجثا عن ذاته، أو من قد سكر واغتر بكثرة المتابعين واعتلاء منابر العلمانيين، عليه أن يفكر بأنه موقوف غداً بين يدي الله ومسئول ثم يساق إلى نارٍ تلظى أو إلى جناتٍ ونعيم؛ قال الله: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: 64).

محمد جلال القصاص

الصرم 1442هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قنطرة الإلحاد: عباس العقاد وعلي الوردي نموذجا.

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

في الساحة الفكرية عدد من الرموز يشكّلون حالة من الوسطية بين العلمانية والصحة الإسلامية، من هؤلاء المهندس مالك نبي والدكتور علي عزت بيجوفيتش والدكتور عبد الوهاب المسيري، ويلحق بهم جماهيرياً عباس العقاد وعلي الوردي، وغالباً ما تتطور أطروحات هؤلاء في اتجاه علماني، مما يدفع بسؤالٍ عن مدى تأثير هذه الظاهرة، التي تتوسط طرفين، على التجديد في الفكر الإسلامي؟

ولأن الظواهر تقرأ من زوايا مختلفة، وفي مستويات مختلفة، ويصعب تفسيرها بسبب واحدٍ، ولأننا في مقال وليس بحثاً علمياً، سنحاول الاقتراب من زاوية واحدة أسميها "قنطرة الإلحاد"، ونضرب المثال بعباس العقاد وعلي الوردي، وإن يسر الله وقتاً وجهداً عدنا من زاوية أخرى.

التقى عباس العقاد وعلي الوردي على فكرتين: الأولى: القول بحتمية تأثير العوامل الوراثية والبيئة؛ والثانية: التطور المعرفي. فكلاهما يقول بحتمية تأثير العامل الوراثي والبيئة، وكلاهما يقول بالتطور المعرفي، والقولان أعرض قنطرة يمر من عليها الإلحاد لثوابتنا الإسلامية!!

أولاً: البيئة والعامل الوراثي:

يدعي عباس العقاد أن العامل الوراثي والبيئة هما المكونان الرئيسيان للعبقرية، فعبقرية النبي، صلى الله عليه وسلم، سببها حب التعبد الذي ورثه عن آباءه، الذين كانوا

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

سدنة البيت والمشرفين على شعائر الكفر قبل الإسلام، ولم يكونوا كذلك. بل كانت فيهم السقاية، والتفاصيل عند جواد علي في كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ويزعم أن عبقرية أبي بكر سببها ولعته يبطله المغرم به (رسول الله، صلى الله عليه وسلم)، وعمر صنعت الجندية عبقريته، وعلي أخلاق الفروسية هي التي صاغته عبقرياً، وعثمان بن عفان الشقاء في بيت زوج أمه (عقبة ابن معيط) هو الذي دفعه إلى الإسلام دون بني أمية وليس بعبقري عنده؛ ويزعم أن فاطمة الزهراء بنت الحبيب، صلى الله عليه وسلم، ورثت شخصيتها من جد أمها الكافر خويلد.. يقول عن بنت النبي: متعبده مثل جدّها الكافر خويلد!!

ولا تصدق شيئاً من هذا فكله من خيال العقاد!!

و "علي الوردي" يسند كل فضيلة في الشخص للعامل الوراثي والعامل البيئي، وحين أرادوا أن يكرموا بجائزة لتفوقه رفض تسلمها، مدعيًا أن لا فضل له في تفوقه الدراسي، يقول: ما أنا إلا حصيلة عوامل بيئية ووراثية ولا فضل لشخصي في شيء مما فعلت، يقول: هي البيئة وهي الوراثة. هكذا يتحدث!!

ولا أدري: هل كان وحيداً؟ أم كان معه في نفس البيئة، ومن نفس البيت، آخرون ولم يكونوا مثله!!؟

ثانياً: التطور:

يؤمن كلاهما بفكرة التطور: العقاد يعمم فكرة التطور على كل شيء، يقول عن الإنسان الأول أنه كان همجياً مشرّكاً، ثم تطور في الأديان كما تطور في أساليب المعيشة، فمن وثنية مطلقة إلى وثنية محدودة (عدد قليل من الآلهة) إلى التوحيد. وبداية التوحيد عنده توحيد الفراعنة الناس على آتون ("إله الشمس). ويتحدث بأشياء أخرى أشد غرابة من هذا!!

ويجاهر عباس بالإيمان بـ (نظرية) دارون عن أصل الأنواع، بل ويدافع عنها!!
ومن يقرأ في كتاب الله ساعة يعلم أن الإنسان الأول هو آدم- عليه السلام- خلقه
الله بيده وعلمه: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي}، {وَعَلَّمَ
آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}، واصطفاه من خلقه: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ). وفي الحديث عن الإنسان الأول أنه (نبيُّ مُكَلَّم، خَلَقَهُ
اللَّهُ بِإِيْدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ). فكان نبياً ولم يكن همجياً مشركاً كما يفترى عبّاس.

وفي محكم التنزيل أن الله بعث في كل أمة نذير ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24)، وأن الأمم السابقة أهلكت بذنوبها (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ
مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى)، فالتاريخ قبل موسى عليه السلام لا يعلمه إلا الله، ولا
نعرفه عنه شيء إلا مما جاء فيما أنزل الله على رسله، ولذا كان أول ما سأل عنه
فرعون هو أخبار القرون الأولى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي
كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢). قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٣)
(طه: 52-54)

فالبشرية لا تتحرك في خطٍ مستقيم متصاعد (متطور بزعمهم)، وإنما تزدهر وتباد
تبعاً لحالتها مع رسل ربها، فكلما بعدوا عن منهج ربهم جاءهم الهلاك ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يونس: 13).

وعلي الوردي لا يكاد يتحدث أو يكتب إلا ويقول: تطورت الأخلاق حتى ضاعت
وتبدلت... يقول: تطورت أخلاق البادية حتى ضاعت وتبدلت، وتطورت المدينة
حتى ضاعت أخلاقها وتبدلت. ولا يتحدث عن أن قيماً ما حلت محل قيم أخرى
فأزاحتها، وقد يحدث العكس. بل يحدث العكس بالفعل!!

قنطرة الإلحاد الأعرض:

فكرة التطور وحتمية العامل الوراثي والبيئي هي القنطرة الأعرض التي يمر من عليها الكفر إلى ثوابتنا؛ فغاية المحادين لله ورسوله أن يثبتوا أن الرسالة من الأرض.. تطور بيئي. أن يثبتوا أن القيم لم تأت وحيًا من الله وإنما اهتدى إليها البشر من أنفسهم.. أن الكون أزلي أبدي، من مليارات السنين (عصر الديناصورات) وإلى مليارات السنين (بعد انتهاء البشر، بمعنى أن البشر مرحلة تطورت من غيرها وتتطور إلى غيرها)، فالحياة على الأرض تتطور وتستمر للأبد. يتحركون حول هذا المعنى دائمًا. ويأتون من كل باب يستطيعون الدخول منه.

المعركة حول ادعاء أرضية الرسالة هي الأشد والأوسع والأعمق في الفكر الإسلامي، وعامة ما يطرح من المنافقين والغافلين يتحرك حولها، فالذين يتحدثون عن عبقرية النبي، صلى الله عليه وسلم، والذين يقفون تحت مظلة "التنمية البشرية" .. أولئك الذين يظنون أن سعادة الأفراد ونهضة الأمة بالجد والاجتهاد فقط، وأن النهوض قد يتحقق بعيدًا عن النموذج الإسلامي الأول. وقد شاهدت أحد علماء الاجتماع يتحدث في مؤتمر علمي قائلاً: يأتمر المختصون من الكافرين كل عام ليثبتوا أن الرسالة تطور بيئي، وذلك منذ أربعة عقود، ولم يفلحوا للآن.

الرسالة ظهرت فجأة وبدون مقدمات في المجتمع، بمعنى أنه لم تكن في مكة حركة علمية أو ظواهر تعبدية تنبئ عن تطور الحال لمشهد الرسول والصحابة، وإنما كان الكفر والفسق على أشده. ولم يُعرف شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة بخطابة، أو شعرٍ، ولا بتعلمٍ، ولا بتعليمٍ، وظل هكذا إلى أن بلغ الأربعين، ثم فجأة بدأ يتلو عليهم كلامًا من جنس كلامهم، وفي ذات الوقت مختلف عن قولهم (القرآن الكريم)، ويأتي بخوارق للعادات (معجزات) يثبت بها صدق حديثه، ويتحدث عن غيبٍ. وهو صاحبهم.. بمعنى يلازمهم ويعرفونه معرفة الصاحب بصاحبه. وهذا ما حاجَّ الله به المكذابين الضالين، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْهُ عَلَىٰكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمْرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦)

(يونس:16)، ويقول الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝۱ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝۲﴾ (النجم:1-2).

وتغيرت الجزيرة العربية. في سنوات قليلة. تحول نفس الأشخاص من رعاة للشاة إلى رعاة للأمم. بحفنة من المفاهيم والتصورات البسيطة، التي تجيب على ذات الأسئلة التي تطرحها الفلسفة المعاصرة: الخلق، دور الإنسان في هذه الحياة، وماذا بعد الموت؟ الفكرة الكامنة وراء تسويق مثل هذه الأفكار (التطور، وحتمية البيئة) هو صرفنا عن منظومة القيم السماوية.. النسق العقدي الرباني.. الكتلوج الجاهز والقابل للتطبيق، والذي يثمر تحولاً جذرياً في الأشخاص والواقع. فنحن المسلمين غير هؤلاء؛ سماويون. لسنا أرضيين كما ادعى عباس العقاد وعلي الوردي، وهما مثلان لفكرٍ منتشر تغلغل في عقول شباب الصحوة الإسلامية وأثر فيهم، ولك أن تتدبر في الجموع التي تنصت لهذين الكاتبين وهما يحملان هذه الرذيلة الفكرية وينشرانها على العوام؛ والدعاة الجدد وهم تطبيق عملي للبرمجة العصبية/ التنمية البشرية؛ بل والمنصتين لأحاديث البرمجة العصبية نفسها، وقلّ الملتفون حول حديث النبي، وحال النبي، صلى الله عليه وسلم، وصحابته، رضوان الله عليهم.

محمد جلال القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أغرب ما وجدت في إسلاميات عباس العقاد

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

أغرب ما وجدت في إسلاميات عباس العقاد حديثه عن فاطمة الزهراء. بنت النبي ﷺ، وزوج علي بن أبي طالب، وأم السبطين، رضي الله عنهم أجمعين، يقول "كانت مفطورة على التدين وراثه وتربية"⁽²⁾. ولا تحسب أنه يتكلم عن وراثه فاطمة، رضي الله عنها، للتدين من أيها رسول الله ﷺ، ولا أنها تربت على التدين من أبيها وأمها. بل من جدها لأمها، خويلد وآبائه وإخوانه في الجاهلية كورقة بن نوفل⁽³⁾؛ فعنده أن خديجة، رضي الله عنها، كآبائها، متدينة، وبالتالي بث هذا التدين (الجاهلي الموروث) في بنتها فاطمة الزهراء!!

وهنا ملاحظتان:

الأولى: أنه لم ينسب فاطمة، رضي الله عنها، لأطهر بيت عُرف في التاريخ (بيت النبي ﷺ)، بل وأطهر إنسان، وأقدر إنسان على التأثير، وهو النبي ﷺ. وخاصة أنها كانت شديدة الشبه به ﷺ وشديدة الارتباط به ﷺ، ومعه لم تكذ تفارقه، ويقول عنها ﷺ "بضعة مني". مع كل هذا لم ينسب تدينها له ﷺ. ومع أن عباس في أحاديثه عن عباقرته كان ينسبهم لآبائهم وأمهااتهم!!

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

(2) فاطمة الزهراء ص 20.

(3) تكلم بهذا في بداية بحثه عن السيدة فاطمة الزهراء، وأعادته في نهاية بحثه.

والثانية: أنه لم ينسبها لبني هاشم. لم يقل فُطرت على التدين كما كان بنو هاشم؟ وقد كانوا أكرم الناس وأحسنهم خلقاً في الجاهلية والإسلام؟
والسؤال: لماذا نسبها لفرع عبد العزي بن قصي بن كلاب؟ مع أن فرع عبد العزي كان قليل الحضور في أحداث مكة قبل البعثة وبعدها، مقارنةً بالفروع الرئيسية في قريش (بني هاشم، وبني أمية، وبني مخزوم)، وأمها (خديجة رضي الله عنها) توفيت مبكراً وهي، رضي الله عنها، لازلت صغيرة؟
الجواب:

دبت إلى عباس فكرة شائعة وقتها، بثها القساوسة والمستشرقون الطاعنون في الوحي من أمثال: "جوزيف قزّي/ أبو موسى الحريري" وخاصة في كتابه قس ونبي: بحث في نشأة الإسلام"، ورددها بعض المنتسبين للإسلام من الملاحدة الرافضين لنبوة النبي، صلى الله عليه وسلم، مثل خليل عبد الكريم في كتابه "فترة التكوين". وهذه الفكرة هي شيوع التدين في بني عبد العزي بن قصي بن كلاب، وأن بعض أبناء قصي بن كلاب هو الذي أعدّ محمداً ﷺ للرسالة.

ادعى "جوزيف قزّي" في كتابه "قس ونبي: بحث في نشأة الإسلام"⁽¹⁾ أن مجتمع مكة، كان مجتمعاً نصرانياً⁽²⁾ وأن الكعبة كانت كنيسة رئيسية يشرف عليها "الأسقف" ورقة بن نوفل، وألحق الحجاز بأبرشيته⁽³⁾، وادّعى أن ورقة بن نوفل أحاط بعلوم الأديان والتاريخ والرسالات والطبيعة ولغات الأمم.. يقول كان، وعلماء النصارى،

(1) ينظر: "قس ونبي: بحث في نشأة الإسلام" لأبي موسى الحريري، (لبنان، دار لأجل المعرفة، 2005).

(2) بل والحجاز وعامة الجزيرة العربية، ينظر: "قس ونبي" ص 17-22.

(3) كلمة لاتينية الأصل، وتدل على عدد من الكنائس يتمتعون باستقلال ذاتي.

عليمًا بكل شيء، وأنه هو الذي "أوحى وعلم ودرب وأرسي الدعائم والثاني [يقصد النبي ﷺ] هو الذي سمع وتعلم ودرّس وشيّد البنيان"⁽¹⁾. وادعى أن القرآن إعادة صياغة للإنجيل العبراني، وأنه كتابه بادعاء أن الإسلام والنصرانية إسمان لمسمى واحد، وأن القس ورقة بن نوفل أصبح نبيًا في شخص محمد ﷺ، أو أن النبي ﷺ ما هو إلا قس!!

هكذا تكلم "قزي" وهو الآن بين يدي ربه (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لِيَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا) (الفرقان: 22)

وأخذ الشيوعي الماركسي خليل عبد الكريم ذات الفكرة وأحدث فيها تغيرات شكلية، حيث ادعى أن الذي أشرف على إعداد النبي ﷺ للرسالة هي خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، وأطال الحديث عن خديجة، يقول سافرت في طلب العلم والحكمة، وجلست للقساوسة والرهبان في الشام واليمن والحجاز، فأخذت عن "ورقة بن نوفل" وأخذت عن "بحيرا الراهب" ثم علمت النبي ﷺ مشافهةً، ودرسته، ورسمت له الخطة، ومولته بأكوام من الذهب.

واختلافهم يدل على أن كل واحدٍ منهم يغرف من خياله.

ثم جاء عباس متشبعًا بذات الفكرة، ولكنه كعادته يتوارى من القوم ويتحدث من طرف خفي، فنسب فاطمة لهذا الفخذ من قريش، وكأنه يقول: أن بيت النبي ﷺ مصنوع بهؤلاء!

وكلامهم هذا يُسوّق في سياق تشكيك النصارى في الإسلام، أو إثارة الغبار حول البعثة، وإشغال الجادين بالرد عليهم. ولا يقول به مسلم، بل لا يقول به كافر

عاقِل. فالقرآن الكريم يتحدى بنفسه، ويعلن صراحة أنه من رب العالمين (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) (الشعراء: 192-194)، فضلاً عن الشرائع والتشريعات، وفضلاً عن موت خديجة وورقة مبكراً. وفضلاً عن أن جميعهم يقرون ويعترفون بأن لا دليل لديهم وإنما هي تكهّنات يتحدّثون بها من عند أنفسهم. فانظر أين يقف عباس العقاد؟

د. محمد جلال القصاص

ذو الحجة 1443

يوليو 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

خطيئة ابن خلدون

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

يُعدُّ عالم الاجتماع العراقي الشهير الدكتور علي الوردي أحدَ أهمِّ وأشهر من اهتموا بمخرجات ابن خلدون. ومن أهمِّ ما كتب "الوردي" عن ابن خلدون كتابًا بعنوان "منطق ابن خلدون". وفي مقدمة هذا الكتاب عقدَ مقارنةً بين المفكر الإيطالي سيء السمعة ميكافيلي وابن خلدون، وذكر أن آراء ابن خلدون كانت أشدَّ انحرافًا عن شرعة الأخلاق والأديان من آراء ميكافيلي، ولكنَّ الناس لم ينتبهوا لها، وذلك لأن ابن خلدون كتب بأسلوبٍ دبلوماسي غطَّى به الآراء المنحرفة بغطاءٍ براقٍ.

ومعلومٌ أن الناس أهملوا ابن خلدون بعد وفاته لقرونٍ عدة، فلم يلقَ اهتمامًا ممن حولَه ولا من الذين جاءوا من بعده، كما كان الحال مع الأئمة الأعلام كالإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري وابن تيمية وابن القيم. فكيف، ولماذا، زاع صيِّتُ ابن خلدون اليوم، وهو على ما وصف علي الوردي من الانحراف الشديد؟!

عكف المستشرقون على قراءة التراث الإسلامي وعمدوا إلى إخراج النماذج الشاذة منه، وكان الهدف العام هو تقديم قراءة للإسلام تتوافق مع السياق العلماني الناشئ في أوروبا؛ فكان مما أخرجوه كتابات ابن خلدون. اهتم به الغربيون لشيءٍ رئيسي أحدثه في الفكر الإسلامي، وهو القول بأن البيئة هي التي تُشكِّل سلوك

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

الإنسان... بمعنى أن البيئة هي المؤثر الأكبر في شخصية الإنسان.. في أفكاره ومزاجه ولون بشرته.. وكل ما يظهر من سمات شخصية على الإنسان.

ويترتب على ذلك أشياء من أهمها: الاستسلام للقيم السائدة في البيئة التي نعيش فيها، وهي قيم العلمانية التي احتلت بلاد المسلمين. بمعنى أن أفكار ابن خلدون عن هيمنة البيئة وتحكمها قدمت تبريراً للاستسلام لواقع تغريب الشريعة.. قدمت تبريراً لهيمنة العلمانية. وليس هذا فقط بل قدمت دعماً لأمّهات الأفكار المنحرفة الوافدة إلينا من عند الغرب، مثل فكرة التطور في المجال الثقافي والعلمي والتي تعني أن البشرية تسير في خطٍ مستقيم وأن ما عليه الناس الآن في تفاعلاتهم الاجتماعية هو الرشد. يقولون الديمقراطية الغربية حالة من الرشد البشري، يقولون هذا وهي تفعل بهم وبنا ما لا يخفى على أحدهم، ويتفرون حول هذه الفكرة ليُجملوها ويمرروها على المسلمين، فبعضهم يحاول أسلمتها وبعضهم يحاول مد الجسور بينها وبين الإسلام، وبعضهم يمررها بدعوى الإضطرار، وكلهم قادمون من عند ابن خلدون.. من القول بأن السائد في البيئة لا يمكن دفعه.

ومن أخبث التطبيقات على فكرة ابن خلدون هذه القول بأن البعثة المحمدية بنت بيتها، وأن ما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، تطور للبيئة. وهو محور رئيسي عند الرافضين لرسالة الله للبشر بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وقد ناقشت هذا بشيء من التفصيل في مقال بعنوان "فجائية الدعوة أكثر ما يؤرق المخالفين"؛ وقدّم ابن خلدون تطبيقاً خاصاً لفكرته، وذلك فيما يتعلق بالبعثة المحمدية، وذلك حال تفسيره لنشوء الدولة، والقول بتوحش العرب كسبب مباشر لإقامة دولة، وهذا الكلام مردودٌ كُلُّهُ، ويمرره قومنا لأنه يناسب هواهم فيما نكابه من أحداث، وإن شاء الله أقدم مناقشة منفصلة لهذه الفكرة في مقالٍ مستقل.

وعند التأمل في خطيئة ابن خلدون، نجد أن الواقع (البيئة، أو المجتمع) نقطة انطلاقٍ للتشخيص، للتعرف على المناطِ كي نأتي له بالحكم الصحيح إذا كان المقام مقام افتاء، أو نبحت له عن الدواء إذا كان المقام مقام دعوة وإصلاح، ولكنَّ الواقع (البيئة أو المجتمع) -أبدًا- لا يكون مصدرًا للقيم الحاكمة. بمعنى أن القيم هي التي تصوغ الواقع وليس العكس. فكلُّ مجتمعٍ عبارة عن تطبيقٍ لمنظومة قيم، أيًا كان وصفها. وإذا وُجدت منظومة ما من القيم من يغرسها في قلوب النَّاس ويرعاها إلى أن تتحول إلى سلوكٍ وعاداتٍ فإنها ولا بد تُعيد صياغة الواقع/ البيئة من جديد؛ تمامًا كما تبدد ظلام الجاهلية بما أرسل الله به محمدًا، صلى الله عليه وسلم. فقد تغير واقع الناس كليَّةً، على عكس ما يزعم ابن خلدون والمتأثرون به.

وفي واقعنا المعاصر نموذجٌ شديد الوضوح يشهد على خطأ القول بحتمية البيئة... يشهد على خطأ القول بأنَّ البيئة تفرض السائد فيها من مفاهيم على الجميع. هذا النموذج هو تمكُّن الإباحية (الجنسانية كما يُسميها ميشيل فوكو في كتابه تاريخ الجنسانية)، من المجتمعات الغربية وظهورها في المجتمعات الإسلامية حتى كادت تتمكُّن منَّا كما تمكنت من غيرنا. فقد كانت المجتمعات الغربية إلى وقتٍ قريبٍ محافظةً لا تعرف التعري والرذيلة. كانت إلى وقتٍ قريبٍ لا تعرف غير الحجاب وقرار النساء في البيت، حتى دبَّت فيها منظومة الإباحية، ووجدت من يؤمن بها ويدعو إليها ويدافع عنها، فمكَّن لها في واقع الناس.

وكما تمكنت منظومة أفكار الإباحية (أيديولوجيا الإباحية) من المجتمعات الغربية والجنوبية تتمكُّن اليوم من مجتمعاتنا. فهذه أفكارٌ تغير واقعًا، ثم يأتي المؤمنون بخطيئة ابن خلدون يقولون بحتمية الواقع، وكأن هذا الواقع لم يتم صياغته من خلال مفاهيم حملها قلة من الناس ترمدوا على واقعهم وعالجوه بمنظومتهم الفكرية الجديدة حتى أعادوا تشكيله، ولا زالوا يفعلون.

ومما جعل الأمر يلتبس على بعضهم أن أغلب الناس تبع. بمعنى يخضعون للواقع في كل شيء .. أغلب الناس مع ما ذاع وانتشر، في عقائدهم وفي خاصة أمرهم. يرددون ما يتردد، ويلبسون ما يُلبس وإن كان محرماً، ويأكلون ويشربون ما يُؤكل وما يُشرب وإن كان مما لا يضر ولا ينفع. فالواقع هو المؤثر على هؤلاء، وهم الكثرة الكاثرة من حيث العدد، ولكن الواقع الذي يسوق هؤلاء حيث يشاء هو هو بنفسه تبع لفئة قليلة تؤمن بمنظومة فكرية ثم تعالجه حتى تغيره تبعاً لهذه المنظومة من الأفكار، وإنهم في كل زمانٍ ومكان .. صالحون(مصلحون) أو مفسدون.

ألا إن ابن خلدون قد جاء على فترة من العز .. بعد أن كُسر المسلمون في الأندلس ودخل النصراني عليهم في المغرب واحتلوا أطراف العالم الإسلامي وهاجموا قلبه، فراح . بقصد أو بدون قصد- يقول بسيادة الواقع. والواقع فقط يسود على الهمج ويأخذهم حيث يشاء، والواقع ذاته بيد فئة من الناس .. أولئك الذين يجرسون القيم ويستتبتونها.

محمد جلال القصاص

14 حوال 1437 هـ

19 يوليو 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

لماذا يحتفي الغرب بابن خلدون؟ ولماذا يحتفي به الصحويون؟

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

عاش ابن خلدون وعر الأخلاق، قلقاً، يرى أن ما هو فيه أقل مما ينبغي أن يحصل عليه. ومات ولم يهتم أحد بما ترك، حتى جاء الغربيون وفتشوا في تراثنا فوجدوا ما كتب ابن خلدون فأخرجوا بعضه (المقدمة في التاريخ) واحتفوا به احتفاءً كبيراً، ثم انتشر الاحتفاء بابن خلدون بين المسلمين. من وافق الغرب ومن عارضه!! والسؤال: ماذا وجد الغربيون عند ابن خلدون ليحتفوا به هكذا؟ وإن كان احتفاء الغرب بابن خلدون مبرراً فلماذا يحتفي به بعض المنتسبين للصحوة الإسلامية وهم يعلنون رفضهم للغرب، بل ومنهم من يعاديه؟!!

أحاول تفكيك المشهد لفهم سياقات الفعل التي تعمل في منظومتنا الفكرية وتلقى مخرجاتها شئنا أم أبينا.

مارس الغربيون النقد النصي على الكتاب "المقدس" وكانت النتيجة أن عامة ما دون في الكتاب "المقدس" غير مقدس، بمعنى أن كثيراً من النصوص التي بين دفتي الكتاب "المقدس" لم يثبت نسبها للمسيح، عليه السلام، ولا يُعرف، على وجه الدقة، كاتبها؛ وكانت الفاجعة في عدم صحة ما ورد من أخبار تتعلق بتاريخ نشأة العالم، والأمم السابقة. مما أدى إلى أن فقد الغربيون الثقة فيه كمصدر من مصادر المعرفة، وجنح القوم لرفض كل ما جاء من المتدينين، ومن ثم اتجهوا للكفر الصريح (الإلحاد)، وظهرت الوضعية Positivism، وهي (أي الوضعية) الإيمان بالمشاهد والكفر بالغيبيات التي تتحدث عنها الكتب السماوية، وكانت المشكلة الأكبر

(1) دكتورة في العلوم السياسية.

عندهم في إيجاد مصدر يأخذون منه قيمهم ومبادئهم التي يديرون بها المجتمع. وهنا كان الحل عند ابن خلدون، في مقدمته للتاريخ تحديداً. وجدوا عنده ضالتهم.

ابن خلدون وحمية الواقع:

ابتدع ابن خلدون في مقدمته شيئاً جديداً وافق هواهم، وهو "قوانين الاجتماع الإنساني"، وذلك حال نقده لأخبار السابقين له من المؤرخين، يقول الأخبار منها إنشائي ومنها وقائع (أحداث)، وأن الإنشاء يعتبر فيه الجرح والتعديل للراوي، وأن الأحداث لا بد أن تحاكم لما سماه "قانون الاجتماع الإنساني"، وأن سبب وجود أخبار كاذبة في كتب التاريخ هو الجهل بقوانين الاجتماع الإنساني. بمعنى أنه يرى أن قوانين الاجتماع الإنساني ثابت يحاكم إليه غيره. من هنا كانت بداية علم الاجتماع الحديث. من حتمية الواقع. من أن الواقع هو مصدر القيم. من أن الواقع (البيئة) هو الذي ينشئ الأخلاق ويؤسسها. وحمية الواقع تفيد، أيضاً، النسبية، وذلك أن لكل واقع حتميته، فما تعارف عليه الناس هنا غير ما تعارفوا عليه هناك... وهكذا!!

وإن عامة ما ترى تفريع على هذه المقولة، فمثلاً عباس العقاد يقرأ كل شخصياته في ضوء مقولة ابن خلدون هذه (تأثير البيئة) ويضيف إليها العوامل الوراثية؛ وقدمت شرحاً مفصلاً لهذه الفكرة (تأثير البيئة) حال مناقشتي لعباس العقاد وذلك في كتاب "مناقشة هادئة لإسلاميات عباس العقاد"، وفي مقال بعنوان "خطيئة ابن خلدون"، ومقال ثالث أهم بعنوان "من وحي الشيطان" وكلها في الصفحة الخاصة بطريق الإسلام وصيد الفوائد.

وصدّر الغريون هذا المفهوم (أو المقولة التفسيرية) التي تتمحور حول: حتمية الواقع، أو سيادة الواقع، أو قوانين الاجتماع الإنساني، صدروها لمن تبعهم كمسلمة غير قابلة للتفكير، وفي ذات الوقت تتحدث نخبهم عن أن "الواقع مصنوع" وأن هذا العالم الذي نعيش فيه "عالم من صنعنا"، وأن القيم والأخلاق تتطور من خلال

تفاعلات الأشخاص مع الهياكل المجتمعية (المؤسسات)، فالحقيقة أن ثمة نخبة تصنع الهويات... ثمة نخبة تعالج المجتمعات حتى تحدث تحولات جذرية فيها فتقلها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كما حدث في التعامل مع الجنس، فمن تحريم التحدث فيه في العلن إلى ممارسته على رؤس الأَشهاد، والله يسمع ويرى وإنا إليه راجعون ومحاسبون. فالهوية تصنع ولا بد، وعامة الناس تبع لنخبتهم (سراهم.. الملاء منهم)، والنخبة المتحكمة تخضع لمنظومة قيم، ومنظومة القيم هذه هي التي تصوغ الواقع، هذه هي الحقيقة التي لا مرأى فيها.

وقبل ابن خلدون بمئتي عام، وحال تفسير قول الله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) (البقرة: من الآية 251) انتبه الإمام الفخر الرازي، رضي الله عنه، لما دندن حوله ابن خلدون، ولكنه تحدث حديثاً آخر غير ما قاله ابنُ خلدون. تحدث عن ضرورة الاجتماع البشري، وذكر هذه الجملة بنصها: "الإنسان مدني بالطبع"، وذكر أن الاجتماع يؤدي إلى التعاون وإلى المنازعة المفضية إلى المخاصة أولاً، والمقاتلة ثانياً. ولكنه لم يتحدث عن توافق اجتماعي (عقد اجتماعي) كما فعل ابن خلدون والذين جاءوا من بعده من "علماء" عصر "التنوير" الأوروبي، وإنما تحدث عن ضرورة الشريعة الإسلامية لتنظيم شؤون الإنسان. فالله هو الذي خلق وهو أعلم بخلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك: 14)، وأن الناس إن تركوا فسد حالهم كما هو حادث اليوم (انتشار الخوف، والجوع، والمرض... إلخ، مع تمكنهم من أسباب الفعل المادية).

وهنا سؤال لا بد من إثارته: لماذا لم ينصرف الغربيون عن ابن خلدون، بعد أن أخذوا الفكرة منه، ويردموا عليه كما فعلوا مع علماء الطبيعة (الفلك والحساب..)، السبب هو تضخيم هذه النماذج في حسنا.. كأن ما هم عليه بضاعتنا وبالتالي نحن أحق بها منهم. وفعلوا مثل ذلك مع علماء الاجتماع والتأويلات الفقهية كابن رشد الحفيد، ولم يفعلوا ذلك مع علماء الطبيعة.

وهذا ما حدث بالفعل، فغير قليل من نخبتنا، وخاصة تلك التي ترتوي من المصادر الغربية عظمت ابن خلدون واحتفت به كثيراً وتعاملت مع نصوصه ومفاهيمه كأنها وحي يستقى منه. وزاد الأمر في العقود الأربعة الأخيرة، وذلك بعد ظهور موضة فكرية ترفع شعار إعادة تشكيل العقل العربي، وهي مقولة غربية عبرت إلينا عن طريق "محمد عابد الجابري"، ووجد فيها الدكتور محمد عمارة ذاته، فقد كان يبحث عن منطقة خلية يقف فيها منفرداً، أو كما يقول هو: "خلق قارئ جديد"، فراح تحت مظلة هذه المقولة (إعادة تشكيل الموجود) يعيد قراءة ما اشتهر في الساحة ويقدمه بطريقة جديدة، فعمد إلى رموز العلمانية وراح يثبت أنهم لم يكونوا علمانيين كطه حسين!!؛ ونشط، رفقة ثلة ممن يبحثون عن مسارٍ مستقلٍ بوعٍ أو بدون وعي، لإعادة قراءة شيخ الإسلام ابن تيمية وعمامة مرجعيات الحركة السلفية، وكانت المحصلة أنهم افتعلوا معركة وهمية قضاوا فيها نحبهم، فلا تدري من كانوا يصارعون؟ وقدمت مناقشة هادئة لهؤلاء الكرام تحت عنوان (مداخلة مع الدكتور عبد الوهاب المسيري ورفاقه)، و (مناقشة هادئة لتفسيرات المسيري).

وعظم المتحمسون من السلفيين والإخوان ابن خلدون لشيءٍ آخر، هو أنه يتحدث عن ضرورة تحصيل الشوكة (العصبة) من أجل إنشاء دولة، ويتحدث عن أن الدول تهرم وتشيوخ ثم تموت بعد طفولة وشباب في ثلاثة أجيالٍ أو أربع. وأحدث هذا الكلام حالة من الطرب عند هؤلاء، خاصة مع السياق "الثوري" الذي يعيشه المتحمسون من الصحويين، فهشُّوا وبشُّوا للحديث عن الشوكة وعن موت الدول، وسكن الوهم صدورهم بأن ما قاله ابن خلدون عن دولةٍ أو دولتين مضطرد على الدولة القومية الحديثة، وغاب عنهم أنهم في سياق غربي يطور نفسه ويهضم المنطقة العربية والإسلامية (الجنوب والشرق الأوسط) بعد أن هضم أوروبا الغربية (مشروع مارشال) ثم أوروبا الشرقية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وغاب عنهم أن استخدام القوة متأخر على ترسيخ المنظومة القيمية (العقيدة)، وأن استخدام القوة محدود جداً ولا بد، وأن السلطة في واقعنا المعاصر تتجلى في كل شيء تقريباً ولم تعد كما قد

كانت في العسكر وحدهم. نعم: غاب عنهم أن منظومة الفعل حاليًا علمانية والحركات الصحوية في سياقها.. توظفها القوى المهيمنة من أجل تحقيق أهداف علمانية، وأهم الأدوات المعاصرة (في القرنين الآخرين) في التغيير هي الثورة وهي أداة علمانية بحتة (انظر للكاتب: ثورة جديدة شدة جديدة)، فالواقع أن الحركات أدوات في الصراع بين الدول لا أنها تصارع الدول!!

ابن خلدون والتطور:

ومما جعل الغرب يحتفي بابن خلدون ظهور فكرة التطور في نص صريح، بل في سياق كامل في مقدمته. ولا تقل فكرة التطور، عند الغربيين، أهمية عن القول بحتمية الواقع، وذلك أن التطور يرسخ مفهوم استمرارية الحياة الدنيا، فالتطور يعطي تصورًا مفاده أن حياة الإنسان على الأرض حلقة من مليارات الحلقات، وسيتطور لغيره كما تطور غيره إليه، فلا معنى للحديث عن فناء الدنيا وإنما الدخول في أشكالٍ أخرى، هذا ملخص فكرة التطور، وهي فكرة شيطانية أملاها الشيطان على نفر قبل ابن خلدون كالقزويني في "عجائب المخلوقات"، وابن طفيل في "حي بن يقظان"، وابن مسكويه في "تهديب الأخلاق"، وإخوان الصفا في رسائلهم، وأرسطو في نظريته عن ترتيب المخلوقات في العالم، ثم انتشرت منسوبة لدارون؛

ابن خلدون والنبوة:

وشيء آخر جعل الغرب يحتفي بابن خلدون. شيء ابتدأه ابن خلدون، أعطى الغرب ما لم يجده إلا عند ابن خلدون، ألا وهو تفسير النبوة والفتوحات الإسلامية، فقد أتى ابن خلدون بثلاثية اتكئ عليها المحادون لله ورسوله: أولها: حديثه عن تلقي الغيب (الوحي وغيره)، فقد أطال الحديث عن أن تلقي الغيب يأتي من خلال الصفاء الذهني، والصفاء الذهني يتحصل عليه بالخلوة والرياضة النفسية، كأن النبي حين خلا عشرات الأيام في غار حراء أعدّ نفسه للمعرفة عن الله، وهذا المعنى يترسخ في حس من يقرأ مقدمة ابن خلدون، ونقله عنه بكاملة عباس العقاد حال حديثه عن "الوعي الكوني"، فالوعي الكوني عند عباس العقاد هو هو بعينه ما تحدث

به ابن خلدون عن تلقي الغيب من خلال الرياضة النفسية التي تصفي الذهن وتجعله يعلم الغيب من تلقاء نفسه. ومحصلة هذا القول أن النبوة مجهود ذاتي وليست اصطفاً من الله، وأن النبي، أي نبي، شخص اجتهد وليس وحياً نزل من السماء على من شاء الله من عباده، والله يقول: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (الحج: 75)، والله يقول: (يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (النحل: 2).

ثانيها: تفسيره للفتوحات الإسلامية بالتوحش الناشيء (انظر: الفصل الحادي والعشرون: في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع)، واستحضر تحريض عمر لأهل الحجاز على الذهاب للعراق، مع أن تحريض عمر في النص الذي نقله قائم على نشر الإسلام وليس التوسع في الملك بدافع "القدرة على التغلب".

وثمة ملحوظة شديدة الأهمية وهي أن كلاهما (ابن خلدون وعباس) يسهب في شرح شيء ما، في سياق لا يفهم منه سوى أنه مؤيد له، ثم ينفيه بجملة أو جملتين لا يزيد. يفعل هذا كي يحدث حالة من التذبذب ليجد المحب عذراً إن صادف مُنكراً يشجب على النص، ولو كان ينكر إنكاراً حقيقياً لما تحدث بما تحدث به ابتداءً.

وهذه القضية (أن النبوة أو التعرف على الغيب) مجهود ذاتي هي أم القضايا عند المهتمين بنفي النبوة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وذلك أن جهدهم في إثبات أن البعثة كانت مشروع شخصي للرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو ما دندن حوله "ول ديورانت" في قصة الحضارة، وهو ما يدندن حوله كثير من المشككين في بعثة النبي، صلى الله عليه وسلم، كسيد القمني في "الحزب الهاشمي"، و"حروب دولة الرسول"، صلى الله عليه وسلم، وقد عاجلت هذا المفهوم في مقال بعنوان "فجائية الدعوة أكثر ما يؤرق المخالفين".

حين تجمع هذه المفاهيم الثلاثة: "حتمية الواقع/ البيئة"، والاجتهاد الشخصي [القدرات الذاتية]، والعامل الوراثي، تخرج بنتيجة أن ما على الأرض من فعل البشر دون وحي من الله الخالق المدبر للأمر سبحانه، وتعلم أن النص الذي

تركه ابن خلدون متكىً أساسياً للمحادين لله ورسوله. يقول الله تعالى: (اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الزمر: 62)، ويقول الله تعالى: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (هود: 123).

وثالثها: حديثه عن أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، ويفسر الفتوحات بحالة التوحش التي كان يعيشها العرب، يقول: أصعب الأمم انقياداً، وأهل غلظة وأنفة، ومنافسة في الرئاسة، وأنهم أهل بداوة أكثر من غيرهم⁽¹⁾؛ ولا أدري عمن يتكلم: فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم من أم القرى ومن يثرب.. هؤلاء هم الذين أسسوا دولة الإسلام وهم الذين حاربوا الأعراب حتى أخضعوهم، وأسسوا مدناً في العراق (الكوفة والبصرة)، وكان للعرب ملكاً في اليمن، والعراق والشام، واستقرار في مكة والمدينة خيبر وغيرهم، وكانوا أهل تجارة (خاصة قريش).

وهذه الأفكار التي ابتدأها ابن خلدون ظهرت جلياً في كتابات الرافضين للرسالة المحمدية وعلى سبيل المثال سيد القمني. هذا الأقاؤ شديد الكذب كأنه ينقل عن ابن خلدون.

د. محمد جلال القصاص

صباح الأحد 23 ربيع الآخر

1443هـ - 2021/11/28

(1) وهو عنوان الفصل السابع والعشرين في مقدمته.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حديث النساء

محمد جلال القصاص (1)

أظهر أبو البختری مروءةً حال تعذيب المسلمين في مكة في موقفٍ أو موقفين، فكافأه أكرمُ الناس -صلى الله عليه وسلم- بأن أوصى أصحابه أن لا يقتلوه يوم بدر. تذكره سيد الناس الحبيب، صلى الله عليه وسلم، دون أن يُذكره به أحد. تذكره وقد حضر القتال والمسلمون بلا عدد ولا عتاد. تذكره وقد خرج (أي أبو البختری) يحمل السلاح مقاتلاً مع قومه ولم ينثني كما فعل بنو زهرة ومن معهم. تذكره وأوصى به خيراً وهذا من شدة كرم النبي -صلى الله عليه وسلم- واكتمال مروءته.

وحضر الموتُ أبا البختری.. التقاه أسدان من أسد الصحابة فناده: يا أبا البختری قد أوصانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن لا نقتلك، فقال: وصاحبي (وكان معه رجل آخر من المشركين يقاتلان سوياً) فأجاب الصحابي: أما أنت فنعم وأما صاحبي فلا. فرد أبو البختری: وتتحدث النساء أني أسلمت صاحبي للقتل!!؟. وتقدم للقتل لتذكره النساء بخير. أثر فراق الأهل والدار طلباً للذكر في مجالس النساء وأشبه النساء.. خسر الدنيا والآخر، ذلك هو الخسران المبين، والسبب: ثناء النساء!!

وعلم أمية بن أبي الصلت من كتب الأولين أن الله سيرسل في الأميين رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وظل يبشر بمقدم نبي، ومن قریش؛ وحين جاءه ما عرف كفر به!!

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

سأله أبو سفيان بن حرب (وكان صديقاً وقريباً له فقد كان بنو عبد مناف أخوياً لأمية بن أبي الصلت): خرج من كنت تبشر به فلم لا تتبعه؟! فقال: كنت أحدث نساء ثقيف (بنات عمه وجيرانه) أي أنا هو فماذا أقول لهن الآن؟!!

ومات كافراً. رحل إلى نارٍ موصدة، نارٍ تطلع على الأفتدة، رحل إلى أنكالٍ وجحيمٍ وطعامٍ ذا غصة. إلى عذاب لا يفتر عنه ولا يخرج منه، رجاء أن يبقى ذكره حسناً على ألسنة النساء!!

ثم ماذا؟

لم يكد الزمان يمضي حتى أسلمت النساء، وتزينت لأعدائه، وتدلت لأعدائه، وولدت لأعدائه؛ ولعنته وأمثاله!!

خسر الدنيا والآخر، ذلك هو الخسران المبين، والسبب: ثناء النساء!!

والتقى أهل العراق وأهل الشام في أحد مشاهد الجد التي سطرها هذه الأمة دفعاً للظلم وإظهاراً للركي في الخلاف وإن بقتال، مقارنةً بغيرها من الأمم على مر التاريخ، يقدّم أهل العراق الكريم الشجاع الوضيء.. ذاك الذي جمع بين أجمل وأشرف امرأتين في زمانه (فاطمة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين) وحضر الموت حلفاً أماناً لعبد الملك بن مروان، وناداه من يحمل الأمان: قد أعطاك أمير المؤمنين الأمان وابنك، فأجاب: "أما أنا فلا. إن هذا موقف لا ينصرف منه شريف إلا غالب أو مقتول". أخذته المروءة فأردته قتيلاً.. وكم قتلت المروءة؟! ورحم الله أبا تمام حين رثى أحد أبطال المسلمين بقوله:

عليك سلام الله وقفاً فإنني** رأيت الكريم الحرّ ليس له عمر

قبل موته نادى ولده الأكبر عيسى - وكان بجواره-: تقدم يا بني وخذ أمان عمك

(عبد الملك بن مروان)، لا تفجع أمك بمقتلك فأجاب: وتحدث النساء أبي
أسلمتك للقتل!!؟

قتل شاباً، في قتال داخلي... وبعد أن ظهرت الهزيمة وشخص الموت على رمية
حجر، كي يبقى ذكره حسناً بين النساء!!

وتستطيع بسهولة حين يتحدث إليك قرين في الهاتف أن تعرف أقرب هو من
"النساء" أم بعيد؟!، إن كان يتجرأ عليك، ويناديك باسمك مجرداً، أو بـ "أبو فلان"،
يفتح شذقيه، ويستدعي الماضي والحاضر، يطاول ويفاخر فهو بين النساء.. أو تراه
عيون النساء.. يحاول التجميل في أعينهن؛ وإن كان يحدثك خاشعاً يعرف قدرك،
ويحفظ مودتك، ويخفض جناحه. فهو بعيد عن عيونهن.. لاح الله عيونهن.

والنساء يعرفن التقى من الدعي.. يطلعن ربك إن كن صالحات، فالحبة من الله
يلقيها في قلوب عباده لمن علم منه الإخلاص والاتباع { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } [مریم: 96]. وتطلعن الأيام إن كن غير ذلك.
فبعد قليل يرين بوضوح، وبعد قليل يرحلن من تحت الأدعاء حقيقة أو حكماً. فإلى
الله، فالقلوب بين أصبعين من أصابعه يقبلها كيف يشاء.

لم يعد أمر النساء يخفى، ولم يعد يصلح إهمالهن كأحد أهم دوافع الحدث. نعم هن
من أهم دوافع الحديث طلباً لثنائهن في مجالسهن أو بما يُقدمن عليه فعلاً لما هن من
إمكانات شخصية. أعتقد أن من الواجبات الآن تطوير اقتراب جديد في تحليل
الظواهر الاجتماعية خاص بالنساء.. أن ندخل على الظواهر من طريق النساء...
كي نرى بوضوح.

محمد جلال القصاص

2013

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

لا تغشوا الفقراء والمحتاجين!!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

بعد أن كثرت الأمراض في الأبدان واثقلت إلى الأرض.. من المرض ونفقات المرض. تنادى الصالحون المصلحون والمعرضون الباحثون عن ذواتهم إلى خدمة الناس. وكل يدعى الصلاح والإصلاح... كل عند نفسه صالح مصلح. ولكن: صلاح النية لا يكفي لتصويب الفعل ومن ثم تقريره، فمن قبل ادعى قوم الإيمان والصلاح وكذبوا، قال الله تعالى ذكره: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} (البقرة: 8)، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ} (البقرة: 11، 12)، {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} (النساء: 62)، ؛ ومن قبل اتهم فرعون موسى -عليه السلام- بالفساد: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ} (غافر: 26)!!.

أين مصلحة الناس؟

في أن نعالج أصحاب الأمراض المزمنة؟

في أن نقف بجوار المحتاجين؟

إن هذا الخير عظيم، وباب مودة ورحمة بين الناس، ونشر للمروءة والتراحم بين أفراد المجتمع. ولكن علينا أن نفكر، وخاصة أن تجربة العمل الخيري تتقهقر وتتعرض. بل لم

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

تكذ تنهض. والشكوى من العمل الخيري في كل مكانٍ تقريبًا، فلم نستطع تعويض الأوقاف (كأداة فعل مجتمعي) بالعمل الخيري على الطريقة الحديثة!!
ثمة ثلاث ملاحظات: إحداهن تتعلق بالفاعلين، والثانية بالفعل نفسه، والثالثة تتعلق بالسياق. وأعرني عقلاً... وتكرماً حاول أن تقرأ على مهل!!

جزء من الفاعلين يبحثون عن ذواتهم، فالمشاريع الخدمية في الغالب وسيلة للترقي اجتماعيًا، ووسيلة كذلك لمكاسب سياسية (ترشح للمحليات/ البلدية، أو مجلس النواب،،)، سواءً أكان القائم عليها فردًا أم جهة "خيرية".

والمشاريع الخيرية نوع من أنواع التسكين وليست علاجًا لمشاكل المجتمع بوضعه الحالي، فالمجتمع ينفق الكثير فيما لا فائدة فيه، فمثلًا: لو أن عندنا قرية أو حيًا سكنيًا تعداده مئة ألف، فإن به عشرون ألفًا، كمتوسط منخفض، يدخون السجائر كل يوم (على اعتبار أن خمس الناس فقط هم الذين يدخون السجائر كما هو معلن في الإحصاءات)، أي ينفقون - كمتوسط منخفض - ما يعادل عشرين جنيهاً للفرد، أي تنفق هذه القرية أو الحي 400.000 ألف يوميًا، ما يعادل (144 مليون جنية) سنويًا فيما يضرهم ولا ينفعهم. والسؤال: ماذا لو أنفق ما ينفق على التدخين والمخدرات (حشيش وأدوية) في العلاج؟، علمًا بأن كثيرًا من الأمراض سببها التدخين؟!!

شهر واحد من بندٍ واحد (التدخين) يكفي لأن يعالج المرضى.. وللأبد، بمعنى أن يؤسس لهم مؤسسات طبية تعالج المرضى الحاليين، وتعالج من يمرض مستقبلًا.

ويوجد في الحي أو القرية أو المدينة الصغيرة (ذات المئة ألف) خمسة آلاف طالب فيما دون الدراسة الجامعية، ينفق كل واحدٍ منهم متوسط مئتي جنية على التعليم كل شهر، ما يعني أن مجموع ما ينفق في هذا المجال (200×5000=1.000.000)، أي 12 مليون كل عام. وهي تكفي لتطوير

قطاع التعليم كله في هذا الحي لو وجدَ الناسُ مخلصين حقيقيين يقفون بوجه هذه الظاهرة التي عطلت المدارس التي بنيت بأموال الناس وفيها من يتقاضى راتبًا من أموال الناس.. يقفون بوجه هذه الظاهرة (الدروس الخصوصية) التي تُعلِّم الطلاب فيما يشبه الغرز أو زرائب المواشي. فمن ناحية أهدروا الأموال، ومن ناحية أخرى أهدروا العملية التربوية، ومن ناحية ثالثة أهدروا أوقات الطلاب وأرهقوهم، وزادوا على ذلك أن أثروا على دورة رأس المال في الأحياء والقرى فنزعوا المال من الفقراء وركزوه في يد قلة من "المعلمين"، الذين أنفقوا هذه الأموال في شراء العقارات فارتفع سعرها. فأين من يأخذ على يد العابثين بأطفالنا وشبابنا ومقدرات أمتنا... أين من يأخذ ما يهدر من أموال وينفقها حيث يبتفع الناس؟

وأسأل، وأسأل معي،: كم تنفق القرية، أو الحي، أو المدينة الصغيرة (ذات المئة ألف) في أطعمة وأشربة إن لم تضر فلا تنفع، كالشيبسي والببسي والحلويات، وما أشبه؟! وكم تتضيع القرية، أو الحي، أو المدينة الصغيرة (ذات المئة ألف) من الأوقات كل يوم فيما لا ينفعها. بل قد يضرها، أمام التلفاز ومجالس النميمية...؟، وما يتبع ذلك من نزع للبركة ونشرٍ للشر بين الناس؟!

إن من يرحم الناس يسعى لأن يصرف عنهم السوء، وأن يصلح من حالهم.. إن من يرحم الناس عليه أن يتجه لهذه الظواهر السلبية ويحاول علاجها، أما علاج المرضى وإعطاء المحتاجين، ففي أفضل أحواله تسكين.. ولا يمكن أن يؤدي للسيطرة على الأمراض والقضاء على الفقر، بل هو في جوهره صرف للناس عن أسباب شقائهم الحقيقية.. في جوهره تأخير للعلاج الحقيقي لهذه الظواهر السلبية.. في جوهره تكسب سياسي وبحث عن نفوذ اجتماعي على حساب الفقراء والمحتاجين.

إن للفقراء والمساكين، والمرضى وكل المحتاجين نفقةً قد أخذت منهم. أخذها من أهمل تطوير القطاع الصحي، ومن أهمل ضبط الخدمات العامة فانتشرت الأمراض المزمنة.. وأخذها "النواب".. أولئك الذين اختارهم الناس لينوبوا عنهم في قضاء حوائجهم. اختارهم الفقراء والمحتاجون.. ليسنوا لهم من القوانين ما يصلح به حالهم، ويراقبوا الجهات المختصة في تنفيذ تلك القوانين، فانصرفوا لقضاء حوائج أنفسهم.

إن المعالجة بهذه الطريقة أخذ من محتاجٍ لمحتاجٍ آخر، كمن يُرقع بعضه ببعضه.. يجرح مكاناً ليداوي آخرًا. وإن المعالجة بهذه الطريقة تقوية للمستبد.. نحمل عنه- بأقواتنا وأوقاتنا- همَّ الفقراء والمرضى الذين هم ضحيته وعليه أن ينوء بهمومهم، عليه أن يقيم العدل ليأخذ كل ذي حقٍ حقه. فإلى متى؟!، وحتى متى!؟

أولى بنا أن نتجه للمشاريع التثقيفية، وهو ما يفعله المجرمون، فإنهم لا يشيدون مستشفيات ولا رعاية للأرامل والأيتام- إلا نفاقًا اجتماعيًا وفي إطار السيطرة على ما ينفق اضطرارًا في هذا المجال-، وإنما "يجاهدون" في وسائل الإعلام.. ويسيطرون على رؤوس الأموال والسلطة والنفوذ.. وأولى بنا أن نبصّر الناس بمن قد أضرهم.. بمن قد منع الخير عنهم.. بمن أركسهم في هذا المستنقع الآسن وأدخلهم هذا الظلام البهيم. نبصرهم بأن الخير كثير.. بأن ثمة من يعبت بأرزاقهم وأبدانهم وأمنهم.. بأن خلف هذه الظلمات الموحشة والمستنقعات الآسنة رياض خضرة، عطرة، مضيئة، لن نصل إليها بتضميد الجراح، وإنما بكسر يد من استحل واستباح.

محمد جلال القصاص

13 ربيع أول 1437 هـ

2015/12/24

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أعوذ بالله من الغرب ومناهجه

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

في إحدى حلقات "بودكاست فنجان" قدّم أحد الضيوف "د. عبد الله السفياني" رؤية شديدة الانحياز لعلم الاجتماع الغربي، ويتضح ذلك من أمور، منها: أنه جعل الدين أحد ظواهر المجتمع، وهذا واضح في كلامه كله، وشديد الوضوح في دعوته لفرض موازنات بين ما هو ديني، وما هو اجتماعي، وما هو سياسي، وما هو اقتصادي... إلخ. بمعنى أنه لا يفرق بين تدين الفرد (العبادات الفردية كالأذكار والفرائض والنوافل)، وتدين المجتمع (حركة المال، والمعلومات/ الثقافة، وتفاعلات الأفراد مع بعضهم في المجال العام)، وتدين السلطة (السياسة، أو إدارة المجتمع)، والله له أمر ونهي في كل هذا فالصحيح أن الدين منطلق وضابط لتفاعلات الجميع. الدين حاضر في كل شيء. يقول الله تعالى: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" (الأنعام: 162-163)، والفصل هذا من التأثر بخطاب الكافرين، والمنافقين: "كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)" (الحجر: 90-95)

(1) دكتوراه في العلوم السياسية- جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

ومنها: ظهور الدعوة لتطوير الدين (الخطاب الديني) من أجل مواكبة ما حدث في المجتمع من تطورات. يقول: انتقل المجتمع نقلة كبيرة وعلى أصحاب المذاهب والأفكار أن يهرولوا خلفه ليدركوا ما حدث من تطورات.

والتطور، بدعوى تغير الزمان والمكان أو بدعوى أن لكل زمان ومكان (بيئة) ما يناسبه من خطاب، هو الفكرة المحورية عند الكافرين والسَّماعين لهم. والتطور فكرة عارية تمامًا عن الصواب العقلي قبل النقلي. وذلك أن كل واقع جديد يمثل انتصارًا لفكرة عملت لسنوات عدة في العقول والقلوب ثم تحولت رويدًا رويدًا إلى واقع في حس أفراد ثم مجموعات ثم جاءتها قوة/ سلطة فحولتها لواقع أو شكّلت هي قوة وفرضت نفسها واقعًا.

وحال سيادة فكرة ما وتمكنها من الواقع.. وصياغتها لتفاعلات الناس (مدخلاتهم وعملياتهم ومن ثم مخرجاتهم) فإن أفكارًا أخرى تعمل في أركانها ويومًا ما ستتحول إلى واقع. فكل سلطة نتاج معرفة ومدعومة بمعرفة. وكل سلطة تحتها معرفة تقاومها وتسعى للتمكن من واقع الناس وإعادة صياغته وفقًا لرؤيتها للعالم. وقد غير الله برسوله ومن آمن به واقع العالم كله تغييرًا شاملاً؛ وتحول الغربيون من الفضيلة للرديلة كلية حين تمكنت نخبة الشر من أسباب مادية. فالحديث عن حتميات الواقع يُصغى إليه في التفاصيل لا في السياقات الممتدة. وهذه الغطرسة في الطرح لا يفهم منها سوى خفة في التفكير وغفلة عن هذه الحقائق الساطعة.

ومنها: دعوته للفصل بين الدين والتدين، وفي القرآن الكريم جعل الله السخرية من المتدينين (القراء/ العلماء) سخرية من الدين "وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ" (التوبة: 65). وأوضح الصور على هذه السخرية ما يحدث في المسلسلات والأفلام، فما يقدمه دعاة الرديلة ليس نقدًا للمتدينين وإنما كرهًا للدين وأهله.

ومنها: دعوته لتدريس العلوم الاجتماعية الغربية في المدارس، وهذا يعني تحول منهجي بهجر الدين كمصدر للقيم الاجتماعية والبحث عن القيم الغربية (العلوم الاجتماعية) وغرسها في المجتمع. بل وقراءة النص الديني من خلالها. ويسخر من تدخل الديني في التربية وعلم الاجتماع، ومن استخراج مفاهيم التربية والتفاعل الاجتماعي من التراث الإسلامي، وهذا عجيب. أنتعلم من نيتشه، وفرويد، ودوركايم، وترك ما أرسل الله به جبريل إلى محمد، صلى الله عليه وسلم، وأحدث به أرقى نموذج في حياة البشرية؟؟!!

أيعقل هؤلاء؟؟!!

ومنها: دعوته لهيمنة الاجتماع الغربي على العلوم الشرعية، ما يسميه: علم اجتماع الفقه. علم نفس الفقه!! وندائه على المبتعثين من أجل النهوض بهذه المهمة. ولا أدري أيهما حاكم على الآخر؟!، فغاية ما يفعله المختصون في العلوم الدنيوية هو تحقيق المناط، وأما التوقيع عن رب العالمين فهو مهمة العلماء الربانيين، وغياب الربانيين (علماء الشريعة) يشحذ الهمم لصناعتهم لا لاستبدالهم بمن تربوا على مناهج الكافرين. إن ضعف المتدين المعاصر يستدعي تقويته بمناهج إسلامية وبرامج عملية لانتاج نخبة تقيم الحياة على منهج الله لا استدعاء الأعداء بديلاً! " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا " (الأحزاب: 70-71)

ومنها تأثيره بالمدرسة السلوكية، وذلك في استدعائه لعمليات القياس للظواهر الاجتماعية (قياس التدين مثلاً). والمدرسة السلوكية ظهر محدوديتها في فهم وتحليل الظواهر الاجتماعية ولذا تراجعت بشكل كبير في تحليل الظواهر الاجتماعية والسلوكية. وهي (السلوكية) منهج أكثر منها أداة تحليل، وهذا ملحظ مهم.

السلوكية مرتبطة بشكل كبير بالإلحاد الصلب.. الوضعية. فلينتبه المغرمون "بدقة" الأرقام.

وفي ادعائه أن الصحة تنكئ على الخطاب الوعظي محدودية شديدة في الرؤية، وذلك أن الصحة حاضرة في البعد السياسي، والاجتماعي بشقيه: الثقافي (المناظرة مع المخالفين لها من العلمانيين والمتصوفة وغيرهما، وكذلك حاضرة في التعليم النظام وغير النظامي، ومشهور المدارس الإسلامية الخاصة، والحضانات، والكتاتيب/المحاضر،،)، والفعلي (العمل الخيري من خلال الجمعيات)، وحاضرة في البعد الاقتصادي برؤية في إدارة المال وفتاوى تشتبك مع حركة المال،،،. والخطاب الوعظي الصادر من الصحة خطاب تأصيلي وخطاب تغييري ويتضح ذلك من تبنيه للتعريف بأسماء الله وصفاته وأثر ذلك في سلوك الإنسان، وهو هو خطاب النبي، صلى الله عليه وسلم، وخاصة في مكة. وليس خطاب أصحاب الرويات المكذوبة في القرون الأولى (القصاصين)، فالوعظ الحالي يعتمد على القرآن الكريم والصحيح من السنة النبوية. وعامة وعاظ الصحة من علماء التفسير والحديث أو دارسيه أو من الأكاديميين: (كالشيخ عائض القرني، والشيخ العريفي،،). وكلامه ينطبق كلامه على المتصوفة لا على الصحة.

ألا إن هذه الإطالة نذير شؤم، وأمانة على تمكن المناهج الغربية من عقول الجيل الجديد. فأعوذ بالله من الغرب ومناهجه.

محمد هلال القصاص

رجب 1444 / يناير 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

معركة الرموز: ماذا يحدث؟!

محمد جلال القصاص⁽¹⁾

قبل سنوات قليلة لم يكن أحد يثني على شيخ الإسلام ابن تيمية إلا السلفيون، وفي السنوات القليلة الماضية أصبح شيخ الإسلام ابن تيمية محل ثناء العلمانيين والمتصوفة المعروفين برفضهم الشديد للتيار السلفي ورموزه وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية (مثل يوسف زيدان في مصر)؛ ومن يتوسطون الساحة الفكرية ويتسبون للفكر الاعتزالي كالدكتور محمد عمارة. هل آمن هؤلاء بما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية؟!، ماذا يحدث؟!

يتلخص الموضوع - كما يبدو لي - في ثلاثة مشاهد: مشهد صغير، ومشهد وسط، ومشهد كبير، ودعنا نبدأ بالصغير نعرضه ثم نصعد منه لما هو أكبر، ثم نعود للصغير ثانية وننزل منه لواقعنا المعاصر ونحن نللم ما نثرناه من أفكار:

المشهد الصغير: يتمثل في موجة فكرية بدأت من أعوام قليلة تحت شعار: إعادة بناء العقل العربي، وبدأت - فيما أعلم - من المغرب، من د. محمد عابد الجابري، وفي هذا السياق بدأ الحديث عن أن المشاهير في تراثنا الإسلامي تم قراءتهم بطريقة خاطئة. يقولون: الخلل يكمن في المعاصرين الذين يدعون الانتساب للسلف ويعلمون الاحتفاء بالرموز التاريخية الشهيرة كابن تيمية والناصر صلاح الدين؛ يقولون: لم يكن

(1) دكتوراه في العلوم السياسية - جامعة القاهرة. كاتب وباحث.

هؤلاء الرموز على الحال التي يراها الصحويون. ولا أريد هنا مناقشة القراءة التي قدموها، وكيف أنها ظهرت كرمي الصبية الصغار للقطار السريع بأحجارٍ ترتد عليهم ولا تؤذيه إلا قليلاً. فيوسف زيدان مثلاً يشكك في نسبة المجلدات الكبيرة الشهيرة لشيخ الإسلام مع أن نسبتها إليه منضبطة ومحققة بدقة عالية ومن علماء مختصين ومثبت ذلك في مقدمة كتبه، وقد عني الإسلاميون بعلم المخطوطات مثل غيرهم. بل أكثر؛ و د. محمد عماره يغير المعنى ببتز النص من سياقه، ولأن الناس مشغولة الآن لم يجد من يدقق في كلامه ويرد عليه. ويومًا سيكشف الغطاء ويظهر بوضوح أن كمًّا كبيراً مما كتبه يخدم تحفيف المنابع للصحة والسير بها في اتجاه خصومها كما فعل شيخه محمد عبده من قبل.

المشهد الوسط: السياسة والزمان:

يعكس هذا المشهد محاولة تأطير التراث الإسلامي بإطارين: سياسي وزماني. يدعون أن الفقهاء خضعوا للسلطان وتحذثوا بما يريد، مع أن أبا حنيفة قتل في السجن، ومالك جلد وضرب لأنه لم يطاوع السلطان، والشافعي لم يقف بباب أحد، ومعارضة أحمد بن حنبل تنير الأفق. وأشهر ما يتناقل عن الفقهاء هو البعد باب السلطان. وأشهر ما نفاخر به في نموذجنا الحضاري هو أن المجتمع كان مستقلاً بوظائفه لا دخل للسلطان، فكما يقول برنارد لويس (في حوارٍ تلفزيوني منشور): أصغر ديكتاتور في الشرق الآن يتمتع بأضعاف أضعاف ما تمتع به أكبر خليفة في تاريخ المسلمين. وفكرة نسبة النص للزمن مضحكة، لأن النص كليات وفروع مستنبطة من الكليات، والكليات تصيغ واقع الناس وتضبطه، ومن الكليات يتم استنباط الأحكام الفرعية التي تخضع للزمان والمكان. وهم يفعلون هذا في منظوراتهم السياسية والاجتماعية؛ فكل رموزهم ونظرياتهم -أو جلها- من الخلف.. من زمان غير الزمان ومكان غير المكان، فأرسطو وسقراط..؛ ونيثشه وديكارت وكانت..

المشهد الكبير: تفعيل المنافقين:

بعد أن يغس النصرارى من استعادة الشام وشمال أفريقيا من المسلمين، غيروا استراتيجية المواجهة، وكان مما فعلوا أنهم أعادوا قراء ما يتعلق بالإسلام (التراث الإسلامي): الشريعة الإسلامية والتاريخ ابتداءً من الجاهلية إلى التاريخ المعاصر والفقهاء، وكل ما يتعلق بالإسلام. وقدموا قراءة مغلوبة للإسلام على مستوى القواعد (النص كتاب سنة وسيرة النبي والراشدين) وعلى مستوى التطبيق (التاريخ والفقهاء)، بدأ هذا الجهد من قرون طويلة ومستمر للآن. ولعل في ذاكرة الجميع منتوجات (وائل حلاق الفقهية).

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ تسريب نصوص هذه الكتابات والمفاهيم الكلية التي تحتويها قراءتهم إلى نفرٍ من المنتسبين للإسلام، فظهرت أفكار الكافرين على السنة مسلمين، ومن أمثلة ذلك: كتابي قاسم أمين (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)، وكتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم)، وعامة كتابات طه حسين، وفكرة مدرسة الديوان والمدارس الأدبية التي جاءت بعدها كأبوللو، وفكرة العبقريات. كل ذلك كان قادمًا من النصرارى العرب ومن المستشرقين بأشخاصهم أو كتاباتهم وأفكارهم الرئيسية.

وفي مرحلة تالية عمد المستشرقون للنقل عن المتأثرين بهم من المسلمين. يستدل الكافر ببضاعته هو التي نقلها عنه المسلمون، ويقدمها لعوام الكافرين في بلدانهم على أن هذا هو الإسلام بلسان المنتسبين إليه، واستطاع أن يوصل لعوام الناس في بلدانهم أن الإسلام لا يخالف غيره من الأديان في شيء كبير، وبالتالي لا حاجة للانتقال من الكفر للإيمان!!.

وثلاث ملاحظات تزيد هذا الاستنباط وضوحًا:

أولها: أن قضايانا بعد الاحتلال الغربي حادثة ومن جنس قضاياهم، فلم تناقش

الأمة من قبل ما يعرف بـ (قضايا المرأة)، ولم يجد أحد في (تحكيم الشريعة)..
ثانيها: أننا لم نعد نؤثر في غير المسلمين، فالخطاب الذي ينقل للكافرين يسوي
 بين الكفر والإيمان في كثيرٍ من القضايا الرئيسية، كالموقف من الدولة القومية، والموقف
 مما يطلقون عليه (الحريات العامة)...

ثالثها: أن أي باحثٍ في شأن إسلامي لا يستطيع أن يتم بحثه بشكل جيد
 دون أن يستقي من مصادرهم، فعامة ما كتب عنا بأيديهم أو بأيدي تلامذتهم من
 أبنائنا.

فنحن الآن في ورطة حقيقية، ولا أجد نفسي مبالغاً حين أقول بأن تكوين
 الصحوة الإسلامية ذاتها علماني: ومن أمارات ذلك أنهم يطالبون الدولة
 القومية بتطبيق الشريعة!!، وأنهم لا يمتلكون مشروعاً إسلامياً متكماً على
 مستوى النظريات الكلية (المنظورات) (المفاهيم الكلية).

وهكذا الثلاثة مشاهد الكبير (إعادة قراءة الشريعة كلها) يغذي الوسط
 (تأطير التراث بالسياسة والزمن)، وكلاهما يغذي الصغير الذي يستهدف
 إعادة قراءة الرموز والأحداث المعاصرة والتاريخية.

أريد أن أعود للمشهد الصغير لأشير إلى عدة أمور تشكل ميداناً للصراع
 الفكري يستطيع أن يشارك فيه كثيرون بأيديهم وألسنتهم، أهم هذه
 الأمور:

- ما يفعله الملحدون من إعادة قراءة التاريخ الإسلامي وتقديم رموز الزندقة
 على أنهم أعلام، مثل: ابن الرواندي، وابن الطفيل، وابن سينا...

- ما يفعله الملحدون من إعادة قراءة رموز العلمانية وتقديمها للناس في قالبٍ يجبه عوام المثقفين، فالآن بينا من يدافع عن (نيتشه المعتوه)، واسبنوزا، وديكارت، وكانت.

- محاولة ساذجة بالسير في الاتجاه العكسي وذلك بإعادة قراءة رموز العلمانية والادعاء أنهم لم يكونوا علمانيين، مثل سعد زغلول وطه حسين.. إلخ. وهذا ضياع للجهد، وأماراة على التبعية في الأطر، وينتهي بتلميع الرموز لا رفضهم. نستنبط: تبعية المثقف العربي للغربي، وهو في الحقيقة جزء منه.

أردت أن أبين مدى عمق واتساع المشهد الفكري في واقعنا المعاصر وعلى مدى القرون الماضية التي تأخرنا فيها عن ريادة البشرية، وأنا في غربة حقيقية عن قيمنا وأفكارنا، وأنهم الآن بعد أن أعادوا قراءة الشريعة الإسلامية وصدروا لنا قراءتهم هم بأدوات السلطة والمعرفة التي يتحكمون فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، يحاولون محو الذاكرة التاريخية لهذه الأمة، وأخيراً أدخلونا في معركة حول خاصة رموزنا، يقولون: لم يكونوا على الحال التي تعرفونها، وهم كاذبون، وفي ذات الوقت يخرجون من تحت ركام الأيام رموز الإلحاد وينشرون سيرتهم وكفرهم على الناس، فنحن أمام ساحة واسعة للمنازلة الفكرية في مستويات مختلفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حق الناس في اختيار من يحكمهم بين الإسلام والديمقراطية!!

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

مع كل انتخابات للرئاسة الأمريكية يثور سؤال حول مدى أحقية الناس في اختيار من يحكمهم في الإسلام.

وحين تُسأل تمهل قبل أن تجيب. حاول أن تدورَ حول السؤال وتعيد النظر فيه مرة بعد مرة، وحاول أن تتعرف على السياق الذي أفرزه والهدف الذي يسعى إليه، فالسؤال سهم، وفخ، ولا يبقى الحال بعد السؤال كما قد كان قبله، هذا إن زُمي به ذو عقل.

وهذا السؤال في ظاهره يبحث عن شرعية العملية الانتخابية، وفي باطنه يستهدف شرعنة الديمقراطية وتحسينها في عين المسلمين، وذلك بعرض حال القوم وهم يختارون من يحكمهم، وكأن الحاكم عندهم طوع الرعية.. هي التي تأتي به.. وتستطيع أن تعزله إن شاءت. وكأن تحكّم العوام (إن حدث) فيمن يحكمهم أمر محمود ومنشود!! ونجيب بما يناسب خاطرة فكرية:

لم يحدد الإسلام طريقة لاختيار الحاكم، فقد ترك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الأمر للصحابة، رضوان الله عليهم، واجتمعوا على أبي بكر الصديق؛ وعين أبو بكر شخصاً بعينه (عمر)؛ وحدد عمرُ عددًا (ستة) ليختار الناسُ أحدهم، ثم كان الحكم مغالبةً ووراثه وسكت عنه الأئمة من التابعين. فالأمر متروك للسياق الزماني والمكاني هذا ما كان عليه الناس في القرون الأولى التي أمرنا بالاعتداء بهم " فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا" (البقرة: 137).

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

ومن الظلم، بل من التضليل، اعتبار أن اختيار الناس لمن يحكمهم هو عين الحرية أو بإمها الواسع، فالحرية السياسة نوع واحد فقط من أنواع الحرية.. هذا لو سلمنا- جدلاً- أن الناس في الولايات المتحدة وأخواتها يختارون من يحكمهم بحرية دون تأثير الإعلام والمال والخطاب الانتخابي.

في النموذج الإسلامي مساحة النفوذ الخاص بمن في السلطة محدودة بشكل كبير، فالحاكم لا سلطة له إلا على الجيش (الذي يتواجد فقط في الثغور) والشرطة (وهي فقط لتنفيذ أحكام القضاء)، والقضاء مشترك بين الحاكم والجمهور (يعين الحاكم القاضي ويستطيع الجمهور عزله إن شهد عليه بالفسق والجور في الحكم)، والمال يوزع كله على الناس ولا يبقى شيء منه في يد الحاكم، أو لا يخصص شيء منه للسلطة ونخبته. وهذه نقطة محورية فصل فيها الدكتور جميل أكبر في أطروحته "قص الحق". فالإسلام حد من نفوذ السلطة وأعطى الناس حرية كاملة، وليس فقط حرية سياسية.. مكن الناس من الإمكانيات كلها أو يكاد. فالمجتمع بمؤسساته في يد الناس، وابتكر الناس "الوقف" لإدارة شؤونهم، واستطاع المجتمع أن يضمن حريته كاملة بالوقف وبتقديم أهل العلم وأهل الحل والعقد وأهل المروءات لا من شاء أن يتقدم، واعتبار أن الأسرة مجتمع، وأهل المسجد الواحد مجتمع، وأهل القرية/ المدينة مجتمع يتكافلون فيما بينهم ويبدلون فروض الأعيان ثم يتنادون لفروض الكفريات التي تتحول لفروض أعيان إن لم تجد من يقوم بها. ومن شاء يطالع عن الوقف في الإسلام، وكيف أنه وفر للمجتمع استقلالية تحميه من ظلم الحكام وتناول الأغنياء وتعدي الفقراء، بخلاف نموذج الحكم المعاصر (الدولة القومية الحديثة) والذي فيه تتحكم السلطة بما تسيطر عليه من مؤسسات تنفيذية في كل شيء، حتى العمل الخيري، ولا يستطيع الفرد/ الأسرة/ المجتمع الصغير أن ينال حريته في وجود مؤسسات الدولة التي تسيطر وتدير كل أمور الحياة.

فما يقال في النموذج الإسلامي لا يقال في النموذج العلماني. هذا نموذج وهذا نموذج. هذه منظومة لإدارة الحياة وتلك منظومة أخرى لإدارة الحياة والفرد في المجتمع

المسلم في مجبوحه، وبعيد جداً عن الحكم وتقلباته اختار الحاكم أم لم يختاره. وحق الناس في اختيار من يحكمهم شرعي، من الإسلام، يوجد هذا في بعض صور اختيار الحاكم وليس كلها (كما حدث في أخذ آراء الناس في "علي بن أبي طالب" أم "عثمان بن عفان" حين استقر الأمر بين النخبة [الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب] على أحدهما)؛ ولكن ثمة شيء لا بد من الالتفات إليه، وهو: أن عوام الناس لا يختارون مباشرة بل يختارون ممن تختارهم النخبة. بمعنى أن عملية الاختيار تتم على مرحلتين:

الأولى: تقوم النخبة باختيار عدد محدود ممن يصلحون للحكم (كما فعل عمر)، وكما يفعل الأمريكيان الآن.

والثانية: يأتي العوام ويختارون من الذين اختارهم النخبة.

بمعنى أن الأمر لا يترك لمن شاء أن يترشح، ولا يترك للعوام يحددون ما يريدون، وإنما يكون خيار ممن تم اختيارهم بعناية. وهذا يفعلونه في بلادهم ولا يفعلونه في بلادنا!! الخلاصة الديمقراطية شيء والإسلام شيء آخر، وحرية الناس في الإسلام كاملة وليست فقط حرية سياسية، فقد مكن الإسلام الناس من إدارة شئون حياتهم وليس في اختيار الحاكم فقط. فالمجتمع المسلم مستقل عن الحاكم يدار بأهل العلم (وهم العلماء العاملون)، ويدرار بأهل الحل والعقد وأهل المروءات، وبعيد بنسبة كبيرة جداً عن الحاكم (السلطة).

محمد جلال القصاص

ربيع أول 1442

أكتوبر 2020

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

البعد الغائب في الطرح المتطرف

بقلم: محمد جلال القصاص⁽¹⁾

ليس لك أن تمر على غرائب الأشياء دون أن تبحث عن تفسير لها، وقبل التفسير لا بد أن تعيد النظر مرة بعد مرة حتى ترى بوضوح، فالوصف الجيد يساعد على إيجاد تفسير جيد!

حال دراسة ما قدمه عباس العقاد في إسلامياته شاهدتُ ظاهرةً غريبة، وهي أنه محل ثناءٍ من الأضداد، فنفر من أهل اليمين يثنون عليه، وعامة أهل الشمال يبالغون في الثناء عليه، كزكريا بطرس، وسيد القمني.

ووجدت ظاهرة أخرى أكثر غرابة عند الناشطين في مجال "التنصير" الإلكتروني والفضائي كزكريا بطرس ومرقص عزيز، وهي جموح وبذاءة الخطاب. وحين أعدت النظر مرة بعد مرة في حال زكريا بطرس تحديداً، وجدت أنه كان واعظاً ذائع الصيت، يأتيه الناس من كل مكان ليسمعوا عظته، وطبعي أن العظة يغلب عليها التذكير بالله وما أعد للمتقين وما توعد به العاصين. فلماذا انقلب بطرس هكذا؟!.. من "الأدب" الجرم في مرحلة الشباب والكهولة إلى البذاءة الشديدة بعد أن شاب رأسه وجاوز السبعين من عمره؟! ولماذا اختلف الناس في عباس العقاد إلى هذا الحد من التضاد؟!!

التفسير في حالة عباس العقاد مختلف عن التفسير في حالة بطرس ومرقص وإخوانهم في البذاءة والتطرف الفكري. وكلا التفسيرين يكشف عن بعدٍ غائب

(1) دكتوراة في العلوم السياسية.

في الأطروحات والمواقف المتطرفة. وإليك بيان بما يناسب مقال:

تواجدَ عباسُ العقاد بين عصابة (شلة) من الإعلاميين والسياسيين والمثقفين، وكان التناصر بينهم على مبدأ "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" ولم يكن على أساس التحقيق والتدقيق في الأقوال والمواقف، ولذا لم يعترضوا على دفاعه عن بولس (شأؤول الطرسوسي)، ودفاعه عن الكتاب "المقدس"، وعقيدة الصلب من أجل الفداء، ودفاعاً في وقتٍ كانت حملات التنصير تترا على مصر والأمة الإسلامية؛ ولم يعترضوا على دعمه لمصدر المعلومات العلماني (الآثار والوثائق المكتوبة)، وأنه ظلّ مستمسكاً بنظرية التطور العضوي والتطور المعرفي، وظلّ يردد القول بأن البيئة والعامل الوراثي هما المؤثر الأكبر في صياغة الشخصية، كأن كل شيء نبت من الأرض وتطور بعوامل أرضية مادية، وليس أن الله هدى البشرية وأصلح دينهاهم وأخراهم بما أنزل على محمد، يقول الله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ) (النحل:89).

واكتاره في التأليف جعله يهيم في أودية كثيرة، فكتب عن رسول الله محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، وبعض أصحابه، وكتب عن عبد البقرة غاندي، وكتب عن الحلاج، وابن عربي، وابن سينا، وابن رشد، وسعد زغلول، ومحمد عبده. كان يهيم خلف كل مؤثر في حياة الناس بغض النظر عن دينه ومذهبه، فانتصر "للعبقرية" أيّاً كان دين العبقرى ومذهبه. وكتب ضد الاشتراكية وضد النازية، وانتصر للديمقراطية الغربية. هذا التيه في الدروب المختلفة جعل له من كل ضرب نصير، وجعل ذكره حاضرًا في المجالس "بخير" أو شر.

كما أن عباس العقاد، وخاصة في إسلامياته، وقف وسطاً بين الخير والشر الصريح، ففي الوقت الذي تنكر فيه طه حسين لإبراهيم، عليه السلام، وكان إنكار طه حسين للخليل إبراهيم إنكار للقرآن الكريم كمصدر للمعرفة.. كانت هذه هي

القضية في الحقيقة، وكانت قضية تائرة في الساحة الفكرية وقتها.. ولا زالت. أعني قضية مصدر المعرفة: هل تصلح الكتب السماوية مصدرًا للمعرفة؟!

وجاء عباس العقاد لهذه القضية التائرة.. جاء وسطًا، فمن ناحية أثبت وجود الخليل ومن ناحية أخرى اتكئ على مصادر المعلومات الغربية، ولم يأت منتصرًا لكلام الله. بمعنى أنه انطلق من ذات المنطقة (الوثائق والشواهد المادية/ الأثرية كمصدر للمعرفة) وكأن القضية هي وجود الخليل إبراهيم من عدمه!! فكان وسطًا بين طه حسين وبين ما أنزل الله على محمد، صلى الله عليه وسلم.

وأنكر بعضهم رسالة محمد، صلى الله عليه وسلم، ووصفوه بأوصاف يعلمون هم قبل غيرهم كذبها، وجاء العقاد وتحدث عن محمد، صلى الله عليه وسلم، كعقبى وعى عن الله بعقبىته، لا كرسول أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وبهذا وقف وسطًا، فامتدحه الضالون المكذبون لنزعه وصف الرسالة، أو تقليده من تأثير الرسالة فيما كتب الله من إصلاح على يد رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، وامتدحه بعض الطيبين لأنه عظم النبي، صلى الله عليه وسلم، ولم يتناول عليه كما تناول غيره من النصارى وغلاة الملحدين.

والنتيجة: أن المواقف والأفكار المنترفة (كطه حسين عن الخليل إبراهيم) أدت إلى تمييز الأفكار الأقل تطرفًا (أفكار عباس العقاد). كأن التطرف في الأفكار والمواقف يُصنع عمدًا من أجل تمييز الأقل تطرفًا. كأن طه حسين جاء محللاً، أو مبرراً، أو ممرراً، لانحرافات عباس العقاد ليس إلا.

ولكم تأملت في حال بطرس ومرقص وهما يتحدثان بحديث شديد الغرابة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، والقرآن الكريم، والشعائر (كالحج) والناسخ والمنسوخ، وأقول: هل يصدقهما أحد؟ هل يظن أحدهما أن أحداً يصدقه ويؤمن بما يقول؟!

وتبين لي أن هذا الطرح المتطرف لا يراد لذاته، وإنما يراد لتميرير الطرح الأقل تطرفاً كأطروحة عباس العقاد التي تتحدث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كعقبري، وأطروح "جوزيف قزي" و"وول ديورانت" التي تتحدث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم كمصلح اجتماعي.

وإن المتدبر في حال الصراعات الفكرية وما يحدث بعدها من تحولات وتغيرات يجد أن التغيير يأتي غالباً من الوسط. يحدث الصراع بين طرفين، وحين يطول الصراع يخرج ثالث وسطاً بين الطرفين، وعامة الناس يميلون لمن يتوسط المشهد في الغالب، ولذا يستقر الوسط، ويكأن المتطرف يعمل فقط من أجل تمرير المتوسط بين الحق والباطل. وعلى سبيل المثال: اشتد الخلاف في مسألة الإيمان بين التابعين من ناحية والجهم وشيخه الجعد بن درهم ومن وافقهم من ناحية أخرى فجاء المعتزلة وأهل الكلام، واستقر مذهبهم إلى اليوم. واشتد الخلاف بين أتباع المسيح -عليه السلام- والثنيين فنبشوا عن (بولس) وأخرجوه من تحت ركام الأيام، واستقر بولس والمؤمنين ببولس.

فالساحة دائماً ثلاثية: طرفان ووسط. وقبل (أيام المعتزلة وبولس) كانت هذه الثلاثية تتكون بشكل تلقائي، والآن تصنع هذه الثلاثية عمدًا.. يخرجون من يتبنى طرفاً متطرفاً من أجل تمرير الأقل تطرفاً.

محمد جلال القصاص

ذوالقعدة 1443هـ

يونيو 2022م